ابراهيم حسن الأسطل

هكذا فلتكن الهمم

صفحاتٌ مشرقةٌ لجُهودٍ ضخمةٍ بُذلت، وأوقاتٍ هائلةٍ أنفِقت
في طلب العِلم والتحصيل والتأليف عند نوابغ المتأخرين



دار القلم
دمشق

هكذا
فلتكن الهمم

هكذا فلتكن الهمم

صفحاتٌ مشرقةٌ لجُهودٍ ضخمةٍ بُذلت، وأوقاتٍ هائلةٍ أنفِقت
في طلب العِلم والتحصيل والتأليف عند نوابغ المتأخرين

بقلم
إبراهيم حسن الأسطل

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى مَن تبعهم بإحسان من السلف والخلف إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فلا يُقاس رُقي الأمم والشعوب بالمال وما لديها من ثروات طبيعية، بل يقاس بالعلم، وما تملك من معارفَ وفنونٍ وآثار، ورجال تجعلها محلَّ فخر بين الأمم الماضية واللاحقة، وهذا أمر لا جدال فيه بين العقلاء.

وهذه العلوم والمعارف ما جاءت من فراغ، ولا هكذا، ولكنها كانت حصيلة جهود متواصلة تضافرت عليها أيدي رجال ثابروا، وجاهدوا، وضحَّوا، وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وسهروا الليالي، وقطعوا الفيافي...، وواصلوا، وما كَلُّوا، ولا مَلُّوا، حتى أينعت هذه العلوم شيئاً فشيئاً، من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى طبقة، وفي كل مرحلة، ترى نماذجَ فذَّة مبدعة تُضارِع مَن قبلها، وتترك جهوداً واضحة تنافس بها مَن بعدها.

وبهذه الجهود المضنية، وبتلك النجوم المشرقة، أقامت الأمم معارفها، وبَنَتْ مجدها، وتميزت على مَن قبلها ومَن بعدها، وستظل الجهود ضافية، وأيدي العلماء عاملة باذلة، من غير انقطاع، ما دامت الدنيا قائمة، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

ونحن أُمَّة الإسلام أكثر الأمم نضوجاً، وأوسعها معرفة، وذلك منذ بزغ فجر الإسلام وإلى يوم الناس هذا، ومكتبة الإسلام وعلومه، ومعارفه وآثاره، لا نظير لها في التاريخ بين الأمم.

جاء في كتاب «صبح الأعشى»(١) للعلَّامة أحمد بن علي القلقشندي: «واعلم أن الكتب المصنَّفة أكثر من أن تحصى، وأجلُّ من أن تُحصر، لا سيما الكتب المصنَّفة في الملَّة الإسلامية، فإنها لم يصنَّف مثلها في ملَّة من الملل، ولا قام بنظيرها أُمَّة من الأمم!».

وقال العلَّامة المغربي عبد الله كُنون في مقالة له بعنوان «نحن والتراث»(٢): «إن تراثنا عظيم وغني، فهو من أعظم التراث الإنساني وأغناه بلا جدال، ويقدِّر الخبراء في ميدان الحضارة والفكرِ التراثَ العلمي والأدبي العربي بما لا يقل عن ثلاثة ملايين (٣٠٠٠٠٠٠) من الكتب المخطوطة المحفوظة في مكتبات العالم!».

وهذه الثلاثة ملايين (٣٠٠٠٠٠٠) هي البقية الباقية من مكتبة الإسلام، بل الأقل الأقل كما يحدِّثنا العلَّامة علي الطنطاوي ـ كما في كتاب

(١) (٥٣٨/١).

(٢) المنشورة في «مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة» (٢٤٩/٥٨).

«فصول في الثقافــة والأدب»[١] ـ عن مكتبة الإســلام العظيمة بجوار ما تعرَّضت له مــن نكبات، فيقــول: «المكتبة الإســلامية هي عجيبة العجائب، ذهب جُلُّها ولم يبقَ منها إلا قُلُّها، وهذا الذي بقي هو الأقل الأقل! وهو على ذلك شــيء عظيــم!..»، وقال: هــذه المكتبة أصابتها المصائب وحاقت بها النكبــات؛ العامة الشــاملة، والخاصة المفردة، كنكبتها بالمغول لمَّا انحدر علينا سَــيلُهُم المدمِّر من أقصى الشــرق، فجرف في طريقه مظاهر العمران، وثمــار الفكر، حتى وصل إلى هذه المكتبة، فألقَوا ـ من جهلهم ـ كتبها فــي دجلة يمرون عليها يتخذونها جســراً! حتى نقلوا أن ماء دجلة حِيال الضِّفَّتين قد اسودَّ مسافات مما ذاب فيه من المِداد والحبر! بل من حصاد الأدمغة ونتاج العقول.

ولما دخل الإسبان الأندلس أحرقوا مكتباتها، حتى صار ليلها نهاراً مما صعد منها من اللهب. وحسبكم أن تعلموا أن واحدة من مكتبات قرطبة كانت فهارس دواوين الشعر فيها ـ كما يقول ابن خلدون ـ أربعة وأربعين دفتــراً كبيراً. فهارس دواوين الشــعر فقط! أحرقها الإســبان فأضاءت ليالي الأندلس[٢].

---

(١) (ص٩١، ٩٣، ٩٤).

(٢) قال العلَّامة عبد الحي الكتاني في كتابه «تاريخ المكتبات» (ص٦٥، ٦٦) ـ متحدِّثاً عن ما فعله الإســبان في مكتبة الدولة العربية في الأندلس مــن تحريق وإتلاف ونحوها ـ: «فسرعان ما عمل الإسبان في كتبهم ـ يعني في كتب المسلمين ـ ومكاتبهم ما لم يعمله (التتر) في بغداد ولا ماء دجلة بكتب دار الخلافة!. أتعلم أنهم أحرقوا لهم ما يزيد على مليون وخمسين ألف مجلد! جعلوها زينة وشعلة في يوم واحد! ثم رجعوا على تسعين مكتبة في الأندلس أتلفوا كلَّ ما عثروا عليه في كلِّ إقليم، كما سطَّر ذلك وشرحه هنري في «تاريخه». =

وما أحرق ـ بضيق ذهنه وعصبيَّته ـ ابنُ تاشـفين من كتب الفلسفة التي تخرج عن الفقه والتفسير والحديث غَيرةً منه على الدين، وزعماً أنها تُضعف إيمان المؤمنين، فذهب بآلاف من الكتب.

هذا عدا عمَّا أصابها من النكبات الفردية، من التحريق والتخريق والتمزيق والتغريق، **حتى لم يبقَ مـن هذه المكتبة إلا الأقل الأقل، وهذا الأقل لا تزل المطابع في الشـرق والغرب تطبع منه من مئتَي سـنة إلى الآن، ولم تطبع إلا بعض هذا القليل الذي بقي!**». انتهى كلام الطنطاوي.

قلت: كان الشـيخ الطنطـاوي غايةً في التواضـع حين وصف ما تبقَّى من مكتبة الإسـلام بـ: (الأقل الأقـل)!، وإلا فقد وجدْتُ العلَّامةَ عبد الحي الكتاني يصـف ما تبقى من هـذه المكتبة العظيمة بـ(فضلات الفضلات!) فقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابـه «تاريخ المكتبات»[1]: «.. ناهيك في شـأن مكاتب بغداد على آخر عهـد الدولـة العباسية أن صيَّرت ماء الدجلة فـي وقعة (التتر) إلى لـون المداد من كثرة ما صُبَّ فيها من الكتب حتى صارت الكتب قنطرة للعابرين، وعبرة فيما بعد للمعتبرين.

= نقل صاحب «المقتطف» عن المؤرِّخ الإسباني دربليس: أن ما أحرقه الإسبان من كتب الأندلس ألف وخمسمئة ألف مجلد، كلها خطَّتها أقلام العرب.. وفي «وفية الأسلاف» للمرجاني القازاني: أن أسـقف طليطلة وحـده أحرق من الكتب الإسـلامية العالية ما ينيف علـى ثمانين ألف كتاب!..» انتهـى كلام الكتاني، وقد ذكر مشـاهد أخرى وسيأتي نقل بعضها.

(١) (ص٤٥، ٤٧، ٤٨).

وقد قال الوليُّ ابن خلدون في «العبر»: استولَوا ـ يعني (التتر) ـ من قصور الخلافة وذخائرها، على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعدُّ، وأُلقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعاً في دجلة...

ثم قال الكتاني: فطامَّة (التتر) كانت مصيبة الكتب قبل أن تكون مصيبة الإسلام ودولة الخلافة، فهي أول طعنة قاتلة أصيب بها جنس الكتب، **لم يبق منها إلا فضلات الفضلات**! وأين هي الكتب التي يصف لنا ويذكر ابن النديم في «فهرسته»، والخطيب وابن النجار في تواريخ بغداد، والذهبي في طبقات القرَّاء والمحدِّثين والحفَّاظ، وأمثالهم، وأمثال أمثالهم؟ ذهبت بها الدجلة والفرات وأحرقتها حملة الجيوش الصليبية بالشام، ونهبها عسكرهم، وأحرق ما كان بالأندلس منها الإسبان!

وفي الوقت الذي كانت فيه خزائن الكتب ببغداد ومصر وطرابلس الشام على ما وصفنا وخزائن بني أمية بالأندلس..، كانت أوروبا أفقر الفقراء من الورق والكتب والتصانيف!.. أما المسلمون فكانوا في هذا الحين أغنى الأغنياء بالكتب والمكاتب..

ذكر الحافظ السخاوي في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التأريخ»: أنه لو حصل التصدي لجمع أسماء مَن كتب في السيرة النبوية ـ أسماء من كتب في السيرة فقط ـ لكان في عشرين مجلداً فأكثر، هذا في زمنه هو فكيف في زماننا نحن؟ وقال الحافظ السيوطي في كتابه «الدوران الفلكي في الردِّ على ابن الكركي»: لو جُمعت أسماء الكتب التي ألَّفها علماء الأُمَّة في ردٍّ بعضهم على

بعض لبلغت مجلدات!. قال الكتاني: فإذا كان هذا ما بلغته صناعة التأليف في باب واحد، وهو ردُّ العلمـاء بعضهم على بعض، فما ظنُّك بسائر أبواب العلوم؟

وقال: ولذلك أجمع الباحثون على أن الذي فُقِدَ من كتب المسلمين أكثر بكثير مما وُجِدَ أو حُفِظَ اسمُه. وكان أكثر المفقود بسبب وقعة (التتر)!». انتهى النقل عن الكتاني.

وقال المستشرق فيتشـخل ـ فيما ينقله عنه الشـيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «صفحـات من صبر العلمـاء»[١] ـ: «لقد كان في قرطبة وحدها حانوت لنسـخ الكتب، يسـتخدم أكثر من مئتين من الجواري في نقل المصنَّفات، لطلاب الكتب النادرة واستنسـاخها، وهذه ظاهرة لـم تُعرف بهذه المثابـة في أيِّ حضارة إنسـانية غير حضارة الإسـلام، وهي تؤكد على حقيقة: أنَّ المسـلمين أُمَّة قارئةٌ كاتبة، وأنَّ الإسلام دِينٌ يحثُّ معتنقيه على العلم والتحصيل، وتلك سِمةُ الحضارة وعلامة المتحضِّرين».

تأمَّل: أكثر من مئتين من الجواري يعملن في حانوت واحد فقط، وذلك لكتابة واستنساخ الكتب النادرة فقط!

هذا، وقد نالت ـ هـذه المكتبة العامرة بالعلوم ـ مـن الدقة والعناية والنضوج الغايةَ التي ليست بعدها غاية؛ حيث بذل علماء الإسلام طاقاتٍ هائلةً لا توصـف، وجهوداً جبارة لـم تعرف المسـتحيل ولا الصعاب،

---

(١) (ص ٢١٠).

وأعطَوا من أعمارهم وصحتهم وأموالهم.. ما لا يقدر على حصره، ولا إدراكه أحد إلّا الله، كل ذلك تفانياً في خدمة الإسلام، ورفعاً لرايته العلمية، خفّاقة عالية بين الأمم، بحيث لا تُضاهِيه راية، ولا تُسامِيه غاية.

بل لا يُعرف في التاريخ كلّه أُمّة ولا حضارة، بذل علماؤها شطر ولا عُشر ما بذله علماء المسلمين في تحصيل العلم وبناء المعرفة، حتى استأثر علماؤه بعلوم لا تُعرف إلا عنهم وحدهم.

فهذا «علم الرجال»، أعني علمَ «الجرح والتعديل»، الذي ليس لأمّة علمٌ مثله، هل عُرف في أُمّة من الأمم التي سبقت الإسلام، وهل أخذ علمٌ حقَّه من العناية ـ في الأمم كلّها ـ كما أخذه هذا العلم، حتى أُلِّفت فيه الآلاف من الكتب، في تأسيسه، وإنضاجه بهذه الصورة الراقية المشرقة، التي نراها اليوم؟

جاء في كتاب «أعلام المحدِّثين ومآثرهم العلمية»(١) للدكتور تقي الدين النَّدْوي: «وقد اعترف بهذه الحقيقة العلمية العظيمة طائفة من غير المسلمين والمستشرقون أيضاً. قال العالم الألماني المعروف الدكتور سبرنكر في مقدمته بالإنجليزية على كتاب «الإصابة» المطبوع في كلكته سنة (١٨٥٣ ـ ١٨٦٤م): لم تكن فيما مضى أُمّة من الأمم السابقة ـ كما أنها لا توجد الآن أُمّة من الأمم المعاصرة ـ أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر، الذي يتناول أحوال خمسمئة ألف رجل وشؤونهم».

---

(١) (٢/٢٢١).

حتى حفظ لنا علماؤنا بتدشين علم أسماء الرجال كلَّ ما قاله النبيُّ ﷺ، بل كلَّ إشارة أشار بها أو كلمة من كلماته ﷺ، بل كلَّ تفاصيل حياته وما يتعلق به وبعصره وأُمَّته من أمور وأحوال، كما قال الإمام ابن حزم الظاهري في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»[(١)]: «وهذا نقل خصَّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلِّها، وأبقاه عندهم غضَّاً جديداً على قديم الدهور منذ أربعمئة وخمسين عاماً ـ يعني حتى عهد ابن حزم ـ في المشرق والمغرب، والجنوب والشمال، يرحل في طلبه من لا يُحصي عددَهم إلا خالقهم، إلى الآفاق البعيدة، ويواظب على تقييده، مَن كان من الناقل قريباً منه، قد تولَّى الله تعالى حفظه عليهم، والحمد لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلَّة في كلمة فما فوقها في شيء من النقل إن وقعت لأحدهم، ولا يمكن لفاسق أن يُقحِم فيه كلمة موضوعة، ولله تعالى الشكر».

وهذه الصورة ـ التي ذكرناها في علم الرجال ـ تنسحب على كل علم اعتنى به علماء المسلمين، وبذلوا فيه جهدهم، حتى إنه ليَرُوعُك وأنت تقرأ في كتب الرجال، والطبقات، والتاريخ، في تراجم أناس ألقَوا بأنفسهم إلى الموت والمهالك، في سبيل تحصيل العلم، ولُقي الشيوخ، والسماع منهم، حتى ترى رجالاً باعوا كلَّ ما يملكون، حتى بيوتهم التي تأويهم، بل وملابسهم التي تسترهم، تخلَّوا عنها لأجل أن يحصِّلوا العلم، ويقتنوا الكتب، وترى آخرين طوَّفوا الدنيا على أقدامهم، لأجل العلم، وتاهوا في الصحاري والفيافي، والغابات، وجاعوا، وعطشوا،

---

(١) (ص ٤٥، ٤٧، ٤٨).

لأجل ألَّا يفوتهم الدرس، ومنهم مَنْ قتلته الكتب، ومنهم من فقد بصره وأطرافه، وحتى ساعات الموت على شدتها ومرارتها، مارسوا العلم ودوَّنوه.. فلم يعرفوا التنازلات أبداً، ولا المستحيل معها، ولم تخمد لهم همة، ولم تفتر لهم عزيمة، ووالله لو أرادوا بهمتهم أن يزيحوا الجبال لأزاحوها، ولو أرادوا بعزائمهم، أن ينقلوا ماء البحار بالدِّلاء لفعلوا!! فللَّه درُّهم ما أغلى العلم في صدورهم.

وهذه الحالة العجيبة الغريبة ـ التي رأيتها ـ لم يستأثر بها جيل دون جيل، بل هي منشورة في كل عصور الإسلام وقرونه، وفي كل الطبقات تجد الغريب المحيِّر من أخبارهم التي تشهد بعظمتهم في طلب العلم، وتصنيف الكتب، وهي أحوال مدهشة، تعجز الأقلام والمحابر أن تسجل ما لها في النفس من إعجاب وتقدير.

ثم قل لي بربِّك: هل قرأت أمثال هذا في أُمَّة من الأمم، وهل سجَّل التاريخ أخباراً كهذه لغير المسلمين؟ فإذا وجدت فهي لُمامة!

فحُقَّ لنا أن نفخر بعلومنا الناضجة اليانعة، وأن تنشرح صدورنا لجهود علمائنا الهائلة والضخمة، والتي تستحق أن تدوَّن بماء الذهب، بل بماء العيون.

وما قدَّمته لك عبارة عن صورة صغيرة جدًّا من أصل سِجِلٍّ طويل حافل، سَجَّل منه الشيخ الإمام عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الماتع النفيس «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» سجَّل صوراً مشرقة مشرِّفة.

وإن كنتُ ناصحاً، فأنصح القارئ الكريم، وكلَّ طالب علم، أن يقرأ ذلك الكتاب، وأَعِدُ القارئ أنه إذا أخذ في قراءته، فلن يرفع بصره عنه، إلا وقد قرأه كلَّه، هذا إذا استطاع ـ ولن يستطيع ـ أن يحبس العبرات، كما قال العلَّامة الفقيه مصطفى الزرقا حين قرأ الكتاب: «قرأتُ بشغف ووَلَهٍ كتابَك عن صبر العلماء من السلف..، وكرَّرت قراءة كثير مما جاء فيه عن كثير منهم، فما استطعت أن أحبس دمعتي في مواطنَ منه!»(١).

وقد كنت قرأت هذا الكتـــاب، كلمة كلمة، بتمعُّن وطول نظر، وقد شـــدَّني ـ وبقوة ـ إلى أخباره العجيبة، وآثاره الغريبة، التي عملَتْ فيَّ ما عملت من العزة والعظمة!..، وكنت أكرر النظر فيه مرة بعد مرة.

هذا، وأثنـــاء مطالعاتي ومراجعاتي في كتـــب التراجم، والطبقات، وسير الرجال والنوابغ، كنت أقف على نوادرَ متمِّمة، وحكايات مكمِّلة، لما كتبه الإمام عبد الفتاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه هذا، وبعد مرور الزمن، أصبح لدي حصيلة لا بـــأس بها، رأيت من المناســـب إضافتها، على ما كتبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صفحاته»، ورسمت لذلك مسارين:

الأول: إما أن أحشِّيَها أو أذيِّلَها على «صفحات» الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وذلك تتميماً للفائدة.

وإما ـ **وهو المسار الثاني** ـ: أن أُفرِدها في كتابٍ برأسه.

فرجَّحت المسار الثاني على الأول؛ لأن الأخبار التي وقفت عليها، قد يكون الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد وقف عليها، ثم فوَّتها قصداً وهو الغالب. وقد يكون

(١) من تقريظه لكتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» (ص١١).

فاته بعضها، عن غير قصد منه، وهذا قليل نادر؛ لأن الذي عرف الشيخ، وخَبِرَه كيف يقرأ، وكيف يفلّي ما يقرأ فَلْياً، يجزم بحقيقة ما أقول.

ثم إنَّ العمل وَفق منهج الشــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الذي ارتضاه لنفســه، ومشى عليه في ســائر مؤلَّفاته؛ من حيث الدِّقة، والإحاطة، والضبط، وبلاغة البيان، وبراعة الأســلوب، هو أمر شــاقٌ على مثلي وعسير، ولا يقدر عليه إلا الطبقة العليا من فحول العلماء!

ثمَّ أنَّى لي ذلــك النَّفَس الذي كتب به الشــيخ «صفحاته»، نَفَسُ العاشــق المفتون بحبِّ العلم وأهله، حتى إنك لتشــعر إحساســه، وروحه، ومشــاعره، ووجدانه، هــي التي كانت تمدُّ القلــم بالمِداد، فيكتب ما تفيض به عليه.. وهذا أمر فوق قدرتي، لذلك أعْرَضْتُ عن المسار الأول جملةً وتفصيلاً.

ثم بانَ لي، أنَّ في إخراجها بهذه الصورة ـ أي في كتاب مســتقل ـ تكرار لما كَتَبه الشــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صفحاته»، من حيث الغاية من جهة، ومن حيث الفكرة والمضمون من جهة أخرى، وهذا ما لا أُريد.

أما الغايــة فهي: الترغيب والحث على طلــب، العلم والصبر على شدائده، وأما الفكرة فهي: جمع أخبار العلماء منذ فجر الإسلام، وحتى العصور المتأخِّرة، فأحاط بالعصور كلِّها، وخاصة القرون الأُولى.

فــإذا ما كتبت ذلــك وأفردته فــي كتــاب، كان تكراراً لمــا كتبه الشــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ . فيصبح الكتاب حشــواً زائداً، لا قيمة له في ظلِّ وجود الأصل، وهو «صفحات» الشيخ. فيفقد الكتاب الفائدة المرجوَّة منه.

لذلك أعرضت عن هذا المســـار جملةً أيضاً، ووجَّهت جهدي إلى مسار ثالث ومغاير لما صار عليه الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وهو: أن أعتنيَ بجمع ما يتعلق بنبوغ علماء العصر (ابتداءً بمطلع القرن الرابع عشر (١٣٠٠هـ) وحتى يومنا هذا) في كتاب يجمع بعض جهودهم ونبوغهم - لا كلَّه - بحيث يكون هذا الكتاب، قد احتوى في بطنه، وبين أحشـــائه، صورة مشــرقة، وصفحة بيضاء، تعكس قيمة الجهود الجبَّـارة، والتضحيات الهائلة، التــي بذلها علمـاء عصرنا ونبغـاء دهرنا، في طلـب العلم والتحصيل والتأليف، فيدرك القارئ قَدْرَهم، ويعرف لهم فضلهم، بل ويحفِّزُه ذلك إلى الجِدِّ والدَّأَبِ والتحصيل.

وبهذا أكون قد اتفقت مع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الغاية وهي (الحث على طلب العلم، والصبر على شدائده)، وافترقت عنه من حيث المضمون، الذي قصرته علــى القرنين؛ الرابع عشــر، والخامس عشــر. بخلاف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد أحاط جهدُه بالعصور كلِّها، كما تقدَّم بيانه، وركَّزه في الصبر على تحمُّل الشدائد.

هذا، وعلــى القارئ الكريــم أن يعذرني فيما قصَّــرت أو فرَّطت، وذلك لقلة المصادر، وندرة المراجع التي بين يدي في (غزة) عجَّل الله فكاكَ حصارها.

ومع هذا فقد شرعت في جمع المادة العلمية، وتدوين الأخبار، من بطون الكتب والأسفار..، حتى انتهيت إلى جمع كتابي هذا. وسمَّيته:

«هكذا فلتكن الهمم».

وقد نشرت موادَّه في أربعة عشر فصلاً وهي:

- **الفصل الأول**: في همَّتهم في محبَّة العلم، وغرامهم به.
- **الفصل الثاني**: في همَّتهم في الجَلَد والمثابرة، واســتثمار الأوقات في طلب العلم.
- **الفصل الثالث**: في همَّتهم في المداومة على المطالعة الدَّؤوبة.
- **الفصل الرابع**: في همَّتهم في مصاحبة الشيخ.
- **الفصل الخامس**: في همَّتهم في تعدُّد فنونهم، ومعارفهم.
- **الفصل السادس**: في همَّتهم في قوة الحافظة، وغزارة المحفوظ.
- **الفصل السابع**: في همَّتهم في كثرة الدروس العلمية، وأعمالهم اليومية.
- **الفصل الثامن**: في همَّتهم في الرحلــة، والتَّطواف في طلب العلم، وجمع الكتب والمخطوطات.
- **الفصل التاسع**: في همَّتهم في اقتناء الكتب، وبذل أغلى الأثمان في شرائها، والتحسُّر لأجل إهمالها أو ضياعها.
- **الفصل العاشر**: في همَّتهم في مصاحبة الكتاب.
- **الفصل الحادي عشر**: في همَّتهم في قراءة وإقراء الكتاب الواحد مرة بعد مرة.
- **الفصل الثاني عشر**: في همَّتهم في غــزارة إنتاجهم الضخم، وعِظَمِ مؤلَّفاتهم.

- **الفصل الثالث عشر**: في همَّتهم في تآليفَ أَخذت جهداً كبيراً، وسنين طويلة، من أصحابها في تصنيفها.
- **الفصل الرابع عشر**: في همَّتهم في مذاكرة العلم، في المرض الشديد، وعند لحظات النَّزْع.

وسِرت في خطته التي رسمتها على النحو الآتي:

١ ـ التزمت في تدوين هذه الصفحات على قراءة وتدوين سِيَرِ مَنْ مات من علماء القرن الرابع عشر، وأعلام القرن الخامس عشر، دون غيرهما. ولم أقصد الإحاطة بكلِّ مَنْ عاش فيهما من أعلام.

٢ ـ اعتمدت في نقل الخبر على عبارة المصدر ولفظه؛ وذلك لمزيد الثقة في الخبر، وهذا غالباً. وقد أعمد إلى الاختصار والتصرُّف أحياناً كثيرة، وقد أعمد نادراً ـ بعد القراءة والنظر ـ إلى تلخيص الخبر بقلمي، دون نقل النصِّ عن الأصل.

٣ ـ التزمت عزوَ كلِّ خبر أو جملة، بل كلِّ كلمة إلى قائلها، مع تسمية المصدر، وتعيين الجزء والصفحة، أداءً للأمانة، وتمتيناً للثقة بالمنقول.

٤ ـ لم ألتزم ذكر أخبار العَلَمِ في موضع واحد؛ تميُّزاً عن نهج أهل التراجم والسِّير، بل نشرت أخباره حسب موضع المناسبة، فقد تجد ذِكْرَ العَلَمِ الواحد في أكثر من موضع، فتجد خبراً له في (باب: الرحلة)، وآخر في (باب: الحفظ)، أو في (باب: القراءة)...، وهكذا.

٥ ـ حرصت على ذكر سنة ولادة العَلَمِ مع ذكر سنة وفاته؛ ليقف القارئ على شيوخ المترجَم له الذين أخذ عنهم، وتلاميذه الذين أخذوا عنه، وليرتبط ذهن القارئ بأطوار حياة العَلَمِ ونبوغه، وبالعوامل التي أثَّرت في حياته العلمية.

٦ ـ وقد يشدُّني جمال الخبر، فأعلِّق عليه بما لا أستطيع الصبر معه، فأكتب ما جال في الخاطر، وأفاض به القلم، وقد أترك ذلك للقارئ ـ وهو الغالب ـ ليقرأ الخبرَ، ثم يهضمه ويتذوَّقه بطريقته، وإلا فالأخبار ناطقة بذاتها لا تحتاج إلى شرح وبيان، ولا إلى تعليق أو تحليل.

٧ ـ وأوردت ذكر المصدر في المتن مع الخبر، لا في الحاشية، وهي طريقة الشيخ عبد الفتاح أبي غدَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبيان فائدة ذلك ـ كما يقول ـ: «لأن تسمية المصدر عند النقل منه تُعطي التقويم للنصِّ والثقة به..».

٨ ـ ورقَّمت الأخبار لا للتعْدَاد والإحصاء لكنْ بقصد أن تَدُلَّ الأرقام على بداية الخبر اللاحق، ونهاية أخيه السابق. وفي هذا أيضاً: زيادة ضبط ونظام، وجودة ترتيب وإخراج.

٩ ـ وإذا كان بين يديَّ للعَلَمِ ترجمة حاوية جامعة مستقلة برأسها في كتاب، أكتفي بها، وإن كانت متأخرة عن غيرها، فلا أُثقل الهوامش بكثرة المصادر، حتى وإن جاء فيها ما جاء في غيرها..، إلا إذا كان المصدر الآخر فيه فائدة جديدة ليست في الأول، فأذكره وإلا فلا. وشاهدُ هذا ما جاء في خبر العلَّامة محمود شاكر، فقد جاءت له ترجمة في «تتمة الأعلام»، و«ذيول الأعلام»، وغيرهما، ثم جاءت له

ترجمة نفيسة بقلم تلميذه العلَّامة محمود الطناحي، فهنا أقدِّم مصدر الطناحي، ولا أذكر غيره، إلا إذا كان ثمة فائدة جديدة في غيره فأذكرها..، وهكذا.

١٠ ـ ذكرت رجالاً لهم سقطات، وزلّات خطيرة، توجب الوقوف عندها كثيراً، ولكن هذا لا يمنع أن أسلِّط مِداد قلمي على الجانب المضيء من حياة هؤلاء، خاصة ونحن نتحدَّث عن الهمم، وهي عطايا من الله يوزعها على خلقه، المسلم وغير المسلم، الصالح وغير الصالح..، فيُبدع أيَّما إبداع، حتى يحقق نبوغاً عجيباً، فكان علينا أن نُثبت أفضل ما عنده، فنسجِّله ونتعلَّمه.

وأسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأدعوه سبحانه أن ينفع به المسلمين، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلَّم وبارك.

وكتبه

إبراهيم حسن الأسطل

غزة ـ فلسطين، ١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م

❋ ❋ ❋

فضل الله في الأوائل والأواخر

لله سبحانه في خلقه آيات باهرة وآلاء ساحرة، يوزعها سبحانه بعدله بين عباده، فينشــر في العصور الحاضرة والقادمة ما نشــره في القرون الأُولى الغابرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

حتى رأينا رأي العين، بعض هــذه الآيات العجيبة، في رجال من عصرنا، سمعنا منهم وعنهم، ما يُدهش ويُطرب، لسعة ما أنعم الله ســبحانه عليهم، من العلوم، والإحاطة، وقــوة الحفظ وحدَّة الذِّهن، إلى جوار علوِّ النفس والهمــة، وغزارة الإنتاج والتأليف، ما يشهد بصدق ما يُحكى عن السلف في كتب الطبقات والرجال! حتى لكأننــا نظــنُّ ونحــن ننظر إليهم، ونســمع منهم، أننا قد قطعنا عصوراً بأكملها، وأدمجنــا قــروناً في قــرون، حتى اجتمعنا بأنــاس من السلف الأَوَّل، نســمع إليهم، ونجلس بين أيديهم..، والحقيقة أنهم أناس من عصرنا، ولكن لقوة أوجه الشَّبــه، وتعدُّد النِّعَم، بتْنا لا نفرِّق بين هذا وذاك، وكأن الأول والآخِر، والسابق واللاحق، قد انتهيا معاً أمام أعيننا وبين أظهرنا، نســمع من هذا وذاك ما يُذهل ويُفرح!

فإذا ما تأمَّلنا فيما أُثر لنا، عن قوة الحافظة، وحدَّة الذِّهن، لكثير من رجــال العهــود المندثرة، كما هــو مذكور في كتــب الرجال، والطبقــات، والتاريخ، عن أمثال الحســن البصــري (ت: ١١٠هـ)، والشــافعي (ت: ٢٠٤هـ)، وأحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، والبخاري (ت: ٢٥٦هـ)، وغيرهم، فقد وقفنا في عصرنا هذا على مَنْ غيَّب في صدره الصحاح، والسنن، والمعاجم، وكثيراً من المتون، وشروحها، ودواوين الشعر العربي كلِّه، وحتى قواميس اللغة الكبيرة، فقد كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، كما يحفظ أحدنا ســورة الفاتحة! وربما حفظوا ذلك من مرَّة واحدة لا ثانية لها! بما لا يُصدَّق! على ما هو معهود عن السلف! وهذا وجدناه في ترجمة الإبراهيمي (ت: ١٣٨٥هـ)، والكشــميري (ت: ١٣٥٢هـ)، وأبي شــعيب الدُّكالي (ت: ١٣٥٦هـ)، والكتَّاني (ت: ١٣٢٧هـ)، وغيرهم.

يقول العلَّامة محمد يوســف البَنُّــوري (ت: ١٣٩٧هـ) في وصف حافظة شيخه الإمام محمد أنور شــاه الكشميري (ت: ١٣٥٢هـ) ـ كما جاء في «نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور»[1] ـ: «.. فآثره الله بالقريحة الوقَّادة ما خلت القرون عن أمثالها، وأردفه بقوة الحافظة ما بلغ غاية ليس دونها غاية، حتى عَلمنا عِلم يقين، صِحة ما أُثِرَ لنا، من قوة الحافظة للمحدِّثين، وســائر السلف الصالح في العهد الغابر، في كتب الطبقات، والرجال، والتاريخ، بل كأنَّنا رأيناهم رأي العين، فلم تَبْقَ لنا ريبــة، ولا خطرة من الوَهْم، فقد أبــدى الصريح لنا عن

---

(١) (ص ٢٦).

الرَّغْوَة..»، سمعت حضرة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: إذا طالعت كتاباً مرتجلاً، ولم أُرِدْ ادِّخارَ مباحثه، يبقى في حفظي إلى نحو خمس عشرة سنة!» ثم ذكر أمثلة أخرى.

وإذا نظرت إلى ما أُثر عنهم، من غزارة الإنتاج، وكثرة التصانيف، كما هو مذكور في ترجمة الإمام المفسِّر ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، والحافظ ابن الجوزي (ت: ٥٩٨هـ)، وغيرهما. ففي عهدنا هذا، وقفنا على من يُضارِعهم في غزارة الإنتاج والتأليف، حتى بلغت مؤلَّفات العلَّامة التهانوني (ت: ١٣٦٢هـ) الألف كتاب، وكذا هي الثروة القلمية للعلَّامة محمد عبد المنعم خفاجي (ت: ١٤٢٧هـ)، وشكيب أرسلان (ت: ١٣٦٦هـ)، وصدِّيق حسن خان القنوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، وغيرهم.

يقول العلَّامة محمد رجب البيومي في وصف غزارة ما أنتجه قلم أمير البيان شكيب أرسلان (ت: ١٣٦٦هـ) ـ كما في كتابه «النهضة الإسلامية»(١) ـ: «كنتُ أقرأ عن كثرة مؤلَّفات محمد بن جرير الطبري، وأبي الفرج ابن الجوزي، وجلال الدين السيوطي، ما يدهش ويروع، حتى عَنَّ لي أن أتَّهم الرَّاوين بالتَّزيُّد والإغراق، ثم طالعت حياة الأمير شَكيب، فوجدته في مدى ستين عاماً، لم يترك يوماً واحداً دون تحرير.. أو كتابة.. حتى اكتمل له من ذلك كلِّه، ما يزيد عن (٥٠٠) خمسمئة مجلَّد!.. وهي على كثرتها المشرِّفة، ليست غير صبابة من كأس تمتلئ وتفيض! إن من يقف على آثار الأمير القلمية وحدها، لا يُدهشه أن يسمع عن ابن جرير، والسيوطي، وابن الجوزي ما سمع!! بل إن

---

(١) (١٨٧/١).

القياس مع الفـارق الكبير؛ لأن هؤلاء الأعلام كانـوا يُلقون العلم في حلقات الدَّرس، فينقلـه الطلَّاب معزوّاً إليهم، دون أن يتكلَّفوا مشـقة التحرير في بعض ما يُنسـب إليهم من تصانيف! أما شـكيب فيكتب ويُملي كلَّ ما يصدر عنه!».

وإذا قرأنا في كتب التاريخ، والطبقات، عـن جَلَدِهم العجيب في الطلب، والتحصيل، وما بذلوا في ذلك من كدٍّ، وتعب، وسهر الليالي، في القراءة والمطالعة، حتى مطلع الفجر، وإلى شـروق الشمس، إلى غير ذلك. فقد وقفنا في عصرنا هذا، على رجال لا يقلُّون عنهم جهداً، ولا رتبـة، فقد ثابـروا وجاهدوا وكـدُّوا وتعبـوا وسـهروا الليالي.. وما ضجروا وما سـئموا. حتى قرأنـا في ترجمة العلَّامـة أحمد رافع الطهطاوي (ت: ١٣٥٥هـ) أنه كان لا ينام إلا بعد شروق الشمس، وظلَّ هكذا عشـرات السـنين! وقرأنا في ترجمـة العلَّامـة أحمد بن علي الإسكندري (ت: ١٣٥٧هـ)، أنه كان يقضي أكثر من خمس عشرة ساعة أو أكثر في اليوم الواحد، وهو يقـرأ ويبحث ويؤلِّف، وقد مارس ذلك سنين طويلة!..، وغيرهما.

وإذا كنَّا نقرأ عن الأديب الجاحـظ (ت: ٢٥٥هـ) وغيره، أنه قرأ كل ما وصل إلى يده من كتب، فقد وقفنا في عصرنا هذا، على مَنْ قرأ أكثر من سـتين ألف كتاب!، كما هو مذكور في ترجمة الفيلسوف الأديب عباس العقَّاد (ت: ١٣٨٤هـ)، بل مَنْ قرأ خزائن بأكملها لا خزانة واحدة! على ما جاء في ترجمة العلَّامة جمال الدين القاسـمي (ت: ١٣٣٢هـ)، والعلَّامة خليل الخالدي (ت: ١٣٦٠هـ)، وغيرهما.

وإذا روي لنا عن بعضهم أنه أنفق أموالاً طائلة في اقتناء الكتب، فقد قرأنا في تراجم المعاصرين من باع بيته ليقتنيَ كتاباً واحداً! على ما جاء في ترجمة العلَّامة الفقيه الحنفي محمد نعيم اللكنوي (ت: ١٣١٨هـ)، ومَن اشترى الكتاب بوزنه ذهباً كما نُقل مثل هذا عن العلَّامة أحمد تيمور (ت: ١٣٤٨هـ)، ومَن باع عِزْبَةً بأكملها ليطبع كتاباً واحداً! كما فعل العلَّامة الفقيه الشافعي أحمد بك الحسيني (ت: ١٣٣١هـ) مع كتاب «الأم» للإمام الشافعي، ومَن أنفق عشرين عاماً من عمره حتى طاف خزائن الدنيا! وهو يجمع أجزاء كتاب واحد! كما وقع ذلك من العلَّامة أحمد زكي باشا (ت: ١٣٥٣هـ) مع كتاب «نهاية الأرب»!

وإذا أُثر لنا عن جماعة منهم أنه قضى في تأليف بعض كتبه سنين طويلة!، فلقد وقفنا في قرننا هذا على مَنْ ظل أكثر من أربعين عاماً، وقد تَربو إلى الستين عاماً، وهو يؤلِّف كتاباً واحداً لا نظير له، كما في ترجمة العلَّامة المؤرِّخ خير الدين الزِّركلي (ت: ١٣٩٦هـ)، الذي قضى أكثر من ستين عاماً في تأليف كتابه العظيم «الأعلام». وأنفق العلَّامة الطاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٤هـ) أربعين عاماً، وهو يؤلِّف في تفسيره النفيس «التحرير والتنوير»، وغيرهما.

ولقد وقفنا في عصرنا هذا أيضاً، على مَن يحيط معرفة بأكثر من ثلاثين علماً! حيث يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، كما جاء في ترجمة العلَّامة محمد بن عبد الكبير الكتاني (ت: ١٣٢٧هـ)، حتى قيل عنه: إنه لا يوجد علم إلا ويعرفه! ومثله العلَّامة الشامي محمد أمين سويد (ت: ١٣٥٥هـ)، وغيرهما.

وإذا أُثـر عن الإمـام أحمد بـن حنبـل (ت: ٢٤١هـ) وابـن مَنْدَه (ت: ٣٩٥هـ) وغيرهما، أنهم طافوا الدنيا في طلب العلم![1]، فقد وقفنا في عصرنـا هذا أيضاً، على أنـاس طوَّفـوا الأرض، طولها والعرض، الشرق والغرب، حتى دخلوا مدنها مدينة مدينة وقرية قرية، يفتشون في خزائنها ويبحثون بيـن آثارها النادرة، على ما هو مبسـوط في ترجمة العلَّامة خليـل الخالدي (ت: ١٣٦٠هـ)، وشـيخ العروبة العلَّامة أحمد زكي باشا (ت: ١٣٥٣هـ)، وغيرهما.

وإذا كانت بحور الشـعر والقوافي قد لانَت لأبـي الطيب المتنبي (ت: ٣٥٤هـ)، وأبـي تمـام (ت: ٢٣١هـ)، والبُحتـري (ت: ٢٨٤هـ)، وغيرهم من العهود الغابرة. فعند الأواخر قد خضعت أعناقها وسلَّمت مقادها عن طواعيـة لشـوقي (ت: ١٣٥١هـ)، وحافـظ (ت: ١٣٥١هـ)، والبارودي (ت: ١٣٢٢هـ)، وغيرهم، وقالت ـ بحور الشعر والقوافي ـ: بل أتينا طائعين. فلمَّا أمسكوا بالمقاد، وتمكَّنوا من الزمام، وقفوا أمام عباقرة القوافي، وأفذاذ الشعر والسِّـحر الحلال، في أَوْجِ قوته، وأزهى

---

(١) وهذا فيه نظر؛ لأنه قد يقال: هل طافـوا (الأمريكيتين) ـ مثلاً ـ؟ وكيف؟ وقد كان عهد اكتشافهما لا يزيد عن خمسـة قرون! وهل وَلَجُوا (أفريقيا السوداء) في قلب الصحراء وأقاصي تلك البلاد الممحلة؟ وهل دخلوا (أسـتراليا واليابان) في وسـط المحيطات والبحار؟ وهل دخلوا (الصين والكوريتين وفيتنام)..، وغيرها، والصحيح أن هذا الكلام يحمل على الأمصار التي امتدَّت إليها دعوة الإسلام، بحيث لا تغيب عنها الشمس، وإذا ما دخلها العلماء ورأَوا البحر من أمامهم والصحاري والفيافي مِن حولهم ظنُّوا أنهم قد طافوا الدنيا لذلك وأحاطوا بها! وقد صدقوا! وذلك على قَـدْرِ معرفتهم، وإلا فهم في الحقيقة لم يتجاوزوا سـوى البطـاح المجهولة التـي دخلها الإسـلام ووطأتها أقدام الفاتحين. والله أعلم.

عصوره، النَّد بالنِّد، والنظير للنظير.. فوقـف البارودي أمام أبي تمام، كما وقف حافظ أمام البحتري..، ثم تُرِكَ أبو الطيب المتنبي يَتَصدَّى له ويصاوله شوقي أمير الشـعراء، الذي قال عنه النُّقَّـاد: إنه أعظم شاعر في تاريخ العرب بعد أبي الطيب المتنبي!. وقـد أعلن حافظ إبراهيم البيعة باسمه واسم شعراء عصره فقال:

أميرَ القوافـي قد أتيـتُ مبايِعاً وهَذي وُفودُ الشرق قد بايعت معي[1]

ولهذا قال أمير القلم والبيان شكيب أرسلان في كتابه «شوقي»[2]: «في هذا الكتاب فصل تعلم منه أنني شبَّهت شـوقي بالمتنبي في دقة معانيه وكثرة أبياته الجارية مجرى الأمثال، وشبَّهت البارودي بأبي تمام في علوِّ نفسه وفحولة نظمه، وشبَّهت حافظ إبراهيم بأبي عبادة البحتري في طلاوته وانسجامه!».

ثم يقول شكيب أرسلان عند ذكر البارودي[3]: «وكنا نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين في الشـعر، ونؤثر شـعر الجاهلية، والمخضرمين، والبطن الأَول من المولودين، على شـعر أهـل الأعْصُر الأخيرة، مهما حَلَت نكاتهم، وكثرت الأنواع البديعية في أشـعارهم، ولم نكن نجهل علم البديع، ولا كان يفوتنا شـيء مما في خِزانة ابن حِجَّة [الحَمَوي، المتوفَّى سـنة ٨٣٧هـ]، ولكن ذلك كله كان عندنا لَعِباً ولَهْواً بالقياس إلى المعلَّقات السبع، وشعر النابغة، والأعشى، ثم شعر الأخطل وجرير

(١) «شوقي شاعر العصر الحديث» للأستاذ شوقي ضيف (ص٣٧).
(٢) (ص١٣).
(٣) «شوقي أو صداقة أربعين سنة» (ص٩١ ـ ١٠١).

والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة، ثم شعر أبي العتاهية وأبي نواس وبشار ومسلم بن الوليد ومروان بن أبي حفصة وأبي تمام والبحتري وطبقتهم.

فلما قرأنا شعر محمود سامي سَكِرْنا بأدبه، ورقصنا على قصبه، وبعث لنا نشـأة روحية لم نعهدها في أنفسـنا من قبل أنْ عرفناه، وعلمنا أن في المعاصرين مَنْ قَدِرَ أنْ يُضارِعَ الأولين، وأن يُسامي بنَفَسِه أنفاسهم!

وكنا من قبل محمود سامي البارودي، نظنُّ الأوَّلين غاية لا تدرك، وأنهم إذا قُرِنَ بهم المتأخِّرون، أو المعاصرون، كان أولئك هم السماء، وهؤلاء هم الأرض. وبقـي فينا هـذا الاعتقاد، إلى أن ظفرنا بشـعر محمود سامي.. فلم نكن لشدَّة إعجابنا بها نخرم منها بيتاً واحداً.. بل كنا نشعر ـ إذ ذاك ـ بحاسـة طرب، تهتز لها جوارحنا كلما روينا شعر البارودي!». وكان قد قال قبلها: «فأتى بالشعر الفحل، الذي يَعْيَ على الأوائل فضلاً عن الأواخر!».

وهذا العَـذْب النَّمِير الذي أُثر لنا عن السـلف، قـد وجدنا له في عصرنا هذا أمثلة، ونظائرَ في كل باب، بـل وفي كل فصل من فصول العلم والمعرفة.

وهذا ما لو لم نره عِياناً في مثل هؤلاء، لـم يكن لنا بما يُذْكَرُ عن السـلف سـبيلٌ إلى التصديق، لكن جاء العِيانُ فألْوى بالأسانيد، كما يقول العلَّامة عبد الرحمن السقَّاف[1].

رَأَيتُ مَجْداً عِياناً في بني أُدَدٍ   إذ مَجْدُ كُلِّ قَبيلٍ غيرِهِمْ خَبَرُ

---

(١) كما في كتابه «إدامُ القوت» (ص ٦٨٨).

بل بتنا نؤمن بصــدق المقولة التي تقول: في الرجــال بقايا، وفي الزوايا خبايا، ولن تخلــوَ الأرض من قائم لله بحجــة، ونحوها. حتى رأيناها رأي العين حقيقة ماثلة أمام أعيننا بما لا تدع مجالاً للشك ـ كما يجيء في هذه السطور إن شاء الله تعالى ـ.

وإني وإن كنت الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

يقول العلَّامة أحمد بن أحمد البرنسي المغربي المشهور (بزرُّوق) (ت: ٨٩٩هـ) في كتابه «قواعــد التصوُّف»[١]: «إذا حُقِّــق أصل العلم، وعُرفت موادُّه، وجَرَت فروعُــه، ولاحت أصولُه، كان الفهم فيه مبذولاً بين أهلــه. فليس المتقدِّم فيــه بأَوْلى من المتأخِّر ولــو كان له فضيلة السَّبْق. فالعلم حاكم، ونظر المتأخِّر أتمُّ؛ لأنه زائد على المتقدِّم، والفتح من الله مأمول مــن كل أحد. ولله درُّ ابن مالــك رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: وإذا كانت العلومُ مِنَحاً إلٰهية، ومواهبَ اختصاصيةً فغيرُ مســتبعَدٍ أن يُدَّخَر لبعض المتأخِّرين ما عَسُرَ على كثيرٍ من المتقدِّمين. أعاذنا الله من حسدٍ يسدُّ بابَ الإنصاف ويصدُّ عن جميل الأوصاف!».

وقول ابن مالك هــذا نقله العلَّامــة المحدِّث اللغــويُّ المرتضى الزَّبِيــديُّ (ت: ١٢٠٥هـ)، وعلــى أثــره عقَّــب ـ كما في كتابــه «تاج العروس»[٢] ـ: «والمعنى أنَّ تَقدُّم الزمان وتأخُّرَه ليســت له فضيلةٌ في نفسه؛ لأن الأزمانَ كلَّها متساوية، وإنما المعتَبر الرجالُ الموجودون في تلك الأزمان، فالمُصِيبُ في رأيه ونقلِه ونقدِه لا يضرُّه تأخُّرُ زمانِه الذي

---

(١) (ص ٥٣).

(٢) (٩٣/١).

أظهره اللهُ فيه، والمخطئ الفاسـدُ الرأيِ الفاسـدُ الفهمِ لا ينفعه تقدُّم زمانِه، وإنمـا المُعاصرة ـ كما قيل ـ حِجـابٌ، والتقليد المَحْضُ وبالٌ على صاحبه وعذاب. أنشدنا شيخنا الأديب عبد الله بن سلامة المؤذن:

قُلْ لمَن لا يرى المُعاصِرَ شيئاً ويـرى للأوائـل التَّقْديمـا
إنَّ ذاك القديـمَ كانَ حديثـاً وسَيُسمَّى هذا الحديثُ قَديما

وإنْ بِتْنا نؤمن بهذا فإننا لا نشـك في ضعف قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئاً!. بل نَقَل العلَّامة ياقوت الحمَوي في كتابه «معجم الأدباء» تذمُّـرَ الجاحظِ مِن قائل هذا! فقـال ياقوت ـ كما في ترجمة أبي عثمان الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) من هذا الكتاب ـ: «وقال الجاحظ: «إذا سمعتَ الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يُفلح!». وجاء في «دلائل الإعجـاز»[١] لعبد القاهر الجرجاني فيما ينقله عن الجاحظ قوله: «وكلامٌ كثيرٌ قد جَرى على ألسـنة الناس وله مَضَرَّةٌ شديدةٌ وثمرةٌ مُرَّةٌ. فمِنْ أضرِّ ذلك قولُهم: «لم يدَعِ الأولُ للآخرِ شيئاً». قال: فلو أن علماءَ كلِّ عصر مُنْذُ جرتْ هذه الكلمةُ في أَسماعهم تَركوا الاستنباط لِمَا لم يَنته إليهم عمَّن قبلهم لرأيتَ العلم مختلّاً!».

لهذا قال الجاحظ في كتابه «رسـائل الجاحظ»[٢]: «وقد قالوا: ليس مما يسـتعمل الناس كلمـة أضرَّ بالعلـم والعلماء، ولا أضـرَّ بالعامة والخاصة، من قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئاً.

---

(١) (٩٣/١).
(٢) (١٠٣/٤).

ولو استعمل الناس معنى هذا الكلام، فتركوا جميع التَّكلُّف، ولم يتعاطـوا إلا مقدار مـا كان في أيديهـم لفقـدوا علماً جمَّـاً ومرافقَ لا تُحصى. ولكن أبى الله إلا أن يَقْسِـمَ نِعَمه بين طبقات جميع عبادِه قِسمةَ عدل، يعطي كلَّ قرن وكلَّ أمة حِصَّتها ونصيبها، على تمام مراشد الدين، وكمال مصالح الدين».

ولقد صدق والله! إذا كان الجاحظ علـى جلالة قَدْرِه وعِظَمِ عصره يتذمَّر من مردِّدِ هذه الكلمة..، فماذا عساه أن يقول لو أدرك زماننا، وقد بتنا نسمعها صباح مساء، وعلى كلِّ لسان تُردَّد إلا ما رحم الله!

ونسـي هؤلاء أن المَدارك والأفهام والعلوم مِنَـحٌ من الله وعطايا، يوزِّعها سـبحانه على عباده في الآخرين كما الأوَّلين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

جاء في كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»(١) لأبي منصور الثعالبي في ترجمة العلَّامة اللغويِّ أبي الحسـين أحمد بن فارس بن زكريـا المقيـم (ت: ٣٩٥هـ)، أنه قال في رسـالة كتبهـا لأبي عمرو محمد بن سـعيد الكاتب الذي أنكر على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتاباً في الحماسة.. فقال ـ أبو الحسين ـ:

«ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السـداد، وجنَّبك الخلاف، وحبَّب إليك الإنصاف. وسـبب دعائـي بهذا لك، إنكارك على أبي الحسـن محمد بن علي العجلي تأليفـه كتاباً في الحماسـة، وإعظامك ذلك،

(١) (٣/٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥).

ولعله لو فعل حتى يصيبَ الغــرض الذي يريده، ويَــرِدَ المنهلَ الذي يَؤُمُّه، لاستدرك من جيد الشــعر، ونقيِّه، ومختاره، ورضيِّه، كثيراً مما فات المؤلف الأول، فماذا الإنكار؟ ولِمَه هذا الاعتراض؟ ومَن ذا حظر على المتأخِّر مضادَّةَ المتقدِّم؟ ولِمَه تأخذ بقول من قال: «ما ترك الأول للآخر شيئاً»، وتدع قول الآخر: «كم ترك الأول للآخر؟».

وهل الدنيــا إلا أزمان، ولكل زمان منها رجــال؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة، إلا خطرات الأوهام، ونتائج العقول؟

ومَنْ قَصَر الآداب على زمان معلوم، ووَقَفَها على وقت محدود؟

ولِمَه لا ينظر الآخر مثــل ما نظر الأول، حتى يؤلِّــف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل ذلك مثل رأيه؟

ما تقول لفقهاء زماننا، إذا نزلت بهم مــن نوادر الأحكام نازلة، لم تخطر على بال مَن كان قبلهــم؟ أو ما علمت أن لــكل قلب خاطراً، ولكل خاطر نتيجة؟

ولِمَه جاز أن يُقال بعد أبي تمام مثل شعره، ولم يَجُزْ أن يؤلَّف مثل تأليفه؟

ولِمَه حَجَرْتَ واسعاً، وحَظَرْتَ مباحاً، وحرَّمت حلالاً، وسددت طريقاً مسلوكاً؟

ولو اقْتَصــر الناس على كُتُب القدماء، لضــاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلَّت أفهام ثاقبة، ولَكَلَّت ألسنٌ لَسِنَة، ولَما توشَّى أحد الخطابة، ولا سلك شِــعباً من شــعاب البلاغة، ولمجَّت ـ استثقلت

وكرهت ـ الأسـماعُ كلَّ مردَّد مكـرَّر، وللفظت القلـوب كلَّ مرجَّع ممضَّغ، وحتَّامَ[١] لا يسأم.

«ولو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبِلِي»[٢]

وإلى متى:

«صَفْحُنا عن بني ذُهْل»[٣]

ولِمَه أنكرت على العجلي معروفاً؟.. ولِمَه رضيت لنا بغير الرضى؟ وهلَّا حَثَثْتَ على إثارة ما غيَّبتـه الدهور، وتجديـد ما أَخْلَقَتْه الأيام، وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر، وأفكار هذا العصر، على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه، ولو فعله لقـرأتَ ما لم ينحط عن درجة من قبله، مِن جدٍّ يروعك، وهزل يروقك، واسـتنباط يعجبك، ومزاح يلهيك!». انتهى كلام أبي الحسين.

وقال الشيخ العلَّامة المحدِّث عبد العزيز الغُماري ـ كما في كتاب «نجـم من أعـلام علماء السـلف فـي علمـاء الخلف»[٤] للأسـتاذ عبد اللطيف جسُّـوس ـ: «ولِيتيقَّنَ القارئ أن فضل الله لا ينقطع أبداً،

---

(١) قال الجوهري: «وقولهـم: حَتَّامَ، أصْلُه حَتَّى ما، فحذفت ألف ما للاسـتفهام». كما في «الصحاح في اللغة».

(٢) تتمة البيت: «بَنُو اللَّقِيْطَة من ذُهْل بن شَـيْبَانا». وهو لقُرَيط بـن أُنَيْفٍ العنبري. كما في «تاج العروس» للزبيدي (٢٠/٧٩).

(٣) تتمة البيت: «وقلنا: القومُ إخوانُ». وهو للفِنْد الزِّمَّاني واسمه شهل بن شيبان، من أبيات قالها في حرب البسوس. وانظر «الحيوان» للجاحظ (٦/٤١٥).

(٤) (ص ٧٠).

ولِيَعْلم أن في كلِّ قرن من أُمَّتِه ﷺ سابقون. ودَع عنك قول أهل البطالة والكسل ومَنْ أخلد إلى الراحة ونبذ العمل: «سبق الأولون بالفضل وما تركوا لِمنْ بعدهم مِيزة في فعلٍ وقولٍ». فما أقبحها مِن كلمة مثبِّطة للعزائم ومُفسدةٍ للعقائد!!

فإن الله تعالى الذي وفَّق ذلك السابق لِعَملِه هو أيضاً الذي وفَّق هذا المتأخِّرَ، وعطاؤُه واحد، ونَيلُه وفضلُه قد يَسْعَدُ به المتأخِّرُ دون المتقدِّم، والصغير دون الكبير، ولله درُّ جمال الدين ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول ـ وذكر قوله، وقد تقدم ذِكره ـ. وقال ابن بسَّام في مقدِّمة «الذخيرة في محاسن الجزيرة»: «وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيزٌ على الفضل أنْ يُنكَرَ، تقدَّم به الزمان أو تأخَّر. ولَحَى الله قولَهم: الفضل للمتقدِّم، فكَم دفن من إحسان، وأخمل من فُلانٍ، ولو اقتصر المتأخِّرون على كتب المتقدِّمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير!».

وقد قال مثل قولهم هذا مشركو قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فردَّ الله تعالى عليهم أحسن ردٍّ بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]». انتهى كلام الغُماري.

ثم إننا لو اعتقدنا بصحة مثل هذا القول لقطعنا جزماً بانتهاء أسرار آيات التنزيل عند ما تركه الأوائل، وهذا ما لا يقوله عاقل، فضلاً عن أن يتفوَّه به عالم!

وإلَّا قل لي بربِّك: أين كان يعيش هـؤلاء النوابغ الأفذاذ؛ العلَّامة الشعراوي (ت: ١٤١٩هـ) المفسِّر الموسوعي الشهير، الذي تفجَّرت أمامه أسرار آيات الذكر الحكيم، حتى جاء بما لا نعهده عمَّن قبله، والعلَّامة محمد بخيت المطيعي (ت: ١٣٥٤هـ) الفقيه النحرير الكبير، الذي يلمُّ بالمذاهـب الفقهية في الإسـلام وكأنه هو الذي وضعهـا، والتهانوي (ت: ١٣٦٢هـ) المؤلِّـف العظيـم، الذي تربـو مؤلَّفاتـه على الألف، والكشـميري (ت: ١٣٥٢هـ) المحدِّث الفقيه، صاحب الحافظة العجيبة، ومثله الإبراهيمي (ت: ١٣٨٥هـ)، الذي كادت أن تستوعب حافظتُه السننَ والآثار، ودواوين الشـعر العربي كلِّه، وعشـرات المتون، وشوقي أمير الشعراء (ت: ١٣٥١هـ)، الذي لا ندَّ له ولا مثيل بعد أبي الطيب المتنبي، والزِّركلي (ت: ١٣٩٦هـ) المؤرِّخ المبدع، ومحمود شـاكر (ت: ١٤١٧هـ)، اللغويُّ الذي لا نظير له في عصره، والرافعـي (ت: ١٣٥٦هـ) أمير البيان والقلـم واللسـان، والعقَّـاد (ت: ١٣٨٤هـ) الكاتب الجبَّـار، والخالديُّ (ت: ١٣٦٠هـ) الرَّحَّالة الذي ما ترك خِزانة فـي الدنيا إلا دخلها ونَخَلها، وأحمد تيمور (ت: ١٣٤٨هـ) الـذي أنفق عمره كلَّه في القـراءة، واقتناء الكتب، وجلبها من أقاصي الدنيا، ولو بوزنها ذهباً، وغيرهم.. وغيرهم. مِمَّن لو عاشوا في العصور السالفة لكانوا محلَّ فخر وتقدير عند الأُمَّة!

أليس هؤلاء عاشوا في عصرنا المتأخِّر، أدركنا بعضهم وأدركنا من أدرك بعضهم الآخر، أليس كذلك؟

فنِعَم الله ﷻ موزَّعة في عباده بين الأوَّل والآخِر والسابق واللاحق، بل قد تجد عند الأواخر من النِّعم ما ليس عند الأوائل.

يقول العلَّامة محمود الطناحي ـ كما فـي «مقالات الطناحي»[1] ـ: «قد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وقال علاء الدين ابن النفيس (ت: ٦٨٧هـ) الطبيب المسلم والفقيه الشافعي في كتابه «السياسة»: «ولنذكر دوماً قولهم: إذا تساوت الأذهان والهمم، فمتأخِّرُ كلِّ صنعة خير من متقدِّمها».

وقال العلَّامة الأديب المؤرِّخ حاجي خليفة في كتابه «كَشْف الظُّنون عن أسـامي الكتب والفنون»[2]: «واعلم: أن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات الأنظار لا تنتهي إلى غاية، بل لكل عالم ومتعلِّم منها حظ يُحرزه في وقته المقدَّر له، وليس لأحد أن يُزاحمه فيه؛ لأن العالَم المعنوي واسـع كالبحر الزاخـر، والفيـض الإلٰهي ليس لـه انقطاع ولا آخر، والعلوم منح إلٰهية ومواهب صمدانية، فغير مستبعد أن يُدَّخر لبعض المتأخِّرين ما لـم يُدَّخر لكثير من المتقدِّميـن، فلا تغترَّ بقول القائل: «ما ترك الأول للآخر!»، بل القـول الصحيح الظاهر: «كم ترك الأول للآخر»، فإنما يُستجاد الشيء ويُسترذَل لجودته ورداءته في ذاته، لا لقِدَمه وحدوثه.

ويقال: «ليس بكلمة أضرَّ بالعلم من قولهم: ما ترك الأول شيئاً»؛ لأنه يقطع الآمال عن العلم، ويحمل على التقاعد عن التعلم، فيقتصر الآخر على ما قدَّم الأول من الظواهر، وهو خطر عظيم، وقول سقيم،

---

(١) (ص ٢٧٣).

(٢) (٣٩/١).

فالأوائل وإن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها، كما قال ﷺ: «**أُمَّتي أُمَّة مباركة لا يُدرى أوَّلها خير أو آخرها**».

وقال ابن عبد ربه في «العقد»: «إني رأيتُ آخر كل طبقة، وواضعي كل حكمة ومؤلِّفي كل أدب، أهذب لفظاً، وأسهل لغة، وأحكم مذهباً، وأوضح طريقة من الأول؛ لأنه ناقض متعقِّب والأول: بادئ متقدِّم». انتهى النقل عن «كشف الظنون».

وقال العلَّامة المحدِّث عبد الحي الكتاني في «التراتيب الإدارية»[1] ـ وهو يتحدَّث حول هذه المسألة في حديث طويل نفيس أنقل بعضه ـ: «إن المتأخِّر ربما يأتي بما لم يأتِ به المتقدِّم.. ولكنْ على كل حال همة المتأخِّر لا تُنكر، ويجب أن تُذكر فتُشكر، وإن كان للأوائل فتح أبواب، فللمتأخِّرين الجري على المنوال ضعفاً وقوة من غير ارتياب ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]».

وقال: «ولا يبقى ريب في أنه يتيسر اليوم ما عَسُرَ إدراكُه على كثير ممن سبق، وليس بعد العِيان بيان. وبذلك تتحقق بأحقِّية قول الجاحظ: «ما على الناس شيءٌ أضرَّ من قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئاً»».

وقد قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ)، وقد نقل قول عليٍّ كرَّم الله وجهه: «قيمة كل امرئ ما يحسن»، فقال: «إنه لم يسبق إليه أحد. قال: وأي كلمة أحضُّ على طلب العلم منها؟ وقال: وما كان أضرُّ بالعلم وبالعلماء وبالمتعلِّمين من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئاً».

---

(١) (٧٤/١، ٧٥، ٧٦).

وقال أبو الحسن المسعودي (ت: ٣٤٦هـ) في كتابه «التنبيه»: «وقد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر، وربما كان الأخير أحسن تأليفاً، وأمتن تصنيفاً، لحكمة التجارب، وخشية التتبُّع، والاحتراس من موانع المضارِّ، ومن هنا صارت العلوم نامية غير متناهية، لوجود الأخير ما لا يجده الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة ولا نهاية محدودة، وقد أخبر الله ﷻ بذلك فقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

على أن من شِيَمِ كثير من الناس إطراء المتقدِّمين، وتعظيم كتب السالفين، ومدح الماضي وذمُّ الباقي، وإن كان في كتب المُحدَثين ما هو أعظم فائدة وأكثر عائدة.

ثم حكي عن الجاحظ ـ على جلالة قَدْرِه بين الكُتَّاب والبلغاء ـ أنه كان يؤلِّف الكتاب، الكثير المعاني، الحسن النظم، فينسبه إلى نفسه، فلا يرى الأسماع تصغي إليه، ولا الإرادات تيمِّم نحوه، ثم يؤلِّف ما هو أنقص منه مرتبة، وأقل فائدة، ثم ينحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدِّمين، ومن قد طارت أسماؤهم في المصنِّفين، فيُقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدِّمين. ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم، ومنافسته على المناقب التي يخص بها، ويعنى بتشييدها. قال: «وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس، وإنما العمل على ذوي النظر والتأمل، الذين أعطَوا كلَّ شيء حقَّه من العدل، ووفَّوه قسطه من الحق، فلم يرفعوا المتقدِّم إذا كان ناقصاً، ولم يُنقصوا المتأخِّر إذا كان زائداً، فلمثل هؤلاء تصنَّف الكتب وتدوَّن العلوم».

قال الكتاني: «وإذا كان هذا في ذلك الزمن: زمن نفاق أسواق العلم، ورجحان أهله بالمدارك والغايات، فكيف بزماننا هذا، زمن التأخُّر والتقليد الأعمى.. والمقاومة للكمال والكاملين!».

ثم ذكر ـ الكتاني ـ كلامَ ابن حزم في هذا الباب؛ حيث قال: «وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر «أزهد الناس في عالمٍ أهلُه!». وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: «لا يفقد النبيُّ حُرمته إلا في بلده!». وقد تيقنَّا ذلك بما لقي النبيُّ ﷺ من قريش، وهم أوفر الناس أحلاماً، وأصحُّهم عقولاً، وأشدُّهم تثبُّتاً، مع ما خُصُّوا به من سكناهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه.. ولا سيما أندلسنا، فإنها خُصَّتْ من حسد أهلها للعالِم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبُّعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغيِّر، وإن انتحل قُذِّع، وإن توسَّط قالوا: غَثٌّ بارد وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقَصْبِ السَّبق قالوا: متى كان هذا، ومتى تعلَّم؟ وفي أي زمان قرأ ولأمِّه الهبل[1]!

وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين: إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها، فهنالك حمي الوطيس على البائس، وصار غرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتسبُّب إليه، ونهباً للألسنة، وعرضة للتطرُّق إلى عرضه، وربما نُحِلَ ما لم يَقُلْ، وطُوِّق ما لم يتقلَّد، وأُلحق به ما لم يَفُهْ به، ولا اعتقده قلبه، فإن لم يتعلق بالسلطان

(١) يقال: فلان هَبِلَتْه أُمُّه إذا مات، ثمَّ استعمل في دعاء السوء بقولهم: هَبِلَتْكَ أُمُّك، ثمَّ نُقل إلى التعجُّب مثل: تَرِبَتْ يداك، ولعلَّ مقصود ابن حزم ـ هنا ـ التعجُّب.

بحظٍّ لا يَسلم من المَتَالِفِ، ولا ينجو من المُخَالِف، فإنْ تعرَّض لتأليفٍ غُمِزَ ولُمِز، وتُعُرِّضَ وهُمِزَ، وسُترت فضائلُه، وهُتف ونُودي بما أغفل، فتسكن لذلك همَّته، وتكلُّ نفسه، وتبرد حميَّته!» انتهى قول ابن حزم.

قال الكتاني: «وجماع القول أن مَنْ جهل شيئاً عاداه، والمزكوم لا يجد رائحة العطر بل يأباه، ويرحم الله أبا الثناء محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي صاحب «روح المعاني» إذ يقول:

وإذا الفتى بلغ السماءَ بفضله كانت كأعداد النجوم عِداه

ورمَوه عن حسدٍ بكلِّ كريهة لكنهم لا يُنقصون عُلاه»

انتهى النقل عن الكتاني.

أقول: ثم تأمل وانظر إلى العالم كلِّه، ألم ترَ أنه قد جُمع بين يديك، تشاهد وتسمع مَنْ شئت في أي بقعة شئت على وجه الأرض، وذلك من خلال (هاتفك الذكي)، أليس هذا مما فتح الله به على العقول المتأخِّرة؟!

أليست هذه العقول قد صعدت الفضاء، وسكنت القمر، وغاصت أعماق المحيطات؟!

أليست هذه العقول هي التي بَنَت المدن الحديثة، والجسور المديدة، والسدود العظيمة، والمباني الشاهقة، والمصانع والآلات الضخمة، وهي التي صنعت الطائرات، والمراكب والشاحنات، والسفن العملاقة التي تعدل مدينة بأكملها، وحاملات الطائرات، والبوارج، والغواصات التي تغوص أعماق البحار، والصواريخ الموجَّهة، والأقمار الصناعية؟!

أليست هذه العقول هي التي عرفت التكنولوجيا الدقيقة، حتى صرنا نسمع بالرجل الآلي (الروبوت) الذي يطبخ ويكنس، ويبيع ويشتري، ويرقص ويغني، ويصنع السيارة ويقودها! وغيره من آلات التصوير، والفيديو، ونحوها؟!

ناهيك عن عالم الاتصالات وأسراره، الذي لا يعلم مبلغ تطوره ـ بعد الله ـ إلا رجال المخابرات، وإنْ أنسَ فلا أنس الشبكة العنكبوتية المذهلة حقاً..، وغير هذا.

هل كان هذا في العصور الأولى؟ قطعاً لا.

فهل هذه العقول عاجزة عن مسايرة الأوائل في النبوغ والمعرفة؟ الإجابة يقيناً: لا؛ لأن هذه عطايا من الله، ولا يستطيع أحد أن يحجبها عن أُمَّة دون أُمَّة، أو عن عصر دون عصر، وفي هذا يقول الكاتب الكبير العلَّامة محبُّ الدين الخطيب: «العِلم عالميٌّ، لا تختصُّ به أُمَّة دون أُمَّة، ولا تحتكره قارة من قارَّات الأرض فيكون غيرها عالةً عليها فيه، إنه مَشاعٌ كالهواء الذي نتنفَّسه، وكالبحار التي تحيط باليابسة..؛ لأن العلم واحد في كل أُمَّة، وهو سبيل القوة في الحرب والسلم، ولا بدَّ من توصيله»[1].

ثم إنَّ هذا الذي قررناه لا يُعترض عليه بحديث «الصحيحين»[2]: «**خير الناس قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم**». فهذا يُحمل

---

(١) فيما ينقله عنه العلَّامة محمد رجب البيومي في «النهضة الإسلامية» (٣٢٤/٢).

(٢) «صحيح البخاري» في الإيمان باب: إذا قال أشهد بالله أو شهدت بالله «ح ٦٦٥٨»، و«صحيح مسلم» في الفضائل باب: فضل الصحابة «ح ٢٥٣٣».

على الإيمان الذي كان في قلوبهم، لا على المفاضلة في كثرة الأعمال، وسعة العلم، وجودة الحفظ، وإلا فنحن لا ننافسهم في أفضلية الإيمان، بل نُقِرُّ بأن الإيمان الذي وَقَرَ في قلوبهم لن يضاهيَه إيمان مَنْ يأتي بعدهم، وإن كان جمهور العلماء قد قرر: أن الأفضلية في حق الصحابة الكرام للجميع لا للمجموع، وهذا بخلاف قرن التابعين، فالأفضلية للمجموع لا للجميع، فلا يمتنع أن يوجد فيمن بعد التابعين مَن هو أفضل من بعض أفراد التابعين، ولكن لا يوجد قرن بعد التابعين أفضل من قرنهم في مجموعهم[1].

قال العلَّامة الشيخ يوسف القرضاوي ـ بعد أن ذكر رأي الجمهور ـ: «وللإمام ابنِ عبد البَرِّ رأي خالف فيه الجمهور، وقال: هناك من الصحابة مَنْ لا يبلغ أحدُهم مبلغَهم، مثل السابقين الأولين، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن كان له فضيلة معيَّنة، ثم مَن عدا هؤلاء يكون التفضيل للمجموع لا للجميع؛ فلا يمتنع أن يأتي ممن بعد الصحابة من يفضَّل على واحد من عامة الصحابة، ممن لم يكن له من الصحبة إلا أنه حجَّ معه ﷺ حجة الوداع، ورآه من بعيد».

ثم قال الشيخ القرضاوي: «إن رأي ابن عبد البَرِّ رأي جيد، فقد استثنى من الصحابة مَن لا يلحق أحدٌ بغبارهم، ولكنه أبقى الباب مفتوحاً بالنسبة للصحابة الذين لم يُعرف لهم فضيلة معينة، فلا مانع أن

---

(١) المراجع التي تحدَّثت حول هذا الحديث الشريف كثيرة جداً! ويُنظر مذكرات العلَّامة القرضاوي «ابن القرية والكُتَّاب» (٤٩٧/١).

يكون مثل عمر بن عبد العزيز أو الإمام الشافعي أو عز الدين بن عبد السلام، أو صلاح الدين الأيوبي أو ابن تيمية أو غير هؤلاء ممن حملوا راية الدعوة والجهاد، أفضل من بعض الصحابة الذين ليس لهم ـ إلا ـ فَضْلُ الصُّحبة.

وهذا يفتح نوافذ الأمل للعلماء والدعاة المجاهدين في عصرنا، الذين بذلوا جهودهم في إصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم»(١). انتهى.

وهذه المفاضلة ـ كما رأيت ـ في الإيمان، لا في كثرة الأعمال والعلم والمعرفة، وإلا فقد وُجد في التابعين، ومَنْ جاء بعدهم مَن هو أكثر أعمالاً وعلماً وحفظاً من كثير من الصحابة رضي الله عنهم(٢).

وكل الذي نقوله: إنه قد يتحقق للمتأخِّرين مثل الذي تحقق للسلف، من حيث العلم، والإحاطة، والمعرفة، وهذا أمر نشاهده ونقرأه، إلا أن لهم السواد الأعظم ولنا القليل النادر.

فحُقَّ لنا أن نفخر بأن أيامنا هذه قد وجد فيها علماء يسامون أوليتهم، ويبارونهم، ويقفون منهم موقف النِّدِّ للندِّ والنظير للنظير، ولا أقول هذا تزيُّداً، ولكن من باب التحدُّث بالنعمة التي أودعها الله المتأخرين كما الأولين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يشكرون.

---

(١) ابن القرية والكُتَّاب (٤٩٨/١).

(٢) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (١٣٩/٦).

وأعتقـد أن في الأُمَّة خلفاً يرث الرسـالة ويحمـل العبء ويتولى الكفاح، وأن في هذا الجيل خيراً كثيراً، وأن في عصرنا صفحة مضيئة، وأياماً عظيمة، ورجالاً كباراً، وثماراً ناضجة وفيرة، وهمماً يعجز اللسان عن بيان فضلها وإظهار حُسـنها..، وأن هذه الأُمَّـة محفوظة؛ وإن من آيات ذلك أنك تصادف بين الحين والحين نماذجَ فَذَّة، ومصابيحَ علمٍ تتلألأ، وتتوهَّج وسط هذا الظلام المُوحِش.

والأمل عظيم في أن يُتاح لنا إخراج نظائر لهم، وسـيخرج ـ بإذن الله ـ وسـوف يظلُّ يخرج أيضاً إلى أن يـرث الله الأرض ومَن عليها، وما ذلك على الله بعزيز.

لسـنا وإن كَرُمَـتْ أوائلُنـا يومـاً على الأنسـاب نتَّكلُ
نَبْنِـي كمـا كانـتْ أَوائلُنا تَبني ونفعـلُ مثلمـا فعلوا

واعلم ـ أخي القارئ ـ أنني ما دوَّنت هـذه الصفحات، وما كتبت فيها ما كتبت، لأحطَّ من قَدْرِ القرون السـالفة، أو أنفخ في شـقيقتها الحاضرة، لا والله ما أردت هذا ولا ذاك! وإنما قصدت إسداء النُّصح، وشحذ الهمم، والحثَّ على طلب العلم، والصبر على شدائده، والهيام في تحصيلـه، وأنه بالإمكان لمـن التزم نهجهم في الطلب، وسـلك سـبيلهم في الصبر والمصابرة والجدِّ والنشـاط والبُكور، ورضي بما رضوا بـه: من النهم والسـهر والعزلـة، ومواصلة الليـل بالنهار، في المطالعة والبحث والتدوين، والتطواف على الشيوخ، والجلوس إليهم، ومزاحمة التلاميـذ بالرُّكَبِ بين أيديهم، والقـدرة على تحمُّل العظائم والشدائد، والجوع والعطش، والتفاني في بذل الغالي والنفيس..، فإنه

بإمكان مَـــن رام هـــذا أَنْ يحصِّل جميـــل ما حصَّلـــوا، وأن يبلغ غاية ما بلغوا، حتى في الرتبة ربما نافســـهم وعن القمة أزاحهم!..، ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه:

بقَدْرِ الكَدِّ تُكتسب المعالي   ومَن طلب العلا سهر الليالي

ومرتبتـــك إنما تُقـــاس على قَـــدْرِ عزمك وعلوِّ نفســـك، يقول أبو الطيب المتنبي:

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قَدْرِ الكرام المكارم
وتَعْظُمُ في عين الصغير صِغارُها   وتَصْغُرُ في عين العظيم العظائمُ

وعلى قَدْرِ الهموم تكون الهِمم، يقول الصاحب بن عباد:

وقائلـــةٍ: لِمَ عَرَتْـــكَ الهموم   وأمـــرُك مُمْتَثَلٌ فـــي الأُمم؟
فقلت: ذَرِينِي علـــى غَصَّتِي   فإنَّ الهمـــوم بقَـــدْرِ الهِمَم!

وقول الآخر:

إذا ما عَلا المـــرءُ رامَ العُلا   ويَقْنَعُ بالـــدُّون مَن كان دُونَا

* * *

أسلحة طالب العلم

الظَّفر بالنصر لا يحقِّقه إلا الجيوش القوية التي تسلَّحت له جيداً، وإلا فالجيوش الضعيفة ستظل عاجزة عن تحقيق النصر أبداً، وهكذا العلم مثله مثل النصر لا يحصِّله إلا طالب العلم الذي تسلَّح له، وإلا بقي شأنه شأن الجيوش الضعيفة، يظلُّ عاجزاً عن تحصيل العلم حتى يتسلح له جيداً.

فلا بدَّ لطالب العلم ـ إذا ما أراد أن يسلك طريق المعالي، وأن يقتفي أثرَ أهل العزائم من العلماء الكبار ـ أن يتسلَّح بأسلحتهم التي خاضوا بها ميادين العلم، وبلغوا ذُرَى المجد وتاج السَّعد، وحصَّلوا الغاية التي ليس بعدها غاية.

قال العلَّامة عيدروس بن عمر الحبشي (المتوفَّى سنة ١٣١٤هـ) في كتابه «عِقد اليواقيت الجوهرية»[١]: «قال شيخنا عبد الله باسودان ـ (المتوفَّى سنة ١٢٦٦هـ) ـ: العلم الذي لا يُملك بالمنى، ولا يُدرك بالهوينا، كما قال بديع الزمان الهمداني: «العلمُ بطيءُ اللزام، بعيدُ المرام، لا يُدركُ بالسهام، ولا يُرى في المنام؛ ولا يُورَث عن الآباءِ

---

(١) (١٣٥/١، ١٣٦).

والأعمام؛ إنما هو شـجرةٌ لا تَصلح إلا بالغرس؛ ولا تُغرسُ إلا في النَّفس؛ ولا تُسقى إلا بالدَّرس؛ ولا يُحَصَّلُ إلا بالاستناد إلى الحجر، وافتراش المَدَر، وإدمان السَّهر، وقلة النوم، وصلة الليل باليوم، ولا يدركه إلا مَنْ أنفقَ العين ـ الذهب والمال ـ؛ وجثا على الركبتين! أيظنُّ مَنْ أشغل نهاره بالجمع ـ جمع الدنيا ـ وليله بالجماع، يخرج من الفقهاء؟! كلا والله، حتى يقصد الدفاتر، ويستصحب المحابر، ويقطع القِفار، ويصلَ في طلب العلم بين الليل والنهار، ويوافق من الصبر مُرّاً طيِّباً، ومن التوفيق مطراً صيِّباً. انتهى.

وقد بلَغَنا من اجتهاد الأئمة وتحصيلهم ما يُحَيِّر الواقف عليه، ويَعُدُّه من معجزات متبوعهم سيدنا محمد ﷺ؛ فإنهم رحمهم الله لم يبلغوا ما بلغوه، وينالوا ما نالوه حتى استلانوا ما اسْتَوْعَرَهُ المُتْرَفُون، وهجروا لله وفي الله ما هجروه، واشتدَّ منهم بنفوسهم الاعتناء، كما قال الإمام أبو بكر العدني ابن العيدروس الأكبر رضي الله عنه:

نلنا المُنى .... لمَّا بلغنا بالنفوس ما شَقّ

انتهى النقل عن «الأنوار الساطعة».

وهذه الأسلحة كثيرة ومتشعبة، وأهم ما يمكن أن أدوِّنه في هذه العُجالة، النقاط العشرين الآتية:

١ ـ **الإخلاص**: وهو من أعظم الأسلحة وأهمِّها التي لا غنى للعالِم أو طالب العلم عنها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وهو السلاح الذي ما صدق فيه صاحبه إلا ووجد

توفيق الله ورعايته، قد أحاطته من كلِّ جانب. فتجد دروب العلم وأبوابه كلَّها أمامه ميسورة، مفتوحة، سـهلة، لا عُسر فيها أبداً، بإذن الله. فتنقلب الشـدائد إلى لذائذ، والمحن إلى منح من الله سـبحانه، وإذا ما أظلم أو أغلق عليه شـيء ما تَفْتَأ إلا وقد فُتِح ما أُغلق، وأنـار ما أظلم، ثم تأتيه الفوائد تنهال كالسيل وتنهمر كالغيث، وذلك بفضل الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ المحبَّة: يجب على طالب العلم أن يكون حبُّ العلم ممتزجاً بلحمه ودمه، وأحب شيء لقلبه وأحلاه وأرضاه لنفسه، بل حب العلم عنده أعظم من حب الملوك لِمُلكِهم، وأصحـاب الكنوز لكنوزهم، فلا يعدله مُلك عظيم، ولا كنز كبير، ولا ولد وحيد، بل العلم هو أول وآخر ما يحب.

٣ ـ التجرُّد: على طالب العلم أن يتجرَّد من علائق الدنيا، ولذائذها، مسـتغنياً عنها بلذَّة العلم، ومكتفيـاً بمتعته عـن أي متعة أخرى، إلا ما يتعلَّق بالكفاية التي تعينه على الحياة حتى النهاية.

٤ ـ العُزلة: ما أصاب عالم ما أصابه من العلم، إلا وكان خلف ذلك انقطاع عن الدنيا، وخلوة عن النـاس، لا يعرفه أحد، ولا يعرف أحداً، ولا يُصاحب إلا المحبرة والكتاب والمكتبة، حيث يخلو بذلك، أياماً عديدة، وسنين طويلة.

٥ ـ التضحية والبذل: ومن أسلحته المهمة التضحية في سبيل العلم بالغالي والنفيس، وبذل أغلى الأوقات وأعزِّهـا، وأَنفس الأموال إلى قلبه وأحبِّها، ويلذُّ له ذلك، ويرى أنه أهون شيء يبذله لأجله.

٦ ـ **الصبر**: وعليه أن يكون صاحب صبر مُلِحّاً دائباً، فإذا ما قرأ في المتون المغلقة، أو الحواشي الطويلة صبر، وإذا جفا عليه شيخه أو زجره صبر، وإذا جاع أو عطش صبر، وإذا افتقر لأجل العلم صبر، وإذا تعب أو تألَّم صبر...، وهكذا يصبر على الكبيرة والصغيرة في طلب العلم.

٧ ـ **التحمُّل**: وعليه أيضاً أن يكون لديه القابلية والقدرة على تحمُّل الشدائد، مهما بلغت شدَّتها، فيتحمَّل الجوع والعطش، وقلَّة ذات اليد، والمرض والألم، والسهر والعناء، ووحشة الخلوة، وطول الطريق، ومشقة السفر...، إلى غير ذلك من الشدائد التي تواجه طالب العلم.

٨ ـ **الهمة العالية والعزيمة الماضية**: وعليه أن يكون صاحب همة عالية، لا تتوق إلا للمعالي، ولا تعرف الخمول ولا الكسل، ولا ترضى بالدُّون، ولا تقبل إلا الشهد والشَّذى. وعليه أيضاً أن يكون له عزيمة ماضية، وثَّابة، تنبض بالحماس والحيوية والإقدام، فلا تخمدها الشدائد، ولا تضعفها المحن، ولا تصدُّها العقبات، بل عزيمة تتحدى الخُطوب، وتقتحم الصعاب، وتتخطى النوائب، بل لا تعرف المستحيل، ولو أراد أن يزيح بها الجبال لأزاحها، أو يُلين بها الحديد لألانه.

٩ ـ **الجَلَد والنَّهَم**: وعليه أن يكون صاحب جلد في طلب العلم منقطع النظير، وله نَفْس نَهِمَة في القراءة لا مثيل لها ولا نظير، تجده بين الشيوخ ينتقل من شيخ إلى شيخ، ولا يسمع بشيخ متفرِّد إلا

ويحرص على أن يأخذ عنه، ولو كلَّفه ذلك ما كلَّف من جهد أو مشقَّة، وكذلك بيـن الكتب تجده كالنحلة، لا ينتهي مـن مطالعة كتاب حتى يخوض في غيره، يريد أن يلتهمها التهاماً، وإذا ما سمع بكتاب نفيس نادر، يظلُّ يطلبه حتى يقتنيَه، ولـو كلَّفه ذلك ما كلَّف..، وهكذا تجده لا يهدأ أبداً، بل يواصل الليل بالنهار دون كلل أو ملل.

١٠ ـ **المثابرة والمصابرة**: وأقصد بها هنا: أنه إذا لازم درس شـيخه في متن من المتون، أو شـرح كتاب معيَّن، فعليه أن يثابر ويواظب مع شيخه من البداية إلى النهاية، وكذا إذا شرع في قراءة كتاب، لا يقنع إلا بأن يقرأه كَمَلاً، دون أن يفرِّط بسـطر واحد، أو تندَّ عنه كلمة، وهكذا يثابر إذا شـرع في تحرير مسـألة، أو تحقيق معضلـة، لا يتركها حتى يقتلها بحثاً، وتحقيقاً في جوانبها المتعددة، فلا يترك شاردة، ولا واردة، إلا وقد أتى عليها.. وهكذا يثابر في كل عمل يقوم به.

١١ ـ **طول النَّفَس**: إضافة إلـى المثابرة، فإنَّ على طالب العلم أن يكون صاحب نَفَس طويل، وصبر عظيم؛ في طلب العلم، والقراءة، والبحث، والتدوين، والتحقيـق..، خاصة فـي الدواوين الكبيرة، والأسـفار العظيمة، التي تحتاج في قراءتها إلـى نَفَس طويل، وقد يملُّ قصير النَّفَس فيتركها لطولها! فكيف الحال بمَنْ دوَّنها، وأطال النَّفَس في تأليفها، وأنفق من عمره سنين طويلة في إخراجها؟! ومع ذلك تجده ما ملَّ وما سـئم ولا ضجر!.. لذلك فـإنَّ طول النَّفَس سلاح مهم جدَّاً، لا يستغني عنه العالِم، ولا طالب العلم، ومَنْ كان غير ذلك فلا يُتعب نفسه!

١٢ ـ ملازمة الشيخ: وهذا السلاح من أخطر الأسلحة وأهمِّها، ولن يصحَّ عِلم الطالب، ولن يسلك الدروب السليمة، ولا المسالك الصحيحة إلا به، وإلا فالكُتُب وحدها لا تصنع عالِماً كما يقول العلَّامة الطناحي(١).

وقال الشيخ العلَّامة محمد عوَّامة: «أنه بالتلقِّي عن الأستاذ يحصل الطالب على خيرين: يحصل على العلم الصافي المحقَّق، ويحصل على الأدب عن العلماء والشيوخ؛ لأنه سيلتزم الأدب مع معلمه، ومنه يتعرَّف على قَدْرِ العلماء، وكيف يترقَّى في الأدب معهم، وإذا التزم الأدبَ مع شيوخه، فهو مع شيوخهم ومَنْ قبلهم، ومَنْ قبلهم، أشدُّ التزاماً، فمنهم يرث العلم والأدب»(٢).

فالشيخ يضبط سلوك التلميذ، ويهذِّب فكره، ويصحِّح مساره، ويلقنه الرواية الصحيحة، فلم يَعُد بعد ذلك يضرب ضرب عشواء، ولا يسير في الظلماء(٣).

١٣ ـ مجاورة المكتبة ومصاحبة الكتاب: العلماء لا يملكون ثروة، ولكن ثروة العالم مكتبته الكبيرة، وريحانته كتابه. أما مكتبته العامرة: فيؤانسها وتؤانسه، وينادمها وتنادمه، ويناجيها وتناجيه، ثم هو يغذِّيها بالكتب، ويمدُّها بجهده وجهاده، وتمدُّه بالعلوم وتغذِّيه بالمعرفة والوعي.

---

(١) «مقالات الطناحي» (ص ٢٠ ـ ٢٦٩).

(٢) «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين» (ص ١٦٨ ـ ١٦٩)، وفي هذا الكتاب قد عقد الشيخ حفظه الله باباً طويلاً للحديث عن التلقِّي وضرورته، فارجع إليه فإنه نفيس.

(٣) وانظر بسط ذلك في فصل (مصاحبة الشيخ) من هذا الكتاب، ص ١٥٧ وما بعدها.

أما الكتاب: فهو ريحانته، وصديقه في الحياة، ورفيقه في الطريق، وأنيسه في الخلوة..، بل هو قطعة منه ممتزجة بنفسه وروحه لا تفارقه أبداً، فتجده مع الكتاب والكتاب معه، على مائدة الطعام، وعند النوم على الفراش، وفي العمل على المكتب، وفي السيَّارة بجوار المقود، ومعه على ظهر سفينة تمخر أعماق المحيطات، أو جوف طائرة تحلِّق في السماء، أو قطار يقطع الصحاري والجبال.. وهكذا تجده هو والكتاب قطعة واحدة! لا ينفكَّان أبداً.

١٤ ـ الوقت: الوقت بالنسبة لطالب العلم هو رأس المال! وصاحب المال يحافظ عليه وينمِّيه، ولا يرضى الخسارة فيه قَطُّ ولو لدرهم واحد، وكذا طالب العلم يحافظ على أوقاته، ولا يقبل أن يفرِّط بدقيقة، بل لحظة واحدة في غير التحصيل، فهو يَعُدُّ أنفاسه، ويقطع الأيام، ويسابق الزمن، يُذاكر هذا، ويدارس ذاك، ويقرأ في هذه الحاشية، ويشرح هذا المتن، ثمَّ هو يدوِّن رسالة، ويكتب جواباً، ويردُّ على سائل.. وهكذا، فهو يعمل (كالقلب) لا يتوقف أبداً، ولا يعتريه كسل أو ضجر.

١٥ ـ الغُربة: لقد اهتم العلماء قديماً بالرحلة في طلب العلم، وجعلوها مناط الثقة بالعلم، فقالوا: «**مَنْ لم يرحل فلا ثقة بعلمه**». لهذا قال الحافظ ابن رُشَيْد المغربي السِّبتي (ت: ٧٢١هـ) في مدح الغربة:

تغرَّب ولا تَحفِل بفُرقة موطن ... تَفُزْ بالمُنى في كل ما شئت من حَاجِ
فلولا اغترابُ المِسك ما حلَّ مَفْرِقاً ... ولولا اغترابُ الدُّر ما حلَّ في التاجِ

١٦ ـ **المال**: ويحتاج طالب العلم إلى الكفاية من المال، تُعينه على نفقة السفر، ولقاء الشيوخ، وشراء مهمَّات الكتب، التي يحتاجها ولا يستغني عنها، وإلا فإن قلة ذات اليد غالباً ما تكون عائقاً كبيراً أمام تحصيل العلم..، ولكن أصحاب العزائم لا يقف الإملاق دائماً عقبة أمامهم، فتجد الواحد منهم، تارة يقتطع من قوت طعامه، ونفقة عياله، حتى يشتري بها الكتب، وتارة يستدين، وربما استعار من مكتبة صديق أو رابَطَ في مكتبة شيخه..، وهكذا.

١٧ ـ **الحافظة**: فهو في حاجة إلى حافظة قوية مليئة، فيها يخزِّن أكبر محفوظ منسَّق في ذهنه، يستطيع أن يستشهد به في كل موقف ومناسبة، وذاكرة تعينه على أداء دروسه ومجالسه باقتدار، وذلك بكل بسهولة ويسر، وإلا فإنه سوف يعاني عناءً قد لا يقدر عليه فيترك ما هو بصدده.

وإذا كان ضعيف الحافظة قليلَ المحفوظ، فلْيعمل على تنميتها وتقويتها شيئاً فشيئاً، وذلك بالمداومة والتكرار مرَّة بعد مرَّة، وتغذيتها كل وقت بمحفوظ جديد، يتعهَّده بالمراجعة من حين إلى حين..، ويظل هكذا حتى يفتح الله عليه. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال العلَّامة أبو عبد الله محمد (ابن الحاج المالكي) في كتابه «المدخل»[1] معقِّباً على هذه الآية: «فإذا اتصف المتعلِّم بالتقوى كان الله ﷻ معلِّمَه وهاديه، ومن كان الله تعالى معلِّمَه وهاديه، فلا تسأل عن حاله! قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وهذا لفظ عام، فقد

(١) (١٣٠/٢).

يحصل للمتعلِّم نفائسُ من المسائل، لا تؤخذ بالدرس، ولا بالشيوخ، لأجل ما حصَّل من قوله ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾».

١٨ ـ الخُلُق النبوي: ويجب على طالب العلم التخلُّق بأخلاق النبوَّة والتحلِّي بها: من الصدق، والأمانة، والأدب، والإنصاف، والتواضع، والتسامح، والعفو، والقناعة، والتأنِّي، والحِلم، والعطاء، والوفاء، والخشية، والورع، والزهد...، إلخ.

١٩ ـ الأدب: وهذا السلاح إذا لم يتسلَّح به طالب العلم فلا قيمة لعلمه، ولو كان أعلم الناس، ولو كان أكثرهم اجتهاداً، ومثابرة، فلا معنى لذلك بدون الأدب، فإذا ما أردت أن تَروم المعالي فعليك بالتحلِّي بالأدب، وخاصة أدب الاختلاف[1] مع الشيوخ والأقران، ثم سائر الناس، على اختلاف طبقاتهم، فلا تسئ الأدب لأحد كان ولو بكلمة.

---

(١) يقول العلَّامة محمد عوَّامة في كتابه «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين» (ص٥١ ـ ٥٢): «وقد أعجبني أبيات من الشعر الجَزْلِ الرصين، تصوِّر هذا الأدب الخُلُقي الرفيع، بألفاظ أدبية رائقة، مزيَّنة بالتشبيهات البديعة، رأيتها في ديوان الأستاذ (أمير الشعراء) علي الجارم (١٢٩٩ ـ ١٣٦٨هـ) يصف فيها حواراً علميَّاً بين عالمَيْن كبيرين حول تصحيح كلمة، هما الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ حسين والي رحمهما الله تعالى، وفيها البشارة بالمستقبل العلمي الزاهر إذا كان الاختلاف أدبيَّاً، قال:

ويوماً مع الإسكندريِّ رأيته ... يُجاذِبُه فَضْلَ الْحَدِيثِ المشَقَّقِ
فَهَذَا يَرَى في لَفْظَةٍ غَيرَ مَا يَرى ... أخوه ويختارُ الدليلَ وَينْتَقي
فقلت أرى ليثاً وليثاً تَجَمَّعَا ... وأَشْدَقَ مِلءَ العَيْنِ يَمْشِي لأَشْدَقِ
وأَعْجَبَنِي رأيٌ سَلِيمٌ وَمَنْطِقٌ ... يَصُولُ على رأيٍ سليمٍ ومَنْطِقِ
وقد لوَّحتْ أَيْدِيهِمَا فكأنَّها ... إشاراتُ راياتٍ تروحُ وتَلْتَقِي
ولم أرَ في لَفْظَيْهِمَا نَبْرَ عَائِبٍ ... ولم أرَ في عَيْنَيْهِمَا لَمْحَ مُحْنَقِ
فقلتُ هِيَ الفُصْحَى بِخَيرٍ وَإِنَّهَا ... بأَمثالِ هَذَيْنِ الْحَفِيَّيْنِ تَرْتَقي

٢٠ ـ التواضع: فعلى طالب العلم ألَّا يمشي بطراً، ولا كبرياء، وإنما خافضاً للجناح، غير متعالٍ، قابلاً للنصيحة، حتى وإنْ صدرت ممن هو دونه، فيقبلها برحابة صدر، وبشاشة وجه، ولن يكون عالماً، إلا إذا أخذ العلم عمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثله، وعمَّن هو دونه، وعليه أن يُنزل الناس منازلها، من الاحترام، والتقدير، والوفاء.. وهو مهما بلغت مكانته العلمية، حتى ولو فاق شيوخه وأقرانه، فلا يزيده ذلك إلا تواضعاً وهضماً للنفس، بل كلما ازداد علماً ازداد تواضعاً، وهكذا هو حال طالب العلم.

❋ ❋ ❋

آيات من الذِّكر الحكيم، وأحاديث من السُّنَّة النبويَّة في فضل العلم تعلُّماً وتعليماً لله

الآيات والأحاديث التي تدل على فضل العلم، وفضل أهله مستفيضة، نذكر منها ما يأتي:

قال الله تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقَالَ تعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال تعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ**»[١].

وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[٢].

---

(١) رواه مسلم: كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (ح ٧٠٢٨).

(٢) رواه مسلم: كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (ح ٤٣١٠).

وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسـول الله ﷺ يقول: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ الله تَعَالَى، وَمَا وَالاهُ، وَعَالِماً، أَوْ مُتَعَلِّماً**»[(١)].

وعن معاويةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسـول الله ﷺ: «**مَنْ يُـرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**»[(٢)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسـولُ الله ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ في سَبيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ**»[(٣)].

وعن أَبي أُمَامَةَ رضي الله عنه: أنَّ رسـول الله ﷺ، قَالَ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أدْنَاكُمْ**». ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّـماوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّـى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَـا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ**»[(٤)].

وعن أَبي الدرداءِ رضي الله عنه قَالَ: سَـمِعْتُ رسـولَ الله ﷺ، يقول: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَـهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّـةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَـا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضـاً بِمَا يَصْنَـعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْـتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ في المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ**

(١) رواه الترمذي: كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، (ح ٢٣٢٠).

(٢) رواه البخاري: كتاب: العلم، باب: من يـرد الله به خيراً يفقهه في الدين، (ح ٧١)، ورواه مسلم: كتاب: الزكاة، باب: النهي عن المسألة، (ح ٢٤٣٦).

(٣) رواه الترمذي: كتاب: العلم، باب: فضل طلب العلم، (ح ٢٦٤٧).

(٤) رواه الترمذي: كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، (ح ٢٦٨٥).

يَوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ»(١).

والأحاديث في فضل العلم كثيرة فـــي هذا الباب، حتى إنه لا يكاد يخلو كتاب من كتب السُّـــنَّة، أو ديوان من دواوينها، من بابٍ يتحدَّث عن العلم وفضله.

* * *

---

(١) رواه الترمذي: كتاب: العلم، باب: في فضل الفقه على العبادة، (ح ٢٦٨٢).

الفصل الأول

في همَّتهم في محبَّة العلم، وشغفهم به

1 في هذه الأُمَّة العظيمــة رجال، جعلوا العلــم أغلى مرغوب، وأفضل محبوب، قدَّمــوا حبَّه على الأهل والمــال والولد، بل على كل معشوق مطلوب، لا يحبُّون غيره، ولا يأنســون بسواه، ولا لذَّة لهم من لذائذ الدنيا يحبونها مثل لذة العلم، فيه بذلوا المُهَج، وسكبوا العبرات، وســهروا الليالي وقطعوا الفيافي، ولأجله استسهلوا الصعاب، وخاضوا الشدائد، ولأجله جاعوا، وعطشوا، وأنفقوا أعزَّ أوقاتهم، وأَنْفَسَ أموالهم.

قال العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الماتع النافع «صفحات من صبر العلماء»[1]: «ومن بان له عِظَــمُ المطلوب، بذل في تحصيله كلَّ مرغوب! وقد أرشد إلى ذلك الإمام ابن هشام النَّحْوِيُّ، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن يصطبر للعلم يَظْفَــرْ بنَيْلِه ... ومَن يَخْطُبِ الحسناءَ يَصبرْ على البذل

وقبله قال الإمام ابن حزم الظاهري:

مَــنْ لــم يــرَ الـعـلـم أغلى ... مــن كلِّ شــيء يُصــاب
فــلــيــس يــفــلــحُ حتــى ... يُحثَــى عليــه التــراب!»

(١) (ص٣٠٥).

وكانوا ينظرون إلى ما يبذلون فيه من تعب، على أنه راحة تستحق ما يُضحَّى لأجلها، وينظرون إلى مشقة تحصيله، على أنها متعة ينعمون بها، بل كانـوا يعتقدون أن فَقْدَ الولد، وفلـذة الكبد، أخفُّ عليهم من فوات العلم!

وكانوا لا يُؤْثِرون على العلم لذَّة، ولا أُنْسَاً، ولا طعاماً، ولا شراباً، ولا زوجة، ولا تسرِّياً، ولا قريباً، ولا حبيباً، ولا راحة بدن، ولا ضجعة فراش..، ولو خُيِّروا بين العلم وبين كنـز دفين أو مُلك عظيم، لقدَّموا العلم دون تـردُّد أو حيرة، ودون حسـرة أو ذرَّة من نـدم على فوات ما فات! لأنَّ لـذَّة العلم فوق لـذَّة الملك والمال، وهـذا عند عقلاء الرجال، أصحاب النفوس العالية الشـامخة الشـمَّاء، التي ترى مُلوك الأرض وما مَلكوا دُونها! فللّه دَرُّهم ما أغلى العلم عندهم، وما أشـدَّ تعلُّقهم به!

إذا خاض في بحر التفكُّر خاطري وغاص على معنى دقيق لطالب
حظِيت بأنـواع السـعادة عاثراً على دُرَّةٍ من مُعضِلات المطالب
حقرت ملوك الأرض في نيلِ ما حوَوْا من العَرَضِ الأدنى برفعة جانبي
ولو نافسوني في المعالي غلبتُهم وقلتُ العُلى بالكُتْب لا بالكتائب

وفي «صفحاته»(١) أيضاً: «ورأَوْا أن ما هم عليـه من الفقر والجوع والنَّصَب والتقشُّف في الملبس والمسـكن: جُزءٌ من النعيم العاجل!، الذي لو علم به الملوك لقاتلوهم عليه بالسـيوف، فطابت نفوسـهم،

---

(١) (ص٣٥٨).

وجادت مواهبهم، ورأَوْا أنَّ الفناء في هذه السبيل هو الطريق الأمثل لرضوان الله، فللَّه دَرُّهم، ولله ما نالوا عاجلاً أو آجلاً».

ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَمِحْبَرَةٌ تُجالِسني نهاري ... أحبُّ إليَّ من أُنس الصديق
ورزمةُ كاغدٍ في البيت عندي ... أحبُّ إليَّ من عِدْلِ الدقيق
ولطمةُ عالمٍ في الخدِّ مني ... ألذُّ لديَّ من شُرب الرَّحيق

وإذا ما أصابهم همٌّ، أو حَزَبَتْهم شدَّة من شدائد الدنيا، أو وقعت بهم محنة من عظائمها..، كانوا يجدون تخفيف ذلك وتهوينَه، وربَّما دفعه في العلم وحده!، الذي يريح النَّفس ويُقِرُّ الفؤاد، فلا راحة ولا انشراح إلا فيه ومعه:

العلمُ آنَسُ صاحبٍ ... أخلو به في وحدتي
فإذا اهتممتُ فسَلْوتي ... وإذا سَلَوْتُ فلذَّتي

وأسوق بعد هذه المقدمة بعضَ أخبار العلماء في هذا الجانب:

2 فهذا الإمام الأكبر شيخ جامع الزيتونة محمد الطاهر ابن عاشور، (المولود سنة ١٢٩٦، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣)، الذي يصوِّر حبَّه للعلم وأُنْسَه به! كما جاء في ترجمته المطوَّلة في كتاب «شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور»[1] للعلاَّمة محمد الحبيب بن الخوجة: «**وإني لأحمد الله على أن أَودع فيَّ محبةَ العلم، والتوقَ إلى تحصيله وتحريره، والأنسَ بدراسته ومطالعته، سجيَّةٌ فُطِرْتُ عليها،**

(١) (١/١٦٥ ـ ١٦٦).

فخالطَتْ شغاف قلبي، وملأت مُهجتي ولُبِّي، وغرزت فيَّ غريزة نمَّتها التربية القويمة..، حتى أصبحت لا أتعلَّقُ بشيء من المناصب والمراتب تعلُّقـي بطلب العلـم، ولا آنسُ برفقةٍ ولا حديث، أُنْسِـيَ بمسـامرة الأسانيد والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حُبِّبَ إليَّ شيءٌ ما حُبِّبَتْ إليَّ الخلوة إلـى الكتاب والقرطاس، متنكِّبـاً كلَّ ما يجري حولي من المشـاغل. فلا تكاليف الحياة الخاصـة، ولا أعباء الأمانات العامة التي حُمِّلتها فاحتملتها في القضـاء وإدارة التعليم، حالت بيني وبين أُنسـي فـي دروس تضيء منها بـروق البحث الذكـي، والفهم الصائب..، أو في مطالعات وتحاريرَ أَخْلَصُ فيها نجيّاً إلى الماضين من العلماء والأدباء، الذيـن خلَّفوا لنا في آثارهم الجليلة ميادين فسـيحة ركضنـا فيها بالأفهـام والأقلام، ومرامـي بعيدة سـدَّدنا إليها صائب السهام!».

3 وهذا العلَّامة الفقيه الحنبلي المحقِّق، الشـيخ عبد القادر بن بدران، (المولود سنة ١٢٨٠، والمتوفَّى سنة ١٣٤٦)، جاء في ترجمته في كتاب «علَّامة الشـام عبد القادر بن بدران الدمشـقي، حياته وآثاره»[1] للأسـتاذ محمد بن ناصر العجمي: «هو الإمام العلَّامة المحقِّق المفسِّر المحـدِّث الأصولـيُّ المتبحِّر المتفنِّـن الشـيخ عبد القادر بن أحمد المشهور كأسـلافه بابن بدران الدِّمشـقي الحنبلي..، كان من العلماء الأجلَّاء، الذيـن أخذوا مـن العلم بحظ وافـر، وفضل سـافِر، ألَّف المؤلَّفات النافعة، في الحديث والفقه وأصوله والتاريخ، إلى غير ذلك

---

(١) (ص ١٤ ـ ١٨).

من الفنون الأخرى في علوم شتى.. قال: وقد كان في أثناء مطالعته وتكرار البحث والمراجعة وملازمة الخلوات، يروّح النفسَ ببعض الأبيات، وكان مما قال في العلم:

وَقَفْتُ النفسَ في طلب المعالي   وفي نشر العلوم مدى الزمان
أُحَرِّرُ كلَّ مُعْضِلَةٍ بشَوقٍ   كشَوق الوالهين إلى الأغاني
وطَبعي لا يميلُ إلى غير حَبْر   تَربَّى بين أزهار المعاني
أُسامرُ في الدُّجى نُدْمَانَ كُتْبي   فأسكَرُ لا بِكاسات الدِّنانِ
أُحِبُّ الكُتبَ وهي اليومَ مني   مكانَ الرُّوح من بَدَنِ الجَبانِ

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «إنني لمَّا مَنَّ الله عليَّ بطلب العلم، هَجَرْت له الوطن والوَسَن، وكُنت أُبكر فيه بُكُورَ الغراب، وأَطَّوَّف بالمعاهد لتحصيله، وأذهب فيه كلَّ مذهب، وأَتَّبعُ فيه كلَّ شِعْبٍ ولو كان عَسِراً، وأُشْرِفُ على كلِّ يافع، وأتأمَّل كُلَّ غَوْر!».

4 وهذا العلَّامة المحدِّث المؤرِّخ المحقِّق، الشيخ محمد بن عبد الهادي المنوني (المولود سنة ١٣٣٣، والمتوفَّى سنة ١٤٢٠)، الذي أنفق شطراً كبيراً من عمره بين ركام المخطوطات التي يكسوها غبار القرون، وتَعْبَث بكثير منها الأَرَضة التي أنهكت بعض المخطوطات، متعاونة مع الرطوبة التي ما قصّرت في المسح والمحو، ظل العلَّامة المنوني يبحث ويحقِّق ويؤلف ويفهرس!، على ما هو فيه من المتعة الإيمانية واللذة النفسية، حتى إن الأستاذ الشيخ عمر أفا قال فيما ينقله عنه الدكتور محمد بن عزوز في ترجمة المنوني في كتاب «غاية الاعتبار»[1]: «ففي سياق

---

(١) (ص ٢٣٩).

رغبته في استمرارية البحث، تحدَّث لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوماً، فقال: «**ترى هل توجد ضمن نِعم الله في الجنة نعمة ممارسة البحث العلمي؟!**».

سبحان الله! هذه أمنية المغرم المفتون، الذي اشتاقت نفسه إلى المعالي فاغترف منها ما اشتهى، ولكنه لم يكتفِ، وما كان لِيكتفيَ وله هذه النفس التوّاقة إلى نيل ما لم ينله أحد قبله، يظن أن نعمة العلم، لو كانت إحدى نِعم الجنة، لكان ذلك عظيماً عنده!

هكذا تكون أمنية مَنْ استحوذ حبُّ العلم على مجامع قلبه!

5 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ محمد الحامد الحَمَوي، (المولود سنة ١٣٢٨، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩)، الذي كان يقول عن شغفه العلمي فيما ينقله تلميذه الشيخ عبد الحميد طهماز في كتابه «العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد»[١]: «وتحدَّث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شغفه العلمي، فقال: وإني أحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره إيَّاي للتوسُّع العلمي، ووَضْعِه الشغف به في قلبي، حتى **إني لأُوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها، ولو أني خُيِّرْتُ بين المُلك والعلم، لاخترت العلم على المُلك والسلطان!**، وذا من فضل الله عليَّ وعلى الناس».

وقال طبيبه الخاص الدكتور محمد سلمان النجار[٢]: «حتى إنني سمعته مرَّة يقول: «**على حقارة شأني لو خُيِّرت بين المُلك، وما أنا فيه من لذَّة التحصيل العلمي، لاخترت ما أنا فيه!**». ويردِّد قول العارفين:

---

(١) (ص ٢١).

(٢) «العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» (ص ٧٨).

«لو يعلم الملوك ما نحن عليــه من لذة، لجَالَدونا عليها بالسـيوف».

وكتب لي في هذا مرغِّباً:

من ذاق طعم شـراب القوم يَدريه ومَـنْ دَرَاه غداً بالروح يَشْـرِيهِ
ولو تعـوَّض أرواحـاً وجاد بها في كلِّ لمحةِ عينٍ لا تُسـاويهِ[1]

6 وقال العلَّامة علي بن محمد بن حسين الحبشي (المولود سنة ١٢٥٩، والمتوفى سنة ١٣٣٣) متحدِّثاً عن اللذَّة التي وجدها في مجالسه العلمية مع شـيخه العلامة أبي بكر بن عبد الله العطاس (المتوفى سنة ١٢٨٠) أثناء طلبه للعلم: «**يا خير مجالس، مضت مع الحبيب أبي بكر إذا حرَّك شفتيه وأملى علينا من علمه الطري العذب معاد نُوَدِّيه يسكت، ولا عاد أشتهي لا طعام ولا شراب، بل لو خيِّرت بين الجنة ونعيمها، ومجالس الحبيب أبـي بكر لاخترت مجلس الحبيـب أبي بكر على نعيم الجنة!، وأود الدَّهر كله يعبـر في ذلك المجلس**». انتهى. كما في «فيوضات البحر الملي»[2] للشيخ طه السقاف.

7 وهذا العلَّامة القاضي الشـيخ عبد العزيز بن محمد الشثري «أبو حبيب» (المولود سنة ١٣٠٥، والمتوفَّى سنة ١٣٨٧)، كان وَلِعاً بحب العلم، كثيـر المطالعة في كتبه، شَـغوفاً بفوائده، حريصاً عليها أشـد الحرص، فهي أحبُّ على قلبه وألذُّ لنفسه من سائر المتع واللذائذ، بل غرامه بها وتطلُّعه إليها مقدَّم على فَقْدِ أغلى أعضائه إليه رَحِمَهُ اللَّهُ، جاء في ترجمته فـي كتـاب «إتحاف اللبيـب في سـيرة الشـيخ عبد العزيز

---

(١) البيتان مطلع لقصيدة ابن بنت الميلق محمد الشاذلي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) (ص٩٦).

أبو حبيب»[١]: «فهو يحب القراءة وسرد الكتب؛ حيث يمضي أغلب وقته. يُذكر عنه أنه لما فقد إحدى عينيه خاف أن الثانية تذهب، فاجتهد في القراءة يقرأ على نفسه، يأخذ الكتاب ويسرده، قرأ ـ على نفسه ـ أحاديث الصحيحين بأسانيدها، مع أنها قُرئت عليه كاملة..، واستفاد من قراءته فائدة كثيرة، حتى إنه يُقسم ويقول: «**والله إني لو أخيَّر أن ترجع لي عيني وأنسى هذه المعلومات التي استفدتها، لقلت: لا بل تبقى هذه المعلومات ولا ترجع عيني! من فوائد استفدتها صار سببُها فَقْدَ عيني!..**».

8 وهذا العلَّامة اللغويُّ أحمد فارس الشِّدْيَاق اللبناني[٢]، أحد أشهر لسانيي العرب في القرن التاسع عشر، (المولود سنة ١٢١٩، والمتوفَّى سنة ١٣٠٤)، أحد عشَّاق العربية وروَّاد اللغة القلائل، كان عشقه للعربية ـ كما يقول الأستاذ محمد الهادي المطوي ـ كعشق العاشق لمعشوقته؛ فقد أحبَّها إلى درجة الوَلَه!، بل العربية غريزة فيه من صغره، أَعْمَلَتْ فيه حبَّها، فسيطرت على قلبه وعقله.

يقول الشدياق متحدِّثاً عن نفسه في كتابه «سر الليال في القلب والإبدال»[٣]: «**هذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقاً، وكَلِفْتُ بها حقَّاً، حتى صرت لها رِقَّاً، فأزهرت لها ذُبالي، وسهرت فيها ليالي،**

---

(١) (ص٩٦).

(٢) يذكر أن يوسف الشدياق ولد مارونيّاً نصرانيّاً، لكنه أسلم فأضاف اسم أحمد لاسمه، وكان متقلب المزاج، بحسب مقتضيات ظروفه، فتقلَّب مراراً ـ بعدها ـ بين الإسلام والنصرانية، حتى إنه حين دفنه صُلِّيَ عليه أكثر من صلاة!

(٣) (ص١).

مُعْمِلاً فيهــا النظر، باحثاً عمَّا خَفي منها واســتقر، وخفــا وجهر، فلم يشــغلني عنها همٌّ، ولم يُصْدِفْني أَرَبٌ خصَّ أو عمَّ، فكانت أُنسي عند الوحشــة، وسُــلواني عند الحَزَن، وصفوي عند الكَدَر، وسروري عند الشَّجَن، فإني وجدتها قد مُزِّيَتْ بمزايا بديعة، وزُيِّنت بصفات سَنِيعة، تظهر معها بهرجةُ ما سواها شنيعة!».

وكان مفضِّلاً ذلك على أيِّ متعة من متع الحيــاة الأخرى، حتى إنه قال: «**وايمُ الله لَاستفادةُ كلمة واحدة من كلام العرب ثم إفادتها، أحبُّ إليَّ من الرُّتوع في روضة زاهرة ناضرة فيها شجر يحمل كلَّ فاكهة فاخرة!**»(١).

---

(١) «أحمد فارس الشديَاق: حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة» للأستاذ محمد الهادي المطوي (ص٤٦٣). وكانت أكبر ثمرة من ثمار هذا الحــبِّ العارم للغة العربية تآليفَه العديدة عنها، والبحث في دقائقها وأســرارها، ومن أهم آثاره كُتبه الماتعة النادرة في بابها؛ ككتابه «ســر الليال في القلب والإبدال»، و«منتهى العجب في خصائص لغة العرب»، وهو الكتاب الذي احترق ثم أعاد كتابته، و«الساق على الساق»، و«الجاسوس على القاموس» الذي كان نتاج غاراته المتكررة والحثيثة على المعجم اللغويِّ الشــهير «القاموس المحيط»، الذي عاش الشدياق في بطنه حتى أصبح القاموس في بطنه هو!، ولطالما بلع هذا القامــوسُ رجالاً وغرق في بحــره علماء، حتى جاء الشــدياق فأراد القاموس أن يبلعه فبلع القاموس، وأرد أن يُغرقه في محيطه، فاحتواه في أعماق جوفه، وخرج علينا بجاسوســه أي كتاب «الجاســوس على القاموس». يقول الأســتاذ محمد الهادي المطوي فــي كتابه المتقدِّم ذكره (ص٤٨٤): «أنه اســتطاع أن يَحُلَّ إشــكالات حروف المعانــي مثل (حتى)، فقال: ثــم إني قدَّمت أن حروف المعاني مُشــكلة، وأن الحتَّ والقشر والسلخ والثقب والخرق، وما شــابهها كلها أخوات القطع؛ فإذا ضُمِّنَتْ (حتى) معنــى القطع والحدِّ، هان كثير من وجوه إشــكالها، وهــذا كاف». وهكذا قُدِّرَ للشــدياق أن يجد حلّاً لهذا الحرف الذي أزعج القرَّاء من قبلُ (حتى) قال فيه: «أموت وفي نفسي من (حتى) شيء!».

9 وهذا العلَّامة المجاهد الكويتي الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، (المولود سنة ١٢٩٦، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣)، جاء في ترجمته في كتاب «شيخ الإسلام أبو شعيب الدُّكالي الصِّدِّيقي وجهوده في العلم والإصلاح..»[١] للدكتور محمد رياض: «هو مصلح الكويت الكبير الشيخ يوسف بن عيسى بن محمد القناعي..، كانت نفسه توَّاقة للمزيد من طلب العلم.. **وكان أكبر متعة له في الحياة قراءة الكتب، والاشتغال بشؤون العلم، والتصنيف فيه**. وكان يقول في القراءة:

وفيَّ لذَّة عند القراءة لم أجد بطول حياتي مثلها بنعيمي
وتلك لأني أستفيد فوائداً تُريح فؤادي من شفاء همومي
فيا ربِّ زوِّدني بحُسن درايةٍ وزِدْ ناظري في حدَّة العلوم

10 وهذا العلَّامة الفقيه المفسِّر الأصوليُّ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، (المولود سنة ١٣٢٥، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣)، صاحب «أضواء البيان» وقد صوَّر لنا نَهَمَه العجيب، وانشغالَه الشديد بطلب العلم في رَيْعان شبابه بقوله في كتابه «رحلة الحج»[٢]: «ومما قلت في شأن طلب العلم، وقد كنت في أُخريات زمني في الاشتغال بطلب العلم دائمَ الاشتغال به عن التزويج؛ لأنه ربما عاق عنه، وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي، يرغب في زواجي ويطمع فيه، فلما طال اشتغالي بطلب العلم عن ذلك المنوال، أَيِسَتْ مني، فتزوجت ببعض الأغنياء، فقال لي بعض الأصدقاء: إن لم تتزوج الآن، مَنْ تصلح

---

(١) (ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ـ ١٩٦).
(٢) (ص ٢١٤).

لـك؟ تَزوَّجَت عنك ذواتُ الحسـب والجمال، ولـم تجد من يصلح لمثلك، يُريد أن يَصرفني عن طلب العلم، فقلت في ذلك هذه الأبيات:

دَعاني الناصحونَ إلى النِّكاحِ غَـدَاةَ تَزَوَّجَت بِيضُ المِلاحِ
فقالوا لـي تـزوَّج ذاتَ دَلٍّ خَلُوبَ اللَّحْظِ جَائلَةَ الوِشاحِ
ضَحُـوكاً عن مُؤشَـرةٍ رِقاقٍ تَمجُّ الـرَّاحَ بالمـاء القَراحِ
كأنَّ لِحاظَهـا رَشَـقَاتُ نَبْلٍ تُذيـقُ القلـبَ آلامَ الجِراح
ولا عَجَـبٌ إذا كانت لِحاظٌ لِبَيضـاءِ المَحاجِـرِ كالرِّماح
فَكَم قَتَلَتْ كَمِيَّـاً ذا دِلاصٍ ضَعِيفاتُ الجُفونِ بِلا سلاحِ
فَقُلْتُ لهُـمْ دَعُوني إنَّ قَلبِي مِن الغيِّ الصُّراح اليوم صاح
ولي شُـغْلٌ بأَبـكارٍ عَذارى كأنَّ وُجوهَهـا ضوء الصَّباح
أَراها في المَهارِقِ لابِسـاتٍ بَراقِعَ مِـن مَعانيها الصِّحاح
أَبيتُ مُفَكِّراً فيهـا فَتَضْحَى لِفَهْمِ الفِـدْمِ خافِضَةَ الجَناح
أَبَحْتُ حَريمَهـا جَبْراً عليها ومَـا كانَ الحَريمُ بِمُسْـتَباح

قال الأستاذ محمد المجذوب معلِّقاً على هذه الأبيات أثناء ترجمته للشـنقيطي في كتابه «علماء ومفكِّرون عرفتهم»[1]: «**إنه مشغول بمتعة العلم عن الأنس بالزوجة، حتى ليَصرفُه التفكيرُ بالمعاني الغوامض عن حاجة نفسه، التي هي أشـدُّ ما تكون تفتُّحاً إلى ذلك الأُنس**. ولا جرم أنها طلائع حياة، لا يُستغرب أن تكون حافلة بروائع التفوُّق، الذي لم يلبث أنْ تجلَّى في ذلك الاستيعاب الموسوعي، الذي لا نعرف له مثيلاً في غير الكبار من أساطين العلماء، الذين نقرأ عنهم ونقرأ آثارهم!».

---

(١) (١/١٧٥ ـ ١٧٦).

11 وهذا الشيخ الأديب العلَّامة محمد سعيد أبو الخير القاسمي (المولود سنة ١٢٥٩، والمتوفَّى سنة ١٣١٧)، **كان مغرماً بالعلم عاشقاً له، فلا يُقبل على غيره، ولا يرضى بسواه من حظوظ الدنيا، ويكتفي به حظّاً لنفسه وأُنساً لقلبه**، حتى إنه نظم في ذلك قوله:

حظوظُ الناس لا تُحصى بحفظِ ... فهاك أجلَّها في حُسن لفظ
فَعِلمٌ ثم مالٌ ثم جاهٌ ... فَحَسبي أن يكون العلم حَظّي
أُطالِعُ من بدائعه فنوناً ... وأُبْعِدُ عن غليظ القلب فَظِّ[1]

وقال ابنه العلَّامة جمال الدين القاسمي المفسّر المشهور[2]: «**وكان لا يرى للعيش لذة ولا للحياة قيمة إلا في سبيل مطالعة الكتب، فلا يملُّ منها ليلاً ولا نهاراً، وربما قطع معظم الليل في ذلك، حتى كانت أدوات كتابته وما يطالعه جنب فراشه!**».

وقد اقتنى عن والده الشيخ قاسم كُتباً نفيسة، وأضاف إليها كتباً جديدة، وطالعها حتى استوفى ما فيها!. قال ابنه جمال الدين: «كان حريصاً على مطالعة الكتب، وجمع الفوائد، ملازماً لبيته لا يخرج إلا لصلاة الجماعة أو لمأربٍ صالح!»[3].

وكتب على ظهر كتابه «سفينة الفرج فيما هبَّ ودبَّ ودَرَج» هذين البيتين:

إذا لم أجد لي في الزمان مؤانساً ... جعلتُ كتابي مُؤْنِسي وجَلِيسي

---

(١) «آل القاسمي ونُبُوغهم في العلم والتحصيل» للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي (ص٢٤٤).
(٢) المرجع السابق (ص٢٠٦).
(٣) المرجع السابق (ص٢٠٢).

وأغلقتُ بابي دون من كان ذا غنىً وأمليتُ من مال القناعة كِيسـي[١]

12 وجاء في «الأعلام الشـرقية»[٢] للأسـتاذ زكـي مجاهد في ترجمة الشيخ العلَّامة عبد القادر شـنون العبادي البغدادي الكرخي، (المولود سـنة ١٢٨٢، والمتوفَّى سنة ١٣٢٨): «اشـتغل بالعلم والأدب ونظم الشعر والهجو والفكاهة الأدبية. وكان يحب الأسفار..، وعاش مُرْزَءاً منكوداً، لا يعرف من الرَّفَه والنعيم إلا لفظيهما، وعاش في بؤس إلى أن توفاه الله».

قلت: ومن عجيب أمره، أنه رغم فقره، وشدَّة إملاقه، **كان يجد راحة النفس وصفاء البال، وغذاء الـروح، ولذاذة العيش في مطالعة الكتب**، فكان يقول:

كتابي لا أَرُوم سـوى كتابي فكم خَفَّفْتُ فيه همومَ ما بي
أُجيل الطَّرْف فيه فيجتلي لي مخائل حكمة فـي كل باب
إذا غَمَزَتْ قنـاةُ الدهر قلبي أُداوي فـي مباحثـه مُصابي
لأن أخطأت في فكري ببحث ففيه قد هُديـت إلى صوابي
وإنْ شاهدت من قومي جفاءً يُسـليني بأقـوالٍ عِـذاب

ثم يقول:

تراه أخرسـاً وتـراه يحكي بأبلغَ ما تُريـد من الخطاب
كَتُـومٌ إنْ بَثَثْـتَ إليه سـرَّاً وإن حابَيْتَ غيرَك لا يحابي
فكم نادمتُـه بالليل وحدي فيُغنيني عـن الخُودِ الكِعاب

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٢) (١٠٦٥/٣).

وكم فيه سَكِرْتُ من المعاني فعِفْتُ لطِيبها طيبَ الشراب
تكفــل بالعلوم فــكلٌّ علم حــواه لا يؤول إلــى ذهاب
فمَن والاه نال هدىً وفضلاً ومن عــاداه راح إلى عذاب

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وأكتفي بهذا القَدْر.

***

الفصل الثاني

في همَّتهم في الجَلَد والمثابرة واستثمار الأوقات في طلب العلم

13 قال العلَّامة المفسِّر الشيخ جمال الدين القاسمي: «**العلم لا يناله إلا مَن جدَّ واجتهد، وأحيا الظلام، وصارع المنام، ووقف عمرَه على سبيله!**»(١).

ولقد صدق والله! فقد وقفنا على رجال عظماء كان العلم شُغلَهم الشاغل، حيث جدُّوا فيه واجتهدوا، وما فرَّطوا بدقيقة ولا لحظة من أعمارهم في غير العلم، وَلَجُوا فيه بعزيمة ماضية وهمَّة عالية، وقلوب مخلصة نقية، ونفوس تركت الدنيا من خلف ظهرها، فشمَّروا وسهروا وتعبوا وواصلوا الليل بالنهار في المطالعة، والبحث، والتطواف على الشيوخ من غير ضجر أو سآمة، يسابقون الزمن، بل قهروا أوقاتهم واستولوا عليها، وقسَوا على أنفسهم أيَّما قسوة، فلم تفتهم شاردة ولا واردة من العلم إلا وعَوْها أو قيَّدوها.

ثم إذا نظرت إليهم فلا تجدهم إلا في حلقة علم، أو في بطن كتاب، أو تحرير جواب..، وهكذا هو شأنهم من شقشقة الفجر وحتى هزيع الليل.

---

(١) «إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي» للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي (ص١١).

وإذا راموا درساً، أعدُّوا له قراءة، ومطالعة، في مراجع عديدة، ومصادر غزيرة، وربما أعادوا قراءة الدرس مرَّة تلو مرَّة، ثمَّ مرَّة ومرَّة، تارة في هذا الكتاب، وأخرى في غيره، فلا يشبع نَهَمَهم، ولا يروي ظمأهم، إلا البحث المستفيض المتتابع، والاستقصاء والإحاطة الشاملة بكل كبيرة وصغيرة.

وحالهم في شبابهم هو حالهم في شيخوختهم، الدَّأَب، والحرص، والمثابرة، والبحث والمتابعة، والتَّنقيب في بطون المطوَّلات، وأحشاء المخطوطات، بهمَّة لا تُخمدها القواطع، وعزيمة لا تُضعفها الشواغل.

وشغلوا أوقاتهم بالعلم في كل مكان: في الطريق، وفي العمل، وفي المسجد، وفي البيت، وفي السيارة، وفي السفر، حتى وهُم في جو السماء داخل الطيارة، أو في وسط الماء داخل باخرة تمخر عُباب البحار..، يتابعون العلم، ويدوِّنون الفوائد، بصبر ودَأَبٍ لا نفاد له، مما يقضي بالحيرة والدهشة، التي تأخذ بمَجامع القلب والنفس معاً.

ثم هم عن الدنيا في انقطاع، عن أفراحها وأتراحها، عن متاعها وجمالها، فقد استغنَوا بلذَّة العلم عن كلِّ متعة وشهوة، ورضُوا بالكتاب غذاءً، وبالعلم بديلاً أكيداً عن موائد السلطان ومناصب الحكَّام.

كانوا يطلبون العلم بجَلَد منقطع النظير، وبصبر لا مثيل له؛ حيث بذَّلوا فيه صحتهم وأموالهم، فراغهم ونهارهم، أَجهدهم التعب في تحصيله، واستحكم منهم الفقر أيَّما استحكام، فما خضعت لهم همة،

ولا لانت لهم عريكة. بقيت عزائمهم شمَّاء، وسواعدهم ثائرة لا يُوقِفها مرض، أو جوع، أو عطش، يغدون خِماصاً ويعودون بِطاناً. فللّه دَرُّهم ما أغلى العلم على قلوبهم ونفوسهم.

وها أنا أسوق نُتَفاً من أخبارهم، وشيئاً من آثارهم في هذا:

14 فهذا العلَّامة المحدِّث الفقيه الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، (المولود سنة ١٢٩٠، والمتوفَّى سنة ١٣٢٧)، يقول ابنه الشيخ محمد الباقر الكتاني في كتابه «أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني»[(١)]: «وكان إقباله على طلب العلم بصبر قوي، وذكاء فطري، وهمَّة سامية، ورغبة متناهية، فكان قليل الأكل جدَّاً، وربَّما كانت الكعكة التي تزوِّده بها والدته، تبقى عدَّة أيام في جيبه!

وكانت دروسه تقارب العشرة في اليوم، ولا يرجع لداره إذا خرج بعد الصبح إلا قُبيل المغرب، وكان من علوِّ همَّته يطالع على الدرس كتب المتقدِّمين في ذلك الفن، وكان يطالع على «المختصر» بالخصوص نحواً من عشرين ديواناً!

وكان شيخه أبو عبد الله الوزاني يقول إذا رأى محفظته تحمل كثيراً من الكراريس: هلَّا أتيت بحمار يحمل هاته الكراريس الكثيرة!».

15 وهذا العلَّامة الكبير والفقيه النِّحرير الشيخ أحمد محمد الزرقا، (المتوفَّى ١٣٥٧هـ)، يقول تلميذه الشيخ محمد الحامد ـ فيما ينقله عنه الشيخ عبد الحميد طهماز في كتابه «العلَّامة المجاهد الشيخ

---

(١) (ص ٧٥ ـ ٧٦).

محمد الحامد» ـ[1]: «كان في تلقِّيه عن والده الجليل الأستاذ محمد الزرقا رحمه الله تعالى، تمرُّ به سنون لا ينام من الليل إلا قليلاً، ويطالع نحواً من عشرين كتاباً علميَّاً فقهيَّاً على الكتاب الذي كان يتلقَّاه!

وكان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقِّق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة، التي سمَّاها «رد المحتار» وكان يرجع إليها، فيجده واهماً في بعض النُّقول!».

قلت: وكان رجوع الطلاب إلى المطوَّلات والنظر في عدد من المراجع الكبيرة، والتحضير منها لأجل الدرس الواحد، كانت هي العادة الدارجة والطريقة السائدة في هذا الجيل، وبها تميَّز وعليها نبغ. يقول العلَّامة حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية (ت: ١٤١٠هـ): «كان دَأَبُ النابهين من الطلاب إذ ذاك ألَّا يحضروا الدرس إلا بعد مطالعة الشروح والحواشي، وقد يضيفون إليها التقرير مطالعة دقيقة رغبة في العلم وتثبُّتاً منه، ويناقش بعضهم بعضاً في عباراتها ومفاهيمها، فتختلف الآراء والمذاهب فيها، فإذا ألقى الشيخ المحقِّق درسه، وشرح ما كتب فيه، وفنَّد الاعتراضات، وحقَّق الأجوبة، واستخلص الحقَّ من بين الآراء المتعارضة، عرف أولئك الطلاب ـ فيما تناقشوا فيه ـ الخطأَ والصواب. وكانوا يناقشون الشيخ مناقشة قوية، في أدب وحسن عبارة للتثبُّت وإزالة الشبهة. وكانت هذه الدراسة العالية شحذاً للأذهان، وتربية للمَلَكات، وتقوية للعارِضة، وتحقيقاً للقواعد، وتدريباً على الجدل والمناظرة، وعدَّةً لفهم المراجع التي لا تُدرس في الأزهر، والبحوث العالية في العلوم»[2].

---

(١) (ص ٢٣).

(٢) «حياة الشيخ عيسى منون» (ص ١٨١).

16 ونقل الشيخ طه السقاف في كتابه «فيوضات البحر الملي»[١]، ما قاله العلامة علي بن محمد بن حسين الحبشي (المولود سنة ١٢٥٩، والمتوفى سنة ١٣٣٣): «نحن أيام الشبيبة كنا بمكة نقرأ في «المنهاج»، ونطالع اثنا عشر شرحاً عليه، ونعلِّق معانيها كلَّها في أذهاننا، ونقرأ على الشيخ من حفظنا..، وقال: أيام طلبنا نحن والحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى نقرأ في «الإرشاد» حتى وصلنا عند ذكر (الضبة)، فذكر لها الشُّرَّاح ألف صورة، ونحن أوصلناها بالضرب إلى ثمانية عشر ألف صورة، كلُّ صورة مستقلة بنفسها».

17 وجاء في كتاب «جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي»[٢] في ترجمة العلَّامة الفقيه المفتي الشيخ عبد الرحمن بن محمد المشهور (المولود سنة ١٢٥٠، والمتوفَّى سنة ١٣٢٠): «كان ذا إقبال على طلب العلم، وجَدَّ واجتهد في التحصيل، ومما حكاه عن نفسه من صبره على الطلب، قال: كنت أقرأ اثني عشر درساً على مشايخي كل يوم، وأطالع في اثني عشر كتاباً، وسبع أو خمس حواشي!».

18 وكان العلَّامة المؤرِّخ اللواء الركن محمود شيت خطاب، (المولود سنة ١٣٣٨، والمتوفَّى سنة ١٤١٩)، ينفق من وقته وهو يحضِّر للدرس الواحد أكثر من ثلاثين ساعة!. على ما قاله العلَّامة محمد المجذوب في «علماء ومفكِّرون عرفتهم»[٣].

---

(١) (ص٤٣).

(٢) (١٠٢٣/٢).

(٣) (٣٤١/١).

19 وهذا العلَّامة الأصوليُّ الفقيه الشافعيُّ الشيخ عيسى منون، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٧٦) الذي وقف جهده على التحصيل، وحبس نفسه على الطلب، ووهب قلبه للعلم، لا يشغله شاغل ولا يصدُّه صادٌّ عما هو بسبيله. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ آية في همة المطالعة وتحصيل العلم.

جاء في كتاب «حياة الشيخ عيسى منون»(١): «يهتم بالمطالعة ويُؤثرها على جميع متع الحياة، قلَّ أن تراه إلا مُمْسِكاً بكتاب يقلِّب صفحاته، ويتأمل عباراته، ويقف على ما دقَّ وخفي من مسائله!».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يملأ ليله ونهاره في التحصيل، ومن غير توقُّف أو انقطاع عنه إلى غيره، بل لا يُعرف لهمَّته نظير في ذلك! وكانت مكتبته عامرة بالكتب، والمخطوطات النادرة، يفليها فلياً، قراءةً، وبحثاً، ومراجعةً، لا يَمَلُّ ولا يَكَلُّ من المطالعة، ويخوض بحر المطوَّلات غير هيَّاب ولا أيَّاب، يقول مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني: «قلَّ نظيره بين أهل العلم والدين.. **وقد كان له رَحِمَهُ اللَّهُ صبر وجَلَد على دراسة أكبر الكتب العلمية!»**.

«وكان لا يحضر درساً إلا طالعه قبل الحضور مطالعة تامة، ووقف على دقائقه، وأحاط بغوامض مسائله»(٢). وقال تلميذه فضيلة الشيخ رامز مسمار: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ دائم التحصيل، يواصل الليل بالنهار بالمطالعة والدرس، بشكل لم يكن له نظير بين زملائه!»(٣).

---

(١) (ص ١٧٢).

(٢) «حياة الشيخ عيسى منون» (ص ٨).

(٣) المرجع المتقدِّم (ص ٢١٥).

وفي وصف عزيمته يقول تلميذه الشـيخ العلَّامة عبد الله المراغي: «أقبل على الدرس والتحصيل بكل ما أوتي من قوة وفتوة.. فكان مثال الجِدِّ والمثابرة على التحصيل بين إخوانه.. لا يَمَلُّ المطالعة، ولا يسأم من التحصيل. يحرص على جمع الدقائق العلمية، حرصاً شديداً، ينقِّب عن الكتب الخطية النادرة ينســخها بنفسه، ويحرص على اقتنائها بكل وسيلة، ويبذل فيها كلَّ نفيس وغال، ويستســهل كلَّ صعب في سبيل الحصول عليها والتزوُّد من العلم»[١].

وهكذا فلتكن الهمم!

20 وجاء في كتاب «موسوعة أعلام المغرب»[٢]، تحقيق الأستاذ محمد حجِّي، في ترجمة العلَّامة الفيلســوف مَحْمَــد أحمد الرافعي، (المولود ســنة ١٣٠٣، والمتوفَّى سنة ١٣٦٠): «قال ابن سُــودة: مَحْمَد ـ فتحاً ـ بن أحمد الرافعي الأزموني نزيل الجديــدة وعالمها، صاعقة العلوم الفيلســوف المتكلِّم المحصِّل المطَّلع، مــن آخر الرجال الذين شاركوا في العلم، ودرسوه على الوجه الذي يجب أن يدرس ويعلم..، حرَّك قريحته، وأَنياط ينابيع فكره الدَّفاق، بما أوتي من كمال القابلية، والاســتعداد الفكري، بالاســتغراق في المطالعة!. اكتسب ذلك العلم الواسع. ومما ساعده على تلك الغزارة خلوُّ ذهنه من كلِّ علاقة تمتصُّ من قوة فكره، وراحةٌ مســتمرة، **فعاش عزبــاً لا تلتقي صفحة خدِّه إلا بصحيفة كتاب، ولا ينفتح جفنه إلا على بياض الورق وسواد السطور،**

---

(١) المرجع المتقدِّم (ص١٩٥).

(٢) لعبد الكبير المجذوب، ومحمد بن الطيب القادري (ص٣٠٨٢).

عَزوفاً عن الولايات والمناصب، إذا ذُكِرَتْ له فرَّ فرارَ الطير، وقد قضى حياته منهمكاً في المطالعة والبحث والنظر، وكثيراً جدَّاً ما كان يستغرق في ذلك الليل كلَّه حتى يغشاه شعاع الغزالة، عاش على ذلك دهراً.. أصيب قبل وفاته بضعف عصبي وبجفاف في الدماغ نشأ ـ طبعاً ـ عن كثرة النظر والسهر!».

21 وكان العلَّامة الفقيه المفسِّر الأصوليُّ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، المتقدمُ ذكره، صاحب جَلَد كبير، وكفاح طويل، في التحصيل وطلب العلم، وربما واصل ليله بنهاره في تحقيق مسألة، أو مطالعة كتاب، وكم له في ذلك من أخبار، منها: ما يحدِّثنا به تلميذه الشيخ عطية سالم فيما كتبه عن شيخه الشنقيطي وأودعه في مقدمة كتاب «رحلة الحج»(١) للشنقيطي: «أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في بداية طلبه للعلم ـ ذهب عند أحد الشيوخ يريد دراسة «لامية الأفعال» لابن مالك الأندلسي، فلما حضر إلى الدرس وجلس، ولم يكن يعرفه من قبل، فسأله من يكون في ملأ من تلامذته؟ فأجاب الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ مرتجلاً على البديهة:

هذا فتىً من بَني جَاكَانَ قَدْ نَزَلا ... بهِ الصِّبَا عن لسانِ العُرْب قَد عَدَلا
رَمَت بـه هِمَّـةٌ عَلْيَـاءُ نَحْوَكُمُ ... إذ شَـامَ بَرْقَ عُلوم نُورُهُ اشْتَعَلا
فَجـاءَ يَرجُو رُكاماً من سحَائبِهِ ... تَكسو لِسانَ الفَتَى أَزْهَارُهُ حُلَلا
إذْ ضَاقَ ذَرْعَاً بِجهلِ النَّحوِ ثُمَّ أَبى ... أَلَّا يُمَيِّزَ شَكْلَ العَيْنِ مِن فَعَلا
وَقَدْ أَتى اليومَ صَبَّـاً مُولَعاً كَلِفاً ... بالحمْـدُ للهِ لا أَبْغِـي لَـهُ بَدَلا

(١) (ص ١٨).

وقد مضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلب العلم قُدماً، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقران: أي: أن يقرن بين كل فنَّيْن حرصاً على سرعة تحصيله، وتفرُّساً به في القدرة على ذلك، فانصرف بهمة عالية في درس وتحصيل.

حدثني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ الكلام لعطية سالم ـ قال: جئت للشيخ في قراءتي عليه، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشفِ ما في نفسي على ما تعوَّدت، ولم يَرْوِ لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أَجِدُني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس، وإيضاح بعض المُشكل، وكان الوقت ظهراً، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتى المغرب، فلم أنته أيضاً، فأوقد لي خادمي أعواداً من الحطب أقرأ على ضوئها، كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من دروسي وزال عني اللبس، ووجدت هذا المحلَّ من الدَّرس كغيره في الوضوح والفهم فتركت المطالعة!

فقد بات مفكِّراً فيها فأَضْحَتْ لفهم الفَدْمِ خافضةَ الجناح

وإن هذا لَدَرس لأبنائه، ومنهج لطلاب العلم في الصبر والدَّأَبِ والمثابرة!»[1]. انتهى قول عطية سالم.

---

(١) ثم قال الشيخ عطية سالم معلقاً على هذه الحادثة: «وقد نفعني الله بهذه الحادثة في =

وكان يتمثَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقول الشاعر:

إذا ما قَتَلْتَ الشيءَ علماً فقلْ به ... ولا تَقُلِ الشَّيءَ الذي أنتَ جاهِلُهْ

فمن كان يهوى أن يُرى مُتَصدِّراً ... ويَكره (لا أدري) أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه

22 وهذا العالِم النبيل الحاذق الألمعيُّ المحدِّث الشيخ الشابُّ عبد الله بن محمد الدُّويش، (المولود سنة ١٣٧٣، والمتوفَّى سنة ١٤٠٨)، كان شديد الحرص على طلب العلم، كثير القراءة والتحصيل، دائم المتابعة لدروسه، وأعجبني ما جاء في ترجمته أنه «**ليست في حياته أوقات ميتة أو ضائعة**»[1]، ولا يعرف عن الدنيا ولا فيها إلا العلم والكتب ولقي الشيوخ، وكان الكتاب رفيقَه دائماً يقرأ فيه ماشياً، وقاعداً، ومضطجعاً، وكان من شدة حرصه على وقته يأكل الخبز مع الماء وهو يطالع في الكتاب ويقول: هذا أسرع في الوقت!، ونُقل عنه أنه كان إذا رأى ضوء سيارة قادمة رفع كتابه وقرأ على ضوئها!. ويقرأ أيضاً على ضوء النار إذا أشعلوها ليلاً، وربما طالع على ضوء القمر أيضاً!. وكان جلُّ وقته في العلم ولا يمنعه عنه إلا النوم أو دخول دورة المياه، وكان لا ينام إلا قليلاً، وإذا نام من شدَّة الإرهاق والتعب نام

= دراستي وتدريسي وخاصة في صورة مشابهة في الفرائض لم أكن درستها على أحد، وكان الاختبار في المقروء لا في المقرر. وتلك هي آفة الدراسة النظامية اليوم!، وكنت كلما ضجرت في تحقيقها، تذكرت قصته رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصبرت حتى حصلتها ولله الحمد والمنة. وكان من بعد الظهر إلى هزيع الليل. ولكن كم كانت لذتي وارتياحي» انتهى. «رحلة الحج» (ص١٩).

(١) كما في كتاب «المحدِّث عبد الله الدُّويش سيرته وأخباره وجهوده العلمية» للأستاذ نواف الرّعوجي (ص٦٠).

والكتاب قد سقط على وجهه، وقال أحد أصدقائه: «ولم يكن يضيع ولو لحظات قليلة من وقته». ونقل بعضهم: أنه كانت في منزله شجرة يفتح لها صنبور المـــاء كل يوم، ويقول: أرى أنني أفقـــد بهذه اللحظات وقتاً هاماً من أوقات الطلب!. وأخباره في هذا الباب طريفة، وهي مبســـوطة في كتاب «المحدِّث عبد الله الدُّويش سيرته وأخباره وجهوده العلمية»[١].

23 وهذا العلَّامة الفقيه المحدِّث النَّحْوِيُّ الأديب محمد محيي الدين عبد الحميد، (المولود ســـنة ١٣١٨، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣) الذي كان رَحِمَهُ اللَّهُ نزَّاعاً للعلم، شـــغوفاً به منذ نشـــأته الأولى، قراءةً وتحصيلاً وتأليفاً وتحقيقـــاً، ثم لم يدع ذلك يوماً واحـــداً! على ما يقوله العلَّامة محمد رجب البيومي كما في «النهضة الإسلامية»[٢].

وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا صبر عجيب على البحث والمطالعة والتحقيق؛ إذ يروي لنا الأستاذ علي محمد إسماعيل شـــيئاً من هذا فيقول: «إنه كان يجلس أمام البروفات أكثر من عشر ساعات، لا يمل؛ إذ كان له أكثر من خمسة كتب في وقت واحد!».

ويحدِّثنا أيضاً: «أن جلســـة الأســـتاذ الواحدة تمتدُّ عدة ســـاعات، لا ينهض منها إلا لصلاة أو قضاء حاجة، ثم يستأنف العمل!...، وكنت أظنُّ أنه يستريح في المنزل ولكنني عرفت أنه يقضي أكثر الليل ساهداً يُهيئُ الجديد بعد صبر على التحقيق، وكدٍّ في المراجعة والتنقيب!».

---

(١) وذلك تحت عنوان: الحرص على العلم (ص٦٠)، وأيضـــاً تحت عنوان: الحرص على الوقت (ص٦٣).

(٢) (١٢٥/٢ ـ ١٣٤).

ويقول العلَّامة البيومي: «ولولا ما أودعه الله في صدره من الحماسة الدافعة لعانى من مداومة البحث ما يدفع إلى الكَلَل والانقباض؛ لأن كل عام يأتي بأعبائه، والرجل الدؤوب لا ينقطع عن المراجعة!».

24 وهذا العلَّامة اللغويُّ الأديب الشيخ محمود شكري الألوسي، (المولود سنة ١٢٧٢، والمتوفَّى سنة ١٣٤٢) جاء في ترجمته في كتاب العلَّامة أحمد تيمور «أعلام الفكر الإسلامي»(١) أن الألوسي رَحِمَهُ اللهُ قال عن نفسه: «.. فوصلت الليل بالنهار في التحصيل، وفارقت أخداني وأقراني، وانزويت عن كلِّ أحد!. فأكملت قسماً عظيماً من الكتب المهمة في المنقول والمعقول، والفروع والأصول. وحفظت غالب متون ما قرأته من الكتب المفصَّلة والمختصرة! وأدركت ما لم يدركه غيري، ولله الحمد!».

وجاء في «العلماء العزَّاب» للعلَّامة عبد الفتاح أبي غدة في ترجمة الألوسي: قال تلميذه الشيخ محمد بهجة الأثري: «وكان يعتبر الوقت ثميناً لا يُضيع منه شيئاً أبداً، وكان شديد الثبات جَلِداً على البحث والتنقيب والنسخ والمطالعة، لا تعرف هِمَّتُه الملل ولا الكسل..، وإذا استحسن كتاباً عَاوَدَ مطالعته ولو كان مجلدات!».

ثم قال الأثري: «أحبَّ الألوسيُّ اللغة العربية..، وأصبحت جزءاً من فكره ومن حياته ومن جهاده، ومن بيِّنات هذا: ما كان من تَقَصِّيه جهد استطاعته، وإلحاحه في هذا التقصِّي لما أُلِّف فيها وفي علومها المتعددة

(١) (ص ٣١١).

من كتب، وعكوفه على ما يَظفر به من هذه الكتب، يتملَّى بدائعَها ورُواءَها، ويتفقَّه في أسرارها، ويتعمَّق فلسفتَها، وصَبْرِه، واستشعارِهِ اللذة كلَّ اللذة في هذا الصبر على قراءة أعظم مطوَّلات المعجمات مرة بعد مرة، (كلسان العرب) الذي قرأه ثلاث مرات من أوله إلى آخره بالترتيب قراءةَ تدبُّر وإمعانِ نظر! ـ وهو في عشرين مجلداً ـ لِتَتَمَثَّلَ في ذهنه هيآت المفردات ويتعمَّقَ حِسُّه اللغويُّ. ولعل كتاب (لسان العرب) من أيسر ما قرأ واستوعب في عمره المديد!. وهل هذا إلا أثر العشق الذي غلبه!»[1].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يحبسه عن درسه شدَّة الحر، أو قوة البرد، بل كان يؤنِّب تلاميذه إذا حبسهم ذلك عن الدرس، فيروي لنا الأستاذ عدنان عبد الرحمن الدوري في تحقيقه لكتاب «إتحاف الأماجد فيما يصحُّ به الاستشهاد» للألوسي[2]: «امتاز درس أبي المعالي بالجدِّ الشديد، ومحاضراته بالطرفة، فكان لا يُثنيه عن دروسه حَمَارَّة القَيْظِ، ولا يؤخِّره عنها قَرْصُ الشتاء، ولطالما تعرض تلاميذه بسبب تأخُّرهم أحياناً إلى النقد والتعنيف. قال عنه تلميذه الأستاذ الأثري: أذكر أنني انقطعت في يوم مزعج، شديد الريح،

---

(١) قال العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة معلِّقاً: «فللَّه درُّه على الصبر العجيب والجَلَد الشديد، فإن القلَّة من العلماء من يصبر على قراءة المادة الواحدة كلِّها في «لسان العرب» من أوله إلى آخره ثلاث مرات، قراءة تدبُّر وتأمُّلٍ وإمعانِ نظر: آية ناطقة بحبِّه وعشقه للغة العربية، وتذوُّقه لها، ولذاذته بها، ولولا ذلك لما صبر على قراءة مجلد واحد من هذا السِّفر الكبير، فضلاً عن قراءة عشرين مجلداً ثلاث مرات. ولولا البينات الساطعة والشواهد القاطعة في كتبه وآثاره اللغويَّة على ذلك، لعُدَّ خبرُ قراءته (لسان العرب) ثلاث مرات، من المبالغة والكلام المتروك!». وانظر من هذا الكتاب: فصل: في همتهم في قراءة وإقراء الكتاب الواحد مرة بعد مرة.

(٢) (ص ١٥).

غزيـر المطر، كثير الوحـل، عن الحضـور ظنَّاً مني أنـه لا يحضر، فلما شخصت في اليوم الثاني إلى الدَّرس صار ينشد بلهجة غضبان:

(ولا خير فيمن عاقَهُ الحَرُّ والبردُ!).

25 وكان العلَّامة الفقيه الفرضي الشيخ المعمَّر محمد بن سليمان الجرَّاح الكويتي، (المولود سنة ١٣٢٢، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، لا يحسب للإعياء حسـاباً، كما لا يفتح إلى السأم باباً، بل ينقطع في العلم دراسة ومطالعة ومباحثة وحفظاً، ومثابرة مستديمة، وسهراً طويلاً صيفاً وشتاءً، وهو الذي قال متحدِّثاً عن وَلَعِه بالعلم وصبره عليه: «العلم لا يدركه إلا من تكون له همة عالية تحمله على الصبـر للطلب، وعلى المثابرة في الدرس، حتى يلين الصلب ويسهل الصعب، فتنكشف مُخْدَراتِ المعاني وتتجلَّى شمس العلوم والمعاني، إذ مِنْ شروط اكتساب العلم والحصول عليه الصبر والأناة والرغبة في ما عند الله»[(١)].

وعن جَلَده على العلم وحرصه عليه قال الدكتور عبد الله يوسـف الغنيم: «يَذْكُرُه تلاميذه أبداً منكبَّاً على القراءة والكتابة كأنما يخشى أن تنقضي من عمره لحظة لا يتعلم فيها!»[(٢)]. وأخبـاره عجيبة في ذلك، وهذه مشاهد يحدِّثنا بها تلميذه الشـيخ وليد عبد الله المنيس في كتابه «عالم الكويت وفقيهها وفرضيُّها الشيخ محمد بن سليمان الجرَّاح»[(٣)]:

---

(١) كما في كتاب «عالـم الكويت وفقيهها وفرضيُّها الشـيخ محمد بن سـليمان الجراح» للدكتور وليد المنيس (ص٣٠٤).
(٢) كما في المرجع المتقدِّم (ص: ب).
(٣) (ص٣٢، ٣٣، ٦٠، ٦١، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ١٣٧).

«وظهر.. وَلَعُه وشَغَفُه بقراءة الكتب، فقد كان محبًّا لقراءة الكتب، فما أن ينتهي من قراءة كتاب عِلم إلا ويشرع في كتاب آخر. وكان يحب أن يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره..، ولم أره تاركاً لقراءة الكتب».

وقال: «كان الشيخ محمد الجرَّاح حريصاً على الاستزادة من العلم ما وسعه ذلك، بل لا تكاد تراه إلا وبيده كتاب يقرؤه، أو رسالة علمية يتأملها، أو يكتب حاشية، أو تعليقاً على متن.. وكان لحرصه على الوقت وعدم إضاعته يستشهد بفعل العلَّامة ابن الجوزي الذي إذا زاره أحد الناس فيما يشغله عن القراءة والتصنيف وطلب العلم وتعليمه، عَمَد إلى بَرْي أقلامه وإعداد أوراقه ريثما ينصرف جليسه. والشيخ من هذا الطراز».

وقال: «وأثناء الغزو العراقي على البلاد صار معه احتباس بول وأُجريت له عملية.. وكثيراً ما تحبسه الكُحَّة والسُّعال، وربما تغير صوته..، وإذا طلبنا منه أن يقطع الدرس إذا رأينا أثر المرض عليه، رفض التوقُّف، ولا يُوقف الدرس ويقول: «من يريد أن يستمع وينتفع يبقى، ومَنْ لا يريد يذهب». ثم قال: «فلم يكن يوقف الدرس مهما اشتدَّ به المرض، ولم يقطع التدريس إلا عندما أُدخل المستشفى لإجراء عملية..».

وقال: وأعجب من ذلك أنه أثناء الغزو والاحتلال قرأنا عليه كتاب «الروض المُرْبِع»، مما يدل على حرصه على التعليم واستغلال الوقت حتى في أحرج الساعات!».

«وسمعته ينشد في الحثِّ على طلب العلم:

الجَدُّ بالجِدِّ والحرمان بالكسل   فانْصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غايةَ الأمل»

«ومن ذلك أنه إذا رأى شخصاً يُكثر من اقتناء الكتب دون أن يقرأها، أو يكثر من ذكر الكتب ولا يعرف إلا أسماءها، تجده يذكر هذا البيت:

العلم ليس ما حوى القِمَطْرُ   ما العلم إلَّا ما حواه الصدر

والقمطر: خزانة الكتب.. ولا تجد كتاباً في مكتبته إلا وقد اطلع عليه»(١).

وأرسل رسالة إلى أحد أصحابه يحثُّه فيها على طلب العلم والاستزادة منه، ومما جاء فيها قوله: «وما ألطف ما قيل في فضل العلم:

العلمُ مَغْرِسُ كلِّ فخرٍ فاجتهد   أن لا يفوتك فضلُ ذاك المَغْرِسِ

واعلم بأن العلم ليس ينالُه   مَنْ هَمُّهُ في مطعم أو مَلْبسِ

واحرص لتبلغ فيه حظَّاً وافراً   واهجر له طيب المنام وغلِّسِ

---

(١) ولقد احتوت مكتبته التي كان ينادمها ـ كما يقول المنيس ـ على أهم المصادر والمراجع لأُمَّات كتب الحنابلة وشروحها، وكتب التفسير، واللغة، خاصة قواميس اللغة ومعاجمها..، وبعض المخطوطات الأصلية والمصوَّرة..، وكتب النحو كـ«الألفية» وشروحِها لابن عقيل، والأشموني، وحاشية الخضري، وغيرها من كتب النحو.. والعقيدة، والفرائض، والحديث..، أما الكتب المطبوعة في مكتبته فهي كثيرة ويصعب حصرها!. والأعجب من ذلك ـ كما يقول المنيس أيضاً ـ: «وقد حَلَّى هوامش وحواشي هذه الكتب بتعليقات نفيسة، وتحريرات وجيهة، وتصحيحات دقيقة، وإشارات لطيفة؛ فقهية، ولغوية، وحديثية. كما زيَّن طُرَرَها ومقدماتها..». وقال: «وقد رأيت العجب العجاب من عناية الشيخ بالمخطوطات، حتى إن أحدنا ليخيَّل إليه أن الشيخ يحمل طفلاً رضيعاً بين يديه، يحتاج إلى العناية والحرص التام في حمله ووضعه ونقله!». كما في كتاب «عالم الكويت وفقيهها وفرضيُّها الشيخ محمد بن سليمان الجرَّاح» (ص٢٩٥، ٢٩٦).

لِتَعُزَّ حتـــى إنْ حضرت بمجلس كُرِّمت فيه وصرتَ صدرَ المجلسِ
إنَّ الخَلِـيَّ مِـن العلــوم مقامُهُ عند النعال له صُموت الأخرسِ

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا تسأم من طلبه تعلُّماً وتعليماً وحفظاً ومطالعة وكتابة، لأجل أن تناله وتُعطاه، فإنه لا يدرك بالراحة والأَشَر، بل بالطلب والسَّهَر، فمَن أَلِفَ السُّهَاد، وترك الوِساد والمِهاد، وجاب البلاد، نال المُراد، ومَن طلب وجَدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب ولجَّ ولَجَ، ومن أَلِفَ السآمة والنوم، لم ينل ما نال القوم»(١). قال تلميذه المنيس: «وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت في ذلك:

تَمَنَّيْتَ أن تُمسي فقيهاً مناظِراً بغير عناء والجنــون فنونُ»

قلت: وقد صرفه انشغاله بالعلم عن الزواج حتى مات الشيخ عَزَباً ما تزوَّج ولا تسرَّى، ولا التفت إلى ملاذِّ الحياة ومُتَعِها، انصرافاً منه إلى العلم، وذَوَباناً في تعلُّمه وتعليمه. فرحمه الله ما أغلى العلم على قلبه وأعزَّه على نفسه، وهكذا فلتكن الهمم وإلا فلا.

26 وهذا العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن محمد النتيفي، (المولود سنة ١٣٠٣، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥) الذي كان يدرِّس طلابه وهم على ظهور الدَّوابِّ والحرب قائمة!، جاء في كتاب «مختصر ترجمة شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبي زيد الحاج عبد الرحمن النتيفي الجعفري»(٢) للشيخ حسن عبد الرحمن النتيفي: «قال الشيخ محمد زحل: حرص الشيخ على ملء أوقات الطلبة بالدرس والتحصيل، حتى إنه يدرِّسهم

(١) كما في المرجع المتقدِّم (ص ٢٠٥، ٢٤٦).
(٢) (ص ٨ ـ ٩).

العلم أثناء السفر وهم على ظهور الدَّوابِّ!، ولم يكن يَحُولُ بينه وبين ذلك حالةُ الحرب القائمة التي لا تضع أوزارها!».

27 وكان بعض العلماء لشدَّة انهماكه في المطالعة وعدم تضييع وقته إذا أتاه النوم وهو يطالع اكتحل بالملح، فتجدد نشاطه وأكمل مطالعته كما في ترجمة العلَّامة المفتي شيخان بن محمد الحبشي (المولود سنة ١٢٥٩، والمتوفَّى سنة ١٣١٣)، قال تلميذه الشيخ العلَّامة محمد بن هادي السقَّاف، كما نقل عنه الشيخ طه السقَّاف في كتابه «الأنوار الساطعة والفوائد الجامعة»[١]: «وكنت عند شيخنا الحبيب شيخان بن محمد الحبشي، وتذاكرنا نحن وإياه في المجاهدات، فقال الحبيب شيخان: كنت أيام طلبي للعلم إذا جاءني النوم أكتحل بالملح!». قلت: ومَن يحتمل ذلك؟!

وشيخان هذا «كان سريع المطالعة، طالع «تفسير الخازن» في أربعة أيام مطالعة بحث وتحقيق، وكتب عليه تعليقات!» كما في ترجمته في كتاب «إدام القوت»[٢].

28 وهذا العلَّامة المحدِّث المفسِّر الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، (المولود سنة ١٢٨٣، والمتوفَّى سنة ١٣٣٢)، كان يقتل وقته في المطالعة والتدريس وتأليف الكتب، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**العلم لا يناله إلا من جدَّ واجتهد، وأحيا الظلام، وصارع المنام، ووقف عمره على**

---

(١) (ص ١٤٥).

(٢) (ص ٦٢٩).

سبيله!». وعندما وصفه صديقه الشيخ رشيد رضا قال: «العامل المُجِدُّ الذي يقتل وقته كلَّه في التدريس والتصنيف، وتصحيح الكتب النافعة»[(١)].

وجاء في كتاب «إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي»[(٢)] للشيخ محمد بن ناصر العجمي: «جمال الدين القاسمي لم يكن يضيع ساعة من وقته، فقد كان منصرفاً للتدريس والتصنيف، حتى إنَّه لِشدَّة محافظته على وقته كان يصطحب معه في جيب جُبَّته أوراقاً بِيضاً، وقلماً من الرصاص، ليدوِّن ما سنح من خاطره، ولو كان في الطريق، أو السوق، أو القطار..!».

ونقل العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء»[(٣)] عن الأستاذ عاصم البيطار قولَه: «باشر التدريس - يعني القاسمي - وهو في الرابعة عشرة من عمره، ولم ينقطع عنه حتى اختاره الله إليه، وكان لتلاميذه الكثيرين مجالس مرتبة في المسجد والدار، في الليل والنهار، وهو على ذلك كلِّه ألَّف وصنَّف، ولخَّص ونسَّق، واستفاد من كلِّ دقيقة من وقته!. وقد تحسَّر مرَّةً وهو واقف أمام مقهى امتلأ بأناس فارغين يُزْجُون الوقت في اللهو والتسلية، فقال لبعض محبِّيه: آه، **كم أتمنى أن يكون الوقت ممن يُباع لأشتريَ من هؤلاء جميعاً أوقاتَهم!**».

---

(١) «إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي» للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي (ص١١).

(٢) (ص ١٠ - ١١ - ١٢).

(٣) (ص١٥١).

وكان القاسمي نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «وأذهب المولى بفضله عن عُبيده حُبَّ البطالة وصرف الأوقات سُدىً، فطالعت من كتب الأدب والتاريخ ما لا أحصي»[1].

ويقول: «من يُضيع وقته إنما يفقد أكثر ممن يُضيع دراهمه!».

ويوصي أحد أصحابه فيقول: «احفظـوا أوقاتكم جدًّاً، وادْأَبُوا على المطالعة، وحفظ ما يهمُّ من الأصول والمتون، وعوِّدوا أنفسـكم على كتابة مقالات، وإنشـاء جمل في الموضوعـات الهامات، ولا تُخملوا أنفسكم بالتقصير عن اللحاق بالسـباق؛ فالزمان ما ترى، والعاقل من تبصَّر وتصَبَّر وجارى، وما الإنسان إلا ابن جِدِّه»[2].

29 وهذا العلَّامة الفقيه المحقِّق الشـيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي، (المولود ١٣١٢، والمتوفَّى سنة ١٣٩٢). رزقه الله الصبر والجِدَّ والاجتهاد وقوة الجَلَد على التعب في جمع العلوم، قال تلميذه الشيخ عبد الله بن جبرين[3]: «رزقه الله الصبر بحيث لا يعتريه ملل ولا سآمة، فأكبَّ على المطالعة والبحث والاسـتفادة والتنقيب عن أفراد المسائل وأماكن الأدلة حتى نال ما تمناه!». وقال: «تعجَّبت من صبره وتجشُّمه المشقة والتعب في المطالعة والكتابة، رغم كبر السِّنِّ، ولكنَّ الله تعالى أمدَّه بقوة البدن، ومتَّعه بقوة السـمع والبصر!». «واسـتمرت مطالعته ومحبته للكتب حتى عندما كَبُر ومَرِض وسـاءت صحته. قال الشـيخ

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء» (ص١٥١).

(٢) المرجع السابق (ص١٥١).

(٣) «الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ حياته وسيرته ومؤلَّفاته» (ص٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥٥).

محمد بن إبراهيم: عجبت من هذا الرجــل، زرته في مرضه، فوجدت عنده الكتب يقرأ ويحرِّر!»[١].

وقال الشــيخ عبد الملك القاســم حفيد المترجَم[٢]: «وقد ذكر لي العمُّ الشيخ سعد أمراً عجباً منه رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: كان لدينا في المزرعة عمال يحفرون بئراً، فلما زاد الحفر والعمق، وكأنَّ همتهم ونشاطهم قلَّ، كان الجَدُّ ينزل بكتبه وهم يحفرون البئر ويقول: أنتم تعملون وأنا أعمل!».

ثم قال: «وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يكتب في كل وقت وينقــل كتبه وأوراقه معه أينما ذهب، ولا تراه إلا في عبادة، أو جالساً لإكرام ضيف، أو يكتب، وكان يكتب بعد الفجر والظهر والعصر حتــى أذان المغرب. وكان له محفظة يضع فيها أوراقه وينقلها معه في كل مكان، حتى إنه يرقى على مرتفع من الأرض ليشــرف على أعمال المزرعة ويكتب. وقد ذكر لي العمُّ عبد العزيز: أن الجَدَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ في الليل، ثم يطفئ الســراج لينام، فإذا به يعود ويُشعل السراج مرة أخرى ليكتب، وهكذا ينام ويستيقظ!».

30 وكان العلَّامة محدِّث الشــام الأكبر الشيخ الإمام محمد بدر الدين الحسني، (المولود ١٢٦٧، والمتوفَّى سنة ١٣٥٤) قد نذر عمره كلَّه للعلم وتحصيله في الليل والنهار، لا يعرف الكلل ولا الملل في ذلك، ترجم له تلميذه الشيخ علي الطنطاوي في كتابه «رجال من التاريخ»[٣] وقال: «رجل عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جرى فيها بغير العلم

---

(١) المرجع السابق (ص٢٥ ـ ٢٩).

(٢) المرجع المتقدِّم (ص٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٣) (١٣٤/٢، وما بعدها إلى ١٣٨).

لسانُه.. ما ترك الدرس قَطُّ ولا يومَ وفاته، وما تركه إلا ساعة احتضاره، الرجل الذي لبث ثمانين سنة، ما مسَّ جنبُه الأرض، وما اضطجع إلا في مرض الموت..، وما نام كما ينام الناس، بل كان يجلس في الليل ليقرأ، فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أُعِدَّتْ له فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل متقطعات ومن النهار ساعة..، تخلَّف عن قافلة العلماء الأولين: إبراهيم والحسن وسعيد والسفيانَيْن ليجيء وحده في آخر هذا الزمان.. كان عجباً في علمه وإحاطته..، عجباً واللهِ لا ينقضي به الإعجاب، كان فهرساً حيّاً لكلِّ مخطوط ومطبوع من الكتب..، يقرأ دائماً لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائماً أو في صلاة أو درس، أو في طريقه من المسجد إلى البيت، ما فارق الكتب قطُّ، ما أحبَّ في الدنيا غير الكتب، فكان يشتري الكتاب يسمع به ولو كان مطبوعاً في أقصى الهند، ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهباً، ولا يدع كتاباً حتى يقرأه..، وكان يقرأ ويُقرئ أبداً ما شاء وشاء الطالبُ..، عاش أكثر من ثمانين سنة، وما عاش في الحقيقة إلا يوماً واحداً أعيد ثلاثين ألف مرَّة.. كان ينهض من منامه بعد نصف الليل، وما كان ينام في الحقيقة وإنما كان يجلس يقرأ الليل كله كتلميذٍ ليلةَ الامتحان، فإذا غلبه النُّعاس أمال رأسه على الوسادة فأغفل ثم أفاق والمصباح إلى جنبه..، هو ابن نفسه، شيخُه كتابُه.. اشتغل وحده وأقبل على المطالعة، ما ترك النظر في الكتب ساعةً من نهارٍ عمرَهُ كلَّه، وما ترك الإقراء قطُّ..».

31 وهذا العلَّامة المحدِّث الفقيه المحقِّق الشيخ محمود بن أحمد ياسين، (المولود سنة ١٣٠٤، والمتوفَّى سنة ١٣٦٧)، جاء في

ترجمته التي أوردها ابنه مأمون ياسين في مقدمة كتاب «الرحلة إلى المدينة المنوَّرة»[١]: «حافظ، محدِّث، فقيه..، أفنى عمره بالعلم والعمل، وحرص على وقته لا يضيع ساعة، فلا يُرى حتى في سويعات فراغه إلا مُمسكاً بكتاب يقرأ، أو بقلم يكتب [يقول ابنه مأمون: وكانت مكتبته في بيته حافلة بالنفائس والنوادر]... ومن طريف ما يروي رفاقه وتلامذته عنه، في مصيفه في الهامة، أنه كان يدير جلسات الحوار والمناقشات العلمية وقلمه بيده يكتب في مفكراته أو بحوثه أو بعض مطالعاته وهو معهم في سمرهم وأحاديثهم ساعات طويلة، وكثيراً ما كان يُرى أثناء طعامه مُمسكاً بكتابه، **حتى إن أهله كانوا يضعون له الخبز لقيماتٍ ليستطيعَ أن يأكلَ باليُمنى وكتابه في يده اليسرى!**». حرصاً منه على وقته ألَّا يضيع في غير فائدة علمية.

وقال الشيخ محمد العربي العزوزي في كتابه «إتحاف ذوي العناية»[٢]، في ترجمته: «العلَّامة الفاضل المحدِّث البحَّاثة المطَّلع الشيخ محمود ياسين..، **جمع مكتبة قلَّ أن يُوجد مثلُها في الشام، اشتملت على نفائس الكتب، ولا يخلو كتاب منها إلا وكَتَبَ عليه استدراكاً وتصحيحاً!**؛ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يدع القلم من يده، ولا تجده إلا كاتباً أو مطالعاً أو مذاكراً، وقد أسف المسلمون لموته لأنه ما ترك مثله في الاجتهاد والتحصيل والصبر والجَلَد!».

---

(١) (ص ١٤، ١٦).

(٢) (ص ٤٧).

32 وهذا العلّامة الفقيه الأديب البارع الماهر عبد الجليل أفندي برادة المدني، (المولود سنة ١٢٤٢، والمتوفّى سنة ١٣٢٧)، كان رَحِمَهُ اللَّهُ منقطع النظير في الدأَب وتحصيل العلوم ومواصلة الليل والنهار في القراءة، وكان يطالع على سراج واهي الذبال ويقول:

يطيب لي أن أسهر الليالي   في طلب العلوم والكمالِ
على سراجٍ واهي الذبال   حتى أُرى في العلم كالغزالي

وكان له ما أراد، وذلك بجِدِّه واجتهاده، جاء في كتاب «أعلام من أرض النبوة»[1]: «فقد كان أديباً بارعاً ماهراً بحقٍّ وشخصيةً مرموقة، فلم يُعرف على مستوى المدينة والحجاز فقط بل سطع نجمه اللامع على مستوى آفاق الدول الإسلامية». وفيه أيضاً: «حاز الشيخ عبد الجليل أفندي برادة المدني من قِبل مؤرِّخي عصره على لقب «أبي العلاء المعرِّي الثاني».. وهذا يدل على تميُّز الشيخ عبد الجليل بالعلم والفصاحة والفلسفة، وغير ما حاز عليه من الألقاب من قبل المؤرِّخين الآخرين في الدولة العثمانية في تلك الحقبة».

33 وهذا العلّامة اللغويُّ المحقِّق الأستاذ محمود الطناحي، (المولود سنة ١٣٥٣، والمتوفّى سنة ١٤١٩)، كان ذا جَلَدٍ شديد في طلب العلم وتحقيق المخطوطات، وله حماسة أكيدة في إخراجها إلى النور والذَّبِّ عنها، وقد أفنى عُمُره في ذلك، حتى إنه ـ كما يقول الأستاذ أحمد العلاونة: ـ «امتزج بها امتزاجاً عجيباً، حتى إنه لا يكاد يتنفس

---

(١) (ص ٣٠٦ - ٣٠٧).

غير هوائها، وجعل التراثَ همَّه وسَدِمه، ونسخ كثيراً من المخطوطات له ولغيره، حين لم تكن آلات تصوير المخطوطات ميسورة..، وكان يعطي الكتاب ما يحتاجه من العناية والجِدِّ والاجتهاد، والتأنِّي والتَّريُّث، وطول البحث والتَّثبُّت والتوثيق!»[١].

جاء في كتاب «محمود الطناحي عالم العربية وعاشق التراث»[٢] للعلاونة: «كان منهوماً بالعلم ـ على الطريقة القديمة ـ ومجالسة العلماء والتعظيم لهم، والأخذ عنهم، فحصَّل من بطون الكتب وأفواه الرجال ومجالسة العلماء علماً غزيراً، ووَعَتْ حافظتُه أخباراً وشواهدَ ومعارفَ قلَّ أن تجدها عند غيره.

كان هو وأستاذنا الدكتور عبد العظيم الديب حفظه الله، أول الداخلين إلى دار الكتب المصرية، وآخر الخارجين منها! يركضان

---

(١) «محمود الطناحي عالم العربية وعاشق التراث» (ص٣٠).

(٢) (ص١٥ ـ ١٨). ويذكر لنا العلاونة عزيمة الطناحي وقدرته العجيبة في تعلُّم (العَروض) فيقول: «عندما كان ـ الطناحي ـ يعمل مع بعض المستشرقين، الذين كانوا يحلُّون بمصرَ لإنجاز تحقيقاتهم التراثية، وكان من هؤلاء المستشرق الألماني (هانس روبرت رويمر)، وفي أثناء قراءة الطناحي معه للنصِّ جاء هذا البيت:

ملك منشد القريض لديه ... يضع الثوب في يدي بَزَّازِ

فسأله المستشرق: من أي بحر هذا البيت؟ فأطرق الطناحي ـ كما يقول ـ إطراقة بلهاء، تبعتها ضحكة أشدَّ منها بلاهة، فقال له المستشرق منكراً متعجِّباً: طالب بدار العلوم متخرِّج من الأزهر لا يعرف العَروض؟! فكان هذا دافعاً للطناحي لأن يُعنى بالعروض، فعاد إلى بيته، واستخرج منه كتاب «المذكِّرات الوافية في عِلمَي العروض والقافية» للشيخ عبد الفتاح شراقي، فانكبَّ عليه، لا يكاد يدير وجهه عنه صباح مساء، حتى لانت له البحور وطُوِّعت له.. حتى كان الفارس المجلِّي فيه!».

في تحصيل العلم ركضاً، ينسخان ويقرآن، ويفهرسان، ويجالسان أهل العلم، يتعلَّمان ويتدارســان، يقضيان اليوم بطولــه في صبر ودأَب، يعالجان النصوص التراثية المخطوطة ونماذجها، نسخاً وقراءةً وحلّاً لمشكلاتها، واســتجلاءً لغوامضها، وقد آتى ذلك كلُّه ثِمارَه، وتلك سنوات الكفاح والجِدِّ والتحصيل!». وهكذا هي همة الأفذاذ، وهكذا تكون الهمم.

34 وجاء فــي كتاب «الإعــلام بمن حلَّ مراكــش وأغمات من الأعلام»(١) للســملالي و«رياض الجنــة»(٢) لعبد الحفيظ الفاســي في ترجمة الشيخ العلَّامة الفقيه محمد بن إبراهيم السباعي (المتوفَّى سنة ١٣٣٢هـ): «الفقيه المفتي الأصولــي المحدِّث اللغويُّ المؤرِّخ..، دَؤوباً على التدريس صيفاً وشــتاءً، ليــلاً ونهاراً، يمكث فــي مجلس الفقه الثلاث ساعات، فيباحث نُقَّادَ الطلبة الذين يحضرون مجلسه ويسائلهم ويســتخرج ما عندهم، ويحرِّك هممهم ويحضُّهم على الأخذ في تَعَلُّم العلم بالجِدِّ والاجتهاد، وكثيراً ما كان يُنشد في دروسه:

قالت مســائل ســحنون لقارئها ... بالدرس يُدرَك مني كلُّ ما استترا
لا يُدرك العلم بطَّالٌ ولا كَسِــلٌ ... ولا مَلُولٌ ولا مَنْ يألف البَشَــرا

35 وهذا الشــيخ المفسّــر الفقيه العلّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (المولود ســنة ١٣٠٧، والمتوفَّى ســنة ١٣٧٦): وكانت أوقاته مليئة بالقراءة، والكتابة، والتأليف، والعلم، والتعليم، والفتوى..، وكان

---

(١) (١٩٣/٧).
(٢) (ص ٤٨).

له مكان ـ طيني منعزل مساحته صغيرة تقع في متر ونصف طولاً ومثل ذلك عرضاً، يوجد فيه بساط ومتكأ يتكئ عليه ـ بأعلى درج المنزل يجلس فيه للقراءة والكتابة والتأليف:

وعالم يسكن بيتاً بالكرى وجاهل يملك دوراً وقرى
لما قرأت قوله سبحانه نحن قسمنا بينهم زال المرى[١]

يقول حفيده الأستاذ مساعد السعدي: «وقد روت لي الوالدة ـ حفظها الله ـ وهي تتذكر تلك الأيام التي يجلس فيها والدها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك المكان الضيق الطيني الذي خرج منه المؤلَّفات العظيمة ـ أنها كانت تراه معظم أوقاته والقلم بيده، والدفاتر والأوراق بجانبه. وتتذكر أنه كان يجاذبها الحديث، ويده تكتب!، فلا يَمَلُّ من الكتابة ولا التأليف!»[٢].

ومن هذه الحجرة الصغيرة المتواضعة خرج تفسيره الشهير المسمَّى «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»[٣]، قال عنه الدكتور بكر أبو زيد: «فإني لا أعلم في النجديِّين مَن له تفسير كامل لكتاب الله تعالى بهذا السَّبْك والجودة، فقد قضى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الدَّين عن من قبلَه، وسبق مَن بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!»[٤].

(١) «المجموع» في ترجمة الأنصاري (٤٧٢/١).
(٢) من كتاب (تراجم ص٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٣) رحم الله النضر بن شُمَيل، فكأنه كان يعنينا حين قال قولته العظيمة في الخليل بن أحمد شيخ العربية، يقول النضر: لقد عاش الخليل بن أحمد في مِربد من مرابد البصرة، لا يجد قوت يومه، وأصحابه يأكلون بعلمه الأموال!
(٤) المرجع السابق (ص٢٣٨).

36 وهذا العلَّامة المؤرِّخ الشيخ عبد الله بن محمد غازي المكِّي، (المولود سنة ١٢٩٠، والمتوفَّى سنة ١٣٦٥)، كان لا يفرط بدقيقة واحدة تفوته في غير مطالعة الكتب وتدوين الفوائد، حتى إنَّه ألَّف كتابه العظيم عن تاريخ مكة «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» أثناء بيعه الكحل في دولابه بمكة! على ما يقوله الشيخ محمود سعيد كما في كتابه «تشنيف الأسماع»(١).

وكان يضحِّي بنفيس أوقاته في تأليف الكتب، جاء في «سير وتراجم» لعمر عبد الجبَّار(٢): «وهذا ـ أي التأليف ـ لا يَحول بينه وبين طلب العيش، فإذا مررت عليه تجده في مدخل رباط الحنابلة نصب له دولاباً صغيراً في جزء منه وضع فيه شيئاً من الكحل وورق الكتابة بين يديه لتقييد ما يريد تقييده!».

37 وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي (المولود سنة ١٢٨٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥١) الذي يُعَدُّ أعظم شاعر في العربية بعد أبي الطيب المتنبي!..، ولم يبلغ هذا المجد إلا بالجِدِّ والنشاط الذي ساعده على قراءة كلِّ آثار العرب، فلَمْ يدع كتاباً لم يقرأه!. على ما يقوله العلَّامة أنور الجندي.

وبلغ الغاية في الجَلَد حتى إنه قال رحمه الله ـ كما جاء في كتاب «من أعلام الفكر والأدب»(٣) للعلَّامة أنور الجندي، وذلك حين اختلى بمكتبته في منفاه ـ: «اصطحبت مكتبتي وسائر مَرافقي وغادرت مصرَ

---

(١) (٦٧٣/١ ـ ٦٨٠).

(٢) (ص ١٠٣).

(٣) (ص ٥).

إلى برشلونة، فأدخلت أولادي المدارس الراقية، **ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربي، فاستوعبت منها ما لم أكن قد استوعبت، وطالعتها كلَّها!، حتى أكاد أقول إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه!.** وتوفَّرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها، فحصلت على ثروة لم أَفُزْ بها من قبل!».

وكان يقول مِن نظمه رَحِمَهُ اللهُ:

أنا من بدَّلَ بالكُتْب الصِّحابا ... لم أجدْ لي وافياً إلا الكتابا
صاحبٌ إنْ عِبتَهُ أو لم تُعِبْ ... ليس بالواجدِ للصاحبِ عابا
كلما أخلقْتُهُ جدَّدني ... وكساني من حُلَى الفضلِ ثيابا
صحبةٌ لم أَشْكُ منها ريبةً ... ووداد لم يكلِّفْني عِتابا
رُبَّ ليلٍ لم تقصرْ فيه عن ... سَهَرٍ طالَ على الصمتِ وطابا
إن يجدْني يتحدثْ أو يجدْ ... مللاً يطوي الأحاديث اقتضابا
تجدُ الكُتْبَ على النقدِ كما ... تجدُ الإخوانَ صِدْقاً وكِذبا
فتَخَيَّرْها كما تختارُهُ ... وادَّخِرْ في الصَّحْبِ يبغيكَ الصوابا
صالِحُ الإخوانِ يبغيكَ التُّقى ... ورَشِيْدُ الكُتْبِ يبغيكَ الصوابا

أقول: وهذا الجِدُّ والنشاط هو ما فتح له البابَ واسعاً ليبلغ الذروة وكمال الإبداع في شعره، حتى قال عنه طه حسين: «فشوقي في رأيي أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي!»[1]. وهذا القول كاد أن يُجمع عليه نُقَّادُ الشِّعر والأدب!

(١) من كتاب «زكي مبارك» للجندي (ص١٥٩). وهذا المجد الذي بلغه أمير الشعراء أحمد =

38 وهذا شاعر النيل الأديب الكبير حافظ إبراهيم، (المولود سنة ١٢٨٧، والمتوفَّى سنة ١٣٥١) الذي اعتكف مدَّة طويلة من حياته على قراءة الكتب ومتابعة الأدب، جاء في ترجمته في كتاب «من أعلام الفكر والأدب»(١) للأستاذ أنور الجندي: «وعاش حياته أعزباً منطوياً على نفسه في دار الكتب عشرين عاماً!».

ظلَّ منكبّاً على القراءة والمطالعة حتى أصبح ـ كما في نظر طه حسين وغيره ـ زعيم الشعر العربي المعاصر، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين!(٢).

39 وهذا الكاتب الكبير الشاعر الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي، (المولود ١٢٩٣، والمتوفَّى ١٣٤٢)، الذي لم يوفَّق في دراسته الأزهرية،

= شوقي ظلَّ مفخرة له ولكلِّ مَن دنا منه أو حام حوله!..، ولقد طلب شوقي من الدكتور زكي مبارك أن يكتب له مقدمة «لشوقياته»، يقول زكي مبارك كما جاء في كتاب «زكي مبارك ـ دراسة تحليلية لحياته وأدبه» للجندي (ص١٥٩): «فشاء لطفه وكرمه ـ يعني شوقي ـ أن يدعوَني لكتابة المقدِّمة، بعبارة ما زلت أذكر نصَّها بالحرف: (سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية، وستكتب أنت مقدمة أدبية)..، ورجعت إلى نفسي، فتذكرت أن المقدِّمات يُلتزم فيها الترفُّقُ، وذلك ما يَجْمُل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي..، وأسرعت فكتبت إليه خطاباً قلت فيه: إني لا أستطيع كتابة المقدِّمة التي ينتظرها أمير الشعراء!.. قال مبارك: وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب، قابلت الدكتور طه حسين، وأخبرته بما وقع، فغضب أشدَّ الغضب، وقال: ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت، ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص الشرف؟! لو طلب شوقي مني ما طلب منك ـ وأنا خصمه ـ لاستجبت بلا تردُّد!، فشوقي في رأيي أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي!». انتهى قول طه حسين.

(١) (ص١٥).

(٢) «من أعلام الفكر والأدب» (ص١٩).

ولكن هذا الإخفاق لم يَنَلْ من عزمه، ولم تخمد له هِمَّة، بل واصل القراءة بصورة منقطعة النظير، وداوم على مطالعة كتب الأدب والعربية، غايةً في الدَّأَب والنشـاط..، إلى أن صار نابغة الكُتَّاب ورأس الأدباء!، كما يقول العلَّامة محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية»[١].

وصار يقرأ ويحفظ كلَّ ما تقع عليه يده من الكتب العلمية والأدبية، وصاحَـبَ العلماءَ والأدبـاء وأربـاب الكتابة، على ما فـي «الأعلام الشرقية»[٢] لزكي مجاهد.

40 وهذا الأسـتاذ الأديب الدكتور زكي مبارك أحد كبار كُتَّاب العربية المعاصرين، (المولود سـنة ١٣٠٨، والمتوفَّى سنة ١٣٧١)، كان شـديد التحصيل دائم القراءة لا يعرف الفراغ لا في صيف ولا شتاء، حتى إنه لمَّا تحدَّث عن حافظته الخارقة! قال معلِّلاً[٣]: «ما اسـتطعت ذلك كلَّه، لأن ذاكرتي أقوى من سائر الذاكرات، أو لأني أذكى من سائر الناس، **وإنما اسـتطعت ذلك لأني لا أعرف المسـامحات في صيف ولا شتاء!**، ولا أذكر أنني انقطعت عن الدرس في يوم من أيام الدراسة والأعياد، حتى أيام البواخر، قرأت فيها أشياء، وكتبت أشياء!».

وقال[٤]: «هل رأيت رجلًا قبلـي يؤلِّف الكتب الجديدة في البواخر والقطارات والسيارات؟ ومَنْ يصدِّق أني أُنفق في سبيل الورق والمِداد

---

(١) (١٦٥/٢).

(٢) (٨١٥/٢).

(٣) «زكي مبارك» (ص ٢٠).

(٤) المرجع السابق (ص ١٤٠).

أضعافَ ما يُنفق بعض الناس في سبيل الطعام والشراب؟!».

وفي أحد الأعياد يحتفل الناس بالعيد ويتسابق الأقرباء والأصدقاء والأحبَّاء بالفرحة والبهجة بالعيد، ولكن زكي مبارك كان يقول[١]: «أما أنا فوحيد في غرفتي، لا أنتظر أحداً، ولا ينتظرني أحد!». نسيه الناس وما نسيه المجد ولا أقلام التاريخ!

وكان لا يشعر بالوحدة في خلوته وهو يحمل قلمه ويجلس بين كتبه وأوراقه فيقول[٢]: «**أنا خير منكم جميعاً، أنا في نعمة من الله، لا أبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم، وإن الله لَأَكْرَمُ من أن يضطرَّني إلى مُصانعة جماعة من الكسالى لا قيمة لهم في هذا الوجود!**».

41 وهذا العلَّامة الفقيه الأصولي المؤرِّخ محمد بن عفيفي الخضري، (المولود سنة ١٢٨٩، والمتوفَّى سنة ١٣٤٥)، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عن خمسة وخمسين عاماً، قضاها بين كتبه وبحوثه حتى شاب رأسه وشاب!، قال العلَّامة محمد رجب البيومي في «النهضة الإسلامية»[٣] معقِّباً: «ولكن صورته الشمسية ذات اللحية الكثيرة البياض تُعطي أكثر من هذا السِنّ.. ـ ثم يعلِّل ذلك بقوله ـ: **وقد يكون تعجيل الشيب وتكاثر الغضون من آثار الجهد العلمي لكاتب متوثِّب لم يُرِحْ نفسَه يوماً واحداً من القراءة والتأليف!** وقديماً قيل:

---

(١) المرجع السابق (ص٣٢).

(٢) «زكي مبارك» (ص٢٣).

(٣) (٢٨٧/١).

وما شاب رأسي سنين تتابعت   عليَّ ولكن شيَّبتني الوقائع

42 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[(١)] للعلَّامة عبد الحي الحسني في ترجمة الفقيه ديوان شمس الدين الجيبوري رحمه الله تعالى: «الشيخ الصالح الفقيه، كان شديد الانهماك في مطالعة الكتب والمذاكرة، حريصاً على جمع الكتب النفيسة..، رأيته في كِبَر سِنِّه ولقيته فوجدته منهمكاً في المطالعة وبيده «المصنَّف» لابن أبي شيبة!».

قلت: شاب شعره وشاب وما شابت همَّته وما فتر عزمه عن تحصيل المعارف والعلوم، وما أشبع نهمه من المطالعة ولا ولعه عن اقتناء كتبها والنظر فيها.

43 وكان علَّامة الشام ومؤرِّخ القرن الثالث عشر الأستاذ عبد الرزاق البيطار، (المولود سنة ١٢٥٣، والمتوفَّى سنة ١٣٣٥)، على شيخوخته «**لم تكن كتب العلم تنزل عن يده إلا لحاجة ضرورية!**». على ما يقول حفيده العلَّامة محمد بهجة البيطار في ترجمته في تقدمته لكتاب «حلية البشر في رجال القرن الثالث عشر»[(٢)].

44 وجاء في كتاب «جهود فقهاء حضرموت»[(٣)] في ترجمة العلَّامة الفقيه النَّحْوِيِّ القاضي محسن بن جعفر بونمي العلوي، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٧٩): «أما شغفه بالكتب

---

(١) (١٢٤٤/٨).
(٢) (ص ١٨).
(٣) (١٢١٨/٢).

والمطالعة، فشيء معروف عنه، بل يقول عارفوه: إنه لم يُعرَف عنه قَطُّ أنه انقطع عن القراءة والمطالعة..، بل كان كلما تقدمت به السِّنُّ كان أكثر تفرُّغاً للعلم والتحصيل، وخلَّف مكتبة قيمة من نوادر الكتب، كان ينفق عليها بسخاء، وتُعَدُّ أكبر مكتبة خاصة في القطر الحضرمي حسب أقوال تلاميذه وعارفيه». ولشغفه الشديد بالقراءة والمطالعة كان ـ على ما جاء في ترجمته من كتاب «شذور من منجم الأحقاف»(١) ـ «لا يكاد يُرى إلا وفي يده كتاب!».

45 وقال الشيخ مجد مكيٌّ في ترجمة أستاذه العلَّامة المفسِّر المفكِّر الشيخ عبد الرحمن حبنَّكة الميداني (المولود سنة ١٣٤٥، والمتوفَّى سنة ١٤٢٥) ـ كما في كتابه «رجال فقدناهم»(٢) ـ: «كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد الحرص على وقته، فلا يكاد يُرى إلا قارئاً أو كاتباً، أو محاضراً أو مناقشاً، وكان ذا دأَب وجَلَد على العلم المتواصل». قلت: وهذا ما أهَّله لأن يكون ـ كما يقول الشيخ مجد مكي ـ: «موسوعي الثقافة، واسع الاطلاع» وذا نتاج علمي غزير متميز في العمق والشمول، مع تمكُّن من علوم كثيرة.

46 وهذا مفتي بغداد الفقيه المفسِّر العلَّامة الشيخ قاسم القيسي (المولود سنة ١٢٩٣، والمتوفَّى سنة ١٣٧٥) قال الأستاذ محمود شيت خطاب في ترجمته ـ كما في كتاب «رجال فقدناهم»(٣) ـ: «كان حريصاً

---

(١) فيما ينقل عنه محقِّق كتاب «إدام القوت» (١٤٨/١) في الهامش.
(٢) (١٠٠٧/٢).
(٣) (١٠٤/١)، وهو من جمع وإعداد الشيخ مجد مكي حفظه الله.

على العلم، وكان في بَدْء أمره يجتهد عند أهله في البيت، ويسهر الليل بطلب العلم، فكان والده يأمره بالنوم ولا يحب له السهر الكثير شفقةً عليه، فكان الشيخ القيسي يأبى إلا السهر الطويل المتواصل مجتهداً باحثاً، فعاتبه أبوه ولامه..، وكان لا ينام غالباً إلا إذا أنهكه السهر، وربما وقع الكتاب من يده وهو في إغفاءة قصيرة!». وخروجاً من عتاب أبيه ولومه قال تلميذه الشيخ محمد صالح السهروردي: «انحاز إلى (جامع الفضل) اختياراً للتجريد، وحصولاً على الفائدة التي يتوخَّاها من دون تقييد» كما في «لبِّ الألباب»(١).

ولذلك تفرغ لطلب العلم بجِدٍّ لا يُجارى واجتهاد لا يُبارى، بل تجده كما يقول تلميذه السهروردي: «عاكفاً على مطالعة الأسفار في حلك الأظلام وانبلاج الأسفار، لا يعتريه سأم، ولا يعْتَورُه ضجر، اتخذ الكتب العلمية جليسَه، والتحريرَ سميرَه وأنيسَه».

وكان لا يعوقه عن درسه حَرٌّ ولا يُفْتِرُ عزمه برد، وكان لا يَمَلُّ أبداً، حتى إن بعض المشاركين له في الدرس ـ كما في «لب الألباب»(٢) ـ كان يَكَلُّ ويَمَلُّ من التقرير، والمترجم ينشد بلسان حاله ومقاله:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

47 وهذا العلَّامة المؤرِّخ الأستاذ عثمان بن محمد الكعاك (المولود سنة ١٣٢١، والمتوفَّى سنة ١٣٩٦) الذي كان يتقن سبع لغات،

---

(١) (ص ٣١٨).

(٢) (ص ٣١٣).

وقد أعانه ذلك على قراءة عشرات الكتب، ذكره الأستاذ أنور الجندي في كتابه «آفاق جديدة في الأدب»[١] فقال: «عثمان الكعاك مؤرِّخ الحضارة الإسلامية، وهو قد جاوز السبعين ولكنه ما زال مليئاً بالحيوية والتفتح، وقد جاء من تونس بعد أن أَولى خزانتَها العامة أكثر من ثلاثين عاماً وقرأ وتابع جُذاذات وأضابيرَ وأسماءَ لمئات الكتب التي أُلِّفَتْ في الشرق والغرب عن حضارة الإسلام» ثم قال: «إنه أقدر المؤلِّفين المعاصرين في مجال الحضارة الإسلامية..، **الرجل الذي لا يمكن أن يكون هناك كتاب هام قد وُضع عن الحضارة الإسلامية في الغرب دون أن يطالعه أو يعرف مضمونه!**».

48 وهذا العلَّامة المحدِّث الفقيه المؤرِّخ اللغويُّ المحقِّق الشيخ عبد الفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة (المولود سنة ١٣٣٦، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يضيِّع دقيقة من عُمُره في غير البحث والمطالعة، وكان في البحث طويل النفس لا يكلُّ ولا يملُّ ولو طالت به المدَّة ما طالت، وقد يأخذ منه البحث لأجل نقطة أو حرف أو كلمة شهوراً طويلة بل سنينَ بعيدة، فلا تفتر له همة وهو يطالع موسوعات ضخمة ومعاجم كبيرة، بل لا يهدأ له عزم أبداً!

قال تلميذه الشيخ العلَّامة محمد عوَّامة: «جئت على سيدي الشيخ يوماً وأدخلني على العادة غرفة الضيافة، فرأيت المقاعد ـ على كثرتها وسعتها ـ مفروشة بالكتب، لا أجد واحداً يمكن الجلوس عليه، فقلت له متبسِّماً: خيراً إن شاء الله! فقال: مرَّت بي كلمة في هذا الكتاب،

---

(١) (ص ٢٠٩ ـ ٢١١).

ومنذ ثلاثة أشهر وأنا أتعب في الكشف عنها، فانكشفت الآن والحمد لله، فلذلك جئت بالكتب إلى هنا واحداً بعد واحد، وكشفت فيها كلِّها عن موقع هذه الكلمة منها! يقول المؤلِّف عن الإمام الشافعي رضي الله عنه: إنه يعمل (بالإحالة)، فلم يتضح لي مراده منها، فراجعت كثيراً، وسألت عنها فلاناً وفلاناً من مشايخي، فلم أجد عندهما جواباً، والآن وقفت على أن صوابها الإخالة ـ بالخاء المعجمة ـ من قولك: خال يخال، إذا ظن وحسب، وهي: مسلك من مسالك التعرُّف على العلة في باب القياس، من كتب الأصول».

وعقَّب عليها الشيخ محمد عوَّامة بقوله: «فمن أجل نقطة في الكلمة بحث عنها هذا البحث الطويل المتواصل، واهتم وسأل، ولم يَفْتُر، وكان بإمكانه أن يفعل ما يفعل غيره من أدعياء الألقاب الكبيرة في التحقيق وخدمة التراث، فيهمل الكلمة مطلقاً، أو أن يكتب كلمة تجهيل وتحيير للقارئ فيقول: كذا في الأصل! وعلى القارئ والعلم والتحقيق السلام!!»(١).

وقد تُبهم عليه ـ مثلاً ـ ترجمةُ عَلَمٍ من الأعلام فيستمر سنينَ طويلةً وهو يكشف عن ترجمته! جاء في كتابه: «تحقيق اسم الصحيحين»(٢) قولُ الشيخ رحمه الله: «يقول الإمام البخاريُّ وهو يتكلم عن بدايته في الطلب وطوافه على العلماء: (.. فجعلت أختلف إلى الداخليِّ وغيره..) فعقَّب الشيخ عبد الفتاح رحمه الله بقوله: لم أقف على

(١) ينظر: كلمته في «إمداد الفتاح» (ص ١٣٠).
(٢) (ص ١٤).

اسم الداخليِّ ولا ترجمته، وقد بحثت عنه منذ أكثر من ثلاثين سنة!، فما تركت كتاباً وصل إلى يدي وظننت أن فيه احتمال وجوده فيه، إلا تصفَّحته وفحصته، وليس في هذا الاسم تحريف، فهكذا هو: (الدَّاخليُّ)..، والدَّاخليُّ من شيوخ البخاري في نشأته، ولم أجد له ترجمة في المظانِّ التي رجعت إليها، ولم يذكره السَّمعانيُّ في «الأنساب»، وظاهر سياق العبارة هنا أنه من شيوخه في بخارى التي نشأ بها، وقد ترجَّح عندي أنه منسوب إلى (مدينة بخارى الداخِلَة)، التي هي داخل السور الثاني الأصغر، المحيط به السور الأولُ الأكبر، كما فهمته من «معجم البلدان» عند ذكر (بُخَارَى) ٣٥٣/١، وعند ذكر (مدينة بخارى) ٧٩/٥)».

ولمكانة الفائدة في نفس الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يستقِلُّ بفائدة يراها أو يسمعها في أيِّ فنٍّ كانت، أو يتهاون بقاعدة يضبطها، بل يبادر إلى تعليقها وحفظها، وكان لا يملُّ من ذلك! يقول تلميذه الشيخ مجاهد شعبان: «كان يحرص على الفائدة العلمية من أيِّ فمٍ صدرت، ومن أيِّ جهة كانت. ذكرتُ يوماً أمامه أن ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) قال في مقدمته: (إن التجارة من السلطان مَضَرَّةٌ بالرعايا مَفْسَدَةٌ للجباية)، ففرح الشيخ بهذه العبارة وقال: اكتبها لي مع مرجعها حتى أضعها في كتاب الكسب للإمام محمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [1]، وكان الشيخ يحقِّق الكتاب».

(١) كتاب الكسب للإمام محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويليه الرسالة لابن تيمية، وقد حقَّقه العلَّامة أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينصح طالب العلم باصطحاب القلم والدفتر دائماً، يقول:

لا بدَّ للطالب من كُنَّاشٍ[١] يكتب به قائماً أو ماشي

وقال ـ أيضاً ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الماتع «قيمة الزمن عند العلماء»[٢]: «وليكن معك على الدوام دفتر وقلم تقيِّد به سوانح الخاطر، وتقتنص به شوارد الأفكار، وتكتب فيه ما تسمعه من فوائد ونكت، ففي ذلك توفير للوقت الثمين، فلا يضيع في تذكُّرٍ وتخمين، وظنٍّ لا يغني عن اليقين، وقديماً قيل: «العلم صيد، والكتابة قيد».

وقال ابنه الأستاذ سلمان حفظه الله: «هكذا كان شأن سيدي العلّامة الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقتنص الفوائد، ويقيِّد الشوارد مقيماً أو مسافراً، ماشياً أو جالساً، واسأل إن شئتَ مئات القُصاصات من أوراقه وجُذاذاته»[٣].

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يكتفي بالقول فقط، بل يقرنه بالعمل أيضاً، يقول تلميذه الشيخ مجاهد شعبان: «أذكر أننا كنا في زيارة لجامع الفردوس في حلب، وقد نُقش على الباب من الخارج:

فـي بـابِ فـردوس حلب سَطرٌ من الخطِّ عجَب
فيه صِحافٌ مِن ذهَب هُنَّ صِحافُ مَنْ ذهَب

(١) الكُنَّاش: دفتر جامعٌ يدوِّن فيه الطالب النوادر والشواهد والفوائد والفرائد، وأصلها ساميٌّ سريانيٌّ تعني: المجمع أو المجموعة. أما فعل كَنَشَ؛ فمعناه: فتل الأطراف، ومنه كَنْشُ الثوب.

(٢) (ص٢٠٦).

(٣) «قيمة الزمن عند العلماء» (٢٠٧).

فلما قرأتُها للشـــيخ، قال: أين الكُنَّاش؟ قلت: معي. قال الشـــيخ: اكتبها وهاتها، قلت: هـــي موجودة في «إعلام النبلاء»، فقال الشـــيخ: لا لا. بل المصدر الأصلي، فكتبتها له على ورقة وأعطيته إيَّاها».

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وأكتفي بما تقدَّم ذِكره.

* * *

الفصل الثالث

في همَّتهم في المداومة على المطالعة الدَّؤُوبة

49 العالم لا يصبح عالماً حتى يجتهد كثيراً على نفســه؛ قراءةً وتحصيلاً، بل لا بدَّ له أن ينقطع عــن الدنيا، ويفارق الأهل والخِلَّان، والوســادة والراحة، وغير ذلك من العلائق، ثم يخلو بنفسه مع مكتبته بين كتبه وأوراقه، ويعمل على التهامها كتاباً كتاباً، يفليها فَلْياً، فلا يغادر صغيــرة ولا كبيــرة إلا أحصاها، ولا يذر شــاذَّة ولا فــاذَّة إلا وعاها، ولا ينام إلا على كتاب، ولا يستيقظ إلا وبين يديه كتاب، ولا يُرى إلا في بطن كتاب، يواصل ليله بنهــاره في المطالعة من غير ملل أو كلل، أو فتور أو ضجر.

هذا إلى جوار نفس توَّاقة لا ترضى بغير الشَّذا، وعزيمة لا تقبل المســامحات، ولا تعرف المســتحيل، وهمَّة تستســهل الصعاب وتخترق المشاقَّ.

ولديه القــدرة الهائلة لتحمُّــل الآلام ومواجهة الشــدائد وتخطِّي النوائب، وعنده الرغبة الأكيدة لطول السهر، وقلة الراحة، والصبر على رهق الجوع والعطش.

وله من النَّفَس الطويل والأناة على خــوض غمار المطوّلات، غير هيَّاب ولا مُحْجِــم أَيَّاب، يعطيهــا صبراً وتعطيه علمــاً، بل ينتزع من أحشائها الفوائد انتزاعاً، وذلك بجِدِّه واجتهاده!

هذا إلى جانب حبٍّ لِمَـا يقرأ يجري مع الدم فــي العروق، ومع الروح في الجسد..، بمثل هذا صاروا علماء!

فإن الذي يصبر على مثل هذا، هو وحده القادر إذا ما وقَفَتْ أمامه خِزانةُ كتب حافلة، بأعداد ضخمة من المؤلَّفات، والكتب النفيسة، أن يلتهمها علــى بَكرة أبيها، من غير أن يترك شــاردة ولا واردة إلا وأتى عليها! ثم تجده مسروراً منشرح الصدر!

هذا، ولقد وقفت على صور مشرقة، يندر وجودها إلا في الخيال أو الأســاطير، ولكنهــا صور حقيقيــة لرجــال أفــذاذ عاصرناهم، وشــاهدناهم بأُمِّ أعيننا، قطعوا شــوطاً طويلاً، وأنفقوا وقتاً كبيراً من حياتهم، في القراءة والمطالعة المتأنِّية، حتى استوفَوْا آلافاً مؤلَّفة من الكتب قراءةً وهضماً. وهذا ليس مبالغاً فيه، ولكنه حقيقة ستراها ماثلة أمام عينيك في الأخبار الآتية:

50 فهــذا الأســتاذ الأديــب العلّامة الشــيخ أحمد بــن علي الإسكندري، (المولود ١٢٩٢، والمتوفَّى ١٣٥٧)، قد كان لا يضع الكتاب من يده قبل أن يقرأه!. جاء في ترجمته في «الأعلام الشرقية»[١] للأستاذ زكي مجاهد: «**وكان يقرأ الكتب التي تقع تحت يده!.. وكان ميَّالاً إلى**

(١) (٨٤٧/٢).

العزلة، فكان يقضي في بيته أياماً لا يَبْرَحُه، وكان كثير القراءة، يقرأ في بعض الأيام خمس عشرة ساعة أو أكثر في اليوم!. وجمع مكتبة عظيمة، وليس فيها كتاب لم يقرأْه ولم يعلِّقْ عليه!».

51 وهذا الكاتب الشهير الأديب الفيلسوف الأستاذ عباس محمود العقَّاد، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٨٤)، أحد أشهر قرَّاء الكتب في عصرنا، والذي قرأ ما زاد على ستين ألف كتاب! وألَّف ما يربو عن ثمانين كتاباً! ووصفته إحدى المجلات (بدودة في القراءة!)، حيث تشبِّهه بالدودة التي تلتهم كلَّ ما أمامها، فكذلك كان العقَّاد يلتهم كلَّ كتاب وقع في يده قراءةً وتدبُّراً!

يقول الكاتب وديع فلسطين في كتابه «وديع فلسطين يتحدث عن علماء عصره»[1] في ترجمة العقَّاد: «تعمَّدت في إحدى المناسبات أن أمدحه بأسلوب الذَّم، أو أذمَّه في قالب المدح، فوصفته في مقال منشور بأنه «دودة في القراءة»، وهي دودة تُجْهِزُ على كلِّ كتاب تلقاه في طريقها!».

ونشر المقال في صحيفة (المقطَّم) عام ١٩٤٥م: فلما قرأ العقَّاد ذلك قال لصديقه رئيس التحرير: تقولون عني: إنني دودة، أنا كتيبة من الديدان!.

ونشرت إحدى الصحف ـ كما جاء في كتاب «في صالون العقَّاد كانت لنا أيام» للأستاذ أنيس منصور[2] ـ أن الأستاذ العقَّاد سوف يتقاضى ٢٠٠

---

(١) (٣٣٥/١).

(٢) (ص ٤٣).

جنيهاً! فقال أنيس منصور: «وفي اليوم الثاني حدثني الأستاذ عاتباً غاضباً: ما هذا الذي تنشــرونه؟ هل كثير على رجل قرأ ستين ألف كتاب، وأفنى عمره في عالم الفكر والفنِّ، أن يتقاضى هذا المبلغ؟!».

وقال العقَّاد فيما يرويه الأســتاذ أنور الجندي في كتابه «من أعلام الفكـر والأدب»[١]: «كنت أقــرأ كلَّ ما يقع في يدي من الكتب الأدبية والدينية، ومعظمها من الطبعات القديمة!». تنبَّـه أخي القارئ: الحديث عن قـراءة نسخ صفـراء قديمة! لا نُسَخ بيضـاء حديثة!

وكان أحياناً لا يغادر داره أســبوعاً كاملاً، فيعلِّــل ذلك بقوله: «حتى لَيَسَعُنِي أن أقول اليوم: إنني لولا رياضة المشي التي تعوَّدتها، لما خطر لــي أن أَبْرَحَ المنزلَ أياماً بل أســابيع!، وذلك يرجع إلى شعوري بالقراءة التي تُعينني، فإنــي أشــعـر بأنني لا أقـرأ سطوراً على ورق ولكنني أحيا في تلك الأوراق بين أحياء!». ويقول: «إن الوالدة لا تُنكر من شؤوني شيئاً إلا الأوراق، الورق الذي لا ينتهي، هو الذي يُمرضني، وهو الــذي يصرفني عن الزواج!». وعاش عَزباً ولـم يتزوج!

وجاء في كتاب «ميراث الصمت والملكوت»[٢] للأستاذ عبد الله الهدلق: «أخبرني أحد أساتذتي ممن كان يحضر مجالس العقّاد، أنَّ العقَّاد قصَّ عليهــم، بأنه كان في طفولته يقــرأ أوراق الجرائد التي تُلَفُّ بها السندوتشــات!. كان العقَّاد من كبار القرَّاء في عصره، قرأ

---

(١) (ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨).

(٢) (ص ١٧٥).

أكثر من خمس وستين سنة قراءة عالية جادَّةً، وفي الليلة التي توفِّي فيها كان يقرأ كتاباً عن جيولوجية أفريقيا!».

52 وهذا العلَّامة اللغويُّ المحدِّث المحقِّق الأستاذ محمود بن محمد شاكر، (المولود ١٣٢٧، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، الذي رزقه الله تعالى نَفَساً نَفِيساً في مطالعة العلوم، وصبراً عجيباً في قراءة الكتب والمتون، وكانت مكتبته التي وصفها تلميذه الطناحي بقوله: «مكتبة ضخمة عامرة، لم تتيسَّر لأحد من علماء عصرنا!.. وجمع من الكتب ما لم يجمعه سواه!»[١]. ويقول محمود شاكر نفسُه عنها: «مكتبتي من أكبر المكاتب الخاصة في مصر»[٢]. فهل قرأ العلّامة محمود شاكر هذه المكتبة العامرة؟ وكم قضى من عمره في القراءة؟

وعن هذا السؤال يجيبنا تلميذه العلّامة محمود الطناحي ـ وقد خَبِرَه سنينَ طويلة ـ كما في «مقالات الطناحي»[٣] فيقول: «قرأها كلَّها قراءةَ كتابٍ واحد!، بذلك العقل الذكيِّ الذي يجمع كلَّ شاذَّة وفاذَّة.. وقرأ قراءةً ما أطاقها أحد من جيله!» ثم قال: «وهو منشرح مسرور!».

وقال الطناحي أيضاً[٤]: «وما ظنُّك بأديبٍ قرأ كتب العربية في فنونها كلِّها، لا أستثني فنّاً ولا علماً، أقول قولي هذا غير شاكٍّ ولا متردِّد!، فقد خالطتُ محمود شاكر ثلاثين عاماً، وخَبِرْتُ سواده وبياضه،

---

(١) «مقالات الطناحي» (ص ٦١٥ ـ ٦١٩).

(٢) «جمهرة مقالات محمود شاكر» (ص ١٢٣٢).

(٣) (ص ٦١٥ ـ ٦١٩).

(٤) المرجع السابق (ص ٥٢٠).

وعرفت عَلَنَه، وأطلعني على كثير من سِرِّه، ونظرت في مكتبته الضخمة فإذا على كلِّ كتاب منها أَثَرُ قراءةٍ ونظرٍ وتعليق!».

وقال ـ كما جاء في «مقالات الطناحـي»[1] ـ: «قراءةً مُحيطة أعتقد جازماً أنها لم تتيسَّـر لأحد من أبناء جيله!، سواء مَن اشتغلوا بتحقيق التراث، أم مَن انصرفوا إلى التأليف والدرس.

لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلَّها خلف ظهره ودَبْرَ أذنيه[2]، واستوى عنده سـوادها وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربي في فنونه المختلفة، والمكتبة العربية عند أبي فِهر[3] كتاب واحد، فهو يقـرأ «صحيح البخاري» كما يقرأ «الأغاني»، ويقرأ «كتاب سيبويه» قراءته «لمواقف» عضد الدين الإيجي، وقد قلت عنه مرَّة ـ بالتعبير المصري ـ: «إنه خُدِ البيعةَ على بعضها!».

وعن هذه القراءة الشاملة يحدِّثنا محمود شـاكر نفسُه، فيقول كما في «رسـالة في الطريق إلى ثقافتنا»[4]: «فأقدمت إقدام الشباب الجريء على قراءة كلِّ ما يقع تحت يدي من كُتُب أسـلافنا: من تفسير لكتاب الله، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين حديث رسول الله ﷺ وشُرُوحها، إلى ما تفـرَّع عليه من كتب مصطلـح الحديث وكتـب الرجال والجرح والتعديل، إلى كتب الفقهاء في الفقه، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين (أي: علم الكلام) وكتب الملـل والنحل، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة،

---

(١) (ص ٤٨٠ ـ ٤٨١).

(٢) الدَّبْر: خَلْفُ الشيء، ودَبْر أُذُنِه، أي: خلفها، والمقصود: أهمل الدنيا ولم يلتفت إليها.

(٣) أبو فِهر، هي كنية العلَّامة محمود شـاكر رَحِمَهُ اللَّهُ. والفِهر هو حجر كريم ناعم صلب رقيق تُسحق به الأدوية والعطور، ويكون بحجم الكَفِّ.

(٤) (ص ٧).

وكتب النحو، وكتب اللغة، وكتب التاريخ، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم». وفي موضع آخر قال[١]: «حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة، وكتبَ النجوم وصور الكواكب، والطب القديم ومفردات الأدوية، وحتى قرأت البَيْزَرة[٢] والبيطرة والفراسة، بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسَّر لي منه» ـ.

وقال: «وعَمَدت في رحلتي هذه إلى الأقدم فالأقدم، كلُّ إرث آبائي وأجدادي، كنت أقرؤه على أنه إبانَةٌ منهم عن خبايا أنفسهم بلغتهم، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومناهجهم».

وحتى عَرَفَ ـ كما يقول تلميذه الطناحي[٣] ـ: «وعَرَفَ مناهج الكتب والكُتَّاب في مختلف فنون العربية، وخَبِرَ مصطلحات الأقدمين وأعرافَهم اللُّغوية..».

وظل العلَّامة محمود شاكر ملازماً للكتاب، لا يكاد يدير وجهه عنه، ولم يهدأ أبداً! ولم يتوقف عنه مطلقاً! قال الطناحي[٤]: «نعم لم يهدأ شيخنا يوماً واحداً إلى يوم الناس هذا ـ وكان كلام الطناحي سنة ١٩٩٦م ـ خلال هذه الحياة المتطاولة!».

هكذا فلتكن همم الرجال وعزائم الأبطال!

---

(١) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (ص٢٣).

(٢) البَيْزَرة: علم متعلِّق بمعرفة الجوارح من الطير، كالصقر والبازي والشاهين وغيرهما، اشْتُقَّ من البازي لاشتهار هذا الطير في الصيد من بين الجوارح.

(٣) «مقالات الطناحي» (ص٤٣٥ ـ ٥١٧ ـ ٥١٨).

(٤) المرجع السابق (ص٤٣٤).

53 وهذا العلَّامة المحدِّث المؤرِّخ اللغويُّ المحقِّق الشيخ عبد الفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة، (المولود سنة ١٣٣٦، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والكتب من حياة العالم تَحُلُّ منه مَحَلَّ الرُّوح من الجسد، والعافية من البدن..». وقال: «الكتب هي الرئة التي يتنفَّس العالِم أو طالب العلم من خلالها!».

وقال الأستاذ محمد عدنان كتبي: «وقد كانت حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ صورة صادقة لما كتبه في كتابه: «قيمة الزمن عند العلماء»، فقلَّما كنت تجده إلا وفي يده كتاب يطالعه، بل كانت مجالسه كلُّها تدور حول مسائل العلم، قراءة أو مناقشة أو مذاكرة، وكان يستغل كلَّ دقيقة وكلَّ لحظة في المطالعة، والقراءة في البيت أو السيارة، أو حتى في الطريق، أو عند الباعة في حوانيتهم». وقال أيضاً: «إن اهتمام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعلم، وأداته الكتاب، جعله حريصاً على اقتناء الكتب، وقراءتها، وتأليفها، وتحقيقها، والاعتناء بها، بأي شكل من الأشكال، حتى غدا أحد المراجع المهمة في العالم الإسلامي في معرفة الكتب مخطوطها ومطبوعها، وربما سافر آلاف الأميال وضرب في أصقاع الأرض، ليحصل على كتاب سمع بوجوده في مكان ما على وجه هذه الكرة الأرضية».

لذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير الخلوة دائم المطالعة، لا يُرى إلا في بطن كتاب، وكان لا يُعرف في وقته فراغ، يقرأ أينما حلَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السفر والحضر، في السيارة والطيارة، في الطريق والمطعم والمطار، كل مكان يكون فيه فهو صالح للقراءة، وأخباره في ذلك طريفة يستمتع

---

(١) «صفحات من صبر العلماء» (ص٢٥٦).

بها القــارئ. وقد ذكرت فــي كتــاب «عبد الفتاح أبو غــدة ريحانة المحدِّثين وقدوة المحقِّقين»[١] تحت عنوان: (وَلَعُه بالمطالعة واغتنام أوقاته!)، جملةً من أخباره.

قال تلميذه الشيخ العلَّامة محمد عوَّامة حفظه الله: «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتوانى عن ملء دقيقة واحدة في القراءة والعلم والتعلُّم والتعليم، لا يُفوِّت عليه دقيقة واحدة، لا في نفسه ولا فيمن حوله أيضاً لا يسكت عنه!».

وقال تلميذه الشــيخ مجاهد شعبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الشــيخ لا يفارقه الكتاب في حضر ولا ســفر، حتى وإن كنا في الســيارة داخل شوارع البلــدة، فكان يســألني قبل أن يخرج مــن البيت: هــل معك كتاب؟ وما هو؟ حتى أثناء الســفر يطلب مني أن أقرأ داخل الســيارة، وأثناء توقُّفنا، حتى في المطعم والناس من حولنا.. نزلنا لنتناول طعام الغداء في أحد مطاعم منطقة القســاطل، وما إن جلســنا حتى التفت الشيخ قائلاً: أين الكتاب؟ قلت: حتى هاهنا يا مولاي؟ قال: ما المانع!

وكان معنا جملة من الكتب، منها كتاب «الكامل للمبرَّد» فأحضرته من الســيارة، وأخذت بالقراءة، وأخذ الشيخ بالشرح والتقرير، والناس على سُفَرِهم مِن حولنا!».

وقال تلميذه الشيخ حسن قاطرجي حفظه الله: «بل أعجب من ذلك أنه أثناء معاينته للجهاز الذي كان يبحث عنه لاقتنائه ـ وكان من مزاياه أنه تُدخَل فيه الورقة فيُكبِّر حروفَ كلماتها أضعافاً مضاعفة ـ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) (ص١١٨) وما بعدها.

ينتهز الفرصة كلما واتَتْ، فيُخرِجُ الكتابَ ويُدخِله في الجهاز ويستفيد ولو من لحظات للقراءة فيه!».

وقال: «حتى عند نومه لم يكن يُفارق الكتاب، فكان عندما يذهب إلى فراشه يأخذ الكتاب ويقرأ فيه إلى أن يغلبَه النوم».

وقال عنه ابنه سلمان حفظه الله: «وكان قليل النوم، يستكثر ساعات نومه مع قِلَّتِها، وكان في شبابه يواصل اليوم واليومين، كما ذكر لي عدة مرات.. فهو حريص على وقته أشدَّ من حرصه على ماله!».

ويقول الشيخ حسن قاطرجي أيضاً: «كثيراً ما كنت أدخل إلى غرفته، والكتب التي يشتغل بها مفتوحة مفروشة مملوءة بها الغرفة. وكان دوماً يطالع ويحقِّق، ويكتب ولا يتعب ولا يَمَلُّ؛ **بل كانت المطالعة والقراءة راحته ونُزهته، وكان يَحسِب المؤلِّفين والعلماء الماضين الذين يقرأ سيرتهم الزاكية ضيوفَه!**».

وقال قاطرجي أيضاً: «وقد ذكر أحدُ أعرفِ تلاميذه به فضيلة شيخنا الأستاذ محمد عوَّامة ـ فيما كتبه عن الجانب العلمي في حياة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وأرسله إليَّ مشكوراً ـ أن إذاعة الرياض أجرت معه رَحِمَهُ اللهُ قبل نحو عشرين سنة مقابلة، سئل فيها عن مكتبته فصرَّح بعد إلحاحٍ أنها تضمُّ عشرين ألف كتاب!!. هذا في ذلك الوقت فكم يُقَدَّر حجمُها الآن؟!

قلت: والأعجب من ذلك أنه ما من كتاب إلا وله عليه تعليق أو تصحيح أو إضافة، يقول أستاذه الشيخ محمد السلقيني لمن حضره:

ادخلوا مكتبة الشيخ عبد الفتاح وتناولوا منها أي كتاب شئتم، فإنكم لا بدَّ واجدون فيه تصحيحاً أو تعليقاً أو استدراكاً!»[(١)].

فإذا بلغ عدد كتبها أكثر من عشرين ألف كتاب، وذلك قبل موته بعشرين عاماً، فكم بلغ حجمها بعد ذلك التاريخ وحتى يوم وفاته؟ وقد اشتهر عنه أنه كان لا يقع في يده كتاب إلا قرأه مهما عظم حجمه أو تعدَّدت أجزاؤه!، وأنه كان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الكتاب لا يعطيك سرَّه إلا إذا قرأته كلَّه!**».

فكم كتاب قرأ في حياته؟ والذي أستطيع أن أجزم به: أن الذي قرأه الشيخ في حياته من الكتب آلافاً مؤلَّفةً لا يعلم عددها أحدٌ إلا الله! والذي يعرف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجزم بحقيقة ما أقول! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهكذا تكون همة الأبطال وعزيمة الرجال، وهكذا فلتكن الهمم وإلا فلا!

54 وهذا العلَّامة اللغويُّ الأديب الأستاذ محمد عبد المُنعِم خفاجي، (المولود سنة ١٣٣٣، والمتوفَّى سنة ١٤٢٧)، الذي قرأ ـ أثناء دراسته في الأزهر إلى أن تخرَّج ـ أكثرَ من خمسة آلاف كتاب في الأدب فقط! هذا، عدا الكتب الأخرى التي قرأها في الثقافات المختلفة. جاء في ترجمته من كتاب «الأزهر في ألف عام»[(٢)]، وهو

---

(١) «عبد الفتاح أبو غدة ريحانة المحدِّثين وقدوة المحقِّقين» (ص ١١٦ ـ ١١٥).
(٢) (١٦٣/٥).

يتحدَّث عن العوامل الثقافية التي أثَّرت فيه: «العامل الثالث: مطالعاته الشخصية في الأدب قديمِهِ وحديثِه، ويقول لنا: إنه حتى تخرُّجه طالع ما لا يقلُّ عن خمسة آلاف كتاب في الأدب، عدا الكتب الثقافية الأخرى!».

فإذا قرأ هذا العدد أثناء دراسته، فكم قرأ بعدها؟! وقد تخرَّج رَحِمَهُ اللَّهُ من الأزهر سنة ١٩٤٦م، وسِنُّه يومئذٍ إحدى وثلاثين عاماً، وقد عاش بعد ذلك أكثر من ستين عاماً، فكم كتاب قرأ يا ترى في هذه السنين الطويلة؟!

55 وهذا الأديب الشاميُّ الكبير الفقيه العلَّامة الأستاذ علي الطنطاوي، (المولود سنة ١٣٢٧، والمتوفَّى سنة ١٤٢٠) كان كثير القراءة، شديد التعلُّق بالكتاب، والملازمةِ للكتب والمكتبة، لا يَخْرُج ولا يُخْرِجه منها إلا المدرسة، وإلا فهو منقطع إليها، لا يفارقها إلا لِماماً!. حتى «.. قرأ ما كان يكتبه كبار أدبائها، بل كان يلتهمه التهاماً، فقرأ كلَّ ما كتبه العقَّاد، والرافعي، والمازني، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، والزيَّات وغيرهم»(١).

يقول الطنطاوي نفسُه في كتابه «ذكريات علي الطنطاوي»(٢): «كنت أمضي وقتي كلَّه، إلا ساعات المدرسة، في الدار. لم أتخذ لي يوماً رفيقاً من لداتي، ولا صديقاً من أقراني، ولم أكن أعرف الطريق إلى شيء من اللهو الذي يلهو به أمثالي، فلم يكن أمامي عمل أنفق فيه فضل وقتي، وأشغل به نفسي، إلا المطالعة.

---

(١) «علي الطنطاوي وأعلام عصره ـ سيد قطب وآخرون» للأستاذ رائد السمهوري (ص٧٢).
(٢) (١٥٩/١).

وكانت في دارنا مكتبة كبيـرة، وهي دانية مني، كتبها كلُّها تحت يدي.. **وكنت بحمد الله أحفظ كلَّ ما قرأت، وأكثرَ ما سـمعت؛ لأن ذاكرتي بَصَرِيَّة لا سَمْعِيَّة!»**.

ثم قال: «فأنا اليوم، وأنـا بالأمس، كما كنت فـي الصغر، أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مرَّ عليَّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة. ومعدَّل قراءتي مئة صفحة، من سنة ١٣٤٠، إلى سنة ١٤٠٢هـ.

اثنتان وستون سنة. احسـبوا كم يوماً فيها، واضربوها بمئة، تعرفوا كم صفحة قرأت!. أقرأ في كلِّ موضوع، حتى في الموضوعات العلمية، بل والفنية والموسيقية. هذا غير النظر في الجرائد والمجلات»[1].

وقال: «ولقد جرَّبـت اللذائذ كلَّهـا فما وجدتِ أمتـعَ من الخلوة بكتـاب. وإذا كان للناس ميـول وكانت لهم رغبات، فـإن الميل إلى المطالعة والرغبة فيها هي أفضلُها»[2].

وبجوار القراءة الجبَّـارة كان يكتب آلاف الصفحـات! حتى قال: «ولقد كتبت آلافاً (آلافاً حقيقيـة لا مبالغة!) من الصفحات، في التاريخ القديـم والأوسـط والحديـث، والجغرافيـا: الطبيعيـة، والسياسـية، والاقتصادية، والكيمياء المعدنية والعضويـة، والفيزياء، وعلم الحيوان والنبات، والجَبْر والمثلَّثات، والهندسـة: المسطَّحة والفراغيَّة، والنسبيَّة، وسائر العلوم. فضلاً عن الفرنسية التي كنَّا ندرسها كما يدرسها الفرنسيون في بلادهم: المناهج هي المناهج، والكتب هي الكتب...

---

(١) «ذكريات علي الطنطاوي» (١٥٩/١).

(٢) «فصول في الثقافة والأدب» (ص١٧٩).

سهرنا الليالي الطوال نكتب، ما يجده الطلاب اليوم مطبوعاً أجمل طبع!»[١].

56 وهذا العلَّامة المحدِّث المفسِّر الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، (المولود سنة ١٢٨٣، والمتوفَّى سنة ١٣٣٢)، كان يقتل وقته في المطالعة، ويجد فيها أسعد أوقات حياته، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ساعات المطالعة أسعد أوقات الحياة، وما يطلب من السرور في غيرها هو ظلُّ ما يستخلص من لذيذ مسرَّاتها!**»[٢].

وقال القاسميُّ ـ أيضاً في ترجمته لنفسه والتي أوردها الشيخ محمد بن ناصر العَجْمي في كتابه «إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي» ـ[٣]: «وقد حبَّب المولى إليَّ من حداثتي القراءة والمطالعة، ونسخ الكتب، وتأليف الرسائل، فكنتُ ـ تحدُّثاً بنعمة المولى ـ أنصرف من دروسي، وآوي إلى دارنا، إلى محلِّ مكتبتي، وأَذْهَبَ المولى ـ بفضله ـ عن عُبيدِهِ حُبَّ البطالة، وصرف الأوقات سدى. **فطالعت من كتب التاريخ والأدب ما لا أُحصي!**».

ولقد ورث والدُه الشيخ محمد سعيد، مكتبة أبيه الشيخ قاسم، وضمَّها إلى مكتبته، ثم أضاف إليها كتباً جديدة، ثم جاء الحفيد الشيخ جمال الدين القاسمي، فورث هذه المكتبة النفيسة، وأضافها إلى مكتبته، فأصبحت المكتبات الثلاث مُدمَجة في مكتبة واحدة كبيرة حافلة، ثم

---

(١) المرجع السابق (١/١٥٩).
(٢) «إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي» للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي (ص ١٠).
(٣) (ص ٥٥ ـ ٥٨).

زوَّدها بـكل جديد نفيس، يقول الشـيخ محمد بن ناصـر العَجْمي في ترجمته للقاسـمي في مقدِّمـة تحقيقه لكتاب «جـلاء الأفهام في فضل الصلاة والسـلام على خير الأنام ﷺ»[1]: «وكتب بخطِّه الحسـن شـيئاً كثيراً، واقتنى من الكتب ما لا يتهيَّأُ لغيره تحصيلُ عُشْرِهِ من كتب السلف والخلف». وقال ابنه الأسـتاذ ظافـر في كتابه «جمال الدين القاسـمي وعصره»[2]: «دفعـه وَلَعُه بالاطلاع، وغرامُه بالمطالعـة إلى اقتناء معظم ما أنتجته المطبعة العربية في عصره؛ سواء كان في القسطنطينية، أم كان من المطابع المصرية، أم المغربية، أم الهندية، أم الشامية، أم غيرها».

وهذه المكتبة الحافلة قد قرأها كلَّها! حرفـاً حرفاً، وكلمة كلمة، بضبط وإتقان، قال تلميذه الشـيخ محمد بهجة البيطـار: «وإنَّ مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو كونه.. لم يبلغ الخمسين من عُمُرِه، ونَدَر جـدَّاً أن ترى كتاباً ـ مخطوطـاً أو مطبوعاً ـ في خزانته الواسـعة خالياً من التعليقـات الكثيرة، والتصحيـح على الأصول الخطِّية الصحيحة»[3].

وحين نظر ابنه الأستاذ ظافر القاسمي في هذه المكتبة وفاتح كتبها قال: «ففي مكتبته الخاصة كتب شتَّى، لم يخل واحد منها من تصحيح، أو تعليق، أو إشارة إلى قراءته على أحد الاختصاصيِّين!»[4].

---

(١) (ص ١٥).
(٢) (ص ٧٩).
(٣) «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ» ـ في مقدِّمة التحقيق ـ (ص ٦).
(٤) «جمال الدين القاسمي وعصره» (ص ٨٠).

ولك أن تتخيَّل أن هذه القــراءة الدَّؤوبة ـ على عِظَمها ـ إنما كانت بجوار ما يقوم به من أعمال أخرى مثــل التدريس والتصنيف، لذا قال صديقه العلَّامة محمد رشيد رضا في ترجمته: «العالم المُجِدُّ الذي يقتل وقته كلَّه في التدريس والتصنيــف، وتصحيح الكتب النافعة»[١].. وقال الشــيخ محمد بن ناصر العجمــي: «كل هذا من أحوالــه تجاه الكتب وشــأنها، فكيف مع قيامه بالإمامــة والتدريس في (جامع الســنانية) و(مدرســة عبد الله باشــا العظم) ومذاكرته للعلــم خارجهما مع نبغاء طلابه، وأقرانه وشــيوخه كالعلَّامة الشــيخ عبد الرزاق البيطار، وطاهر الجزائري، وأضرابِهما». ثم قال العجمــي: «فقد ضاهى بذلك الأوائل من الأئمة العُظمــاء الذين كان لهم الأثر البالــغ، فقضى عمره القصير غارقاً في العلم، كأنه يسابق الأيام والأنفاس يخشى نفادَها:

أنفاسُــنا أقــواتُ أوقاتنــا والقوتُ لا بدَّ له من نفاد»[٢]

ولقد وهبه الله علوَّ الهمة في مطالعة الدَّواويــن، والصبر على قراءتها وجردها من أوائلها إلى أواخرها، وفي أيام قليلة. قال تلميذه البيطار: «كان علَّامة الشام القاسمي يُجهِد نفسه بقراءة التفاسير الكثيرة، ومدوَّنات السُّنَّة وشــروحِها، ومؤلَّفات أصول الدين، وأمَّهات الفقــه وأصوله، ومطوَّلات التاريخ والأدب، وكتب المقالات والنِّحل، وقد كان يُمعن النظر في هذه العلوم والفنون، ويستخرج منها حقائقَ يبذل لها من نفيس وقته»[٣].

---

(١) «جلاء الأفهام» في مقدِّمة التحقيق (ص٦).

(٢) المرجع السابق في مقدِّمة التحقيق (ص٧).

(٣) كما في تقدمته لكتاب «أعيان دمشــق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر» للعلَّامة محمد جميل الشطِّي (ص٨).

وقد يقرأ بعضها ـ على عِظمها ـ في أيام معدودة. جاء في كتاب «قيمة الزمن عند العلماء»[١] فيما ينقله عن القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كتابه «الفضل المبين»: «وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة «صحيح مسلم» بتمامه في أربعين يوماً، وقراءة «سنن ابن ماجه» كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة «الموطَّأ» في تسعة عشر يوماً، وقراءة «تقريب التهذيب» ـ مع تصحيح سهو القلم فيه وتَحْشِيَتِه ـ في نحو عشرة أيام، فَدَعْ عنك أيها اللائم الكسل، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل!».

وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكتب:

جزى الله عنَّا الكُتْبَ خيراً فإنها   تنمُّ أحاديثَ الحبيبِ بلفظِه
فموقعُها أحلى من الماء للذي   به ظمأٌ وقتَ الهجيرِ وَقَيظِه[٢]

وربما انطلق القاسمي وهو يطالع بعض الكتب، التي أخذت منه ما أخذت من الدهشة واللذة الشيء الذي لا يوصف، فقال ـ كما في «آل القاسمي ونُبُوغهم في العلم والتحصيل»[٣] ـ:

يا حبَّذا دررٌ منثورة الأجزا   بها عن الكنز والكشكول ما أجْزَا
حوت مقاطيعَ موصولٌ بدائعُها   تهزُّ مِن طَرَبٍ مَنْ لم يَكُ اهتزَّا
يا طالما بِتُّ ليلاتٍ أُسامِرُها   كانت لَعَمري في ألطافها فوْزا

---

(١) (ص ١٥٢).
(٢) «جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام» للدكتور نزار أباظة (ص ٢٩١).
(٣) (ص ٢٠٥).

لله نـــادرة راقـــت نـــوادرهـــا   تلقى من النكت الغـرًّا بها كنزا
ما إن رأيـــت لها مثـــلاً يُناظِرها   وكيف وهي إلى روض الذُّكا تُعزَى

57 وهذا الكاتب الكبير الأديب المؤرِّخ الناقد العلَّامة أحمد أنور سيد أحمد الجندي، (المولود سـنة ١٣٣٥، والمتوفَّى سنة ١٤٢٢): الذي عاش أكثر من سـبعين عاماً بيـن المحابـر والأوراق، وبين المراجع والأبحاث، وقد قرأ آلاف الكتب والمراجع، وطالع عشرات الآلاف من الصحف اليومية، والمجلات، والدوريـات، بل قرأ كلَّ ما وقعت عليه عينه من التراث العربي، وأخرج للمكتبة العربية عشرات الكتب.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ دَؤوباً في القراءة، وصاحبَ همَّـة عالية لا نظير لها في البحث والاطلاع، يقول عن نفسـه مبيِّناً دأَبه هذا كما في كتابه «شهادة العصر والتاريخ»[١]: «ومما يذكر أنني أجريت إحصاءً ومراجعة للكتاب العربي في دار الكتب (باب الخلـق) فراجعت حوالي ٥٠ ألف كتاب! واستخرجت منها ثبتاً لما يلزمني قراءته، فبلغ حوالي ألف كتاب لا بدَّ للمثقَّف أن يقرأها!».

وقال أيضاً[٢]: «قرأت بطاقات دار الكتب، وهي تربو على (٢٠٠٠٠٠٠) مليوني بطاقة!، وأحصيت في كراريس بعضَ أسمائها وراجعت فهارس المجلات الكثيـرة الكبـرى (كالهـلال) و(المقتطف) و(المشـرق) و(المنار) و(الرسالة) و(الثقافة)، وأحصيت بعض رؤوس موضوعات، وراجعت جريدة الأهرام على مدى عشرين عاماً!، وراجعت (المقطَّم)

(١) (ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥).
(٢) «شهادة العصر والتاريخ» (ص ١٠٣ ـ ١٠٤).

و(اللواء) و(البلاغ) و(كوكب الشرق) و(الجهاد) وغيرها من الصحف، وعشـرات من المجلات العديدة والدوريات التي عُرفت في بلادنا في خلال هذا القرن!، كلُّ ذلك من أجل تقدير موقف القدرة على التعرُّف على موضوع معيَّن في وقت ما!».

تنبَّه: في السَّنَة الواحدة ٣٦٥ يوماً، إذا ضُرب هذا الرقم في عشـرين، أعطانا رقم ٧٣٠٠ يوماً، أي أنه طالع في أعداد جريدة الأهرام فقط بحجم هذا الرقم من الصفحات!، فكم قرأ قبل ذلك وبعده فيها وفي غيرها؟ ولم يكتف بالمطالعة فقط!، بل قام بتفريغ موادِّها!، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفرَّغت موادَّها في كشوف لتعينني على دراسة جوانب متعددة»[1].

هذا ما يتعلق بجريدة الأهرم وحدها! فكيف لو أضيف إليها باقي أعداد الصحف والمجلات الأخرى التي طالعها خلال عمره الطويل، كم سيبلغ رقم الأعداد التي قرأها؟ آلاف وآلاف!

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في كتابه «آفاق جديدة في الأدب»[2]: «أذكر مطالع حياتي الأدبية منذ أربعين عاماً، وأنا قابع في الريف، أحلم برفوف الكتب، وواجهات المكتبات.. فلما قدمت القاهرة وأقمت بها، قرأت عشـرات من هذه الكتب. وأصبح لي رقم معروف في قاعة المطالعة بدار الكتب ومكان معروف، وما زلت منذ بضع وعشرين سنة لا أغيب عنه إلا لِماماً!، وقد قرأت به مئات من الكتب!».

(١) «شهادة العصر والتاريخ» (ص١٣٣).
(٢) (ص٢٤٨).

ولم يتوقف نَهَمُه عند قراءة ذلك، بل نجده يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولكن هل وقفت مصادري عند هذا التراث العربي الإسلامي وحده!، في الحقِّ أنني قرأت الكثير في أدب اللغات وفلسفتها سواء في لغته الأصلية! أو مترجماً إلى اللغة العربية، وألممت كثيراً بعُصارة الفكر الأوروبي الحديث، والفكر اليوناني القديم، وفلسفات الهنود والفرس والصين القديمة!، ولعلنا في مطالع الصبا قد أُلقي إلينا في الثلاثينات كثير من المترجمات عن الفرنسية والإنجليزية، مما عبر به المستعمرون بلادنا من القصص والروايات، ومن تراجم أرسطو وأفلاطون وفرجيل ونابليون ودارون وفرويد، وكان لدينا كُتَّاب تخصَّصوا في ترجمة آثار هؤلاء الكُتَّاب وتقديمها إلينا.. ثم طوَّفت ما بالفلسفات والمذاهب والعلوم والنظريات، حتى أوفيت على الغاية من المعرفة!».

ثم قال[٢]: «وربما لا أكون مبالغاً إذا قلت إنني قرأت كلَّ ما كتب ـ بدون استثناء ـ عن الإسلام والمسلمين والعرب في الغرب من مختلف كُتَّابه الجائرين والمُنصِفين!».

58 وهذا العلَّامة الفقيه المؤرِّخ الأديب الأستاذ أحمد تيمور باشا، (المولود سنة ١٢٨٨، والمتوفَّى سنة ١٣٤٨)، قضى معظم حياته بين الكتب قارئاً وباحثاً لا يعرف الملل ولا يعتريه الكسل، يأكل وقته

---

(١) «آفاق جديدة في الأدب» للجندي (ص٢٥٢)، و«شهادة العصر والتاريخ» للجندي (ص٨٠).

(٢) «شهادة العصر والتاريخ» للجندي (ص١٣٤).

في المطالعة ويُسهِر ليلَه في القراءة، لا يفرِّط بدقيقة في غيرها، ويضرب باسمه المثل في ذلك!

ولك أن تتخيل أن مكتبته الحافلة التي بلغت أكثر من ١٨ ألف كتاب ـ قال عنها الدكتور ماكس مايرهوف: «هي مكتبة نادرة الوجود، تُعَدُّ من أتمِّ وأفخر المكتبات المرتَّبة»(١) ـ، فقد قرأها كلَّها وفهرسها كتاباً كتاباً، قال الأستاذ أنور الجندي في كتابه «شهادة العصر والتاريخ»(٢): «كان يعمل في صمت ويضع تعليقاته على حواشي الكتب حتى لقد أُثر عنه أنه ما كان من كتاب من هذه الألوف إلا راجعه وعلَّق عليه!».

وأكد هذا الشيخُ محمد الشيبانيُّ في كتابه «ترجمة العلَّامة أحمد تيمور باشا»(٣) فقال: «ولكني ومن خلال بحثي في فهارس الخزانة التيمورية، واطلاعي عليه، وجدت فيه ما هالني من نوادر المخطوطات، ودقائق المؤلَّفات، وعجبت كثيراً عندما عرفت أن أحمد تيمور قد اطلع على معظم كتبها من تاريخية وأدبية ولغوية، وعلى التراجم بأنواعها، وعلى أصناف الناس والأمم والطوائف والبلدان والبحار والأنهار والأماكن كالمساجد والمدارس، وعلى المسائل العلمية من العلوم المتعددة. وقد علَّق على أكثرها التعليقاتِ المفيدةَ والملاحظاتِ القيِّمة».

---

(١) «ترجمة العلَّامة أحمد تيمور باشا» (ص٢٧).
(٢) (ص٩٣).
(٣) (ص٧).

وقال(١): «وأعجب من ذلــك.. **أنه أكبر قارئ فــي تاريخنا العربي المعاصر!**، فقد اســتطاع أن يجمع ســبعة عشــر ألفاً من المخطوطات والمؤلَّفات النادرة، ثم قرأها وفهرســها، وعلَّق عليها، وأَوْلَدَها حصيلةً من الدراسات تمثِّل موســوعة ضخمة، ما زال العمل يجري في طبعها منذ ثلاثين عاماً!».

فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يقرأ فقط، بل يقرأ ويعلِّق ويصحِّح ويترجم، ويشــرح الغامض، ويبيِّن المُشكِل، ثم هو يفهرس ويسجِّل الفوائد في جُذاذات تركها في مكتبته، تبلغ عشــرات الآلاف وفي شــتى الفنون!، كلُّ هذا يفعله بنفس توَّاقة، وصبر عجيب، وعمل دؤوب لا نظير له!(٢).

59 وهذا الأســتاذ الكبير الأديب العلَّامة إبراهيم عبد القادر المازني، (المولود سنة ١٣٠٨، والمتوفَّى سنة ١٣٦٨) جاء في ترجمته في «موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر»(٣) للحازمي: «كان جَلِداً علــى المطالعــة، وكان يحفظ «الكامــل» للمبرِّد، وهو

---

(١) «ترجمة العلَّامة أحمد تيمور باشا» (ص ٢٣).

(٢) والذي دفعه وبقوة إلى هذا الاتجاه أن والده (إسماعيل باشا) كان على درجة عالية من الثقافة، وولع بالقراءة، حتى إنــه أُثر عنه فيما ينقله العلَّامــة محمد رجب البيومي في «النهضة الإسلامية» (٦/٢): «كان إسماعيل ذا علم وفضل، فقد حرص على تثقيف عقله، وإنارة ذهنه، فأكثر من المطالعة، واقتنى الكتب والصحف النافعة، وكان يقول لأصدقائه: **إني لأســتحيي أن أرى الكتاب فلا أتصفَّحه!**». وهذا ما انعكس على الابن بالإيجاب، فهو قد نشــأ في بيئة مثقفة، رضع فيها حب القراءة من صغره، ولم يركن ـ كغيره ـ إلى اللهو في ظلال الغنى الــوارف والثراء الطائــل، كأبناء الأعيان في عهــده ـ كما يقول البيومي ـ بل شُغف بالبحث والدراسة في صباه الزاهر.

(٣) (ص ١١٢).

صغير!». وقال الأستاذ أنور الجندي في كتابه «من أعلام الفكر والأدب»[١] في ترجمته: «ظلَّ يتقلب في هذه الدوامة ثلاثين عاماً، لم ينقطع فيها عن الكتابة والإنشاء والترجمة يوماً واحداً!، فهو يقرأ ويستوعب ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود إلى قلمه وورقه!. ـ يقول المازني ـ: «**ما أظن إلا أن الله جلَّت قدرته قد خلقني عن طراز عربات الرشِّ التي تتخذها مصلحة التنظيم ـ خزان ضخم يمتلئ ليفرغ ويفرغ ليمتلئ ـ أُحِسُّ الفراغ في رأسي، وما أكثر ما أُحِسُّ ذلك، فأُسرع إلى الكتب، فألتهم ما فيها، وأحشو بها دماغي، حتى إذا شعرت الكظَّة، وضايقني الامتلاء، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء، وقمت متثاقلاً متثائباً مُشفِقاً من التُّخمة، فلا يُنجيني إلا أن أفتح الثقوب وأسح!**».

ثم يقول الجندي: «ولعل ساقه التي هيضت[٢] في شبابه كانت بعيدة الأثر في طبيعته وفي كيانه كلِّه، فقد جعلته (فأر مكتبة!) بكل معنى الكلمة، إذ آثر القبوع والانزواء والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقَدْر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل!».

---

(١) (ص ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٢) قلت: ويشابهه في هذه الحالة العلَّامة الأديب الفقيه الإمام محمد البشير الإبراهيمي، فقد قال الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ كما جاء في كتاب «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (١٦٤/٥): «فلما بلغت التاسعة أصيبت رجلي اليسرى بمرض، وكان للإهمال والبعد عن التطبيب المنظَّم أثر كبير في إصابتي بعاهة العرج في رجلي، وقد أنساني ألَمَها والحزنَ عليها ما كنت منكبّاً عليه من التهام كتب كاملة بالحفظ، فكان لي بذلك أعظم سلوى عن تلك العاهة!».

وإن العجب ليذهب بنا كلَّ مذهب حين نستمع إليه وهو يروي لنا عن نفسه أنه في صباح يوم زفافه، دخل إلى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بزوجته الجديدة! قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «سبيل الحياة»[1]: «تزوجت وفي صباح ليلة الجلوة دخلت مكتبتي، ورددت الباب، وأدرت عيني في رفوف الكتب، فراقني منها «ديوان شيللي» فتناولته وانحططت على كرسي، وشرعت أقرأ ونسيت الزوجة، التي ما مضى عليها في بيتي إلا سواد ليلة واحدة، وكانوا يبحثون عني حيث يظنون أن يجدوني، في الحمام وفي غرفة الاستقبال وفي المنظرة، حتى تحت السرير بحثوا، ولم يخطر لهم قط أني في المكتبة، لأني عريس جديد، لا يُعقل ـ في رأيهم ـ أن يهجر عروسه هذا الهجر القبيح الفاضح، وكانت أمي في الكرار أو المخزن تعدُّ ما لا أدري لهذا الصباح، فأنبؤوها أني اختفيت، كأنما انشقت الأرض فابتلعتني، وأنهم بحثوا ونقَّبوا في كل مكان، فلم يعثروا لي على أثر، فما العمل؟ فضحكت أمي وقالت: ليس في كل مكان، اذهبوا إلى المكتبة فإنه لا شك فيها. فقالت حماتي ـ ضربت على صدرها بكفِّها ـ: في المكتبة؟ يا نهار أسود! هل هذا وقت كتب وكلام فارغ؟ فقالت أمي بجزع: اسمعي كل ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كتب، افهمي هذا وأريحي نفسك، فإن كل محاولة لصرفه عن الكتب عبث!. فقالت حماتي: لو كنت أعرف هذا.. مسكينة يا بنتي.. وقعت، وكان ما كان!».

---

(١) (ص ٦٢).

60 وهذا العلَّامة الفقيه المؤرِّخ شِبلي بن حبيب الله النعماني، (المولود سنة ١٢٧٣، والمتوفَّى سنة ١٣٣٢)، جاء في ترجمته في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»(١) للعلَّامة عبد الحي الحَسَنِي: «الشيخ الفاضل العلَّامة: شبلي بن حبيب الله البندولي، فريد هذا الزمن، كان واسع الاطلاع في تاريخ الإسلام والتمدُّن الإسلامي، كثير المحفوظ بالأدب والشعر، **كثير المطالعة لم يَفُتْه كتاب في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم إلا طالعه!**، ولم يكن له نظير.. وفاق أقرانه في الإنشاء والشعر والأدب والتاريخ وكثير من العلوم والفنون».

وقال الأستاذ محمد أكرم الندوي في كتابه «شبلي النعماني علَّامة الهند الأديب والمؤرِّخ الناقد الأريب»(٢): «كان وَلَعُه شديداً بدراسة الكتب ومطالعتها منذ طفولته، اقتنى كتباً كثيرة، فكانت مكتبته كنزاً لأهم الكتب النادرة القيمة، **حتى إنه طالع جميع الكتب التي توافرت لديه**، وكان يقول: **لا أجدُ كتاباً أطالعه!**».

61 وقال القاضي العباس بن إبراهيم السملالي في كتاب «الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام»(٣)، في ترجمة العلَّامة محمد بن المدني كنون، (المولود في حدود سنة ١٢٤٠، والمتوفَّى سنة ١٣٠٢): «عالم فاس وشيخ الجماعة، حُبِّبَ إليه طلبُ العلم..، كان المترجم آيةَ الله الظاهرة في الصبر على المطالعة، والتدريس والإطالة

---

(١) (١٢٤١/٨).

(٢) (ص ٨١).

(٣) (٥٤/٧).

فيهما، بما لم يُعهد لأهل عصره، **وقلَّ أن تجد له كتاباً إلا وعليه توقيفات مما يدل على أنه قد طالعه**، وربما تجد له عدَّة نسخ من الكتاب الواحد ما يقتضي تكرار النظر فيه!».

62 وهذا العلَّامة المحدِّث المُسنِد الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، (المولود سنة ١٣٠٥، والمتوفَّى سنة ١٣٨٢)، جاء في ترجمته الواردة في مقدمة كتابه «فهرس الفهارس والأثبات»[١]: «لم نر ولم نسمع في زماننا هذا بمثل شغفه بالمطالعة، لا يَمَلُّها وإنْ مَلَّتْه، هي أول أعماله صباحاً وآخرها مساء، لا ينام إلا غلبةً وكراسته في يده الشريفة!».

وكانت مكتبته حافلة بنفائس الكتب، ونوادر المخطوطات، وهي مكتبة ضخمة لا نظير لها في المغرب كلِّه، قرأها كلَّها، وعلَّق على كثير منها، وساعدته على تصنيف المؤلَّفات النادرة التي لم يُسبق إليها.

63 وهذا العلَّامة المحدِّث الشيخ عبد العزيز بن الصِّدِّيق الغُماري، (المولود سنة ١٣٣٨، والمتوفَّى سنة ١٤١٨) قال الشيخ العلَّامة عبد العزيز الغماري ـ كما في كتاب «نجم من أعلام علماء السلف في علماء الخلف»[٢] للأستاذ عبد اللطيف جسُّوس ـ: «أجد لذَّة عظيمة في مطالعة كتب الحديث والتصوُّف، وأواصل الساعات ببعضها في مطالعتها وقراءتها. ولا يمكن أن أجد كتاباً في الحديث من غير أن أعكف على قراءته حتى أُتِمَّه..، **وقد قرأت ـ ولله الحمد ـ من كتب**

(١) (ص٢٠).
(٢) (ص٧٠).

الحديث المُسنَدة وغير المُسنَدة ما لا يَخطُر ببال أحد من شيوخ أهل العصر!، ولولا الخروج عن الاقتضاب في ذِكرها وسردها، لَذَكرت لك منها ما تَنْحَلُّ به الحبوةُ عجباً!».

هذا عدا تكراره لقراءة بعض الكتب مرَّات، منها ما يقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«وقال: وقرأت كتاب «فَتح الملك العلي بصحة حديث: باب مدينة العلم علي»(٢) ثلاث مرَّات.. وانتفعت به كثيراً.. وقد تعلمت منه أموراً مهمة في علم الحديث، وفتح لي باباً لا يُفتح لكلِّ أحد إلا بعد مدَّة من القراءة والبحث».

وقال: «وفَّقني الله تعالى للاشتغال بكتاب «العِلل» لابن أبي حاتم، فقد قرأته مرَّات وانتفعت به كثيراً».

وقال: «وقد قرأت «شرح الحكم»(٣) للجَدِّ من جهة الأم.. وكذلك قرأت «شرح ابن عَبَّاد» على الحِكَم، و«شرح ابن عجيبة» على تائيَّة شيخه سيدي البُوزيدي.. وقد قرأت هذه الكتب الثلاثة مرَّات.

وقال: «وكذلك انتفعت كثيراً بقراءة «المحلَّى» لابن حزم، فقد قرأته مرتين، واستخرجت منه فوائد.. ومن الكتب التي لزمت قراءتها ومطالعتها «اللآلئ المصنوعة» للحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ..». وقرأ غيرها.

---

(١) «نجم من أعلام علماء السلف في علماء الخلف» (ص٧١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٥).
(٢) مؤلفه العلَّامة أحمد بن الصِّدِّيق الغُماري، وهو أخوه، ويعتبر من مشايخه.
(٣) المسمَّى: «إيقاظ الهمم في شرح الحكم». لأحمد بن محمد بن عجيبة رحمه الله.

64 وهذا علَّامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء عبد الحي اللكنوي، (المولود سنة ١٢٦٤، والمتوفَّى سنة ١٣٠٤)، كان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا وضع رأسه في كتاب لا يرفعه عنه إلا وقد انتصف الليل، ولا يَمَلُّ من ذلك![١]. قال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبُّد ليس ببدعة»[٢]: «وهذا العبد الضعيف جامع الأوراق، قد حصل له التذاذٌ بالمطالعة والتصنيف، فأطالع المجلدات الضخمة في ساعات عديدة. وأقعد في بعض الليالي أُصنِّف من المغرب إلى نصف الليل من دون وقفة ـ سوى صلاة العشاء ـ ولا يحصل لي المَلال، ولله الحمد على ذلك!».

وقال تلميذه محمد حفيظ الله كما في كتاب «الإمام عبد الحي اللكنوي علَّامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء»[٣]: «ورأيت بعيني حين توفِّيت والدته الماجدة فجاؤوا عنده لأداء التعزية، فوجدوه مشغولاً بمطالعة الكتب! فعجبوا منه، فللَّه المشتكى، ما جاء عنده أحد إلا تعجَّب وقام بحيرة النفس!».

وقال العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة تحقيقه لكتاب «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العِشرة الكاملة»[٤] للكنوي: «وقد كانت لديه مكتبة

---

(١) انظر: كتاب «الإمام عبد الحي اللكنوي علَّامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء» للدكتور ولي الدين النَّدْوِي (ص١٥١).

(٢) (ص١١٧، ١١٨).

(٣) (ص١٥٠).

(٤) (ص١٥). ونقله الدكتور ولي الدين الندوي في كتابه «الإمام عبد الحي اللكنوي علامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء» (ص١٥١) وعقَّب عليه: «وقد لاحظت ذلك عندما تتبعت =

جامعة عامرة غنية في كلِّ فنٍّ وعلم، تبدو ضخامتها واستيعابها من تواليفه التي تطفح بالنقول عن كتب لا تزال مغمورة في عالم المخطوطات، قَلَّ أن يُسمع بها، أو يُعرف عن وجودها شيء!».

65 وهذا الإمام الأكبر شيخ جامع الزيتونة محمد الطاهر ابن عاشور، (المولود سنة ١٢٩٦، والمتوفَّى سنة ١٣٩٤)، الذي التهم مخطوطاتِ جامع الزيتونة كلَّها. جاء في ترجمته المطوَّلة في كتاب «شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور»(١) للعلَّامة محمد الحبيب بن الخوجة: «قضى الإمام الأكبر حياته في جهاد وعطاء. وبذل ما شاء الله له أن يبذل من جهود..، ومما أكد هذا حُبُّه للمطالعة وإقباله الشديد عليها، وحفظه السريع لما تشتمل عليه **الكتب والرسائل التي كان يلتهمها التهاماً**!. ووقف على أكثر المخطوطات به ـ أي الجامع الأعظم ـ مطالعةً، وتوقيفاً، وتحشيةً وتعليقاً، بخطٍّ جميل يُزري بخطِّ الأصل منها، فيزداد بذلك الكتاب نفعاً للواقفين عليه!».

وقال الخوجة(٢): «وإنك لتجد هذا الطالب المُجِدَّ مقبلًا إقبالًا شديداً على مطالعة أمَّات الكتب، ومراجعة دواوين العلوم، مشتغلاً بالبحث في مختلف المسائل العلمية، اللغويَّة منها والشرعية، **حتى صار هذا دَيْدَنَه كاملَ حياته!**»(٣).

= المصادر التي عول عليها الإمام اللكنوي في كتبه في الحديث وعلومه، فقد استخدم كثيراً من المصادر والمراجع التي لا توجد إلا بشق الأنفس!».

(١) (٢١/١ ـ ٢٣).

(٢) كما في «شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور» (١٥١/١).

(٣) والإمام الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان على درجة عالية من قراءة الكتب ومطالعة العلوم، =

66 وكان العلَّامة الفقيه الأصوليُّ الأديب الشيخ المعمَّر الحاج حمدي الأعظمي، (المولود سنة ١٢٩٨، والمتوفَّى سنة ١٣٩١)، له ولع شديد بالكتب وشغف بالاطلاع، وكانت له مكتبة نفيسة ظلَّ يجمع فيها قرابة ثلاثة أرباع القرن ـ تأمل ثلاثة أرباع القرن فقط ـ على ما يقوله الشيخ هاشم الأعظميُّ في كتابه «تاريخ جامع الإمام الأعظم ومساجد الأعظميَّة»(١). والأعجب من ذلك أن هذه المكتبة العظيمة التي أخذت منه هذا الجهد الطويل والزمن البعيد في جمعها وتكوينها قد قرأها كلَّها! ويقول الشيخ هاشم أيضاً: «إنه يقرأ جميع ما يجمع من الكتب ويعلِّق على بعضها بخطِّ يده، حتى اعترف له بالعلم وسعة الاطلاع علماء زمانه وفضلاء عصره»(٢).

وهذه المكتبة النفيسة قد تحدَّث عن ضخامتها وأهميتها فيما تحويه من الفنون وسائر العلوم تلميذُه الأعظميُّ في المجلد الثاني من كتابه «تاريخ جامع الإمام الأعظم ومساجد الأعظمية»(٣).

= ولربما احتكر بعض الكتب ليطالعها وذلك لقيمتها العلمية وأهميتها، قال العلَّامة محمد البشير الإبراهيمي ـ كما جاء في كتاب «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٢٢٤/١) لابنه الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ـ: «كنتُ قرأت ـ وأنا بالمدينة المنوَّرة ـ تفسير المرزوقي لديوان الحماسة، وهو تفسيرٌ أيُّ تفسير!. ولما دخلت الشام بحثت عن نسخة منه فلم أظفر بها، فذكرته في مجالس الأدباء، ونوَّهت بمكانته وشوَّقتهم إليه وتعاهدنا على أن ننسخه إذا ظفرنا به، ونروِّجه حتى يقيِّض اللهُ له مَنْ يطبعه. ولما قدمتُ إلى تونس مصرًّا على ذلك العهد، سألت عن الكتاب قيل لي إنه موجود، وإنه مستعار عند (الشيخ الطاهر ابن عاشور)، وإنه كاد يحتكره احتكاراً!. قال الإبراهيمي: فكان هذا الخبر بمجرده مزيداً في قيمة الرجل الأدبية عندي؛ **لأن حسن اختيار الكتاب أول عوامل الإصلاح في نفس العالم!**».

(١) (٢٠٥/١).

(٢) «تاريخ جامع الإمام الأعظم ومساجد الأعظمية» (٢٠٥/١).

(٣) (١٩٦/٢) وما بعدها.

67 وهذا الأستاذ الأديب الدكتور زكي مبارك أحد كبار كُتَّابِ العربية المعاصرين، (المولود سنة ١٣٠٨، والمتوفَّى سنة ١٣٧١)، كان شديد النَّهَمِ في القراءة، وكان يقطع ليله ونهاره فيها، حتى تأذَّت عيناه من كثرة ما يقرأ! وكان يقول(١): «**يؤذيه ـ يقصد نفسه ـ أن يُقال: إن في الدنيا كتاباً لم يطَّلع عليه!**». وكان يقول أيضاً: «**أنا لا أعرف المسامحات!**» يعني في القراءة.

وكانت مكتبته تضمُّ أكثر من عشرين ألف كتاب، وضع بعضها في نحو ثلاثين دولاباً، ووزَّع البعض الآخر في أركان الغرف وقرب النوافذ والمقاعد، وعلى الأرض!. ولك أن تتخيل أن هذه المكتبة الضخمة قد قرأها ولا يوجد فيها صفحة واحدة بيضاء خالية من الكتابة والتعليق، ولقد جاء في كتاب «زكي مبارك»(٢): «وكثيراً ما يهبط الوحي على الدكتور بفكرة رائعة أو بيت من الشعر، ثم لا يجد في هذا المخزن العظيم ورقة بيضاء، فيسارع بتسجيل الفكرة أو الشعر على خشب النوافذ! أو جدران الحائط! وكثيراً ما غرق (التليفون) بين المجلدات والأوراق، فلا يعثر عليه الدكتور إلا بعد جهد جهيد!».

68 وهذا العالم البحَّاثة الداعية المفكِّر هاني الطايع، (المولود سنة ١٣٥٥، والمتوفَّى سنة ١٤٣٠) الذي أولع بحب الكتب واقتنائها والمداومة على قراءتها والسهر عليها مطالعةً وهضماً، قال الشيخ مجد

---

(١) «زكي مبارك دراسة تحليليَّة لحياته وأدبه» للعلاَّمة أنور الجندي (ص ١٧٤).
(٢) (ص ١٨٣).

مكي في ترجمته في كتابه «رجال فقدناهم»[1]: «كان دائم السؤال عن كلِّ جديد في عالم الكتب، ولا أعرف مثيلاً له في حُبِّه للكتاب، وحرصه على اقتنائه ومطالعته، ومتابعته المستمرة للثقافة بكل أفنانها ومختلف ألوانها». حتى إن العلَّامة الشيخ يوسف القرضاوي ـ وكان من أصدقائه ـ لشدة ما وجد فيه من الحرص على القراءة وعدم الانقطاع عنها ومداومة الاتصال بها نَصَحَه فقال: «كان أبو الربيع من المتميِّزين بالعقل والفكر والقراءة والثقافة، فقد كان يقرأ كثيراً ويطالع كثيراً، وكنت أقول له: أودُّ أن تكتب، وأحسبه كَتَبَ ولم يَنْشُر.. وقال: كان رجلاً مثقَّفاً، بل من خيار المثقَّفين».

وكانت مكتبته التي ينادمها ويطالع في كتبها نفيسة عامرة تزيد على عشرين ألف كتاب، كما يقول صديقه الدكتور عدنان زرزور: «لقد كانت عناوين مكتبته تزيد على عشرين ألف عنوان فيما أقدِّر، مع ملاحظة أن العنوان الواحد قد تربو أعداد مجلَّداته على العشرين أو الثلاثين!». على ما جاء في ترجمته في «رجال فقدناهم».

69 وكان العلَّامة النحويُّ الفقيه والمؤرِّخ الأديب الشيخ عبد الغني الدَّقْر، (المولود سنة ١٣٣٥، والمتوفَّى سنة ١٤٢٣) دائم القراءة ينفق عليها كلَّ وقته وأعزَّه وأغلاه ـ وكلُّ وقته عزيز ـ، ويطالع نهاره كلَّه من شقشقة فجره إلى غروب شمسه، وهو مع المطوَّلات غيرَ هيَّاب ولا وَجِل، وله فيها صولات طويلة وجولات عديدة، جاء في ترجمته في كتاب «رجال

(١) (١٠٦١/٢).

فقدناهم»[1]: «كان الشيخ مولياً القراءة النصيبَ الأوفر من حياته، **فهو يقرأ من بعد صلاة الفجر حتى صلاة المغرب!**، وقد جَرَدَ بنفسه عدداً من المطوَّلات في التَّفسير، والفقه، والحديث، واللُّغة، والأدب، مثل: «مغني المحتاج» للشربيني، و«نهاية المحتاج» للرملي، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، و«المحلَّى» و«الإحكام في أصول الأحكام»، و«الفصل في الملل والأهواء والنِّحل» لابن حزم، و«فتح الباري» لابن حجر، و«شرح صحيح مسلم» للنووي، و«تاريخ الطبري»، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، وكتب الأدب المشهورة جميعها!

وتضمُّ مكتبته المرتَّبة على الفنون؛ أصنافَ المعرفة الإسلامية والعربية جميعها؛ من تفسير، وحديث، وفقه، ولغة، وأدب، وتاريخ، وتراجم، وغير ذلك.

فضَّل أن يكون الكتاب جليسه وأنيسه، والعلم مطلبه ومراده، فلا عجب أن تراه عازفاً عن رسوم المشايخ بعيداً عن أضواء برَّاقة يسعى غيره إليها».

70 وهذا العلَّامة الأديب الشاعر الأستاذ أحمد شفيع السيِّد، (المولود سنة ١٣٢١، والمتوفَّى سنة ١٣٨١)، الذي كان لا يقرأ إلا في المخطوطات، ولا يطالع سوى النُّسخ القديمة الصفراء المهترئة!. ترجم له تلميذه العلَّامة محمد رجب البيوميُّ في «النهضة الإسلامية»[2] فقال: «ذهبت مرَّة إلى منزل الأستاذ، وطلبت كتاب «نفح الطِّيب»، وكنت

---

(١) (٩٧٩/٢، ٩٨٠).

(٢) (٤٠٥/٢).

أتوقع أن أُطالع النُسخة البيضاء التي صدرت عن (دار المأمون)، ولكن الأســتاذ فاجأني بنســخة صفراء تآكلت حروفها، واختلطت هوامشها بمتونها[1]، فأعملتُ قريحتي وقلت هذين البيتين:

طلبتُ «النَّفْحَ» مشكولاً ولكن بعثتَ لنا بمُضطرِبٍ سـقيم
كصبٍّ رام أن يلقــى مليحاً فأوقعــه الزمان علــى دميم

وما كدتُ أعرض البيتين على شفيع حتى ارتجل منشداً:

بعثتُ «النَّفْحَ» حين وثقتُ أني بعثت به إلــى فَطِــنٍ عليم
وما يُجديك مِن شَكْلٍ مُمِلٍّ وأنت من العروبة في الصميم

وكان العلَّامة البيومي رَحِمَهُ اللَّهُ مغرماً بالتردُّد على (دار الكتب) للمطالعة فيها، وكان أيضاً كثير التردُّد على شيوخه، وحين زار شيخه أحمد شفيع في العطلة الصيفية قال كما في «النهضة الإسلامية»[2]:

لقاهرةِ المُعِــزِّ صَبَوْتُ حتى لَيَرْجُفُ خافقي بين الضُّلوع
صبوتُ بها لأمرَيْن اسـتباحا ذَماء الصبر فــي كبدٍ صَدِيع
لِدار الكتب وهــي أعزُّ دار ومجلسِ كَوْكَبِ الفصحى شفيع
همــا متماثــلان فمــا لديها يصابُ لديه في ذِهن ضليع
لقد جادوا على قلمي فروَّى بما جاد الغَمَــامُ على الربيع
وتلــك تفيدنــا علمــاً وهذا يزيْن العلــمَ بالخُلق الرفيع

---

(١) يقول الأستاذ البيوميُّ في «النهضة الإسلامية» (٤٨٥/٢): «والكتب الصفراء هذه هي التي كوَّنت أعلام النهضة الفكرية في العالم الإسلامي، وأنشأت جيلاً من السابقين لم تقدر الكتب البيضاء في يومنا هذا أن تُنشئ أمثالَهم!».

(٢) (٤٠٦/٢).

بشاشـــةُ مجلسٍ وسخاء كفٍّ وظُـرْفٌ نَمَّ عـن ذوق بديع

قال البيوميُّ: فما أنشـدتها للأسـتاذ حتى طلب قلماً، وخطَّ بظهر الورقة في بضع دقائق:

وقاهـرةُ المُعِـزِّ إليك تصبو كما تصبو الرَّؤُومُ إلى الرضيع
لقـد عَهِدْتُك شِـبْلاً عبقريَّاً فكيـف تـراك أيـام الربيع
تزفُّ لها الروائـع ناصعات على نسـقٍ من الفنِّ الرفيع
وذلك فضل ربِّك لا سـواه وليس لدار كُتبٍ أو شـفيع

71 وهذا العلَّامة المفسِّر المحدِّث الفقيه الشيخ طاهر الجزائري، (المولود سـنة ١٢٦٨، والمتوفَّى سـنة ١٣٣٨)، ترجم له العلَّامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه الماتع «العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج»[١]: «فرَّغ الشيخ طاهر نفسه وقلبه من شواغل الحياة وتوجَّه إلى تحصيل العلـم، وأقبل يَنهل العلـم ويَعُلُّه[٢] بـكل ما آتاه الله من مواهب وقوة..، وكان يسـهر الليل كلَّه..، وكان أغلى شيء عنده العلم وكُتُب العلم والتفرُّغ للعلم، فلـذا عاش عَزَباً ولم يتـزوَّج.. يَقبَعُ في حُجرة داره مع كتبه ودفاتره، لا يَشـغله شـاغل، ولا يَلِجُ عليه داخل، فكان فراشه محاطاً بسُـور من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام..، وكان من حرصه على الوقت يصنع كمية كبيرة من القهوة التي يتنشَّط بشُـربها، تكفيه لمدة أسـبوع، حتى لا يَضِيعَ وقتُه بإعدادها، فيشربها باردة بائتة، لئلا يُشغَل بها عن مطالعته..، وإذا خرج من بيته ومكتبته،

(١) (ص ٢٠٨).
(٢) عَلَّ فلان من الشراب: شربه مراراً وتباعاً، حتى ملأ منه ضلوعه.

فلا بُدَّ أن يكون في صحبتـــه كتاب أو في كمّه أو جيبـــه أوراق، ليقرأ حيث تيسَّرت له القراءة، وحتى لا يذهب الوقت بدون فائدة!».

«وكان الشـــيخ ـ كما يقال ـ مَعْلَمةٌ متنقِّلة، ومكتبةٌ ســـيَّارة. وكيف لا يكون كذلك مَـــن آتاه خالقُـــه حافظةً قويـــة، وذهناً وقّـــاداً، وعقلاً يستعمله، **فقد قرأ جميع ما طالته يده من الكتب العربية التي طُبعت في الشـــرق والغرب!**، أما المخطوطات التي طالعها ولخَّصها في كُنانِيشه وجُذاذاته فتُعَدُّ بالمئات»[1].

قلت: وأكَّد هـــذا العلّامة علي الطنطاويُّ فقـــال ـ كما في كتابه «رجال من التاريخ» ـ[2]: «دعا إلى النظر في الكتب، **فلم يكد يدع كتاباً لم ينظر فيه!** ودعا إلى التأليف فكان له من التواليف ما عدَّه من مُكثري المصنِّفين، ودعا إلى حفظ الوقت، فلم يكن يضيع من وقته لحظة..». وقال أيضاً: «وكان يطيل المشي وحده، ومعه كرَّاس ينظر فيه». «وكان يتخذ من جيـــوب الجُبَّة مكتبة، ففي جيبٍ كتابٌ مخطوط، وفي جيبٍ رسالة، وفي جيبٍ أوراقٌ ودفاتر، وفي الجيب الرابع خبز وقطع من الجبن ومن الحلاوة.. كان يسهر الليل كلَّه.. فإن كان مشغولاً وطَرَقَه طارق، أطلَّ فقال: (مشغول، عُد في وقت آخـــر)، مهما كانـــت منزلته!.. فـــإنْ دخل عليه الغليـــظ من حيث لا يشـــعر، دفع إليه كتاباً، وقال: (خذ اقرأ هـــذا)، وتركه وعاد إلى ما كان فيه..».

---

(١) «كنوز الأجداد» (ص ١٥).

(٢) (١٢٧/٢، ١٢٨، ١٢٩) وما بعدها.

ثم قال الطنطاوي: «كنت أظن أن هذه الطبقة قد انقرضت، فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية باقية.. وقال: ولم آسف على فوات لقائي برجل من رجال هذا العصر، كما أسفت على أني لم ألق الشيخ طاهراً الجزائري!».

72 وهذا العلَّامة الفقيه الحنفيُّ المحدِّث الإمام محمد أنور شاه الكشميري الهندي، (المولود سنة ١٢٩٢، والمتوفَّى سنة ١٣٥٢)، قال تلميذه العلَّامة محمد يوسف البنوري ـ فيما ينقله عنه العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي»[١] ـ: «كان الشيخ آية من آيات الله العظام، ونادرةً من نوادر العصر..، وفِّق لغزارة المطالعة وسرعتها بحيث تتحيَّر منه العقول، **حتى تُطوى من بين يديه ذخائرُ من المكنونات العلمية كلَّ يوم**، حتى سمعت من بعض خواصِّ معارفه: أنه أول ما كان يطالع «مسند أحمد» المطبوع بمصر **كان يطالع كلَّ يوم نحو مئتي صفحة منه، مع غور وإمعانٍ في أسانيده وحلِّ مشكلاته.**

طالع كتاب «فتح القدير» لابن الهُمام مع «التكملة» في بضع وعشرين يوماً، وكتب تلخيصه إلى كتاب الحج، وأجاب عن إيراداته التي أَوردها على صاحب «الهداية»، وناقش فيها في جزء لطيف. كلُّ ذلك في تلك البرهة القصيرة.

وكان دأَبه في المطالعة أنه كلما تيسَّر له كتاب، مخطوطاً كان أو مطبوعاً، سقيماً كان أو سليماً، في موضوع علمي، أيِّ موضوع كان،

---

(١) (ص ٢٣ ـ ٢٤) وما بعدهما.

من أيِّ مصنَّف كان، فيأخذه ويطالعه من أوله إلى آخره بتمامه، من غير أن يُبقي شيئاً أو يَذَر». انتهى كلام البنوري.

73 وهذا العلَّامة المحدِّث الشيخ محمد الحافظ بن عبد اللطيف بن سالم التجاني، (المولود سنة ١٣١٥، والمتوفَّى سنة ١٣٩٨) كان على مرضه وشيخوخته شديد الانهماك بالعلم، كثير المطالعة للكتب، فلا ينام الليل حتى يطلع عليه الفجر وهو منكبٌّ على القراءة، لا يجد راحة نفسه ولا طمأنينة قلبه إلا في ذلك!

يقول الشيخ محمود سعيد في ترجمة التجاني كما في «تشنيف الأسماع»[(١)]: «حُبِّب إليه الاشتغال بالعلم، **وأن يطالع كلَّ ما يصل إليه من الكتب!**.. وحرص على اقتناء كتب الحديث ومطالعتها والسهر في تدوين الفوائد، وكان يمكث في المكتبات الأيام والليالي المتوالية في البحث والاطلاع بدون أن يملَّ!».

ومكتبته التي طالع كلَّ ما فيها، جاء في وصفها ـ كما في «تشنيف الأسماع»[(٢)] ـ: «هي من أكبر المكتبات بالقاهرة، وقد حوت من كنوز المطبوع والمخطوط ما تعجز عنه الهيئات الكبار خاصَّة من كتب السُّنَّة المُشرَّفة!».

ولم يكتف بمطالعة مكتبته وحدها!، فمكتبته على ضخامتها لم تكن تُقنِع همَّته، ولا تُشبع نَهَمه، يقول الشيخ محمود سعيد: «وفي

---

(١) (١٦٢/١).
(٢) (٢٤٧/٢).

أثناء سياحته طالع الكثير من كتب الحديث بمكتبات الحرمين الشريفين، ومكتبة مسجد الجزار، والمكتبة الظاهرية، ومكتبة القرويِّين بفاس وغيرها»[١].

ولما مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رثاه الشيخ محمد سيد جاد الحق فقال[٢]:

إذا قضى اللهُ فالأقدارُ غَالِبَة مَنْ ذا الذي لم يُطِعْ يوماً ولم يُجِبِ
سلِ المضاجع عمَّنْ باتَ يَهجُرها في لذَّة العلم طوَّافاً على الكُتُبِ
سل البخاريَّ وسل كلَّ الصِّحاح بأنَّ حافِظَها قد مات في رجب

74 وهذا العلَّامة المحدِّث الشيخ الشهيد نزار ريان الغزي العسقلاني، (المولود سنة ١٣٧٨، والمتوفَّى سنة ١٤٣٠)، كان شغوفاً بالمطالعة، حريصاً على اقتناء الكتب وقراءتها، لا يُعرف له نظير في غزَّة هاشم في هذا!، وكانت له مكتبة حافلة، نافس في اقتنائها وبالغ في شرائها، تسمَّى (العامرة)، تعداد كتبها بالآلاف!، حدَّثني بعض تلامذته، منهم: الدكتور يوسف محيي الدين الأسطل، والأستاذ الشيخ حافظ البطة: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَرَأَ مكتبته (العامرة) كلَّها!. والأعجب من ذلك ـ كما يقول الشيخ البطة ـ: أن الكتاب الواحد في مكتبته قد تتعدَّد نسخه، فيقرأه بطبعاته المتعدِّدة!

ومَنْ الذي يصبر على ذلك إلا أصحاب الهمم، التي لذَّ لها العلم وهامت في حبِّه، وأصحاب العزائم العنيدة التي لا تعرف المستحيل.

---

(١) «تشنيف الأسماع» (١٦٢/١).

(٢) المرجع السابق (١٦٢/١).

وكانت لا تندُّ عنه لحظة من غير مطالعة، بل من شدَّة غرامه بالقراءة، كان يصطحب الكتاب معه إذا ذهب إلى الثغور حيث يرابط على تخوم (غزة هاشم)، فيُحوِّل الرباط إلى مجلس عِلم ومذاكرة!.. فللَّه درُّه ما أغلى العلم على قلبه.

وقد اشتغل قبل استشهاده بشرح «صحيح مسلم»، فشرح المقدمة في مجلَّدين، ومات ولم يكمله، ولو مدَّ الله في عمره لرأينا عجباً!، حتى لكأن الحافظ ابن حجر العسقلاني قد عاد من جديد..، ولكن هكذا هي أقدار الله تعالى، أنت تُريد وأنا أُريد والله يقضي ويفعل ما يريد.

75 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، (المولود سنة ١٣٤٢، والمتوفَّى سنة ١٣٧٧)، جاء في كتاب «الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي»[1] للكاتب سعود السيف: «يقول عنه بعض تلامذته: لقد كان مقبلاً على القراءة والمذاكرة إقبالاً شديداً لا يلتفت إلى الدنيا بأي حال، طَموحاً إلى العُلا وطلب العلم، حريصاً لا يكاد الواصفون يصفون شدَّة حرصه وإقباله عليه، ومما يؤكد ذلك ما نرى من كثرة إنتاجه العلمي رغم صغر سنِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ!».

وكانت مكتبته عامرة، وقد قرأ كلَّ ما فيها!. يقول الأستاذ سعود السيف: «يستثمر وقته في القراءة والتأمُّل والتدبُّر والمداومة على القراءة بلا ملل ولا فتور..، ورأيت ذلك واضحاً من خلال مطالعتي لمكتبته».

---

(١) (ص ٢٨).

وقال: «لم يكتف بالقراءة فقط، بل كان يكتب ملاحظاته!». يعني يكتب ملاحظاته على كلِّ كتاب يقرأه، وذكر أمثلة على ذلك تُنظر في الكتاب المذكور آنفاً.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ شديد التأسُّف على مَن يجمع الكتب ويستمتع برصفها في خزائنه المترعة بنفائس المخطوطات، ورفوفها المثقلة بأنواع المعارف والعلوم، وهو مع ذلك لا يجتهد في قراءة كتبه، ولا ينادم مكتبته، وشعاره: اقتنيت كذا وكذا!، فيقول الشيخ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ببيت الشيخ كتبٌ قد شَراها وجمَّعها ولكنْ ما قراها
وطابت نفسه منها بسلوى إذا فتح المكان بأن يراها
وينظر في قطائعها ويمضي وهل تدري القطائع ما وراها
فوا أسفي على الأيام ضاعت هباءً وقضى على نفسٍ كَراها
وقد قنعت من الدنيا بدونٍ وباعتها ببَخْسٍ في شِراها

وما أكثر هؤلاء اليوم؟!، ترى أحدهم يهتم بطبعة الكتاب وجودة الورق ولا يهتمُّ بقراءته! فإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وأكتفي بما تقدَّم.

* * *

الفصل الرابع

في همَّتهم في مصاحبة الشيخ

قال العلَّامة محمود الطناحي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كما في «مقالات الطناحي»(١) ـ: «كان التلميذ قديماً يسمَّى صاحباً لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحبا أبي حنيفة، والربيع بن سليمان المُرادي صاحب الشافعي، وابن جِنِّي صاحب أبي علي الفارسي.. وهلمَّ جَرَّاً». ثم قال بعد كلام طويل: «.. وهؤلاء في حاجة إلى معلم وموقِّف، لأن الأصل في علومنا الرواية والمشافهة والتوقيف..، وتُرِكَ طالب العلم وحده يضرب في أرضٍ يَهْمَاء، لا ماء فيها، ولا عَلَم بها».

فمن علامات النبوغ لدى طالب العلم، التزامُه بين يدي شيخ، يوجهه إلى أوضح الطرق وأقصرها، ويرشده إلى أنفع المسالك وأرشدها، فشيخه يقوِّم أَوَدَه، ويعدِّل عِوَجَه، ويقوِّي عزمه، ويشدُّ أَزْرَه، ثم هو يضبط فكره، ويهذِّب سلوكه، ويصحِّح مساره، ويلقِّنه الرواية الصحيحة، فلم يَعُدْ بعد ذلك يضرب ضربَ عشواءَ، ولا يسير في الظَّلماء.

قال الشيخ العلَّامة محمد عوَّامة في كتابه «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين»(٢): «إن شيوخ طالب العلم هم آباؤه وأجداده،

---

(١) (ص ٢٠ ـ ٢٦٩).

(٢) (ص ١٦٢).

ومَنْ لم يكن له شيوخ يتلقَّى عنهم العلم ثم ادَّعى العلم وتكلَّم فيه: فهو دَعِيٌّ فيه، مجهول الهوية والنسب!».

فمن شيخه يتعلَّم العقل ووزن الأمور، ويَخْبُر التجربة والحكمة، وهذا شيء لا يوجد في الكتب، وإنما يؤخذ بالملازمة وطول الصحبة، قال الشيخ العلَّامة عبد الفتاح أبو غدَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإثنينية»[١]: «تأثرت بفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا، فتعلَّمت منه العلم والفقه والعقل، فإن هذا شيء نفيس لا يوجد في الكتب: تعلُّم الإدراك، تعلُّم البصيرة، تعلُّم المعرفة، تعلُّم وزن الأمور، تعلُّم إيرادها وإصدارها!».

وقال الشيخ العلَّامة عطية سالم ـ في كتابه «من علماء الحرمين»[٢] ـ: «.. إن هذا الربط بين المادَّة والكتاب والشيخ هو صُلب التعليم العالي؛ لأن المادَّة الغزيرة بدون كتاب يَصْعُبُ جمعُها، والمادَّة والكتاب غزيرَي المادَّة بدون أستاذ على مستوى غزارة المادَّة وأصالة الكتاب كالعدم! ولذا يقال: (أعطني أستاذاً قبل أن تعطيَني كتاباً). والأستاذ المتخصِّص والمتمكِّن من مادَّته هو الكتاب الناطق، وهو الذي يجمع أطراف المادَّة، ويصنِّف أبوابها، ويفصِّل مسائلها، ويقدِّمها للطالب سائغة هنيئة».

وقال الشيخ محمد عوَّامة: «إنه بالتلقِّي عن الأستاذ يحصل الطالب على خيرين: يحصل على العلم الصافي المحقَّق، ويحصل على الأدب عن العلماء والشيوخ؛ لأنه سيلتزم الأدب مع معلِّمه، ومنه يتعرَّف على

---

(١) (ج ١١/ص ٦٣٠).

(٢) (ص ٤١٣).

قَدْرِ العلماء، وكيف يترقَّى في الأدب معهم، وإذا التزم الأدب مع شيوخه، فهو مع شيوخهم ومَنْ قبلهم، ومَنْ قبلهم، أشدُّ التزاماً، فمنهم يرث العلم والأدب»(١).

ومن ثمار مصاحبتهم ـ إضافةً إلى ما ذكره الشيخ عوَّامة ـ: أن الشيخ يفتح أمام تلميذه أبواباً من النظر، ويستخرج منه ألواناً من الفكر كانت دفينة لولا إثارة الشيخ. ومنها: أنه يدلُّه على فوائدَ من الكتب ما كان ليقفَ عليها وحده. ومنها: أن الشيخ يفتح له منفذاً يُفضي إلى منافذ، ويشقُّ باباً يدلُّ على أبواب. ومنها: أنه يدلُّه على الكتب التي تُقرأ ولها حقُّ الأولوية في المطالعة والدراسة. ومنها: أنه يأخذ منه خبرة الأيام وتجارب الزمان.

ومنها: الاعتصام بالشيخ، فإذا ما ألمَّت بالتلميذ شدَّة عصماء، أو داهية دهماء، ثم ما يفتأ أن يلجأ إلى شيخه إلا وجده الأب الحاني، بل الأم الرَّؤوم الوَدود، فيهوِّن عليه، ويشدُّ أَزره، ويقوِّي عزمه، ويشحذ همَّته من جديد.. ونحو ذلك.

وما من تلميذ إلا وله شيخ قد لازمه طويلاً، وتأثَّر به كثيراً..، وهذه بعض نماذج فيها إشارة واضحة لفضل الصحبة وأثرها:

76 فهذا العلَّامة الكبير الأديب المحقِّق المؤرِّخ أحمد تيمور باشا، (المولود ١٢٨٨، والمتوفَّى ١٣٤٨)، كان شديد الاستفادة والتَّعلُّق

---

(١) «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين» (ص ١٦٨ ـ ١٦٩)، وفي هذ الكتاب قد عقد الشيخ ـ حفظه الله ـ باباً طويلاً للحديث عن التلقِّي وضرورته، فارجع إليه فإنه نفيس.

بشيخه العلَّامة حسن الطويل (المولود سنة ١٢٥٠، والمتوفَّى سنة ١٣١٥)، حتى إنه كان يقول عنه ـ كما في كتابه «تراجم أعيان القرن الثالث عشر»[(١)]: «الإمام العلاَّمة، شيخ الشيوخ، وأستاذ الأُستاذِين، أحد من تفرَّد في مصر بالبراعة في المعقول والمنقول..»». «أُصِبْتُ فيه مصيبة لم أُصَبْها في بعيد ولا قريب، لما كان له عليَّ من الفضل، ولو لم يكن له عليَّ سوى تصحيح العقيدة، وتأديبي بآداب الحنيفية السمحاء لكفى!».

وكان تيمور رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُولَعاً بالمطالعة في السيرة النبويَّة، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين، فكان ينشرح صدره لأشياء، وينقبض من أشياء تَعرِض له فيها شبهات، وهي على خلاف ما كان عليه العامة من البدع، فكان يجد التناقض والتصادم بين ما يقرأ وبين ما يشاهد من واقع، فصار يتردَّد على كثير من علماء الأزهر، لعلَّه يجد عندهم مفرجاً وجواباً..، حتى أرشدوه إلى الشيخ حسن الطويل، يقول تيمور: «ثم سعيت في الاجتماع به، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه، وقرأت عليه العلوم العربية والمنطق.. والصرف.. والبلاغة.. والحكمة. ولمَّا رآني مُجِدّاً في التحصيل، قرَّر لي درساً ثانياً بعد العشاء، كنَّا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها، وأنا في كلِّ هذه المدَّة أستوضح منه ما أشكل عليَّ فيحلُّه لي، **فكان اجتماعي به ومصاحبتي إياه من أكبر نعم الله عليَّ في ديني!**، وكثيراً ما كان يغضب مني ويؤنِّبني إذا رأى منِّي تهاوناً في الصلاة!»[(٢)].

---

(١) (ص ١٢٠ ـ ١٢٦).

(٢) «تراجم أعيان القرن الثالث عشر» لتيمور (ص ١٢٦ ـ ١٢٧).

وكان تيمور شـديد الملازمة لشـيخه، وكان لا يفـرِّط بدقيقة واحدة تضيع من غير اسـتفادة منه، وكان الشيخ الطويل من عادته الخـروج إلى الريف كلَّ خميـس وجمعة ترويحاً للنفس، فأشـار تيمور عليه أن يأتي إلى ضيعتهم الخاصة، يقول تيمور: «فلمَّا عَرَفْتُه صار يذهب إلى ضيعتنـا.. فكنت أقضي معه هذيـن اليومين في مطالعة واشـتغال، حتى في حالة المشـي والتَّنـزُّه، كنت أحمل الكتاب معي وأُسـمعه فيه، فيقرر لي المسـائل ونحن سائرون!.. وكان لا يحيد عن الشرع قيد إصبع!»[1].

قلت: انظر وتأمل في فوائد ملازمة تيمور لشيخه الطويل:

١ ـ لقد كان تيمور حائراً، فأرشده الشيخ إلى طريق الحق والصواب.

٢ ـ صحَّح عقيدته.

٣ ـ تعلَّم منه الأدب.

٤ ـ أخذ عنه العلم بالتلقِّي لا بالوجادة في الكتب.

٥ ـ كان مرجعه وسنده فيما أشـكل عليه من أشياء ـ وهذا كثير في طالب العلم ـ فاستوضحها منه، ووجد عنده ما أثلج صدره وأراح نفسه.

٦ ـ ولعظيـم الفائدة التي حصَّلها من ملازمة شـيخه، حرص على مداومة الصحبة، فأشار عليه بالتَّنزُّه في ضيعتهم، ليزداد قرباً أكثر فأكثر منه، وليسـتفيد من كلِّ دقيقة وهو في صحبة شـيخه. فملأ كلَّ أوقاته

(١) المرجع السابق (ص ١٢٨).

بالمطالعة والاشتغال بالعلم، حتى وهو يمشي في الطريق استغل دقائقه بالقراءة على شيخه!

٧ ـ ثم إن الشيخ لمَّا رأى حرصاً شديداً من تلميذه على تحصيل العلم، وقرأ في همَّته نبوغاً مبكراً، زاد عنايته به، وزاد جرعة الدُّروس التي يلقيها عليه، فأصبح يقرأ عليه في الليل والنهار، في الطريق والنزهة وفي كلِّ مكان، حتى أثَّر فيه ما أثَّر، إلى أن قال تيمور: «فكان اجتماعي به ومصاحبتي إياه من أكبر نِعَمِ الله عليَّ في ديني!».

قلت: ومثل هذا لا تجده في الكتب.

ثم العجب كل العجب لهمَّة تيمور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلب العلم، ووَلَعِه بالمطالعة والقراءة، وميله إلى معرفة الحقِّ ونبذ البدع، إلى جانب حرصه الشَّديد على مصاحبة الشيوخ، والحرص على القرب منهم، والقراءة عليهم، والاستفادة من كل دقيقة في طلب العلم.

وبمثل هذا نبغوا، وبمثل هذه الملازمة نالوا ما نالوا من العلم والأدب والمكانة رحمهم الله تعالى. وهكذا فلتكن الهمم.

77 قال العلَّامة محمد عوَّامة في كتابه «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين»[١]: «فمن المعلوم أن أفضل المساجد للصلاة فيها: المسجد الحرام، ثم المسجد النبوي، ثم المسجد الأقصى، قالوا: «ثم قباء، ثم الأقدم، ثم الأعظم ـ الأكبر ـ، ثم الأقرب، ومسجدُ أستاذه لدرسه، أو لسماع الأخبار ـ أي المواعظ ـ: أفضل اتفاقاً».

---

(١) (ص ١٦٨ ـ ١٦٩).

أي: صلاة طالب العلم في مسجد شيخه أفضل من صلاته في المسجد الأقدم، أو المسجد الأعظم، أو الأقرب، وذلك لإحرازه فضيلة الصلاة في المسجد والاستفادة من الشيخ..، فتراهم استحبُّوا للطالب أن يصلِّي في مسجد أستاذه زيادة في توافر الملازمة والصحبة، فقد يعرض للشيخ فائدة يقولها، لا تأتي لها مناسبة في درس الكتاب والعلم، وما أكثر ذلك! وهذا لا يشعر به ولا يجده إلا التلميذ الممارس للصحبة!».

ثم يقول: «وأضيف حكايةً للسادة القرَّاء، فهي تطبيق عملي لهذا الحكم الفقهي. كنت مع سيدي العلَّامة الأجلِّ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في صلاة التراويح في مسجد قباء، وصرت ـ ونحن في انتظار إقامة الصلاة ـ أذاكر فضيلته بقولهم: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب، فنبَّهني ـ تغمَّده الله برحمته ـ إلى أنَّ الأَوْلى أن يقال: مذهبنا صواب ويحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ ويحتمل الصواب ـ بإثبات الواو، إذ إنَّ العبارة بدونها تفيد التسوية بين صواب المذهب واحتمال خطئه، وكذلك في الحكم على مذهب الآخرين بالخطأ واحتمال صوابه ـ.

فسررت لهذا التنبيه، وكررت له شكري عليه، فقال لي رَحِمَهُ اللهُ: لذلك قالوا: ومسجد أستاذه، فسكتُّ متأمِّلاً معنى هذا القول، فأعاد عليَّ القول، وقال: ذكروا أن الأفضل في حقِّ التلميذ أن يصلِّيَ في المسجد الذي يصلِّي فيه شيخه، لتزداد له صحبته، فتكثر له الفائدة منه..:

بِعِشْرتكَ الكرامَ تُعَدُّ منهمْ ... فلا تُرَيَنْ لغيرهمُ أُلُوفاً

78 وهذا الكاتب الأديب الكبير زكي مبارك، (المولود سنة ١٣٠٨، والمتوفَّى سنة ١٣٧١) لقد كان شديد التأثُّر بشيخه سيِّد علي المرصفي، (المولود سنة ١٢٧٣هـ ـ والمتوفَّى ١٣٤٩هـ)، وظل طول حياته ينسب الفضل إليه، فقال فيما ينقله عن العلَّامة أنور الجندي في كتابه «زكي مبارك»[(١)]:

«عرفت بفضله أسرار اللغة العربية، واستطعت بفضله أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام.. أنا مدين له بكلِّ شيء في حياتي اللغويَّة والأدبية!».

ثم هو يحكي قصة انتسابه إلى اللغة والأدب فيقول[(٢)]: «وبعد يومين من اتصالي بدرسه ـ يعني درس المرصفي ـ جاءت كلمة ابن عباس: «ما عُصي اللهُ بشعر أكثر مما عُصي بشعر عمر بن أبي ربيعة». فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أهذه مثليَّة أم منفيَّة؟ فقلت: يريد ابن عباس أنَّ شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب، فينقلها من الهدى إلى الضلال.. فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حماسة شديدة: (**إيه يا عروس الأدب!**). وكانت أول كلمة حبَّبت إلى قلبي دراسة الأدب. فكنت أبكِّر إلى درسه لأقرب منه، وكنت أكتب كلَّ ما ينطق به، حتى جمعت من درسه ثلاثين كُرَّاسة، هي اليوم أنفسُ ما أملك من ذكريات الأزهر الشريف».

«ثم ضاعف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حرصه على نفعي، فكنت أحضر جميع دروسه، وأصحبه في الطريق، وأمضي إلى بيته، فأطَّلع على ما لديه من

---

(١) (ص ١٤).

(٢) (ص ١٤ ـ ١٥).

مكنون الذخائر الأدبية واللغويَّة، وأُنشده شعري، فيقوِّمه، ويُصلح منه في رفق كبير».

وهذا من فوائد صحبة الشيخ، أنه إذا لاحظ في تلميذه نبوغاً، ورأى فيه حرصاً أكيداً على طلب العلم، نمَّاه في تلميذه، وأحلَّه من نفسه محلَّاً كريماً، وزاد عنايته به، وقوَّم عِوَجَه، وصحَّح طريقه، وحضَّه على زيادة العلم والقراءة، وشحذ همَّته، وفجَّر فيه الطاقاتِ الكامنةَ في النفس حتى يستخرج دفائنها.. وهكذا.

ثم انظر إلى كلمة الشيخ التي فعلت فعلها في التلميذ (إيه يا عروس الأدب!)، هل سيجدها غيره في الكتب؟ كلا وألف كلا!.. كلمة حبَّبت التلميذ بالأدب والعلم، وربطته بشيخه، حتى أصبح لا يفارقه، لا في الدرس، ولا في الطريق، ولا في البيت، ولا في المكتبة.. حتى قال: «.. واستطعت بفضله أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحمَلة الأقلام!».

وقال زكي مبارك في كتابه «زكي مبارك وهؤلاء»[1]: «كان الشيخ بخيلاً على نفسه في كل شيء إلا في اقتناء الكتب، وقد شكوت إليه مرة أني لا أملك نسخة من «لسان العرب»، فقال في انفعال: بِعْ ثيابك واشتر نسخة من «اللسان»!.

فأخذ منه حبَّ الكتب والإنفاق عليها كلَّ ما يملك، حتى قال: «ومَنْ يصدِّق أني أنفق في سبيل الورق والمِداد أضعاف ما ينفق بعض الناس في سبيل الطعام والشراب!». كما في كتابه «زكي مبارك»[2].

---

(١) (ص ٩٤).

(٢) (ص ١٤٠).

79 وهذا العلَّامة الأديب المؤرِّخ الأستاذ أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطبَّاخ، المشهور بأحمد أمين، (المولود سنة ١٣٠٤، والمتوفَّى سنة ١٣٧٣)، وهو صاحب الكتب المشهورة «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظُهر الإسلام»، وغيرها. كان أحمد أمين كثير التأثُّر بشيخه الأستاذ عبد الحكيم محمد أستاذ اللغة العربية، وكان كما يرى أحمد أمين: واسع الأفق حرَّ الفكر، لا يَدِينُ بشيء من الخرافات والأوهام، مع إباء في النفس وتودُّد إلى طلابه وترفُّع عن الصغائر.. ويُجمل العلَّامة أحمد أمين فضلَ أستاذه بقوله: «**كان مكمِّلاً لنقصي مُوسِّعاً لنفسي مُفتِّحاً لأفقي**، كان أبي وشيوخي يعاملونني على أنني طفل، فعاملني على أني رجل، **فملأ فراغي وآنس وحدتي**...، ولئن كان أبي هو المعلِّم الأول فقد كان المعلم الثاني، **انتقلت بفضله نقلة جديدة، وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فأبصرني، وعبداً للتقليد فحرَّرني، وضيِّق النفسِ فوسَّعني!**»[1].

تأمَّل كيف كان أستاذه يعامله على أنه رجل لا طفل كما يعامله الآخرون!، وهذه المعاملة كان لها أثرها الواضح في نفس التلميذ: (فملأ فراغي وآنس وحدتي...، وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فأبصرني، وعبداً للتقليد فحرَّرني، وضيِّق النفس فوسَّعني)، وهذا من فوائد ملازمة الشيوخ (وهذا لا تأخذه عن الكتب)!

80 وكان العلَّامة اللغويُّ المحقِّق الأستاذ محمود الطناحي، ـ المتقدِّم ذكره ـ شديدَ الملازمة لشيخه العلَّامة محمود شاكر، كان لا يغادره

(١) كما جاء في «النهضة الإسلامية» للعلَّامة البيومي (١/١٣١).

لحظة واحدة منذ عرفـه..، حتى قال الطناحي عن هـذه الصحبة ـ كما في «مقالات الطناحي»[١] ـ: «فقد خالطتُ محمود شـاكر ثلاثين عاماً، وخبرت سـواده وبياضه، وعرفت علَنه، وأطلعني على كثير من سـرِّه، ونظرت في مكتبته الضخمة فإذا على كلِّ كتاب منها أثر قراءة ونظر وتعليق!..».

وعن هـذه الملازمة يحدِّثنـا صديقـه العلَّامة الفقيـه المحقِّق عبد العظيم الديب فيقول: «العلَّامـة الدكتور محمود الطناحي ـ برَّد الله مَضجعَه ـ، وهو أحد الأفذاذ الذين سعد بهم عصرنا.. رحل قبله شيخ العربية وفارسها، علَّامة العصر شـيخنا الشيخ محمود محمد شاكر، فرِيعَ الحِمى، وزُلزلت الأركان، ولكن الأنظار في ظلمات هذا الخَطْبِ المُدلهِم، تعلَّقت بمحمود الطناحي خلفاً وعوضاً، فقد كان وارث علم الشيخ شاكر، وأقرب تلاميذه إليه، وأخصَّهم به، وأكثرهم ملازمة له، وأعرفهم بعلمه، وإحاطة بمناهجه، وإحساسـاً بدخائله، وإدراكاً لمشاعره!»[٢].

لو انتبه القارئ إلى أهمية الملازمة: حيث جعلت الطناحي يأخذ كلَّ شيء عن شـيخه، حتى إحساسه ومشاعره سَـرَتْ إليه بفضل الملازمة، وحتى الشهرة والمكانة أخذها وأصبح محلَّ الأنظار في ملءِ الفراغ الذي تركه شيخه محمود شاكر.. ولولا فضل هذه الملازمة الدَّؤُوب واللَّحُوح من الطناحي لشيخه ما وصل الطناحي إلى هذه المكانة، حتى عُدَّ ـ كما قال الشيخ عبد العظيم الديب ـ: أحد الأفذاذ الذين سعد بهم عصرنا!

---

(١) المرجع السابق (ص ٥٢٠).
(٢) «محمود الطناحي عالم العربية وعاشق التراث» للعلاونة (ص ٧).

81 وجاء في كتاب «النهضة الإسلامية»[١] للعلَّامة البيومي، في ترجمة العلَّامة الفقيه الأصولي المؤرِّخ محمد بن عفيفي الخضري، (المولود سنة ١٢٨٩، والمتوفَّى سنة ١٣٤٥)، كان شديد الملازمة والتأثُّر بشيخه محمد عبده (ت: ١٣٢٣هـ) يقول العلَّامة محمد رجب البيومي: «وقد صاحب الأستاذ محمد الخضري شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده مصاحبةً علميةً مُثمِرة، فقرأ كثيراً من الكتب بإشارته، وألَّف بعض البحوث بتوجيهه، وحَذَا حذوه في الأخذ من العلوم النافعة باللباب المتخيِّر، وقد عبَّر فقيد البيان الإسلامي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عن ذلك حين قال: إن الذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالم المؤرِّخ الأديب، يجب أن يرجع بتيَّاره إلى منبعه، ليعرف مبلغ انبعاثه وقوَّة جِرْيَتِه ومدِّ عُبابه، فما كان الخضري شيئاً قبل أن يتعلَّق بمدار ذلك النجم الإنساني العظيم محمد عبده..، وأنت إذا تأملت الخضري فاعلم بأنك بإزاء معنىً من معاني الشيخ محمد عبده».

82 وهذا الأستاذ العلَّامة المحقِّق فؤاد سيد عمارة، (المولود سنة ١٣٣٥، والمتوفَّى سنة ١٣٨٧) ترجم له تلميذه العلَّامة محمود الطناحي كما في «مقالات الطناحي»[٢] فقال: «على أن هناك شخصية كريمة بهرت الفقيد العزيز، فأقبل عليها، وأفاد منها الخُلق الرضيَّ، والعلم النافع، وما كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر هذه الشخصية إلا وتطفر من عينيه الدمعة، تلك هي شخصية الشيخ محمد زاهد الكوثري ـ (ت: ١٣٧١هـ) ـ علَّامة

---

(١) (٢٨٣/١).

(٢) (ص ٨٠ ـ ٨١).

وقته ونادرة زمانه!». والكوثري هو الكوثري في معرفة المخطوطات، والاطلاع عليها، والوقوف على أسـرارها ودفائنها، وهذه الإحاطة هي التي شدَّت التلميذ إلى التعلُّق بشيخه الكوثري وملازمته، حتى أصبح إماماً في هذا لا يجارى، ولقد قال تلميذه العلَّامة محمود الطناحي يوم موته: «لقد مات بموت هذا الرجل علم كثير..»(١).

83 وهذا العلَّامة الأديب الفقيه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب «المنار» (المولود سنة ١٢٨٢، والمتوفَّى سنة ١٣٥٤) كان أثر شيخه ظاهراً عليه، فقد لازم شيخه الشـيخ محمد عبده (ت: ١٣٢٣هـ)، وأخذ عنه، ونشر مدرسـته، ودافع عن فكره مدافعة عجيبة، حتى آخر نفس له في الحياة. يقول الشـيخ محمد عبده: «إن الله بعث لي بهذا الشابِّ ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري!».

وفعلاً كان، فقد كان مِداداً لفكره وناشـراً لمدرسـته، يقول شـيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق: «أول من ترجم للشيخ محمد عبده، وعني بنشـر آثاره هو السـيد محمد رشـيد رضا، وهو أول من لقَّب الشيخ محمد عبده (بالأستاذ الإمام)، وهذا اللقب نفسه يُنبئ عن الصورة التي أراد أن يرسـمها السيد رشيد لشيخه. والشـيخ محمد عبده عند السيد رشيد رضا: إمام من أئمة الإسلام، وله في الدين مذهب يقوم أصحابه على روايته وتدوينه، كما قام أصحاب أبي حنيفة والشافعي..، فالسيد رشيد رضا لا شك صاحبه ومفسِّـر مذهبه، ومكمِّله، وقد بذل في هذه الناحية مجهوداً ضخماً حافلاً»(٢).

---

(١) كما في: «مقالات الطناحي» (ص٧٢).

(٢) كما في «النهضة الإسلامية» للعلَّامة البيومي (٢٣٦/١).

84 وكان الأديب الشاميُّ الكبير الأستاذ علي الطنطاوي ـ المتقدِّم ذكره ـ شديدَ التأثُّر بشيخَيْه: العلَّامة عبد القادر المبارك (المولود سنة ١٢٩٥، والمتوفَّى سنة ١٣٦٤)، والعلَّامة سليم الجندي (المولود سنة ١٢٩٨، والمتوفَّى سنة ١٣٧٥). وكان كثير التعلُّق بهما، والملازمة لهما، وما انفكَّ عنهما، لا في المدرسة ولا في المسجد ولا في البيت ولا في الطريق.. وفي كلِّ مكان وميدان حلَّا فيه كان يلازمهما.

قال الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**عَلَميِّ العربية: الجنديُّ والمبارك. لقد ماتا ولا أعرف تحت قبة الفلك، أعلم منهما في العربية وعلومها، ولقد كانا أشدَّ المدرِّسين تأثيراً في تكويني اللغويِّ والأدبي**»[1].

ثمَّ تحدَّث عن شيخه المبارك ـ كما في كتابه «ذكريات علي الطنطاوي»[2] ـ فقال: «**أما المبارك فقد كان الإمام في اللغة..، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم وروى أشعارهم، وكان المُفرَد العلَم في بابته، ولا أعرف نظيراً له في العلماء، تحسُّ إذ تجالسه وتسمع منه كأن الأصمعيَّ وأبا عبيدة قد تمثَّلا لك في جبَّته، وكأن ما تقرأه من أخبار الرواة والحفاظ، قد عاد لك حتى رأيته بالعِيان!**». «**أما حفظه فقد صَدَّقْتُ منه ما يُروى عن حمَّاد الراوية، وابن الأنباري، والمعرِّي!**».

«لقد صحبت الشيخ نحواً من ربع قرن، أزوره في داره، وأذهب معه إلى مجالس أصحابه، وألازمه أكثر مما لازمه أولاده!».

---

(١) «ذكريات علي الطنطاوي» (١١٨/١).

(٢) (١١٩/١ ـ ١٢٠ ـ ١٢١).

«وكان يدلنا على الكتاب فأسرع إلى قراءته إن كان في مكتبتنا، أو إلى شرائه إن لم يكن عندنا».

«ولطالما دلَّنا على كتب، قرأتها وانتفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب، ولولاه ما سمعت بها!».

وكذا تحدَّث عن أستاذه العلَّامة الجنديِّ ـ كما في «ذكرياته»[1] السابقة ـ فقال: «**وأما الجنديُّ فكان من أعلم علماء العربية في هذا العصر، وكان واحداً من علماء العربية الأوَّلين، ولكنه ضلَّ طريقه في بيداء الزمان فجاء في القرن الرابع عشر، لا في القرن الرابع!**».

وقال: «وأحببت الأستاذ الجنديَّ حبَّ الولد أباه، وعرفت قَدْرَه فكنت لا أكفُّ عن سؤاله، أسأله في الصف، وألحقه في الفرصة، وأدخل معه غرفة المدرسين، أشرب من مَعين علمه ولا أرتوي، أتزوَّد من هذا المنهل العذب..، **أسأله عن الغريب فلا تغيب عنه كلمة منه، كأنه وعى المعاجم وغيَّبها في صدره!**، وأسأله عن التصريف والاشتقاق فيجيب على البديهة بما يُعْيِي العلماءَ جوابُه بعد البحث والتنقيب، وأسأله عن النحو فإذا هو إمامه وحُجَّتُه، **وأُلقي إليه بالبيت اليتيم أجده في كتاب، فإذا هو ينشد القصيدة التي ينتمي إليها، أو أكثرها ويعرِّف بالشاعر الذي قالها.. وكان عالماً من علماء البلد، بل كان أكثر من عالم!**».

تأمل وانتبه إلى أهمية الصحبة وفضلها، فقد كان شيخه يدلُّه على الكتب المهمَّة! وقد وجد فيها بغيته التي تشبع نهمه وتروي عطشه،

(١) «ذكريات علي الطنطاوي» (١٥٦/١).

وأصبحت رأس ماله في العلم والأدب. حتى قال: «ولولاه ـ يعني شيخه ـ ما سمعت بها!». وقال أيضاً ـ كما في كتاب «فصول في الثقافة والأدب»[1] ـ: «لقد كانا أستاذنا الجنديُّ وأستاذنا المبارك يمنعاننا من قراءة الجرائد والمجلّات وأكثر القصص، خوفاً علينا من أن تتسرب العُجْمة ويمشي اللَّحْنُ إلى ألسنتنا». (ومثل هذا لن تجده في الكتاب).

ثم تدبَّر معي كيف تكون الملازمة الحقَّة التي لا ينفكُّ فيها التلميذ عن أستاذه أبداً، فقد كان يلازمه في الصف، ثم يلحقه في الفرصة، بل يدخل معه غرفة المدرِّسين..، ثم هو يذهب معه إلى مجالس أصحابه، حتى لازمه أكثر مما لازمه أولاده!.. هكذا تكون الصحبة والملازمة، وهكذا تكون الهمم. وبمثل هذا يتخرَّج النوابغ ويكثر العظماء. والله يتولّاك ويرعاك.

85 ومن جميل الصحبة ودقة الملازمة وطرافتها ما جاء في ترجمة العلّامة الكبير المقرئ الشيخ عبد الوهاب الحافظ الملقَّب (بدبس وزيت) شيخ قرّاء دمشق، (المولود سنة ١٣١١، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩)، أنه لازم شيخه مفتي الشام العلّامة محمد عطاء الله الكَسْم (المولود سنة ١٢٦٠، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧) أكثر من ثلاثين عاماً، وكانت ملازمة تامة، حضر فيها دروسه الخاصَّة والعامَّة، ولم يتخلَّف في هذه المدَّة الطويلة إلا ليلة زفافه ـ ليلة زفافه فقط! ـ ومع ذلك فقد عاتبه على ذلك الشيخ، وكان الشيخ الكسم رحمه الله يردِّد فيقول: «أنا لا أقرأ الدَّرس إلا لواحد أو اثنين ويشير إليه» يقصد أنه لا يبدأ الدرس حتى يكون تلميذه الشيخ عبد الوهاب حاضراً.

---

(١) (ص ١٧٤).

جاء في ترجمته في كتاب «رجال فقدناهم»(١): «ولقد كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته وأعمقها تأثيراً. فقد لازمه فقيدنا ما يقرب من ثلاثين عاماً ملازمة حقيقية، لا تعرف الفتور أو الانقطاع، فكان يحضر دروسه العامَّة والخاصَّة، ولم يتخلَّف عنها كلَّ هذه الفترة الطويلة إلا ليلة زفافه!

فائدة: ومن الموافقات العجيبة في الملازمة التامة التي لا ينفكُّ فيها التلميذ عن شيخه إلا بالموت، فقد وقع مثل ذلك من الشيخ الكسم مع شيخه الإمام سُلَيْم العطَّار (المولود سنة ١٢٣٣، والمتوفَّى سنة ١٣٠٧هـ) فقد لازمه ملازمة تامة أكثر من سبعة عشر عاماً، بدءاً من سنة ١٢٩٠هـ حتَّى وفاة الشَّيخ سليم سنة ١٣٠٧هـ، يتردَّد عليه كلَّ يوم ليحضُرَ درسه، ولم يتخلَّف عنه قَطُّ طيلة هذه المدَّة إلَّا درسين تخلَّف عنهما بعذر!. كما في ترجمته في كتاب «تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري»(٢).

«وقد تلقَّى ـ عبد الوهاب ـ على يَدَيْ شيخه الكسم جميع أنواع العلوم، من فقه، وحديث، وتفسير، ولغة، وبلاغة، وعَروض، ومنطق وغير ذلك، وكان خير تلميذ لخير أستاذ، كما كان أثيراً عند الشيخ، بارزاً عنده، محبَّباً إليه، يقرِّبه ويفخر به، وكلَّفه بالتدريس وإقراء الناس نيابةً عنه».

قال ابن أخيه العلَّامة المؤرِّخ محمد مطيع الحافظ: «وكانت صلته بمفتي الشام الشيخ عطاء الله الكسم متينة أثَّرت أعمق الأثر في حياته،

---

(١) (٤٦٠/١، ٤٦١).

(٢) وانظر ترجمة الكسم في ذيل «عَرْفُ البَشَام فيمن ولي فتوى دمشق الشام» (ص٢٢٨).

وقد وجد فيه أستاذه الأول ومثله الأعلى؛ لذلك كان من أقرب تلاميذه إليه، وكان معيد درسه، ثم أصبح خليفته في العلم والفقه وحل معضلات الفتوى.. عرف عنه الزهد في الدنيا والإعراض عنها، والورع والاستقامة في جميع أحواله». كما في ترجمته في ذيل كتاب «عَرفُ البشام»[١].

وأعجب من ذلك أن الشيخ عبد الوهاب قد نشأ على المذهب الشافعي وأخذ أصوله على الشيخ محمود ياسين والشيخ الجوبري، إلى أن تعرَّف على شيخه الكسم فعرض عليه قراءة الفقه الحنفي فامتثل أمرَ شيخه وبدأ معه قراءة «حاشية ابن عابدين» من أول كتاب الإجارة حتى أتمَّها، ثم أعاد قراءتها عليه مرتين!.. وما ماتِ الشيخ الكسم إلا وكان تلميذه عبد الوهاب إماماً بارزاً في الفقه الحنفي، يُرجع إليه في بلاد الشام ويُستفتى في مسائله[٢]، ولُقِّبَ (بأبي حنيفة الصغير)[٣].

قلت: هكذا فلتكن الصحبة، وهكذا فلتكن الهمم، وإلا فلا.

86 ومن المصاحبة العجيبة الزواج في بلدة الشيخ ابتغاء القرب منه، كما في ترجمة الشيخ العلّامة عمر بن عيدروس العيدروس العلوي، (المولود سنة ١٢٨١، والمتوفَّى سنة ١٣٢٨)، فقد لزم شيخه العلّامة أحمد بن حسن العطّاس، (المولود سنة ١٢٥٧، والمتوفَّى سنة

---

(١) هامش (ص ٢٢٥).

(٢) «فضيلة العلّامة الكبير الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت» (ص ٢)، وهو منشور على موقع (نسيم الشام).

(٣) «رجال فقدناهم» (٤٧٥/١).

١٣٣٤هـ)، وشيخه العلَّامة علي بن محمد الحبشي، (المولود سنة ١٢٥٩، والمتوفَّى سنة ١٣٣٣) ملازمة الظلِّ للشاخص، وكان ـ كما يقول العلَّامة عبد الله بن محمد السقَّاف في تاريخه «تاريخ الشعراء الحضرميِّين»[١] عند ترجمته له: ـ «يستكثر من الذهاب إليهما أوقاتاً بسيوون وأخرى بحريضة، شوقاً لهما، وانطراحاً عليهما بكلِّيته، يرتوي من مناهلهما ما يرتوي، ويغترف من بحورهما ما يغترف، في نَهَمٍ وتَوْقٍ، ولا سيما في آخر حياتهما وحياته، فقد كانت متواصلة **حتى إنه تزوَّج بسيوون عند الشيخ عبد الله فارس اغتناماً للقرب، وتوفيراً للمشقَّة**..».

87 ومن طريف الملازمة أيضاً ما جاء في ترجمة العلَّامة الشيخ عمر بن حامد السقَّاف، (المولود سنة ١٢٦٣، والمتوفَّى سنة ١٣٤٤) كما في «التلخيص الشافي»[٢]: «وكان الحبيب عمر بن حامد أصدق صديق للحبيب علي ـ بن محمد الحبشي (ت: ١٣٣٣هـ) ـ وأنصحَ خادم له..، وقد لازمه ملازمة شديدة، واستخلصه الحبيب علي لنفسه، ويدخل عليه في جميع أوقاته، لا يحجبه عنه حاجب، وانتفع به انتفاعاً عظيماً، سَرَتْ بركتُه في أنجاله..». وفي «تاريخ الشعراء الحضرميِّين»[٣] عند الحديث عن العلَّامة علي بن محمد الحبشي ـ المتقدِّم ذكره ـ جاء ما نصُّه: «كما تمتاز تلمذة شيخنا الوالد عمر بن حامد بالمبالغة فيها إلى إدارة بيته، وخدمته العامة والخاصة، حتى إيقاظه التهجدي ومن سواه في رمضان يبقى ساهراً بمسجد الرياض إلى منتصف الليل حيث

---

(١) (٩٩/٥).
(٢) (ص ٩٠).
(٣) (١٣٤/٤).

يوقظه لصلاة التراويح..». وفـي «التلخيص» أيضاً: «ومع مواظبته على مجالس الحبيب علي أيام حياته وبعد وفاته، فقد أخذ بالحظِّ الأوفر.. فكان الحبيب عمر بن حامد لا يترك قيام الليل فيه ـ يعني في مسـجد شيخه ـ ولا يقوم منه إلا قريب الفجر».

88 وكان العلَّامة الفقيه الأديب الشاعر المؤرِّخ الشيخ محمد بن عوض بن سالم بافضل، (المولود سنة ١٣٠٣، والمتوفَّى سنة ١٣٦٩) قد أخذ عن مئـة شـيخ، وأعظمهـم ـ كمـا في كتـاب «جهـود فقهاء حضرموت»[1] ـ «شيخ فتوحه الإمام أحمد بن حسن العطَّاس، (المولود سنة ١٢٥٧، والمتوفَّى سـنة ١٣٣٤هـ) لزمه طيلة ١٨ سنة، لم يفارقه فيها لا سفراً ولا حضراً، وغرف من بحره علماً جمَّاً».

قلت: وكان يلازمه ولا يفارقه في دروسـه ومجالسه كلِّها، وكان جليسـه في الليل والنهار، ورفيقه في السفر والحضر، وما انفكَّ عنه ولا هو انفكَّ منه إلا بالموت، وكانت ثمرتهـا أنْ قرأ عليه أكثر من سـبعين كتاباً، منها «مسند أحمد» كله بسـنده ومتنه، و«منتخب كنز العمَّال» كله، وتفسـير «الدُّر المنثـور» كله، وفي الفقـه «المهذَّب» للشيرازي، و«البيان» للعمراني..، وغيرها. وربما عدَّ عليه أنفاسه إلى أن جمع من كلامه الشـيء الكثير المفيد، أخرج بعضه في مجلدين وسـمَّاه «تنوير الأغلاس». على ما جاء في «منحة الإلٰه»[2] للشـيخ سالم بن حفيظ.

---

(١) (١١٧١/٢).

(٢) (ص٥٦٩، ٥٧٠).

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في إجازته التي كتبها لتلميذه الشيخ أبي بكر بن أحمد الحبشي وأوردها في كتابه «الدليل المشير»[1]: «شيخي وأستاذي الإمام عَلَمُ الإسلام أحمد بن الحسن العطَّاس، وقد لازمته من سنة ١٣١٦ ست عشرة وثلاثمئة وألف وأنا ابن ١٣ سنة إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة ١٣٣٤، وقرأت عليه الشيء الكثير من كتب الحديث والتفسير والقراءات والفقه والتصوُّف والنحو واللغة ما ينيف على سبعين تأليفاً!، ومنها «المسند» للإمام أحمد، و«منتخب كنز العمال»، وتفسير «الدر المنثور»، و«الخصائص الكبرى»، و«المهذَّب»، و«التنبيه»، و«البيان»، وتآليف النبهاني وغيرها، وهو أعظم من انتفعت بهم، وتشرَّفت بوُدِّهم وحبِّهم، وببركته أرجو الرضى واللحوق بصالحي من مضى».

وفي ترجمته في مقدمة كتابه «صلة الأهل»[2] التي أوردها المحقِّق: «.. قرأ عليه العدد العديد من الكتب العلمية تفسيراً وفقهاً وحديثاً وتصوُّفاً ولغةً ونحواً وغير ذلك من شتى العلوم والمعارف.. فأصبح قارئَ ذلك الإمام، وكاتبَ سرِّه، ومُنشِئ مُكاتباته وإجازاته ووصاياه، والمخصوص بأكمل العناية منه..، فمكث لا يفارقه ولا يفارق القراءة عليه في أغلب أوقاته، ليله ونهاره..».

89 وكان العلَّامة الفقيه الشيخ المعمَّر عبد القادر بن أحمد السقَّاف، (المولود سنة ١٣٣١، والمتوفَّى سنة ١٤٣١) شديد الملازمة

(١) (ص ٣٦٥).
(٢) (ص ٧).

لوالده العلَّامة الشيخ أحمد بن عبد الرحمن السقَّاف، (المولود سنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧)، يلازمه في دروسه ومجالسه العامة والخاصة، ويقرأ عليه في كلِّ وقت وحين، في ليله ونهاره، في سفره وحضره، قال تلميذه الشيخ أبو بكر المشهور في كتابه «جَنْيُ القِطاف»(١) الذي كتبه في ترجمة شيخه عبد القادر: «وكان الحبيب أحمد بن عبد الرحمن يعتني بولده الحبيب عبد القادر اعتناءً خاصًّا، وهي تشبه إلى حدٍّ كبير اهتمامات الحبيب عبد الرحمن بن علي بولده أحمد ـ وسنشير إليها الآن ـ، وإلى هذا المقصد أشار كتاب «التلخيص الشافي» يصف ملازمة الحبيب عبد القادر لوالده وقراءته عليه: وعندما كبر ولده عبد القادر واستطاع أن يقرأ، لازمه ملازمة أكيدة، وكاد أن يصرف جُلَّ وقته في القراءة عليه».

والشيخ عبد القادر هو الذي قال عن والده ـ فيما ينقله عنه تلميذه أبو بكر المشهور في «جني القطاف»(٢): «كان والدي حريصاً على ألَّا أتعلَّق بالشباب وما هم فيه، فكان يسمع مني كلَّ ما أحفظه أو أقرأه.. مع حرصه على الوقت، ولكن حرصه عليَّ كان أكثر من حرصه على الوقت».

وقال أيضاً: «مات ـ يعني والده ـ وعمره تسعة وسبعون عاماً، وعمري خمسة وعشرون سنة، وكان يعتني بي ويحملني معه إلى تريم وعينات والحوطة وشبام، ويُدخِلنا على الشيوخ».

---

(١) (ص٤٦).
(٢) (ص١٤، ١٨).

تأمل إلى هذه المدَّة الوجيزة، فهي على قصرها مباركة، انتفع بها التلميذ غاية النفع والإفادة، لذلك جاء في «جني القطاف»[١]: «إن مجموع الكتب التي قرأها على والده بلغت ٦٠٠ ستمئة كتاب معدودة بيده». كل هذا في هذه البرهة القليلة من الزمن، وهذا نادر الوقوع!

قال المؤلِّف أبو بكر المشهور[٢]: «حتى إنَّ مدار اليوم والليلة قد يشهد ختماً لكتاب واحد من كتب العلم خلال جلسة أو جلستين بين يدي والده».

وقال: «وتضافرت رؤيته لوالده الإمام وهو بين صلاة وصيام، وعلم وعمل وقيام، ومجالس ومدارس وإجلال شيوخ ومقام واحترام.. فكان لهذه التأثيرات الإيمانية نقش في قلب المولود الناشئ أكثر مما يمرُّ به غيره..».

قلت: وهذه شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أخزَم[٣]، جاء في كتاب «جني القطاف»[٤] عند ترجمة والده العلَّامة الفقيه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن السقَّاف، (المولود سنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧): «كان الحبيب أحمد بن عبد الرحمن منذ بداية حياته، قد أَلِف ترتيبَ أوقاته حتى

---

(١) (ص٤١).

(٢) كما في «جني القطاف» (ص٩، ١٥).

(٣) هذا مثل يُضرب في قرب الشبَه في الأخلاق، ولها قصة، ومعناه: تلك عادة غالِبة أو خُلق ورثه الشخص عن أبيه، فكانت مشابهة بينهما.

(٤) (ص٣٣).

نهايته، فهو ملازم لوالــده الإمام عبد الرحمن بن علــيٍّ كظلِّه، ومعه في صلواته وروحاته ومجالسه الخاصة والعامة وحيثما كان..، كانت ملازمته لأبيه متتلمذاً ومقتدياً ومهتدياً إلى مماته، حتى إنه صلَّى خلفه آخر صلاة صلَّاها يوم وفاته، وهي صلاة الصبح في يوم الجمعة ٣٠ شــعبان ســنة ١٢٩٢هـ». قلت: سبحان الله، مات والده وللمترجم أربعة عشر عاماً، وهي على وجازتها إلا أنه قرأ فيها أمَّات الكتب وهي مبسوطة في ترجمته رحمه الله تعالى.

90 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ محمد سعيد الباني، (المولود سنة ١٢٩٤، والمتوفَّــى ســنة ١٣٥١) فقد لازم شــيخه العلَّامة عبــدَ الحكيم الأفغانيَّ ثم الدمشقيَّ (المولود ســنة ١٢٥١، والمتوفَّى سنة ١٣٢٦) سنين طويلة فقال ـ فيمــا ينقله عنه العلَّامــة عبد الفتاح أبو غــدة في كتابه العجاب «العلماء العزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج»[1] ـ: «أستاذنا العلَّامة الشيخ عبدُ الحكيم الأفغاني، علَّامة المعقول والمنقول، ووحيد عصره في الفروع والأصول..، ولا أكون مُغرِقاً في الوصف إذا قلت: **إن سيرته مُنَاسِقَة سيرةَ ســلف الأُمَّة في صدر الإســلام تمام المُناسَقة!..**، وكان المخلصون من علماء الشــام يُجِلُّونه ويقولون: (**من أراد أن ينظر إلى علماء السلف، فلينظر إلى الشيخ عبد الحكيم!**).

كان علــى جانب عظيــم من التــأدُّب مــع العلمــاء واحترامهم، فلا يجلس إلَّا على ركبتَيْه مع هَرَمه وشيخوخته!.. كان لا يذر وقتاً من عمره يضيع سُدىً.. صارفاً أكثر أوقاته في النافع، ما بين تعليم وتقرير ومطالعة وتحبير، وعبادة وتلاوة قرآن، بترتيب وتوزيع نظام.

---

(١) (ص٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) وما بعدها.

وقد شملتني العناية الإلٰهية بملازمته أربع عشرة سنة، خدمةً لجنابه الرفيع وقراءةً عنده..، وتلقَّيت منه ـ بحمد الله تعالى ـ الفقه النعماني ـ أي الحنفي ـ، وأصوله والمواريث، والحديث الشريف وأصوله، وتفسير القرآن الكريم..

وقد لقيت خلال هذه المدة من أطواره وأخلاقه العجائب الجديرة بالثناء والإعجاب، ومن ذلك أنه كان حينما يطالع الدرس تعترضه إشكالات.. وإذا لم يكتشف غامضه يكتبه ويُلقيه على نوابغ تلامذته في حلقة الدرس، قائلاً أشكل علينا حين المطالعة هذه العبارة، ولم نفهم مراد مولانا المؤلِّف، فما قولك يا فلان؟ فيجيبه التلميذ المسؤول، فإن وجد جوابه ملائماً للصواب، ابتهج به وكتبه فوراً..، وإذا اعتاص الإشكال على الجميع يقول: ما ظهر لنا، ربُّنا يُعطينا.

فما أجزل هذا الإخلاص؟!

وأَغرَبُ من ذلك.. إذا أشكل عليه شيء من دقائق النحو أو المنطق يَغشى غرفتي ويسأَلني بسائق أن العلم يُذْهَبُ إليه..، وهذا لا يدل على نقصان علمه بها، كما أنه لا يدل على تفوق هذا العبد العاجز على أستاذه وسيده بهذه العلوم..» انتهى كلام الباني.

فهذه ترجمة تُعلِّم طالب العلم كيف يكون الأدب، ألا تراه جلس على ركبتيه بين يدي الشيوخ على شيخوخته وكبر سِنِّه، ثم نجده على إمامته في العلم ـ كما تقدَّم ذكره ـ كيف أنه يشارك تلامذته ويشاركونه في حلِّ ما أشكل عليه، فإن وجد جواباً ملائماً للصواب، ابتهج به وكتبه فوراً، وهذا من تواضعه.

ثم تجده يذهب بنفسه إلى تلميذه ليســأله عمَّا اعتاص عليه!.. وهذا ما علَّق قلب تلميذه به وأكثر من ملازمته حتى قال: «وما ألذَّ خدمته عندي!». أرأيت كيف تعلَّقت به قلوب تلامذته، وهذا لأدبه وحسن تواضعه.

قل لي بربِّك هل مثل هذا تجده فــي الكتب، وهل الكتب تعلِّمك مثل هذا الأدب؟ كلا.

ثم لولا الملازمة ما ســمعنا ولا قرأنا مثل هذا الأدب الرفيع، فللّه دَرُّهم ما أعظم العلم على نفوسهم.

والنماذج في هذا الباب كثيرة لا حصر لها، لهــذا أكتفي بما تقدَّم إيراده.

* * *

الفصل الخامس

في همَّتهم في تعدُّد فنونهم ومعارفهم

قال العلَّامة محمد بهجة الأثري في كتابه «أعلام العراق»(١): «النبوغ في أفانين من الفنون والعلوم نادر جدّاً، فإنا نرى الرجل لا ينبغ ويتفوق إلا في صنف من العلوم ينقطع إليه بحثاً وحرثاً ولا يتخطّاه، ويعكف عليه لا يتعدّاه، بل إن الشاعر ليُجِيدُ في فن من فنون الشعر ويقصِّر فيما عداه، فرُبَّ بارع في النَّسِيب(٢) مقصِّر فيما عداه، وحاذق في الهجاء عاجز في الاعتذار. ولقد نظرت إلى رجال العصر، فرأيت الكاتب منهم بارعاً في صناعته مقصِّراً في غيرها، والمؤرِّخ ضليعاً في علمه عاجزاً عن الخوض في سائر العلوم، واللغويَّ طويل الباع في اللغة قصيره في سواه، وهكذا كلٌّ بصيرٌ فيما انصرف إليه».

قلت: وقد تتطور همة بعضهم ـ شيئاً ما ـ فتراه يتخصص في فنَّيْن أو ثلاثة فنون، ثم تجده يفتخر بهذا، وكأنه حاز فنون المعرفة كلِّها!. فإذا كان هذا حاله وهو بَعْدُ لم يستوعب ما تخصَّص فيه، ولم يمسك بخيوطها جيِّداً! فكيف بمَنْ حاز علوماً كثيرة وفنوناً عديدة، فماذا عساه أن يقول أمام هؤلاء؟! فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

---

(١) (ص ١٢٤، ١٢٥).

(٢) النسيب: معنىً يجتمع فيه الغزل مع التشبيب، وكان الشعراء العرب يفتتحون به قصائدهم.

هذا يوم أن فَتَرَتِ الهمم، ورضيَتْ بالدُّون، وخارت العزائم واكتفت بالحُفَر، غير متطلِّعة إلى ما كان عليه علماؤنا حتى إلى عصر متأخِّر جدًّاً، فقد كان بعضهم دائرة معارف كاملة، بل كان الواحد فيهم جامعة بأكملها! تحوي من العلوم ما نعرفه وما لا نعرفه، وتحت كل علم أبواب أخرى وفنون عدَّة من المعرفة! ثم لا نسمع منهم إلا هضماً للذات وازوراراً بالنفس!

يقول العلَّامة محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية»(١):

«الثقافة الإسلامية ذات أصول متشابكة متجاورة، ولا بدَّ لعالِم الإسلام أن يمتدَّ نظره إلى أعماق هذه الأصول المتجاورة ليجعل من روافدها المختلفة تياراً ينحدر إلى ذهنه، فيفيض بمختلف المعارف عن ضلاعة وأصالة، ولكن الأخذ بالنُّظُمِ الجامعية الحديثة، قد ساعد على فَصْم هذه الأصول، مساعدةً ضاءلت من حصيلة رجل الثقافة!، حتى أصبحنا نرى المتخصِّص في الأدب (بكلية اللغة) أو (الآداب) لا يلمُّ بشيء مما يعرفه أخوه في كلية (أصول الدين)، أو في (كلية الشريعة)! مع أن رجال الإسلام في القديم والحديث كانوا لا يقيمون هذه الحواجز الفاصلة بين المعارف الإسلامية.

فالشافعيُّ مثلاً كان راويةَ شعرٍ ولغة، وعنه أخذ بعض الرواة شعر الهُذَليِّين، مع إمامته في التشريع، والأستاذ محمد عبده كان يحلِّل «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» في الأزهر، كما كان يفسِّر القرآن في الرُّواق العباسي، ويشرح مقدمة ابن خلدون لطلَّاب دار العلوم، ويقرأ رسالة «التوحيد» ببيروت!

---

(١) (٣١٧/١).

ولسنا ننكر بذلك أهمية التخصُّص العلمي، ولكنَّا نحذِّر من الالتزام به على هذا النحو المُفرِط، التزاماً جعل الواقع المشاهَد بين أبناء الكليات لا يوحي بخير كثير!».

قلت: إلا أنه خرج من بينهم نوابغ مبرَّزين في جملة من العلوم، بل تجد الواحد منهم محققاً بها، وضارباً منها بسهم وافر، فهو في العلوم الإسلامية الإمام الذي ألقيت إليه المقاليد، والمقدام الذي لا يتقدمه أحد. وفي العلوم اللسانية الضليع الذي لا يُشاءَى، والفارس الذي لا يُساجَل. وفي التاريخ والسِّيَرِ والأنساب العالِم الذي يحق له أن يتمثَّل بقول القائل:

ما كان في هذه الدنيا بَنُو زمنٍ إلا وعندي من أخبارهم طرف

فهذه سطور مشرقة لعلماء بارك الله في مواهبهم، وزادهم بسطةً في العلم، فكانت دائرة معارفهم بالفنون واسعة، وثقافتهم تفيض بمختلف المعارف عن ضلاعة وأصالة، تُحيِّرُ الألباب وتُثِير الدهشة!

ولعل في سيرة هؤلاء العلماء ـ الذين سيتمُّ إيراد بعض أخبارهم ـ ما يُتخذ برهاناً على ضرورة الإلمام بأصول المعرفة، وأنواع العلوم، مهما تشعبت أطرافها وامتدَّت جذورها.

91 فهذا العلَّامة محدِّث الشام الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني، (المولود ١٢٦٧، المتوفَّى سنة ١٣٥٤). جاء في كتاب «شيخ الإسلام أبو شعيب الدُّكالي الصِّدِّيقي وجهوده في العلم والإصلاح»[1]

---

(١) (ص ١٥٧).

للدكتور محمد رياض ـ فيما ينقله عن الشيخ محمد صالح الفرفور في وصف محفوظ شيخه وتعدُّد معارفه من العلوم المختلفة ـ: «.. وحفظ ما يقرب من اثني عشر ألف بيتٍ من متون العلم المتنوعة، مع اطّلاع تام على العلوم الآلية، وتمكُّن فيها قبل أن يشاركه فيها إنسان!. ولم يكتف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالاطلاع على علوم الشريعة واللغة، بل تعدَّى أهل زمانه، فقرأ وأقرأ العلوم الكونية على طريقة المسلمين العرب من فلك، وزِيج، واصطُرلاب، وحساب، وهندسة، وجبر، وفلسفة.. إلخ».

وكان الأطباء والمهندسون الذين يحضرون دروسه يقولون: «لقد أفنينا العمر في تعلم مهنتنا لكنه يعرفها أكثر منا!». كما جاء في كتاب «الدرر اللؤلؤية في النعوت البدرية» للشيخ محمود الرنكوسي.

قلت: وشاهد هذا ما يحدِّثنا به الأستاذ ظافر القاسمي كما في كتابه «مكتب عنبر»[1]: «زار المرحوم الشيخ بدر الدين مكتب عنبر.. دخل أحد الصفوف، فوجد فيه المرحوم جودت الهاشمي ـ قال عنه الأستاذ ظافر القاسمي: أستاذ الرياضيات التي قضى معظم حياته وهو يدرسها، فكان آلاف الرياضيين من حصاد غرسه ـ يعلِّم الجبر، فطرح الشيخ مسألة لا يعرف حلَّها إلا من عرف الجبر القديم، وكان الشيخ به عالماً، فأدرك المدير الحرج الذي يمكن أن يصيب الأستاذ والطلاب، فاقترب من الصبورة، وأوضح أن المسألة لا تُحَلُّ إلا على العلم القديم، وشرحها للطلاب».

---

(١) (ص ٦٧).

وقال تلميذه الأستاذ محمد المبارك في ترجمته ـ كما في كتاب «رجال فقدناهم»[1] ـ: «وقد أورثه شغفه في البحث وتطلّعه إلى معرفة ما دوّن الأوائل وُلوعاً في جمع الكتب على اختلاف أنواعها ومواضيعها..، فخرج الشيخ من ذلك كلّه بمجموعة عظيمة من العلوم والمعارف منقطعة النظير، فلم يترك علماً من العلوم المعروفة في المدنية الإسلامية إلا درسه وتوغّل فيه.. ولكن الأمر الذي ربما يجد فيه الناس غرابة وطرافة هو أن هذا المحدِّث الكبير كان يدرِّس في دار الحديث العلوم الرياضية على اختلاف فروعها، فكنت تجده يدرِّس عمليات الحساب، ونظريات الهندسة، ومعادلات الجبر، كما كان يدرِّس الحديث والتفسير وغيرهما..، وكنا ندخل أحياناً على شيخنا رَحِمَهُ اللهُ، فنجده قد أعدَّ لنا بعض مباحث في الكيمياء وتجارب الطبيعة من بعض الكتب القديمة».

وفي كتاب «رجال من التاريخ»[2] للشيخ علي الطنطاوي: «كان فهرساً حيّاً لكل مخطوط ومطبوع من الكتب، في كل فن، فلا تكاد تسأله المسألة حتى يقول لك: هات الكتاب الفلاني، وافتح.. فإذا جواب مسألتك كأنما وضعه بيده. كان هذا شأنه أبداً، لم تكن هذه نادرة من نوادره..، وكان العلماء في دمشق متوافرون، وأهل الاختصاص كثيرون، يُعدُّ الإمام المرجع في كل فن: في اللغة وغريبها، وفي الصَّرْف، وفي النَّحْو، وفي فقه المذاهب الأربعة المدوَّنة، والمذاهب

---

(١) (٥٦/١، ٥٨) وهو من جمع وإعداد الشيخ مجد مكي حفظه الله.

(٢) (١٣٥/٢).

التي لم تدوَّن: مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة من أمثال الأوزاعي والليث والظاهري والطبري، وفي البلاغة، وفي الحديث: روايةً ودراية، وفي معرفة الرجال والأسانيد، وفي الكلام والفلسفة والأخبار..، وكان يقرأ ويُقرئ أبداً ما شاء وشاء الطالب، أَقْرَأَ الرياضيات قوماً لمَّا طلبوها منه والفلك والفلسفة، كما أَقْرَأَ الحديث.. كان علمه عجيباً، وكانت سيرته أعجب من علمه!».

92 وكان العلَّامة الفقيه المحدِّث المُسنِد الشيخ أحمد زيني دحلان المكي الشافعي، (المولود سنة ١٢٣٢، والمتوفَّى سنة ١٣٠٤) عالماً محقِّقاً في كثير من الفنون، وقد ذكر مترجموه منهم تلميذه الشيخ العلَّامة علي بن محمد الحَبْشِي، وقد ذكره في كلامه فقال: «خمسون علماً التي ألَّف فيها!، وسفينته أربع مئة كراس..، ويعلِّق في ذهنه عشرة تفاسير» كما في كتاب «فيوضات البحر الملي»[١]. ووصفه الشيخ أبو بكر العطَّاس فقال متحدِّثاً عن علمه الواسع: «ملآن علم، من مفرق رأسه إلى قدمه، ما فيه منقط الشوكة خلي!..».

93 وهذا العلَّامة المحدِّث المفسِّر الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، (المولود سنة ١٢٨٣، والمتوفَّى سنة ١٣٣٢)، الذي صرف همته إلى قراءة جميع أنواع المعرفة، فقد قرأ في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والتصوُّف، والأدب، والتاريخ، والأصول، وغيرها، بل قرأ في كتب الفلسفة الحديثة والقديمة، وكتب الاجتماع، وكتب الرياضيات القديمة والحديثة، وكتب الجغرافيا..، إضافة إلى مطالعته في الدراسات

---

(١) (ص١٠٧).

القانونيـــة الحديثـــة، المُقارَنة بالشـــرائع اليهودية والقوانين الفرنســـية الحديثـــة، إلى جـــوار كتب الفـــرق الإســـلامية كالشـــيعة، والزيدية، والمعتزلة، والظاهرية، وغيرها، أضف إلى ذلـــك أنه كان مواظباً على مطالعة المجلات الشـــهرية، العلمية والتاريخيـــة والأدبية، التي كانت تصدر في زمانه «كالمقتطف» و«المقتبـــس» و«الهلال». بل كان يطالع المجلات التي تصدرها الجمعيات الدينية المسيحية! كمجلة «الشرق» وغيرها. كل هذا على ما يقوله ابنه الأستاذ ظافر القاسمي(1).

وقال ابنه الأســـتاذ ظافر أيضاً فـــي كتابه «جمال الدين القاســـمي وعصره»(2): «ومن الآثار الواضحة لثقافته العامة، مؤلَّفاته العديدة. فقد ألَّف فـــي مواضعَ نادرةٍ ومتعـــددة. ويكفي أن تلقي نظرة على أســـماء الكتب التي ألَّفها، لترى في هذه الأســـماء، شـــغف القاســـمي بفنون المعرفة وألوانها، ورغبته الواسعة في تناول العلم والإحاطة فيه، لو أن الإحاطة ممكنة. فإلى جانب مؤلَّفاته في التفسير والحديث والأصول، ترى كتاباً في تاريخ دمشق، ورسالة في الجِنِّ، وكتيِّباً في الشاي والقهوة والدخان، ومقالة عن القلب، وسِـــفْراً في دلائل التوحيد، ومباحث في أحكام الشـــريعة، وكتاباً في الآداب والأخلاق، إلى غير ذلك مما تراه واضحاً في عناوين كتبه وأســـمائها..، وتعجب لهذا الشيخ الذي عرف قبل أكثر من نصف قرن ما هي الاشـــتراكية، وما مدلولها وما معناها، وكان في زمن ما أظنُّ أن في البلاد الشـــامية كلِّهـــا، لا بل وفي العالم العربي، أكثر من أفراد معدودين قد سمعوا بالاشتراكية ووَعَوْا معناها!

---

(1) «جمال الدين القاسمي وعصره» (ص ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢).

(2) (ص ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٦ ـ ٨٧).

وإذا قرأت كتابه «دلائل التوحيد» رأيت فيه حصيلة حسنة من علوم الفلك والجغرافيا والحيوان والنبات والجيولوجيا.

ثم يؤلِّف كتابه «إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق»، فيجعل خاتمة.. يبحث فيها عن (التلغراف) ومعناه، واشتقاقه من اللغة اليونانية، وأول من استعمل الكهرباء في المخابرة عن بُعد، وكذلك (التلفون) ثم يُحيل المطالعَ إلى دوائر المعارف وإلى المعاجم.

ويحدث أن يصاب بمرض (البواسير) فيتألم، ويدفعه ألمه إلى البحث عن هذا المرض بحثاً علميًّا، ويضع في ذلك رسالة معروفة سمَّاها «ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير».

ويعقد في كتابه «تعطير المشامِّ في مآثر دمشق الشام» فصلاً عن الزِّراعة في الشام والذرائع لإصلاحها، فتراه يشير إلى السمادات الكيمياوية وأنواعها: الفسفورية والبوتاسية، وإلى ضرورة استعمال الآلات الميكانيكية في الحرث والحصاد، وإلى الآفات والأمراض والحشرات الزراعية وطرق مكافحتها.

ويؤلِّف كتاباً يسمِّيه «جوامع الآداب»، فيتحدث فيه عن أدب النائب في مجلس المبعوثين، فترى في هذا البحث من معاني الديمقراطية، ما لم يكن معروفاً ولا مألوفاً في ذلك الزمان.

وتَعدَّى كتبَ الشريعة واللغة إلى كتب القوانين الحديثة وشروحها، فيستشهد بقانون التجارة وشروحه وقوة المراسلات..، ويدعو المُفتِين إلى وجوب معرفتهم العلوم الرياضية، فيعقد لذلك فصلاً مهمَّاً في كتابه «الفتوى في الإسلام».

وقد أُولِع بفقه اللغات (فيلولوجيا)، وأخذ يبحث عن أصول الألفاظ المعرَّبة من لغتها الأصلية: اليونانية، والسريانية، والعبرية، والفارسية، والقبطية، والألمانية، والإيطالية، والفرنسية، وغيرها، وعلى الجملة فقد كان آخذاً بأطراف المعرفة من كل سبب!» انتهى باختصار.

94 وهذا العلَّامة المحدِّث الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، (المولود سنة ١٢٩٠، والمتوفَّى سنة ١٣٢٧)، لقد بلغت به همَّته في معرفة العلوم مبلغـاً، وأصبحت العلوم التـي نعرف والتـي لا نعرف كأنها مجموعة في كأس واحد هو الشيخ محمد الكتَّاني!

يقول ابنه محمد الباقر في كتابه «أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني»[(١)]: «ولم تمض عدَّة سـنوات حتى نبغ في كثير من العلوم، المنطوق منها والمفهوم، ورُزق التبحُّر في علم التفسـير، وأدواته وأسراره، وعلم السُّنَّة وأسراره واصطلاحه، وعلم الأصول، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم التاريخ، وعلم السيرة، وعلم الأنسـاب، وعلم اللغة، وعلم المعاني والبيان، وعلم الحكمة، وعلـم المنطق، والعلم الطبيعـي والعلم الإلٰهي، والعلم الناظر في المقادير ـ وهو علم الهندسة ـ والعلم الأرتماطيقي، وعلم الموسـيقى، وعلم الهيئة، وعلم التصوُّف الذي هو السلوك، وعلم الرقائق، وعلم الحقائق، وعلم الحروف، وعلم سـرِّ الحروف، وعلم المُناسَـبات، وعلم المفردات،.. وغير ذلك مما هو مشهور، وفي الدواوين مسطور:

إذا كان عونُ اللهِ للمرء ناصراً ... تهيَّأَ له من كلِّ صعبٍ مُرَادُهُ
وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأكثرُ ما يَجْنِي عليه اجتهادُهُ

---

(١) (ص٧٦).

وقال القاضي علي العدلوني في كتابه «النَّواشِــي الاختصاصيَّة في شرح الصلاة الأنموذجية»: إنه جامع للعلوم كلِّها، والفنون بأسرها، لم تَفُتْــهُ دقيقة دَقَّ فهمُهــا، ولا عويصة عــزَّ حَلُّها، ولا لغــز عَمِيَتْ عنه الأبصار، وحارت دونــه الأفكار، إلا وعنده ما يشــفي الغليل، ويُبري العليل.. وجميع ما رأيت في كتب القوم من سيرة المشايخ المتقدِّمين، رأيته فيه رضي الله عنه»[١].

95 وكان العلَّامة الفقيه المفتي الشيخ علوي بن أحمد السقَّاف، (المولود سنة ١٢٥٥، والمتوفَّى سنة ١٣٣٥) له اطلاع واسع على كثير من العلوم، ومعرفة جيِّدة بفنون عديدة، بلغــت أكثر من ثلاثين علماً على ما جاء في ترجمته في كتاب «جهود فقهاء حضرموت»[٢].

وله مصنَّفات نافعة مفيدة منها: مصنَّف ســمَّاه «مصطفى العلوم» (لثلاثين علماً) قال في مطلعه[٣]: «فإنِّــي لمَّا رأيت العلم قد تقلَّص ظله في هاته الديار!، وتنكَّست أعــلام علومه، حتى خلت منه صدور الرجال، في الوِرْدِ والإصدار، وكاد العلَّامــة فينا يعجز عن استخراج المســألة على وجه التحقيق من الأســفار، وربما تخبَّط لمظنَّتهــا، لا يــدري هي مــن أي علم أو مضمــار، جــاء في خلدي أن أحرِّك الهمم المتقاعســة وأبعثها على تدارك هـذا القصور بالمطاثرة[٤] في المحفوظــات، عن ظهر قلب، وعــدم الاتكال على ما في ســطور

(١) «أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني» محمد الباقر الكتاني (ص ٢٣٥).
(٢) (١٠٦١/٢).
(٣) وانظر هذا النقل في كتاب «جهود فقهاء حضرموت» (١٠٦٠/٢، ١٠٦١).
(٤) الغوص في مكنونات المحفوظات، والتدسُّم بمعانيها.

سطوح الصفحات..، فصرفت عند ذلك عنان عزمي، إلى جمع متن رصين يكون جامعاً لأشتات العلوم الشهيرة المهمة..، فيسَّر الله تعالى لي أن اصطفيت من محاسنها على قَدْرِ فهمي.. ثلاثين علماً».

ثم قال: «وبيَّنت تلك العلوم وما سلكته فيها في خطبة ذلك المتن الوحيد، التي وضعتها بقولي:

الحمد لله الذي هدانا ... لذا ولولا الله ما اهتدينا
علَّمنا من العلوم جمَّا ... وقبلُ قد علَّم أبانا الأسما
ألهمَنا التوحيدَ والتفسيرا ... تجويدَ وقفاً وقراةَ القُرا
حديثَ فالأصولَ فالفرائضا ... فالنحو فالصرف فخطَّاً قد أضا
ثم المعاني فالبيانَ فالبديع ... فلغةً عروضَ قافيةً تبيع
حسابَ جبرا بحثَ وضعاً منطقا ... فحكمةً فالفلكَ المرونقا
تشريحَ فالطبَّ فتعبير المنام ... تاريخَ سيرةً تصوُّفاً ختام
وبعدُ: ذي عشرٌ وعشرونَ أتت ... من العلوم في (غضغظغٍ) برزت»

96 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[1] للعلَّامة عبد الحي الحسني في ترجمة الشيخ علي البلكرامي، (المولود سنة ١٢٦٨، والمتوفَّى سنة ١٣٢٩): «الشيخ الفاضل: علي بن زين الدين بن كرامت حسين الحسيني الواسطي البلكرامي، أحد الأفاضل المشهورين في معرفة اللغات المتنوعة، لم يكن له نظير في عصره في أرض الهند كلِّها. اشتغل بالعلم من صغره، وقرأ العربية والإنجليزية، وتعلَّم لغة سنسكرت، وتعلم اللغة الألمانية، والفرنسية، واللاتينية،

---

(١) (١٣١٠/٨).

وغيرها، وتعلَّم اللغات المروجة في أقطار الهند كالمرهتية، والتلنكية، والكجراتية، والبنكالية، والهندية، وغيرها، ولقبته الحكومة الإنكليزية (شمس العلماء)..، **وكان مفرط الذكاء، قوي الحفظ، يحفظ كلَّ ما يقرأ مرَّة فلا ينساه أبداً!**، بارعاً في التاريخ، والسِّيَر، والأنساب، وكثير من العلوم والفنون، لم يكن له نظير في زمانه في معرفة اللغات، وإنه جمع الكتب النفيسة من كلِّ علم وفن، وأنفق عليها مالاً خطيراً، وكان كثير الاشتغال بمطالعة الكتب مُولَعاً بها!».

97 وقال العلَّامة عبد الحفيظ الفاسي في «رياض الجنة»[1] في ترجمة العلَّامة المحدِّث الفقيه المفسِّر الشيخ محمد مصطفى الملقَّب (ماء العينين) الشنقيطي، (المولود سنة ١٢٣٦، والمتوفَّى سنة ١٣٢٨): «من أشهر علماء عصره..، جليل القَدْر، عظيم الشأن، متقدِّماً على أهل عصره، علماً وفضلاً، مشاركاً في التفسير، والحديث، والفقه، والأصلين، واللغة، والسِّيَر، والتصوُّف، وغيرها. واشتهر بمعرفة علم خواصِّ الأسماء، والجداول، والدوائر، والأوفاق، وسرِّ الحرف، والدعوات، وألَّف المؤلَّفات الكثيرة في كلِّ تلك الفنون، واشتهر أمره في كافة الأقطار، وأقبل الناس عليه وقصدوه من كافة الجهات».

98 وهذا العلَّامة الفقيه المحدِّث الأديب الشيخ أحمد رضا بن نقي علي خان البريلوي، (المولود سنة ١٢٧٢، والمتوفَّى سنة ١٣٤٠)، كان عالماً متبحِّراً، كثير المطالعة واسع الاطلاع على العلوم الدينية

---

(١) (ص ١٦٨). وجاء في ترجمة (ماء العينين) في «الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام» (١٧١/٧)، وفي «إتحاف المطالع» (٣٨٥/١): أنه ولد سنة ١٢٤٦هـ، والله أعلم.

والفنون الأخرى، جاء في ترجمته في مقدمة كتاب «جَدُّ المُمتار على ردِّ المحتار»[١]: «لم يكن الإمام عالماً في العلوم الدينية المروَّجة فقط، بل كان متبحِّراً في كثير من العلوم الدينية والفنون الأخرى، أكثر من خمس وخمسين عِلماً!، كما عدَّها الإمام نفسه»، وفي «جَدِّ الممتار»[٢] أيضاً: «واستخرج بعض المحقِّقين في عصرنا هذا عددَ علومه من تصانيفه مئة علم!».

99 وقال الشيخ محمد العربي العزوزي في كتاب «إتحاف ذوي العناية»[٣]، في ترجمة العلاَّمة الشاميِّ الأصوليِّ محمد أمين سويد، (المولود سنة ١٢٧٣، والمتوفَّى سنة ١٣٥٥): «العالم العلَّامة الرحَّالة المشارك الأصوليُّ الصوفيُّ المعمَّر الشيخ أمين سويد، ولقد حدَّثني عنه أخي وابن شيخي السيد محمد المكي الكتاني، أنه ـ يعني الشيخ أمين سويد ـ حدَّثه عن حادث علميٍّ جرى له في رحلته، وهو أن أحد العلماء قال له: إنكم ـ يعني العرب ـ ضيَّعتم العلم والدنيا وأصبحتم صِفْرَ الكفَّين منهما!، فأجابه الشيخ أمين المذكور: بأني عربي وأصغر طلاب العلم من بين علماء العرب، فاسألني عما شئت أُجِبْك عنه؟ فأجابه: غداً نجتمع في محلٍّ كذا، في ساعة كذا. ففي الوقت المعين حضر الشيخ أمين فوجد المجلس غاصًّا بالعلماء الأعلام، فحصلت له هيبة من المجلس، ومع ذلك ثبَّته الله وأعانه وسدَّده، وبعدما تبادلوا السلام والتعارف واستقر بهم المجلس. قال الشيخ أمين للشيخ

---

(١) (ص٢٢).

(٢) (ص٢٤).

(٣) (ص٤١ ـ ٤٢).

المذكور: تبتدئ بالسؤال وأجيب، أم أسـأل فتجيب؟ فقال: بل اسأل أنت وأنا أجيب، فبدأ الشـيخ أمين بالسؤال. فألقى على مسامعهم مئة وعشرين مسـألة، من أربعين علماً، من كلِّ علم ثلاثة أسئلة، فأُفحِموا جميعاً عن ردِّ الجواب ولو عن سؤال واحد!، فأجاب الشيخ أمين عن جميعها، فمن ذلك اليوم عظَّموه واحترموه وقدروه قَدْرَه.. قال الكتاني: إنه أملى عليهم الأسـئلة في ظرف سـاعتين!، فكم يا ترى يكون أمد الجواب؟».

100 وكان الشـيخ العلَّامـة القاضـي أحمد فائـز البرزنجي، (المولـود سـنة ١٢٥٨، والمتوفَّى سـنة ١٣٣٧) واسـعَ المعرفة، كثير المطالعة، لـه إحاطة بعلوم كثيـرة، وكُتُبُه غاية في الطرافـة والغرابة، تعكس حجم ما لديه مـن علـوم، منها: كتاب «كنز اللسـن المكنوز»، جـاء في كتاب «علماؤنا في خدمة العلم والدين»[(١)] للشيخ عبد الكريم المدرس عند ترجمة البرزنجي: «وله مؤلَّفات عديدة بالعربيـة، فالأول منها «كنـز اللسن المكنوز» ضمَّنـه أحد عشـر علماً من العلوم الاثني عشـر، ويُقرأ بخمسة عشـر وجهاً، ويشتمل على سـت لغات، وعلى قصيدتين: إِحْدَيْهُمَا فارسية، والأخرى تركية، وعلى أربعة أبيات باللغة الروسية، والفرنسية، والكردية، على النمط الآتي:

إن الكتاب المذكور عبارة عن أحد عشر جدولاً: الجدول الأول في علم الكلام، والثاني في التفسـير، والثالث فـي الحديث، والرابع في الفقه، والخامس في النحو والصرف، والسادس في الحكمة، والسابع

---

(١) (ص ٨٤).

في المنطق، والثامن في المعاني والبيــان والبديع والأدب، وكل هذه الجداول باللغــة العربية. والجدول التاســع قصيـــدة تركية في مدح السلطان عبد الحميد الثاني، والجدول العاشر قصيدة فارسية في مدح السلطان نفسه، والجدول الحادي عشر أربعة أبيات: واحد منها باللغة الكردية، والثاني باللغة الروسية، والثالث والرابع باللغة الفرنسية.

ومن أغرب الغرائب أنه إذا قُــرئ الكتاب أفقياً تنقلب الكلمات التركية والفارسية والفرنسية والروسية والكردية إلى كلمات عربية، وتنقلب جميع العلوم المذكورة والقصائد والأشــعار إلى علم اللغة ووجوب طاعة الســلطان وفضائل آل عثمان، وإذا لقطت من أواخر كل جدول في آخر الكتاب كلمة واحدة يحصل من مجموعها بيت عربي فيه تاريخ تأليف الكتاب. وهذا البيت هو:

ما نيل ما أبدعت من عجائبي   لذا أتى التاريخ (من غرائبي)

والمؤلَّف الثاني «السحر الحلال في تعريفات العلوم»، ويُقرأ على اثني عشر منوالاً..»[1].

---

(١) اشتهر هذا النوع من التأليف فيما ســبق من القرون الغابرة، قال العلَّامة القاضي إسماعيل الأكوع في كتابه «هِجَرُ العلم ومعاقلُه» (٣٩/١) عند ترجمة العلَّامة إســماعيل بن أبي بكر الْمُقْري الشاوري: «وكان الفيروزآبادي ألَّف للملك الأشرف كتاباً يبدأ كل سطر منه بالألف فاستعظمه الأشرف فصنَّف شــرف الدين المقري كتابه المشهور «عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والتاريخ والنحو والعَروض والقوافي» وهو كتابٌ نسـيجُ وحده، فإذا قُرِئ على حسب سياق الســطر فهو علم الفقه، وإذا قُرِئ أوائل الســطر عمودياً فهو علم العَروض، وأواخره عمودياً فهو علم القوافي، وإذا قرئ العمود الأول الذي يخترق الصفحة فهو تاريخ الدولة الرسولية، والعمود الثاني علم النحو، وقد وصفه إبراهيم الإخفافي بقوله:

101 وجاء في «الأعلام الشرقية»[1] في ترجمة العلاَّمة الشيخ محمد بن الصديق الغماري، (المولود سنة ١٢٩٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٤): «تلقَّى العلم عن مشاهير علماء عصره، ثم لازم بيته، واعتكف في منزله. حتى أصبح له اليد الطولى ـ كما يقول زكي مجاهد ـ في كثير من الفنون الشرعية والعقلية واللغويَّة؛ كالفقه، والأصول، والمنطق، والتصوُّف، والتفسير، والحديث، والنحو، والتاريخ، والتراجم، والطب، والأنساب، والسياسة الشرعية، وسرِّ الحرف، وخواص الأسماء، مع المشاركة القوية في سائر العلوم..، وكانت له العناية التامة بجميع الكتب المخطوطة والمطبوعة والتآليف النادرة!».

لهذا كتابٌ لا يصنَّفُ مثلُه لصاحبه الجزيُ العظيمُ من الحظِّ
عَروضٌ وتاريخٌ، ونحوٌ محققٌ وعلمُ القوافي وهو فقه ألي الحفظ
فاعجب به حُسناً، واعجب أنه بَطينٌ من المعنى خميصٌ من اللفظ

ثم قال الأكوع في الهامش: اشتهر هذا النوع من التأليف في اليمن، فقد ألَّف القاضي محمد بن حمزة بن المظفَّر من أعلام المئة الثامنة كتاب «البرهان الكافي» احتوى على عشرين علماً: التفسير، والأصول، وعلم الكلام، والفقه، والفرائض، والحديث، واللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والسِّيرة، وابتداء الخلق، والطب، والنجوم، والمنطق، والعَروض، والرمل، والسحر.

وألَّف القاضي أحمد بن عبد الله السانَّة المتوفَّى بعد سنة ١١١٦ كتاباً سمَّاه «الإعلان بنعم الله الواهب الكريم المنَّان في الفقه عماد الإيمان والعَروض والنحو والتصريف، والمنطق وتجويد القرآن».

وألَّف إبراهيم بن عمر البجلي من أعلام المئة العاشرة كتاب «برهان البرهان في الجبر والحساب، والخطأين والأقدار والفرائض». انتهى.

(١) (٥٨٩/٢).

102 وهذا العلَّامة الفقيه المفسِّر الشيخ حسن الطويل، (المولود سنة ١٢٥٠، والمتوفَّى سنة ١٣١٧) ترجم له تلميذه أحمد تيمور باشا كما في «أعلام الفكر الإسلامي»[١] فقال: «نظر في الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبُّر، **وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلا سعى إليه ليتلقَّاه عنه كائناً من كان، حتى صار نسيجَ وحدِه، وقريعَ دهرِه في سائر العلوم!**».

103 ويُذكر عن العلَّامة الفقيه الشيخ صالح بن محمد بافضل، (المولود سنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٣٣)، أنه له معرفة بأكثر من عشرين علماً، ونقل عنه الشيخ محمد بن عوض بافضل في كتابه «صلة الأهل»[٢] في ترجمته أنه قال: «.. فنحن نعطي جواباً ونناظر في أربعة وعشرين علماً!».

104 وهذا العلَّامة الأديب المؤرِّخ الأستاذ عبد الوهاب النجَّار، (المولود سنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٦٠)، كان عالماً موسوعيّاً مُلِمّاً بكثير من العلوم في عصره، الإسلامية منها والطبيعية والسياسة وغيرها.

ترجم له العلَّامة محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية»[٣] فقال بعد أن عدَّد شيئاً من علومه؛ كمعرفته بالشريعة الإسلامية، واللغة وعلومها، والتاريخ وتشعُّباته، والمنطق وفلسفته،

---

(١) (ص ٩٦ ـ ٩٨).
(٢) (ص ٣٢٣).
(٣) (٣١٧/١).

والقانون وأنواعه: «فإن النجار تعدَّى الثقافة الإسلامية القديمة إلى العلوم العصرية المُستحدَثة، فاتخذ من ثقافة عصره سلاحاً يدافع به.. قال عنه الأستاذ عبد المنعم خلّاف:.. اتصاله بنصيب وافر من العلوم العصرية التي كان يعلم منها، ما جعله ابن زمانه وربيب عصره..، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعلم من مباحث علوم الطبيعة، والكيمياء، والكهرباء، وفنون الصناعات والآليات، ما كان يثير الإعجاب ممن يسمعونه!، وهو شيخ معمَّم تقدَّمت به السِّنُّ، وتوجَّه فكره من قديم إلى الأدبيات، وعلوم اللغة، والشريعة، والجدليات، وما إليها من الميراث الشرقي النظري». ثم قال البيومي: «ثم جدَّ من الأحداث ما دفعه إذ ذاك إلى دراسة المسائل الدينية في أصول الإسلام والمسيحية!».

105 وهذا العلّامة اللغويُّ المحدِّث المحقِّق الأستاذ محمود بن محمد شاكر، (المولود ١٣٢٧، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، فقد كشف لنا عن ثقافته وأدواته، فقال بعد أن حكى محنته عقب الزلزال العنيف الذي رجَّه رجّاً المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) والدكتور طه حسين حول صحة الشعر الجاهلي..، يقول ـ كما في صدر رسالته «الطريق إلى ثقافتنا»[1] ـ: قد أفضى بي.. إلى إعادة قراءة الشعر العربي كلِّه أولًا!، ثم قراءة ما يقع تحت يدي من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول فقه، وأصول دين، ومِلَل ونِحَل، إلى بحر زاخر من الأدب، والنقد، والبلاغة، والنحو، واللغة، حتى قرأت الفلسفة القديمة، والحساب القديم، والجغرافية القديمة، وكتب النجوم،

(١) (ص ٢٣).

وصـــور الكواكب، والطبِّ القديـــم، ومفردات الأدويـــة، وحتى قرأت البيزرة، والبيطرة، والفراسة، بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسَّر لي منه».

والأخبار في هذا الجانب كثيرة، وأكتفي بما تقدَّم.

* * *

الفصل السادس

في همَّتهم في قوة الحافظة، وغزارة المحفوظ

106 في هذا الفصل لا أُحدِّثك عن أناس من السلف الأولين، فيما روي إلينا عن قوة حفظهم، وما اشتُهروا به من حدَّة ذكائهم، كالذي نقل إلينا في كتب التاريخ، وقرأناه في كتب الرجال، والطبقات، من أمثال: الشَّعبي، وسفيان الثوري، والشافعي، وغيرهم. بل أُحدِّثك عن رجال من عصرنا، وهبهم الله حافظة جبَّارة، تخزِّن بداخلها ما لا يصدِّقه العقل، أو يهضمه القلب، مما يدهش العقول ويحيِّر الفحول، بل إنَّه من شدَّة الدَّهشة والذُّهول لِعِظَم ما يحفظون، قد يظنُّ القارئ أن هؤلاء ربما سقطوا من القرون الأُولى سهواً! والحقيقة أنهم في عصرنا، عاشوا معنا وبيننا، وشهدناهم بأعيننا التي في رؤوسنا، وسمعنا منهم وعنهم، ما يُدهش ويُطرب، لِما آتاهم الله من قوة حفظ خارقة، تشبه ما سمعناه عن السلف، فاختلط الأمر علينا! فظننا ما ظننا! والحقُّ أنهم في قرننا الذي نعيش، ولكنهم وقفوا بهذه الآية أمام السلف بالندِّية، الرأس بالرأس ـ كما ستقف عليه بعد قليل ـ ولا أقول هذا تزيُّداً، ولكن من باب التَّحدُّث بالنعمة التي أودعها الله المتأخرين كما الأولين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

واعلم يقيناً لا مرية فيه أو شك: أن الله ادَّخر للعصور المتأخرة، من الخير والنِّعَم والفضل، ما نشـره في القرون الأُول الغابرة، (وما ذلك على الله بعزيز).

ووالله إذا ما سمعت أو قرأت ـ كما سيأتي ـ عن هؤلاء، وما استوعبته حافظة الواحد منهم مما لا يصدَّق!، مثل الذي يسرد الصحاح الستة بأسانيدها كما يقرأ أحدنا الفاتحة، ومثل مَنْ يحفظ دواوين الشعر العربي كلِّه في الجاهلية والإسلام، فلا يدع فاذَّة ولا شاذَّة إلا وأحاط بها، وكمَنْ يحفظ متوناً متحصِّنة في ألفاظ مقعَّرة، أو قصائدَ غريبة اللفظ والمعنى، يحفظها من مرَّة واحدة! ومن غير أن تندَّ عنه كلمة منها، أو أن يحتاج إلى مراجعتها ثانية! فمرَّة واحدة كافية لأن تلزق في الذهن من غير إفلات منه إلى أن يشاء الله! بل منهم مَنْ يحفظ قواميسَ بأكملها، ودواوينَ كبيرة، ومعاجمَ ضخمة، يحيط بها كإحاطة السوار بالمعصم..، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ونحن نسوق إليك أيها القارئ الكريم بعض ـ لا كلَّ ـ ما وقفت عليه أثناء مطالعتي، علَّ ذلك أن يكون حافزاً لي ولك إلى الجدِّ والنشاط، والتشمير بهمة لا تعرف الفتور، وعزيمة تتحدَّى الصعاب والعقبات، ولا تعرف التنازلات، ونفس توَّاقة لا تعرف الكلل ولا الملل، بل تلتهم كل ما أمامها إلى أن تقول: هل من مزيد؟!

وإليك سرد ما قصدناه:

107 فهـذا العلَّامـة الداعيـة المجاهد الإمـام محمد البشـير الإبراهيمـي (المولـود سـنة ١٣٠٦، والمتوفَّـى سـنة ١٣٨٥) يحدثنا الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حافظته ـ كما في كتاب «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»[1]: «**وهبني الله حافظة خارقة، وذاكرة عجيبة تشهدان بصدق ما يُحكى عن السـلف!**» وقال: «فحفظت القرآن حفظـاً متقناً في آخر الثامنة من عمـري، وحفظت معه ـ وأنـا في تلك السـن ـ «ألفية ابن مالك»، و«تلخيص المفتاح»، وما بلغت العاشرة حتى كنت أحفظ عدَّة متون علمية مطوَّلة، وما بلغت الرابعة عشـرة حتى كنت أحفظ «أَلْفِيَّتَيِ العراقيِّ في الأثر والسِّيَر»، و«نظم الدول» لابن الخطيب، ومعظم رسائل المجموعة في كتابه «ريحانـة الكُتَّاب»، ومعظم رسـائل فحول كتَّاب الأندلس كابن شهيد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرِّف ابن أبي عميرة، ومعظم رسـائل فحول كتَّاب المشـرق كالصابي والبديـع، مع حفظ «المعلَّقات» و«المُفَضَّلِيَّات» وشعر المتنبي كلِّه!، وكثير من شعر الرضي، وابن الرومي، وأبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، كما استظهرت كثيراً من شعر الثلاثة جرير والأخطل والفرزدق، وحفظت كثيراً من كتب اللغة كاملة «كالإصلاح» و«الفصيح»، ومن كتب الأدب «كالكامل» و«البيان» و«أدب الكُتَّاب»، ولقد حفظت ـ وأنا في تلك السِّـن ـ أسـماء الرجال الذين ترجم لهم «نفح الطيب»، وأخبارهم، وكثيراً من أشعارهم، إذ كان كتاب «نفح الطيب» ـ طبعة بولاق ـ هو الكتاب الذي تقع عليه عيني في كلِّ لحظة، منذُ فتحتُ عينيَّ على الكُتب، وما زلتُ أذكر إلى الآن مواقع الكلمات من الصفحات، وأذكر أرقام الصفحات من تلك الطبعة! **وكنت**

---

(١) (١٦٤/٥ ـ ٢٩٠).

أحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد! مما يحقِّق ما نقرأه عن سلفنا من غرائب الحفظ!، وكان عمِّي يشغلني في ساعات النهار بالدروس...، ويمتحنني ساعةً من آخر كلِّ يوم في فهم ما قرأت، فيطرب لصحة فهمي، فإذا جاء الليل أملى عليَّ من حفظه، أو من كتاب، ما يختار لي من الأبيات المفردة، أو من المقاطيع، حتى أحفظ مئة بيت!، فإذا طلبت المزيد انتهرني وقال لي: إن ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بذلك من حمل الأثقال!، ثم يشرح لي ظواهر المعاني الشعرية، ثم يأمرني بالنوم رَحِمَهُ اللَّهُ»(١). انتهى قول الإبراهيمي.

وكان صديقه الأستاذ أحمد توفيق المدني يصف حافظة الإبراهيمي فيقول: «وذاكرة مرنة طيِّعة جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالعقل (الإلكتروني)! كدائرة معارف جامعة!».

108 وهذا العلَّامة الفقيه المحدث الإمام محمد أنور شاه الكشميري الهندي، (المولود سنة ١٢٩٢، والمتوفَّى سنة ١٣٥٢)، قال الإمام الكوثري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يأت بعد الشيخ ابن الهمام مثله في استثارة الأبحاث النادرة من ثنايا الأحاديث، وهذه برهة طويلة من الدهر!... كان رَحِمَهُ اللَّهُ عالماً موسوعيّاً بكلِّ ما للكلمة من معنى، **يحمل في صدره مكتبة واسعة في العلوم**؛ العقلية، والنقلية، والقديمة، والحديثة».

---

(١) ولقد أوقعه هذا في الغرور وعانى من ذلك ما عانى حتى عافاه الله منه، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أشرفت على الشباب حتى أُصِبْتُ بشرٍّ آفة يُصاب بها مثلي وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس، فكنت لا أرى نفسي تقصر عن غاية حفَّاظ اللغة وغريبها، وحفَّاظ الأنساب، والشعر، وكدت أهلك بهذه الآفة لولا طَبَعَ أدبي مَرَحٌ كريم، ورحلة إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة!» انتهى.

وقال تلميذه العلَّامة محمد يوسف البَنُّوري متحدِّثاً عن قوة حافظة شيخه الكشميري ـ كما في كتابه «نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور»[1]: «**فآثره الله بالقريحة الوقَّادة ما خلت القرون عن أمثالها، وأردفه بقوة الحافظة ما بلغ غايةً ليس دونها غاية، حتى عَلمنا عِلم يقين صِحة ما أُثِرَ لنا من قوة الحافظة للمحدِّثين وسائر السلف الصالح في العهد الغابر في كتب الطبقات والرجال والتاريخ، بل كأنَّنا رأيناهم رأي العين، فلم تَبْقَ لنا ريبة ولا خطرة من الوَهْم، فقد أبدى الصريح لنا من الرَّغْوَة.**

بلغني عن الشيخ الفقيه المحدِّث مولانا الشيخ حسين أحمد المهاجر المدني أنه قال: سمعت حضرة الشيخ ـ الكشميري ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إذا طالعت كتاباً مرتجلاً، ولم أُرِد ادِّخار مباحثه، يبقى في حفظي إلى نحو خمس عشرة سنة!

ومن العجائب ـ والعجائب جمَّة ـ أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن من دأبه المطالعة بالليل لما يدرسه بالنهار، حتى سمعت منه: «أني ما طالعت الكتاب الذي يُقرأ عليَّ في عمري قط!». فقوة الحافظة كانت قد أغنته عن ذلك، فكفاه ما طالع في بَدْء عمره، وأغناه الصباح عن المصباح!».

لو سألني أحدٌ: هل رأيت الحافظ ابن حجر العسقلاني؟ وهل لاقيت الحافظ تقي الدين بنَ دقيق العيد؟ أو سلطانَ العلماء عِزَّ الدين بن عبد السلام رحمهم الله؟ فلو أجبته بقولي: نعم، لكنت صادقاً تشبيهاً واستعارةً، ولا غَرْوَ!، فإنَّه كان متصفاً بتلك المزايا التي

---

(١) (ص٢٦) وما بعدها.

امتازوا اليوم بها في الأُمَّة، ولو سمحت الأيام بوجوده في تلك القرون المباركة لعُدَّ في طبقتهم، ولكان مِثلَهم اليوم في الأُمَّة الحاضرة.

وكثيراً ما رأينا في جملةٍ مِن أسفاره، أنه كان يجتمع لزيارته طوائف، من المشايخ والعلماء المُكِبُّون على مطالعة الفنون ليلاً ونهاراً، ويسألونه حلَّ ما أشكل عليهم، في أي كتاب من أي علم كان! فرجلٌ يَسأل في الفقه، ورجل في الحديث، وعالم في معضلات النحو، وآخر في دقائق العلوم الإلٰهية والطبيعية، وغيره في العلوم الآلية، وواحد في التاريخ بل في مبهماته ومشكلاته، وآخر في سِير المصنِّفين وعاداتهم، هكذا واحد بعد واحد، فتارةً يُخاطب هذا وتارة يجاوب هذا، وتارة ذلك وتارة ذاك، فيشفي ويشفي، حتى ترى أنه بحر يموج، أو مُزْنَةٌ تَهمِي، أو وادٍ يسيل، إذا شرع في الحديث خِلْتَ أنه لا يُحسن غيره، وإذا شرع في استطراد غوامض الفقه ظننتَ أنه لا يعلم غيره..، هكذا كان حاله في دقائق العلوم ومعارفها.

وذكَّرني حالُه هذا ما ذكر الحافظ ابن القيِّم في «هداية الحيارى» في حق حَبْرِ الأُمَّة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: قال عطاء بن أبي رباح: ما رأيت مجلساً قط أكرمَ من مجلس ابن عباس، أكثرَ فقهاً وأعظم جفنةً[1]، إن أصحاب القرآن يسألونه، وعنده أصحاب الشعر يسألونه، وعنده أصحاب النحو يسألونه، يُصدِرهم كلَّهم في وادٍ واسع![2].

---

(١) كرماً وضيافة.

(٢) قال عمرو بن دينار: «ما رأيت مجلساً قَطُّ، أجمعَ لكلِّ خير، من مجلس ابن عباس، للحلال والحرام، وتفسير القرآن، والعربية، والشعر، والطعام. قلت: وقريب منه مجلس =

وقال الأعمش: كان ابن عباس إذا رأيته قلتَ: أجملُ الناس، فإذا تكلم قلت: أفصحُ الناس، فإذا حدَّث قلت: أعلمُ الناس!

وقال الحافظ ابن القيم نفسه في حق هذا الحبر ـ أي ابن عباس ـ: وكان بحراً لا ينزف، لو نزل به أهل الأرض لأوسعهم علماً، وكان إذا أخذ في الحلال والحرام والفرائض يقول القائل: لا يُحسن سواه، فإذا أخذ في تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع: لا يُحسن سواه، فإذا أخذ في السُّنة والرواية عن النبيِّ ﷺ يقول القائل: لا يُحسن سواه، فإذا أخذ في القصص وأخبار الأمم وسِيَرِ الماضين فكذلك، فإذا أخذ في أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك، فإذا أخذ في الشعر والغريب فكذلك.

ولعَمْري ما وجدت أحسنَ ولا أوضح مثالاً بالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومآثرِه وخصائصِه من هذه العبارة الجامعة، لهذا الحافظ في حقِّ حَبر الأُمَّة وبَحرِها، فكان عالماً بمنابت القَصِيْص[1]، جمع الله له شَمْل الفضائل والفواضل، ولقد صدق القائل:

ليس على الله بمُسْتَنْكَرٍ أن يجمعَ العالَم في واحد

= الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال الكرابيسي: ما رأيت مجلساً قَطُّ أنبلَ من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث، وأهل الفقه، وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر، فكلٌّ يتكلم منه». كما في «تهذيب الأسماء» (ص ٨٧).

(١) قال الشيخ عبد الفتاح: القصيص جمع قصيصة: وهي شُجيرة تنبت عند الكَمْأة، فيُسْتَدَلُّ على الكَمأَة بها. وهذا مثل يُضرب للرجل العالم بما يُحتاج إليه، كما في «مَجْمَعِ الأمثال» للميداني (٥٣/١).

ولله دَرُّ العالـمِ العامل مولانا الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي شارح «المشكاة»؛ حيث قال في وصف حافظته وأجاد:

وقد صحَّ عند الناس آثار حفظه وقد حسَّنوها جُلُّ أهل التفضُّل
ولكنْ أرى فيه الغرابة واضحاً أقول كقول الترمذي المُحلِّل
حديث غريب ما عرفناه أسْنَدَا سوى وجه شاه الأنور المتَهلِّل
وفي الباب عمَّن لا يُعدُّ ويُحصر ولا خُلْفَ فيه للمُحِقِّ ومُبْطِل

انتهى كلام البَنُّوري باختصار وتصرُّف.

109 وهذا الشيخ الفقيه الناقد العلَّامة الإمام الجليل محمد أبو زهرة، (المولود سنة ١٣١٦، والمتوفَّى سنة ١٣٩٤)، صاحب الحافظة الخارقة، والذكاء الحادِّ العجيب، قال تلميذه الشيخ صلاح أبو إسماعيل، يصف مشاركة الشيخ الشهرية في ندوة مجلة (لواء الإسلام): «كان يبهرنا بذاكرته، وذكائه الوقَّاد؛ إذ كان يُجمل في كلمته ما تناثر من تفاصيل القول من ألسنة المتحدِّثين، فيجمع المتفرِّق، ويُجمل المفصَّل، ويُوجز بعد إسهاب، ولو أن ذلك كان دوره فقط، لكان عجباً أن يستعين بالذاكرة دون مذكرة، فلا تغيب عن ذهنه شاردة ولا واردة مما تناوله المتحدِّثون!»[١].

وعن ذاكرته القوية التي وهبها الله له، حدَّثنا صاحب «غاية الاعتبار»[٢]: «فهو لا ينسى ما شاهده أو قرأه، **فإذا قرأ كتاباً استوعبه**

(١) نقلاً عن كتاب «غاية الاعتبار في أخبار مَنْ تعلَّم العلم أو علَّمه ولو في ساعة الاحتضار» للدكتور محمد بن عزوز (ص١٧٢)؛ حيث ترجم لأبي زهرة في كتابه هذا وعنه نقلت.
(٢) (ص١٧٦).

لأول مرة، وناقشـــه غيباً مع ذكر رقم الصفحة والسطر للموضوع الذي يعــرض له للمناقشـــة، وكان ينـــدر أن يخطـــئ في أرقـــام الصفحات والســـطور! وإذا تحدث في التاريـــخ والأحداث السياســـية، والوقائع المصرية والعالمية، جرت على لســـانه بكل دقة وغزارة، يســـردها كما وقعت بتواريخها وأشخاصها، لا ينسى شـــيئاً من ذلك، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ قطعة حية من التاريـــخ! وإذا حاضر في أي موضـــوع تحدَّث من دون ورقة أو كتاب!».

وقال تلميذه يوســـف البدري، يصف مناقشة الشـــيخ لرسالة علمية بعنوان «ابن القيم»: «لقد هال الحاضرين تلك الموسوعة المتحدِّثة من الذاكرة، لا تخطئ رقم الصفحة، أو اسم الكتاب، أو حتى رقم السطر، وتاريـــخ الطبـــع.. تلـــك الموســـوعة هـــي أســـتاذنا الشـــيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى..، لا ينظر في كتاب ولا مفكـــرة، وإنما يقول للطالب: قلتَ في صفحة كذا، ســـطر كـــذا، ما نصُّه كذا، نقلاً عـــن كتاب كذا، صفحة كذا، سطر كذا... إلخ، وعندما كان الطالب يعترض مبرِّراً وجهة نظره، كان يُحيله الشيخ أبو زهرة إلى أكثر من مرجع، محدِّداً الصفحة والباب والفصل، بل والسطر، وتاريخ الطبع، لقد دهش الحاضرون من هذه الذاكرة، ولم يلفت نظرهم من المناقشين أحد مثله! كل ذلك وهو باسم الفم، جادُّ اللهجة، قويُّ النبرات، واضح العبارات!».

وكان رَحِمَهُ اللهُ لا يهمه أن يحتفـــظ بالكتاب بعد قراءتـــه؛ لأنه إذا قرأ الكتاب استوعبه لأول مرة، وناقشه غيباً مع ذكر رقم الصفحة والسطر، وكان يندر أن يخطئ في أرقام الصفحات والســـطور! لهذا ـ كما يقول

ابنه الدكتور مصطفى ـ لا يهتم باقتناء الكتب بعد قراءتها، ولذا كانت مكتبته غير حافلة بالعدد الضخم من الكتب كما يتصوَّر البعض!

110 وهذا العلَّامة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، (المولود سنة ١٢٩٠، والمتوفَّى سنة ١٣٢٧)، يقول ابنه محمد الباقر في كتابه «أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني»(١): «قال الإمام في «النبذة»: يحفظ السنة، ويستحضر أحاديث الكتب الستة، و«الترغيب والترهيب»، و«كنز العمال»، كأنه يحفظها! وما رأيت في المغرب والمشرق من يستحضر الأحاديث بألفاظها سواه! رأيته مراراً يذاكر بعض من ختم الصحيح كم مرَّة، فيجد نفسه بين يديه كأنه لم يقرأ البخاري قط!

يُحْسَبُ في استحضار نصوص الكتاب والسنة كشيخ الإسلام البخاري، أو ابن المديني..، بحيث ينشدك لسان حاله قول سيدي محمد البكري:

وها أنت طُفْ شرق الوجود وغربه ... فلا تلق لي مِثلاً ولا تلق لي شَكلاً

وقال آخر:

حَبْـرٌ تثبَّت والإنصاف شِيمته ... أَكْرِمْ به طاب من خَلق ومن خُلق
أتى بـه الدَّهر فـرداً لا نظيرَ له ... مثـل البخاري لما جـاء بالعتق

وأورد ابنُه قـولَ الفقيه العلَّامـة أبو عبد الله محمد السباعي: «ما رأيت أحفظ من أخيك، ولا سمعت به في عصرنا هذا!.. فكنت

---

(١) (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

أراه يحفظ كلَّ ما يرى؛ من تفسير، وحديث، وأدب، وتاريخ. والناس لم يَرَوا مثله في ذلك».

وقال: «**وكان يحفظ الشعر ـ بل القصيدة ـ بسماعها مرة!**، فلم أر فيمن رأيت من أدباء الشام والحجاز ومصر والمغرب، من يحفظ المقطوعات الشعرية كحفظه، بحيث لو شاء ألَّا يتكلم إلا بالشعر، لما اعتاص الشعر عليه، وقد تُجالِسه السنةَ فلا تسمعه كرر بيتاً أو قطعة!»[١]. وقال ابنه: «قال صاحب «المظهر»: كان في حفظ السُّنَّةِ والآثار كابن تيمية»[٢].

111 وقال العلَّامة علي الطنطاوي ـ كما في كتاب «فصول في الثقافة والأدب»[٣] ـ في حقِّ شيخه العلَّامة اللغويِّ عبد القادر المبارك، (المولود سنة ١٢٩٢، والمتوفَّى سنة ١٣٦٤): «شيخنا عبد القادر المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، الذي كان راوية العصر، وكان من أيسر محفوظاته «القاموس المحيط». انتهى.

تأمل وانظر القاموس ـ فقط ـ أيسر محفوظاته! فكيف لو ذكر لنا كلَّ محفوظاته، وقد حدَّثنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيء منها، فقال في كتابه «ذكريات علي الطنطاوي»[٤] فقال: «**أما المبارك فقد كان الإمام في**

(١) «أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني» محمد الباقر الكتاني (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٢) المرجع السابق (ص ٢٣٦).
(٣) (ص ٧٣).
(٤) (١/١١٩ ـ ١٢٠ ـ ١٢١).

اللغة..، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم وروى أشـعارهم، وكان المفرد العلم في بابته، ولا أعرف نظيراً له في العلماء، تحسُّ إذ تجالسه وتسمع منه كأن الأصمعيَّ وأبا عبيدة قد تمثَّلا لك في جبَّته، وكأن ما تقرأه من أخبـار الـرواة والحفاظ قد عاد لـك حتى رأيته بالعِيان!». «أمـا حفظه فقد صدَّقت منه ما يُروى عـن حمَّاد الراوية، وابن الأنباري، والمعرِّي!».

ويحدِّثنـا عن متانة حفظـه ودقَّة ضبطه للجمـل والألفاظ غيباً تلميذُه الأستاذ ظافر القاسمي فيقول كما في كتابه «مكتب عنبر»(١): «كان أعلم أهل زمانه بالمفردات، وقد شاع ذلك عنه، حتى قال عنه خصومه: (إنَّه نسـخة حية من القاموس!)، وأشهد أنني كنتُ أختار ألفاظاً غريبة فأسأله عنها، فيجيبني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنصِّ عبارة «القاموس» أو «فقه اللغـة» للثعالبي. فقد عُـرف عنه أنه كان يحفـظ «فقه اللغة» و«الألفاظ الكتابيـة» و«القاموس المحيط» عن ظهر قلب!. سـألته مرَّة، وأنا أعرف الجواب: ما معنى (العُطْبول)؟ فأجابني على الفور: إذا كانت المرأة طويلـةَ العنق في اعتدال وحُسـن فهي عطبـول، وكانت هذه الجملة بحروفها عبارة الثعالبي في «فقه اللغة».. وأخذ عليه الناس جميعاً أنـه لم يترك أثراً يدل على سـعة علمه، وغزير اطلاعه، ومُدهِش حفظه.. كان شـيخنا المبارك نسيجُ وحدِه..، ينثر عليك من علمه ما يُدهش..، وما أظنُّ أن الولَّادات سـتلد مثله في مستقبل هذا الزمان!».

---

(١) (ص٤٨).

112 وقال العلَّامة عبد الحيِّ الكتانـي في «فهرس الفهارس»(١)، في ترجمة العلَّامة أبي النصر محمد بن نصر الله ناصر الدين الخطيب الدمشقي الشافعي، (المولود سنة ١٢٥٣، والمتوفَّى سنة ١٣٥٢): «القاضي الخطيب المحدِّث المعمَّر..، ذكر لي عن نفسه أنه حفظ في صغره نحو خمسة عشـر ألف بيت من أغلب الفنون!، ونحو عشرة آلاف حديث بأسانيدها!.. وهو الشـخص الوحيد، الذي رأيته يحدِّث حفظاً، بكثير من الأحاديث، متناً وسنداً، منه إلى رسول الله ﷺ، على كثرة مَن رأيت من أهل المشرق والمغرب!».

113 وهذا العالم العلَّامة والمجاهد الكبير والداعية الأمين العابد المتعبِّد الشـيخ سـعيد بن مِيْرزَا النُّوْرسِـي الملقب (ببديع الزمان)(٢) (المولود سنة ١٢٩٠، والمتوفَّى سنة ١٣٩٧) ترجم له العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «العلماء العزَّاب الذين آثـروا العلم على الزواج»(٣) فقال: «أحد أذكياء عصـره وزمانه، باهر الذكاء، سـريع الحفظ، قوي

---

(١) (ص ١٦٢).

(٢) قال الشيخ العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتاب «العلماء العزاب» في ترجمة النورسي: «لُقِّب ببديع الزمان تشـبيهاً ببديع الزمان الهَمَداني (أحمد بن الحسين)، (المولود سنة ٣٥٨، والمتوفَّى سنة ٣٩٨) عن أربعين سنة رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان آية من آيات الله في قوة الذكاء، وسرعة الحفظ، وصفاء الذهن، صاحب عجائب وبدائع، منها: أنه كان يُنشَدُ الشعرَ، لم يسـمعه قط، وهو أكثر من خمسـين بيتاً فيحفظ القصيدة كلَّها، ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يَخرمُ حرفاً، ويَنظر في الأربعة والخمسة الأوراق، في كتاب لم يعرفه ولم يَره، نظرة واحدة خفيفة، ثم يَهزُّها عن ظهر قلـب هَزّاً، وهذا حاله في الكتب الواردة وغيره. انتهى. وكان سعيد النورسي يُشبهه في جملة من هذه الصفات.

(٣) (ص ٢٣٨).

الذاكرة.. ولِحِدَّة ذكائه الشديد واستعداده الفطريِّ الهائل تعلَّمَ العلوم المختلفة في مدَّة وجيزة، وهو دون البلوغ.. وكان يفهم كلَّ كتاب يقرأه، ويطالع كثيراً..، **حفظ كتاب «جمع الجوامع» في أصول الفقه للتاج السُّبكي، وهو من أصعب العلوم خلالَ أسبوع واحد! وحفظ في أيام معدودة من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي في اللغة من أَوَّله حتى باب السين!**. ـ قال الشيخ عبد الفتاح: وحِفظُ المفردات اللغويَّة أصعبُ من حفظ العبارات الأصولية بكثير جدّاً ـ وطالع كثيراً من كتب علم الكلام والمنطق والنحو والتفسير والحديث والفقه، وحفظَ كتباً عديدة منها عن ظهر قلب، **فحفظ أكثر من ثمانين (٨٠) كتاباً من أمهات كتب العلوم الإسلامية!**

وقد أدهش بقوة ذكائه وشدَّة حفظه وسرعته شيخَه (فتح الله أفندي) فاختبره بقوله: هل تستطيع أن تقرأ بضعة أسطر من هذا الكتاب ـ مقامات الحريري ـ مرتين وتحفظهما؟ فأخذ الكتاب، وقرأ منه صفحة واحدة، مرةً واحدة، فإذا بها كافية لحفظها!، مما أذهل شيخَه وجعله يقول: **إن اجتماع الذكاء الخارق مع القوة الخارقة للحفظ شيءٌ نادرٌ جدّاً!»**.

114 وهذا الشيخ العلَّامة النَّحْوِيُّ اللغويُّ الأديب الحفَّاظة القاضي محمد بشير بن محمد هلال بن محمد الألاجاتي، المعروف بالغَزِّي، (المولود سنة ١٢٧٤، والمتوفَّى سنة ١٣٤٠) كان آية في الحفظ، قال الشيخ كامل الغزي أخوه لأُمِّه ـ كما في «العلماء العزَّاب»(١): «أخذ

(١) (ص ٢١٣).

في حفظ المتــون، ولا أبالغ إذا قلت: إنه حفــظ «الألفية» لابن مالك ـ وهي منظومة في ألف بيت تُعَدُّ عمدةً في علــم النحو ـ في أقل من عشرين يوماً، فكنت أعجب من سرعة حفظه وقوة ذاكرته.. ومع اشتغاله بعلوم كثيرة، فقد وجَّه عنايته لحفظ اللغة، والدواوين الشعرية، والكتب الأدبية، مع الفهم التام لمعانيها..، **وأنه يمكنه أن يُملي من حفظه كتاب «الأغاني»، و«شرح ديوان الحماسة»، و«أمالي القالي»، و«كامل المبرِّد»، ومختارات الشعراء الثلاثة: الطائي والبحتري والمتنبي، وشعر أبي علاء: «اللزوميات» و«ســقط الزند»، وغير ذلك من محفوظاته التي يســتبعد العقلُ حفظَهــا ووَعْيَها في صــدره**.. وكان إذا تكلم فــي الأدب يَخالُ ســامعُه أنه لم يَشُــذَّ عنه نادرةٌ منه.. ـ لذلك ـ فاق معاصريه، وأقرَّ له بالسَّبْق جهابذة علمــاء اللغــة والأدب ونُقَّادُها في الأقطــار العربية، وجعلوه مرجعَهم وعُمدتَهم فيما صَعُب فهمُه وبَعُدَ إدراكه!».

115 وجاء في «الأعلام الشــرقية»(١) للأســتاذ زكي مجاهد، في ترجمة الشــيخ العلَّامة اللغويِّ محمد بن العربي بن محمد أبي شنب الجزائري، (المولود سنة ١٢٨٦، والمتوفَّى سنة ١٣٤٧)، كان من العلماء المشــتغلين بالعلم والأدب واللغة والتأليف. وفي اللغــة **كان مُعجَماً لغوياً يحفظ اللغة المدوَّنة في المعاجم!**».

116 وهــذا العلَّامة اللغــويُّ الأديــب الفقيه الشــيخ أبو تراب الظاهــري، (المولود ســنة ١٣٤٣، والمتوفَّى ســنة ١٤٢٣) الذي امتلك حافظــة عجيبة، وصفهــا الدكتــور عبد الكريم بن عبــد الله في كتابه

---

(١) (٩٢٣/٢).

«أبو تراب الظاهري صفحات من حياته وتأمُّلات في أدبه»[1] فقال: «حافظة عجيبة قرأتُ وسمعت عنها ما يبدو ـ للوهلة الأولى ـ أنه ضَرْبٌ من الخيال، ونسج من الأساطير، وأنموذج عابر من أزمنة بعيدة، وقد تحدَّث عن تلك النعمة بقوله: كانت ذاكرتي في الفتوَّة عجباً، حفظت أربعين ألف مادَّة في اللغة، ونحو عشرة آلاف بيت من الشعر سوى القصائد الشهيرة، وحفظت نحو خمسين ألف حديث..».

وقال الدكتور أيضاً: «ولا شكَّ بأن هذه الحافظة العجيبة كانت مثار إعجاب أصدقائه، والمتردِّدين عليه، ومن أولئك صديقه الأستاذ عبد الله بغدادي الذي وصف أبا تراب بقوله: أبو تراب عالم تجمَّعت في رأسه قواميس اللغة العربية وغيرها من دوائر المعارف، ودواوين الشعراء، وحكايات البلغاء، وذكريات العلماء، وأفانين الفصحاء..».

117 وقال العلَّامة عبد الحي الكتاني في «فهرس الفهارس»[2] في ترجمته لوالده العلَّامة عبد الكبير الكتاني، (المولود سنة ١٢٦٨، والمتوفَّى سنة ١٣٣٣): «**ويستحضر «فتح الباري» استحضاراً عظيماً!**، وأتمَّ سماعَ وإسماع الكتب الستة، ولم يبق بفاس ولا بالمغرب من تمَّ له ذلك، **يستحضر أحاديث الكتب الستة كأصابع يده!**، وإن أنسَ فلا أنسى أني كنت مرة أسمع عليه كتاب «المجالس المكية» لأبي حفص الميانسي المكي، مِن أصلٍ عتيق بخط الحافظ أبي العلاء العراقي، فوصلنا فيه إلى حديث عثمان في كيفية وضوء النبيِّ ﷺ، فمع

---

(١) (ص ١٣٠).

(٢) (ص ٧٤٣).

عزو الميانسـي له إلى مسلم، ذكر فيه المسـح على الأذنين، فقال لنا الشيخ الوالد: مسـح الأذنين في الوضوء لا يوجد في الصحيحين من حديث عثمان ولا غيره، فقمت بعد ذلك على سـاقٍ في مراجعة نُسَخ «صحيح مسـلم» العتيقـة المسـموعة وغيرهـا من المُسـتخرَجات والمصنَّفات الأثرية، فلم أجد لذلك ذكـراً فيها، فأيقنت بحفظ الرجل وقوة استحضاره وخوضه في السُّنَّة!».

أرى آثارهـم فأذوب شـوقاً وأسكب مِن تذكُّرهم دموعي

118 وهذا محـدِّث الشـام الأكبر العلَّامـة محمد بـدر الدين الحَسَـنِيُّ، (المولود ١٢٦٧، المتوفَّى سـنة ١٣٥٤). جاء في كتاب «شيخ الإسلام أبو شعيب الدُّكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح..»[١] للدكتور محمد رياض فيما ينقله عن الشـيخ محمد صالح الفرفور في وصف محفوظ شيخه الحَسَنِيِّ: «حفظ الصحيحين (البخاري ومسلم) بأسانيدهما، وكتب السـنن، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، وغير ذلك من كتب الحديث رواية ودرايـة، وحفظ ما يقرب من اثني عشـر ألف بيت من متون العلم المتنوعة، مع اطـلاع تامٍّ على العلوم الآلية، وتمكَّن فيها قبل أن يشاركه فيها إنسان!».

وجاء في «تشنيف الأسماع»[٢] للشيخ محمود سعيد فيما ينقله عن العلَّامة علي الطنطاوي أنـه قال: «كان أقلُّ مزايا الشـيخ بدر الدين الحَسَـنِيِّ، أنه يحفظ صحيحَي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ

---

(١) (ص ١٥٧).

(٢) (٢٨٦/١).

مالك، ومسند أحمد، وسنن الترمذي، وأبي داود، والنسائي، وابن ماجه، ويروي لك منها ما تشاء كأنه ينظر في كتاب، وأنه يحفظ أسماء رجال الحديث وما قيل فيهم وسِنِيِّ وفاتهم!».

وفي كتاب «رجال من التاريخ»[1] قال الطنطاوي: «.. كأن عينيه زجاجةُ فتوغراف ودماغَه لوحتُه، فلا يرى مسألة إلا ثبتت صورتها فيه إلى الأبد..، وكان درسه في الأمويِّ أعجوبة، مَن رآها ووعاها فقد رأى إحدى عجائب الزمان، وكان كمجالس الإملاء الأولى، التي كانت الدعائم الكبرى في صرح تاريخنا العلمي، وإذا كان السيوطي قد قال: إنه آخر من أملى في اللغة والحديث، فقد قال ذلك لأنه لم يدرك الشيخ بدر الدين!، وكم ترك الأول للآخر.

وأعرف مَن كَتَبَ من هذه الدروس عشر مجلدات ضخام، وفيه يبدو علم الشيخ، **وهذه الذاكرة التي لا تمنُّ بمثلها الدنيا مرَّة كل مئة سنة**، فكان يأخذ حديثاً كيفما جاء، فيذكر طرقه كلَّها، ويعرِّف بالرواة جميعهم، ثم يشرحه لغةً ونحواً وبلاغة شرح إمام من الأئمة الأولين، فكل كلمة بشاهدها، وكل شاهد بتفسيره، ثم يذكر تعليقات المحدِّثين بأسانيدها ومصادرها، ثم يذكر ما أخذ منه الفقهاء وما اختلفوا فيه، وأدلةَ كلٍّ منهم، ثم يوازن بينها ويرجِّح راجِحَها..، ما يقف ولا يتلعثم، ولا يعيد كلمة، ولا يقطع جملة، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح!».

(١) (١٣٥/٢، ١٣٦).

119 وذكر البسَّام في كتابه «علماء نجد خلال ثمانية قرون»[1] في ترجمة الشيخ العلَّامة عبد الله بن أحمد بن سعد العجيري، (المولود سنة ١٢٨٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٢) أن الله رزقه حافظة قوية، وإدراكاً سريعاً، وذكاءً متوقِّداً، وإقبالاً على المطالعة، ونهماً فيها، فحفظ القرآن الكريم، ثم صرفته همته لمطالعة كتب التفسير والحديث والمواعظ والتاريخ وكتب الأدب ودواوين فحول الشعراء، وأكبَّ على حفظ ما في تلك المراجع، فحفظ من ذلك شيئاً كثيراً، حتى صار من أوعية العلم، وحفَّاظ التاريخ، ورواة الأدب.

ثم نقل عن صديقه الشيخ يوسف ياسين قوله: «وخلاصة القول أنه كان راويةً حافظاً.. ذكر لنا أن أكثر تحصيله كان بسبب عكوفه على الدرس والمطالعة بنفسه، وقد آتاه الله تعالى من قوتَي الحافظة والذاكرة ما ساعده على النبوغ في فنه الذي لم نر له ندَّاً فيه بين الذين عرفناهم من الحفَّاظ والرواة.

وكان يحفظ القرآن الكريم، وكتب الحديث بالسند، لا سيما مسند الإمام أحمد، وكان يحفظ من كتب الأدب: «أدب الكُتَّاب»، و«الأغاني»، و«الأمالي»، و«البيان والتبيين»، و«الآداب الشرعية»، ودواوينَ شعرٍ مختلفة لا يُحصَى عددُها، يحفظ هذه الكتب بروايتها وسندها، وهناك كتب أخرى دينية وتاريخية وأدبية يروي الكثير منها».

---

(١) (٢٢/٤).

ثم ذكر حادثة له فقال: «ومن أعجب ما رويناه أنه رافق جلالة الملك في رحلته الأولى، وكان جلالته يسير على الإبل، وكان يتلو على جلالته كلَّ ليلة ـ ونحن على ظهور المطايا ـ من كلام الله وحديث رسول الله ﷺ وكلام العرب الأولين وبعض المتأخِّرين بين الساعة والساعتين، وداوم على ذلك ما يقرب من ست وعشرين ليلة، لم يُعِدْ علينا في ليلة ما ذكره في سابقتها!».

120 وجاء في «البحر العميق»[١] للغُماري، في ترجمة العلَّامة حكيم عبد الوهاب اللكنوي، ما يقوله الشيخ محمد الزمزمي بن محمد جعفر الكتاني في إجازته للغماري: «وقد أخبرنا هذا السيد عن نفسه: **أنه يحفظ غيباً «سنن البيهقي الكبرى» وفيها خمسون ألف حديث، ويحفظ معها بقية الكتب الستة الصحاح!**».

121 وقال العلَّامة محمد راغب الطبَّاخ في «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»[٢] في ترجمة شيخه العلَّامة الفقيه الأصولي الحنفي محمد الزرقا، (المولود سنة ١٢٥٨، والمتوفَّى سنة ١٣٤٣): «ولم يبلغ الثلاثين من عمره، حتى برع في الفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، والمنطق، وسائر الفنون الآلية، فشاع صيته، وصار إليه مفزع الناس في معضلاتهم، وعليه المعوَّل في حلِّ مشكلاتهم. وطبَّق ذكره الآفاق، وخصوصاً في الفقه الحنفي، **وكنا نرى أنه لو شاء إملاء مذهب أبي حنيفة من حفظه لأملاه بنصوصه وحروفه، وكاد لا يغادر صغيرة**

---

(١) (٤٣١/١).

(٢) (٦٢٩/٧).

منه ولا كبيرة إلا أحصاها، وذلك لما أعطي من قوة الحافظة، مع التحقيق والتدقيق ومعرفة المصحَّح والمرجَّح من الأقوال، من غير حاجة لمراجعة كتاب، فكان في ذلك يبهر العقول!

حدَّثني ـ الكلام للطبَّاخ ـ أحد مُلازِمي درسه قال: حضرت دروسه اثنتين وثلاثين سنة، فما رأيته مرَّة أراد المراجعة عن مسألة فنظر في الفهرست مهما كان بعيد عهد بها، بل كان يقلب قلبات يسيرة فيظفر بها، وهذا ينبئك بقوة حافظته وذاكرته!».

122 قلت: ومثله في حفظ المذهب واستحضاره عصريُّه العلَّامة الأصولي الفقيه الحنفي محمد بخيت المطيعي، مفتي الديار المصرية، (المولود سنة ١٢٧٠، والمتوفَّى سنة ١٣٥٤)، ذكره تلميذه الشيخ أحمد بن الصِّدِّيق الغماري في «البحر العميق في مرويات ابن الصِّدِّيق»(١) فقال: «علَّامة الديار المصرية بلا منازع وشيخ شيوخها بلا مدافع، الفقيه المفسِّر المعقوليُّ الأصوليُّ المتكلِّم المنطقيُّ الفيلسوف المحقِّق المدقِّق الشيخ محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي..، **وأما الفقه الحنفي فكأنه يحفظه عن ظهر قلبه؛ غريبه ومشهوره، ومقبوله ومردوده!**».

123 ومثلهما أيضاً في حفظ المذهب واستحضاره، العلَّامة المحدث الفقيه المالكيُّ محمد بن الصديق الغماري، (المولود سنة ١٢٩٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧)، قال ابنه الشيخ أحمد بن الصدِّيق الغماري

---

(١) (١٩٥/١).

في «التصوُّر والتصديق بأخبار الشيخ محمد بن الصِّدِّيق»(١)، الذي أفرده في ترجمة أبيه: «كما أنه صار إماماً في الفقه منقطع النظير فيه، **لا سيما الفقه المالكي، فكان يحفظه كما يحفظ غيـرُه متناً من متونه، ويدريه كما يـدري غيرُه مسـألةً واحدة منه.. فإنـه كان نصب عينيـه بعُجَره وبُجَره!**.. وقلَّ أن يوجد كتاب في مكتبته في الفقه المالكي، والقوانين العملية التي ألحقوها بالفقه، إلا وقد طالعها، وصحَّح أغلاطها بخطِّه!». وقال: «يمكنه إملاء الكراسة والكراستين في المسألة الواحدة ومتعلَّقاتها بدون مراجعة كتـاب». أي اعتماداً منه على ذاكرتـه الفولاذية!. **وكان يستحضر «فتح الباري» لابن حجر.**

124 قلت: وأعجب مـن هذا كلِّه، ما جاء في مجلة «رسـائل أهل السُّـنَّة»(٢) في ترجمة العلَّامة الشـيخ كامل بن درويـش البلتاجي الغزِّي الفلسطيني، (المولود سنة ١٣٢٥، والمتوفَّى سنة ١٤١٦): «هو الشيخ الجليل، الفاضل النبيل، الدَّاعي إلـى الله، كامل بن درويش بـن محمد البلتاجي الغزِّي الأزهـري..، **ولَكَ أن تتخيَّل أنه كان يحفـظ المذاهب الفقهية عن ظهر قلب** كما شَهِد معاصروه، وفي كلِّ سنة كان يُطبِّق مذهباً!».

125 وكان العلَّامـة المحـدِّث الفقيه الشـيخ عبد الكريم ابن السيد عباس آل الوزير الحسني الشيخلي الملقَّب (بأبي الصاعقة)(٣)

---

(١) (ص ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٦٦).

(٢) العدد (٨٤) لعام ١٤٣٧هـ.

(٣) وإنما قيل له (الصاعقة): نسبة إلى مجلته (الصاعقة) وهو الذي أنشأها. وكان هو المحرر ورئيس التحرير وصاحب الامتياز الوحيد فيها!

(المولود سنة ١٢٨٥، والمتوفَّى سنة ١٣٧٩) كان يحفظ الكتب الستة سنداً ومتناً كما في ترجمته في كتاب «أعلام المدرسة الحديثية البغدادية المعاصرة»(١)، وفي «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر»(٢): «وكان للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مَلَكَةُ الترجيح، بل الاجتهاد، وكان يحفظ مذاهب الفقهاء الأربعة وغيرهم ممن سبقهم بأدلتها.. كما كان يحفظ الأسانيد وتراجم رجال الحديث وما قيل فيهم من جرح وتعديل وعلل..».

126 وهذا العلَّامة المفسِّر الأصولي محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، (المولود سنة ١٣٢٥، المتوفَّى١٣٩٣)، جاء في ترجمته في «مقدمة أضواء البيان»(٣): «وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يحفظ من أشعار العرب، وشواهد العربية **الآلاف المؤلَّفة من الأبيات**، كما كان يحفظ أكثر أحاديث «الصحيحين»، و«ألفية ابن مالك»، و«مراقي السعود»، و«ألفية العراقي»، وغير ذلك من المنظومات في السيرة النبوية، والغزوات، والأنساب، والمتشابه في القرآن، وشيئاً من المتون في الفقه نثراً ورجزاً!».

ويقول تلميذه الشيخ العلَّامة محمد الصالح بن عثيمين: «كنا طلاباً في المعهد العلمي في الرياض، وكنا جالسين في الفصل، فإذا بشيخ يدخل علينا، إذا رأيتَه قلت: هذا بدوي من الأعراب، ليس عنده بضاعة

---

(١) لعبد القادر مصطفى المحمدي (ص٧٥٣).

(٢) (ص٤٣٩).

(٣) (ص٢٣).

من علم!! رثُّ الثياب، ليس عليه آثار الهيبة، لا يهتم بمظهره، فسقط من أعيننا!، فتذكَّرت الشيخ عبد الرحمن السعدي، وقلت في نفسي: أترك الشيخَ عبد الرحمن السعدي وأجلس أمام هذا البدوي؟! فلما ابتدأ الشنقيطيُّ درسه، انهالت علينا الدُّرر من الفوائد العلمية من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء، وفحل من فحولها، فاستفدنا من علمه، وسَمْتِه، وخُلقه، وزهده، وورعه!»[1].

وكان الشيخ أحمد بن أحمد المختار الجكني الشنقيطي ينعته (بمالك زمانه). وكان الشيخ زكريا بيلا يعجب من قوة الحافظة التي يتمتع بها الشنقيطي ويقول: «حضرت حلقة درسه في المسجد النبوي الشريف، وسمعته يفسر القرآن المجيد في أسلوب جيد حسن بدون تفسير، وكأن كتب التفسير، والبلاغة، واللغة، والنحو، والأبيات التي يستشهد بها أمامه يسرد منها!»[2].

وجاء في مقدمة «أضواء البيان» أيضاً: «ومرة قدم الشيخ الشنقيطي إلى معهد القضاء، وعليه ثوب مبتذل، فكلَّمه أحد تلامذته في ذلك، فأجابه بقوله: يا فلان القضية ليس بالثياب، وإنما ما تحت الثياب من العلم!. وقد صوَّر الإمام الشافعي هذا المعنى بقوله:

عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ تُبَاعُ جَمِيعُهَا ... بِفَلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَا
وَفِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ تُقَاسُ بِبَعْضِهَا ... نُفُوسُ الْوَرَى كَانَتْ أَجَلَّ وَأَكْبَرَا

---

(١) «أضواء البيان» (ص٣٢).

(٢) نقلاً عن محقق كتاب «الثبت الكبير» للمشاط، هامش (ص٢٧).

وَمَا ضَرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إخْلَاقُ غِمْدِهِ إذَا كَانَ عَضْباً حَيْثُ وَجَّهْته بَرَى
فإن تَكُـنِ الأيَّـام أَزْرَتْ بِبَزَّتي فَكَمْ من حُسَامٍ في غِلافٍ تكسَّرَا

أَخَذَهُ الْمُتَنَبِّي فَقَالَ:

لَئِنْ كَانَ ثَوْبِي فَوْقَ قِيمَتِهِ الْفَلْسُ فَلِي فِيهِ نَفْسٌ دُونَ قِيمَتِهَا الْإِنْسُ
فَثَوْبُك بَدْرٌ تَحْتَ أَنْـوَارِهِ دُجىً وَثَوْبِي لَيْلٌ تَحْتَ أَطْمَارِهِ شَمْسُ

وهكذا ينبغي أن يكون أصحاب الهمم العالية».

127 وهذا الإمام العلَّامة المحدِّث القاضي حسين بن محسن الأنصاري الخزرجي اليماني، (المولود سنة ١٢٤٥، والمتوفَّى سنة ١٣٢٧)، كان يحفظ «صحيح البخاري» مع شرحه «فتح الباري» عن ظهر قلب!، فيما ينقله الشيخ محمد عامر الطونكي في كتابه «حياة العلَّامة المحدِّث حيدر حسن خان الطونكي»[1] عن شيخه حيدر حسن الطونكي تلميذ الأنصاري قوله: «**يحفظ ثلاثة عشر جزءاً بكاملها «لفتح الباري»، يُورد محتوياتِه ويُسمعها من حيث شاء!**».

128 وهذا الشيخ العلَّامة الفقيه المعمَّر إبراهيم بن حمد الجاسر، (المولود سنة ١٢٤١، والمتوفَّى سنة ١٣٣٨)، جاء في ترجمته في «موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر»[2] للحازمي: «ظهرت عليه علامات الذكاء والفطنة وهو صغير، فقد قرأ القرآن وجوَّده ثم حفظه عن ظهر قلب..، وكان يحفظ الصحيحين عن ظهر قلب. وشرع

(١) (ص ١٠٧ ـ ١١٦).
(٢) (ص ٤٩).

في طلب العلم بهمة ونشـاط ومثابرة، وأصبح مرجعاً للعلوم الشرعية في عصره، وكان آية في علم التفسير والحديث». وذكره صاحب كتاب «الإعلام بمن زار الكويت مـن الأعلام»[١] فقال: «إنه كان يسـتحضر «شرح النووي على مسلم»، وكان قوي الحافظة حادَّ الذهن!».

129 وهذا العالِم النبيل الحاذق الألمعي المحدِّث الشيخ الشابُّ عبد الله بن محمد الدُّويش، (المولود سنة ١٣٧٣، والمتوفَّى سنة ١٤٠٨) الذي امتاز بقوة الحفظ وسـعة الذاكرة، بل جاء في ترجمته في كتاب «المحدِّث عبـد الله الدُّويش سـيرته وأخبـاره وجهـوده العلمية»[٢]: «الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ممن حباهم الله بقوة الحفظ، وكان يذكِّرنا بسلفنا الصالح في القرون الأولى والوسطى الذين اشتهروا بحفظ المتون في مختلف الفنون نظماً ونثراً، حتى ضُرب به المثل في الحفظ..، وكان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يحفظ مـن كل فنٍّ متناً، والـذي اختص بحفظه هـو الحديث النبوي الشـريف، حيث كان في حفظ الحديث أُعجوبة القرن العشـرين، فلم يصل أحد إلى الحفظ الذي وصل إليه الشيخ في جميع أقطار الأرض فيما نعلم، وقد شـهد لـه بذلك فحـول العلمـاء كالشـيخ العلَّامة عبد العزيز بن باز..».

قلت: وكان مـن محفوظاته الكتب السـتة متناً وسـنداً، و«منتقى الأخبـار»، و«رياض الصالحيـن»، و«معجم الطبرانـي»، وغيرها وفي ترجمته: «أنـه كان يعرف رجال الحديـث كما يعرفنا نحـن!». وكان

---

(١) (ص ٣٥).
(٢) (ص ٦٩).

يستحضر «صحيح البخاري» مع شرحه «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، و«تفسير ابن كثير»، بل كان يستحضر كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ومتوناً كثيرة في العقيدة كـ«فتح المجيد»، و«الواسطية»، و«الحموية»، و«التدمرية»، وغيرها، وكذا في الفقه كـ«الزاد» و«الإقناع» ونحوهما، بل كان يحفظ أكثر المتون التي يتداولها طلبة العلم.. حتى قال شيخه صالح البليهي (ت: ١٤١٠هـ): «لَم تر عيني مثله قط في الحفظ والعلم، فقد كان يحفظ في اليوم عندي خمس صفحات من كتاب «الإقناع»، ولم يمرَّ عليَّ طالب قبله في ذلك». ويقول أحد تلاميذ البليهي: كان الدويش يقرأ على الشيخ صالح البليهي كتاب «الروح» لابن القيم حفظاً ويسرده سرداً، حتى إنَّ الشيخ البليهي كان يحاول اللحاق به في القراءة!». وفي ترجمته أيضاً: «أراد بعض الإخوة اختبار ضبط الشيخ للسند والمتن، فبدؤوا يَقْرَؤُن عليه من «صحيح البخاري» ويخلطون الأحاديث ببعضها، والشيخ منصت لهم، فلما انتهَوا من ذلك، أعاد قراءتها مرتبة السند والمتن، ونحن نتعجب من ذلك!».

ومن عجيب أمره ـ وكلُّ أمرِه عجب ـ أنه لا يستعين بفهارس الكتب، وإنما يذهب مباشرة إلى موضع المسألة وبسرعة فائقة، وكأن الكتاب بين يديه!

وأخباره في هذا الباب عجيبة، وهي مبسوطة في كتاب «المحدِّث عبد الله الدُّويش سيرته وأخباره وجهوده العلمية»[1]. ولو مدَّ الله في عمره لكان آية من الآيات التي يفتخر بها أهل عصرنا.

---

(١) وهي مبسوطة تحت عنوان (قوة الحفظ) (ص٦٩)، ومنه لخَّصت ما ذكرت.

130 وقــال القاضي العباس بــن إبراهيم الســملالي في كتاب «الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام»[١]، في ترجمة العلَّامة أحمد بن محمد الكاملي، (المولود ســنة ١٢٥٥، والمتوفَّى سنة ١٣١٤): «كان متضلِّعــاً في الحديــث، كان يحفــظ صحيح البخاري ومســلم بأســانيدهما، وكتــب الأخبــار والآداب، ودواوين الشــعراء القدماء والمولدين، كان حافظاً واعية ســريع الحفظ، كان يحفظ القصيدة من تسميعها له مرتين، وفي الثالثة يسردها من حفظه!».

131 وهذا العالــم العلَّامة مفتــي العراق الشــيخ محمد فيضي الزهاوي، (المولود ســنة ١٢١٢، والمتوفَّى سنة ١٣٠٨)، الذي كان يحفظ من أول مــرَّة! قــال الشيخ محمــد صالح السهروردي في «لب الألباب» عند ترجمــة الزهــاوي[٢]: «كـــان حجــة في العلــم، قــوي الحافظة..، حــافظاً للقرآن والحديث، بــل وأغلــب العلوم على ظهر الغيب، حتى كان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا نظر كتاباً، وأَعْمَلَ النظر فيــه وجوَّل الطَّـرْفَ في مراميه، **حفظه لأول مــرة!** كــان نــادرة في ذلــك وأعجوبة في كل مــا هنــالك، ولفَرْطِ ذكـائــه أنــه حفــظ «ديــوان المتنبي» بمدة وجيزة.. كان رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مــن خواص الرجال، الذين قــلَّ أن يسمح الدَّهر بمثلهم».

قلت: وقــد اعترف له بقوة الحفظ وشــدَّة الــذكاء العلَّامة محمود شكري الألوسي ـ على ما كان بين آل الألوسي وآل الزهاوي ما يكون

(١) (٤٣٨/١).
(٢) (ص٨٩).

بين الأقران ـ إلا أنه اعترف له بذلك فقال في كتابه «المسك الأذفر»[(١)] عند ترجمة الزهاوي: «كان آية في الفطنة والذكاء وقوة الحافظة، وكان ذا رسوخ ومَلَكَةٍ تامَّة..».

وكان الزهاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في الفخر بالعلم والشعر ـ كما في ترجمته في كتاب «علماؤنا في خدمة العلم والدين»[(٢)] ـ:

لو يحسبُ الحسبَ المرء علا فوق معالي

كنتُ بالعلم وبالشعر على العالَم عالي

132 وهذا الأستاذ الأديب محمد نامق بك التركي، (المولود ١٢٥٦، والمتوفَّى ١٣٠٦)، جاء في ترجمته في «الأعلام الشرقية»[(٣)]: «**قوي الذاكرة إلى حدٍّ يفوق التصديق، حتى يكاد لا ينسى شيئاً نظره أو سمعه!**، فقد يتلو عليك (ألوفاً!) من الأشعار الفارسية والتركية والعربية والإفرنسية!».

133 وكان العلَّامة الفقيه المحقِّق الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن علي الطير اليمني، (المولود سنة ١٢٩٣، والمتوفَّى سنة ١٣٧٦) «**سريع الحفظ لما يسمعه وكان يحفظ من مرَّة واحدة!**» كما في ترجمته من كتاب «هِجَر العلم ومَعاقِله»[(٤)] للقاضي إسماعيل الأكوع.

---

(١) (ص ٣٩٠).

(٢) (ص ٥٢٠).

(٣) (٢/٨٠٠).

(٤) (١/٣٣).

134 وهــذا العالم العلَّامــة الفقيــه المحقِّق الشــيخ أحمد بن عبد الرحمن السقَّاف، (المولود ســنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧) جاء في ترجمته في كتاب «فُيُوضات البحر الملي»[٥] للشــيخ طه بن حسن الســقَّاف ما نصُّه: «هو العلَّامة الكبير الجامع بين العلم والعمل، نخبة السادة العلويين، وخليفة السلف الصالحين، عظيم الحال.. **وكان قوي الذاكرة، ســريع الحفظ، حتى بلغ بــه الأمر، أنــه إذا أراد أن يقرأ، أو يكتب من كتاب، يضع يده على الصفحة الثانية، حتى لا يسبقَ حفظُه لما فيها!**». لله دَرُّه، حاله في الحفظ وقوته يذكرنا بالإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وفي ترجمته في «تاريخ الشــعراء الحضرميين»[٦]: «ويســتطرد إلى وصفه بالعلم والعمل والورع وعــدم النظير له بحضرموت، مع حافظة قوية، حتى إنه يسرد عبارة «التحفة» ـ يعني تحفة ابن حجر ـ بالحرف الواحد مــن حفظه، عندما يســأل عن مســألة فقهية، ويســرد حديث «البخاري» أو غيره من حفظه بالحرف عندما يُسأل عن الحديث، ومع هذه الحافظة القوية لا يَلْحَنُ مطلقاً مهما كان الكتاب كبيراً، أو صعباً، أو غير منقوط، لقوته النَّحْوية، وسرعة إدراكه!».

135 ومثله أيضاً العلَّامة الفقيه المحدِّث المؤرِّخ الشاعر الأديب الناثر الشيخ عبد الرحمن بن عبيد الله الســقَّاف، (المولود سنة ١٣٠٠، والمتوفَّى ســنة ١٣٧٥)، صاحب المؤلَّفات النافعــة: «العود الهندي»،

---

(٥) (ص ١٢٧، ١٢٨).

(٦) (٥/٥٦).

و«إدام القــوت»، و«صوب الــركام» وغيرها. كان قوي الذاكرة ســريع الاستحضار، يحفظ من مرة واحدة ومن غير تكرار، حتى إنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقول: **كنت أيام شــبابي أحياناً أضع يدي على الصفحة اليسرى خوفاً من أن تقع عيني عليها ويسبق حفظي لها!** على ما جاء في ترجمته في مقدمة كتابه «العود الهندي»(١).

وفي ترجمته في كتاب «جهود فقهاء حضرمــوت»(٢) عند الحديث عن «حاشيته على متن المنهاج للنووي» نقل عنه أنه قال في مقدمتها: «ثم شــرعنا في ـ شــرح ـ «المنهــاج»..، ووعــدت أن أجــيء بعبائر «التحفة»، و«النهاية»، و«الأسنى»، وحواشيها من حفظي وقد وفَّيْت!». وفي «التلخيص الشافي»(٣) لتلميذه الشيخ علوي بن عبد الله السقَّاف أنه قال عند ترجمة ابن عبيد الله: «وكنت أكتب درس «المنهاج» له في ربع الصفحة بطلبٍ منه، وأُبقي باقيها أبيضَ لتعليقاته، فكان يعلِّق عليها من حفظه عبارات «التحفة»، و«الأســنى»، و«النهاية»، وابن قاســم، وعلي الشبراملسي، وعبد الحميد، ويستشكل ويَحُلُّ ما استشكله المُحَشُّون»، فكانت تلك الدروس والمجالس تذكرنا بما يُروى عن إمام الحرمين، والغزالي، والنووي، والرافعي!

136 وكان العلَّامة الفقيه الشيخ الضرير أحمد بن حسن العطَّاس، (المولود سنة ١٢٥٧، والمتوفَّى ســنة ١٣٣٤) قد كُفَّ بصرُه وهو صغير،

---

(١) (٤٥/١).

(٢) (١٢١٦/٢).

(٣) (ص ١٣٨).

فعوَّضه الله بنور البصيرة، له ترجمة في «تاريخ الشعراء الحضرميين»[١] جاء فيها: «ويقول المتصلون به: إن شغفه العلمي بكافة العلوم لا يُقاس بقياس، ومن الأدلة على مصداق هذه الظاهرة مكتبته الفذَّة، وعدم المثيل لها بحضرموتَ كلِّها، والمستفيض أنه لا يأخذ قسطه من الهجوع الليلي حتى يستمع إلى مسموع في علم من العلوم بفهم خارق!..» وقال: «قد يستغرب المستغربون قراءته تلك الكتب وسواها مما لا حصر لها على مشايخه مع أنه مكفوف البصر، **وقد فاتهم أنه يحفظ كلَّ شيء سمعه من مرَّة واحدة على ما يروى**..». وهذا يدل على أن كلَّ كتاب قُرئ عليه قد حفظه ووعاه في صدره، فاجتمعت له معرفة بعلوم كثيرة جدَّاً، لهذا قال عنه تلميذه الشيخ عبد الله بن محمد السقاف لمَّا ترجم له: «أكثر شيوخ الإسلام علوماً واتساعاً»[٢].

137 وهذا العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن محمد النتيفي، (المولود سنة ١٣٠٣، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥) **صاحب الحافظة الصلبة التي تحفظ ما تسمع من أول مرة!**. جاء في كتاب «مختصر ترجمة شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أبي زيد الحاج عبد الرحمن النتيفي الجعفري»[٣] تأليف حسن عبد الرحمن النتيفي: «هو الإمام العالم الهُمام الشيخ النظَّار المُشارِك الدَّرَّاكة الفهَّامة المحقِّق.. الذي يفري ـ بثاقب فهمه ـ أديمَ المنقول، ويبهر بحفظه العقول.. للشيخ باعٌ

(١) (١٠٤/٤).
(٢) «تاريخ الشعراء الحضرميين» (١٠١/٤).
(٣) (ص ٨ ـ ٩).

طويل في العلم، حافظ لحديث رسول ﷺ، **أُصيب بفقد البصر فعوَّض الله عماه بنور البصيرة والذكاء الخارق وقوة الحفظ، فتسرد عليه المئات من الأحاديث بأسانيدها فيحفظها عن ظهر قلب ويسردها عليك!**».

138 وهذا الداعية الكبير والمفسّر الشهير، الشيخ العلَّامة، محمد متولِّي الشعراوي، (المولود سنة ١٣٢٩، والمتوفَّى سنة ١٤١٩)، صاحب الحافظة النادرة التي تدهش العقول وتأخذ بالأبصار، لما تحويه من علم وتخزنه من محفوظ. قال الدكتور إبراهيم بدران وزير الصحة المصري وصديق الشيخ الشعراوي كما في كتاب «مذكرات الشعراوي»(١): «كان لهوايته في الشعر الجاهلي باعٌ طويل، فقد كان رضي الله عنه يفخر بأنه يحفظ (١٠٠٠٠٠) مئة ألف بيت من الشعر! علاوة على تجويده للقرآن الكريم والتفسير والأحاديث، وكان ضليعاً في سِيَرِ الأنبياء، وأخبار الصحابة والصالحين والعلماء!».

وعن حافظته العجيبة وخاصة حفظه للشعر، يحدِّثنا العلَّامة محمود الطناحي كما في «مقالات الطناحي»(٢): «ومحفوظ الشيخ من الشعر عالٍ وغزير جدَّاً، ويأتي في مقدمة محفوظه: ذلك الشعر المعروف بشعر الشواهد؛ كشواهد اللغة والنحو والبلاغة والعروض، وشعر الشواهد هذا ينثال على لسان الشيخ انثيالاً، فما ذكر معنىً لغوياً، أو توجيهاً نحوياً، أو تفسيراً بلاغياً إلا واستشهد له بالبيت والبيتين!

---

(١) (ص ١٣٢).

(٢) (ص ٢٨٨).

وإلى جانب شعر الشواهد هذا يتدفق الشيخ بعيون الشعر العربي من كل العصور، من الجاهلي إلى أحمد شوقي ومحمد إقبال، وله بشعر شوقي عناية خاصة، وكأنه يستظهره استظهاراً، ولا يقف إنشاد الشيخ عند الشعراء المُكثِرين المشاهيرَ فقط، بل يشمل أيضاً الشعراء المُقِلِّين المغمورين!، وقد سبق استشهاده بشعر عروة بن أذينة.

أما ذلك الشعر الذي يُعرف بشعر المُذاكرة والمجالسة، وهو ما يُتَمَثَّلُ في المواقف وأحوال الناس وتقلُّبات الزمان، فعند الشيخ منه الكثير من مختلف العصور، وأذكر أن الشيخ في بعض دروسه ولقاءاته وقف عند ما يلقاه الناس من العداوات وبَغْيِ بعضهم على بعض، وعلى عادة الشيخ في استخراج الحسن من السيِّئ، واستنباط الخير من الشَّر، قال: إن عداوة الناس قد تأتي بالخير..، واندفع في كلام طويل، وهنا قفز إلى ذهني - الكلام للطناحي - بيتان في صميم ذلك الكلام لأبي حيان النحوي، وإذا بالشيخ يُنشدهما، وذلك قول أبي حيان:

عِداتي لهم فضل عليَّ ومِنَّة فلا أذهبَ الرحمنُ عني الأعاديا
هم بحثوا عن زَلَّتِي فاجتنبتُها وهم نافسوني فاكتسبتُ المَعاليا

فقلت: سبحان الله! أي قراءة قرأ هذا الشيخ؟!» انتهى كلام الطناحي.

139 وهذا العلَّامة المحقِّق اللغويُّ الأديب المحدِّث الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٩٨)، قال الدكتور شاكر الفحَّام في مقدمة كتاب «بحوث

وتحقيقات»[1]: «.. وأعانته ـ يعني الميمنيَّ ـ حافظةٌ حيَّة تُسعفه وتستجيب له، فكان يُدهش أقرانه وجلساءه بسعة روايته، وسرعة استحضار شواهده، سُئل مرَّة: كم تحفظ من أشعار العرب؟ فقال: نحو مئة ألف بيت! فذكَّرنا بأولئك العلماء الرواة الأوائل». بل كان يحفظ زهاء مئتي ألف بيت من الشِّعر! على ما أشار إليه الشيخ محمد عزير شمس[2] ـ وهو من أخبر الناس بحال المُترجَم له ـ: وبجوار هذا كان يحفظ كثيراً من الكتب والمتون، فكان من محفوظاته «الكامل للمبرِّد»، و«البيان والتبيين» للجاحظ، و«أدب الكُتَّاب» مع شرحه «الاقتضاب»، و«فقه اللغة» للثعالبي، و«إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت، و«تهذيب الألفاظ».. وغيرها، كما جاء في كتاب «بحوث وتحقيقات»[3].

140 وهذا العلَّامة اللغويُّ الأديب المحدِّث المحقِّق الشيخ محمد بن يوسف السورتي، (المولود سنة ١٣٠٧، والمتوفَّى سنة ١٣٦١)، الذي تميز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكثرة الحفظ وسعة المعلومات، قال العلَّامة أبو الحسن النَّدْوي: «كان نادرة عصره في قوة الحفظ وكثرة المحفوظات وسعة المطالعة..، يحفظ الآلاف من الأبيات، ويروي الشيء الكثير من الشعر، والأدب، والمتون، والنصوص..» كما في «نزهة الخواطر»[4]. ويقول

---

(١) (٧/١). وهذا الكتاب يتناول بين دفتيه مقالات وتحقيقات للعلَّامة الميمني، وقد أعدَّها للنشر: محمد عُزير شمس، طبعته: دار الغرب الإسلامي في جزأين، سنة ١٩٩٥م.

(٢) كما في مقاله «أعلام المحقِّقين في الهند وجهودهم في نشر التراث العربي الإسلامي»، وهو منشور على موقع الألوكة بتاريخ ٢٠١١/٣/٢٦م = ١٤٣٢/٤/٢٠هـ.

(٣) (٢٢/١).

(٤) (١٣٤٨/٨).

العلَّامة سليمان النَّدْوي في المقال الذي كتبه عند وفاة السورتي[١]: «لا أعرف في هذا العصر من يُدانيه في سعة علمه، ومطالعته، وكثرة حفظه..، قد حفظ مئات من القصائد النادرة، وآلافاً من أشعار العرب وأنسابهم. من رآه آمن بما ترويه كتب التراجم من الحكايات العجيبة النادرة لقوة ذاكرة العلماء، والأدباء، والمحدِّثين!». «**وكان يحفظ الكتاب بمجرد قراءته مرة واحدة!.. وقد ذكر عنه مترجموه: أنه كان يطالع الكتب في الليل في ضوء مصابيح الطرق!**»[٢]، قال الشيخ عمير بن أبي سفيان الإصلاحي: «حتى قال بعض معاصريه من كبار علماء الهند: إنه كان يشبه في كثرة حفظه علماء القرون الأولى!»[٣][٤].

141 وهذا الكاتب الأديب الأستاذ كامل الكيلاني، (المولود سنة ١٣١٥، والمتوفَّى سنة ١٣٧٩) الذي **كان راويةَ شعرٍ، يكاد أن يغيِّب الشعرَ**

---

(١) في مجلة معارف عدد سبتمبر ١٩٤٢م، كما نقل ذلك الشيخ عمير بن أبي سفيان الإصلاحي في مقاله المشار إليه.

(٢) كما في مقال الشيخ عمير بن أبي سفيان الإصلاحي «العلَّامة محمد بن يوسف السورتي ومآثره العلمية».

(٣) كما في مقاله «العلَّامة محمد بن يوسف السورتي ومآثره العلمية»، وهو منشور على موقع الألوكة.

(٤) وكان العلَّامة عبد العزيز الميمني والشيخ محمد بن يوسف السورتي متعاصرين، ولكن كان بينهما ما يكون بين الأقران، فينتقد أحدهما على الآخر، وتنشر تعقيباتهما في المجلات والصحف.. ولكن رغم هذه الخصومة العلمية، كان الأستاذ الميمني يعترف بمكانة الشيخ السورتي، ويدل عليه ما ذكره تلميذه الدكتور مختار الدين أحمد: أن الأستاذ الميمني ذهب به مرة إلى ضريح الشيخ محمد بن يوسف السورتي، ثم أشار إليه وقال: «هذا جبل العلم». كما في مقال الشيخ عمير الإصلاحي.

العربـي كلَّه في صـدره..، وحين التقى به الأستاذ الجندي واستمع لحافظته العجيبة قال ـ كما في كتابه «شهادة العصر والتاريخ»[١] ـ: «وقفت مبهوتاً وأنا أستمع إلى رجل قصير القامة، عذب النبرات، **يروي ما شاء الله له من الشعر ومن المأثور، كأنما قد احتوى الأدب العربي كلَّه في خاطره أو في متناول يده!** وهو لا يروي ذلك عفواً، ولكنه يروي منه ما يتصل بالأحداث والمناسبات والمواقف، كأنما التاريخ يعيد نفسه!».

ثم قال: «كأنما هو ضمير الأدب العربي كلِّه، كان يعرف أسرار الشعر في هذا كلِّه، ويشير إليه كأنما عاش مع هؤلاء جميعاً، وحضر مجالسهم في عُكاظهم ومربدهم، لا تفوته واردة ولا شاردة، ولا إيماءة، يعرف هذا كلَّه في دقة وبساطة، ويرويه في طلاقة تذهل وتروع وتأسر القلوب».

والأعجب من ذلك ـ كما يقول الجندي ـ: «أنه استطاع أن ينسقها في ذهنه ويستشهد بها في كل موقف ومناسبة!».

142 وهذا علَّامة العراق الفقيه المحدِّث الشيخ عبد الوهاب النائب، (المولود سنة ١٢٦٩، والمتوفَّى سنة ١٣٤٥) قال تلميذه الشيخ محمد صالح السهروردي في كتابه «لب الألباب»[٢] عند الكلام عن المترجم له: «.. حفظ ألفية ابن مالك المشهورة لدى النحاة في عشرة أيام، و«مُلحة الإعراب» ـ للحريري ـ في ثلاثة أيام! كما هو مشهور عنه. الأمر الذي استوجب إعجاب العلماء..، ولا يستغرب القارئ هذا

---

(١) (ص ١٥٤ ـ ١٥٩).

(٢) (ص ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣).

عن رجل كان مع شيخوخته وطعنه في السن، واشتغاله في الدَّرس والتدريس، وكثرة اختلاف الناس إليه، **إذا نظر قصيدة مهما كانت صعبة الصوغ، مبهمة النظم والوضع.. حفظها لأول وهلة، ويتلوها عليك من غير مهلة! لذلك تجده حافظاً لأكثر أشعار العرب**، راوية في أمثال أهل الأدب، يشرح لك وقائعهم وما جاء فيها، ويبسط لك مآثرهم وما قيل من أجلها.. فقد كان على جانب عظيم من حفظ متون الحديث، والأصول، والنحو، والصرف، والمنطق، والوضع البديع والبيان، وآداب المناظرة وغيرها.. وكان يجيب السائل بعدة أجوبة من عدة كتب، كما يذكر له مواضعها وأرقام الصحف التي عوَّل عليها، وله بذلك قوة حافظة قوية لم تقف أمامها قوة». «وكان في حفظه للحديث أمراً عجباً؛ حيث يذكر الحديث ويُشير إلى مواطن الضعف من الحديث، ويترجم لرواته» غيباً.

قلت: وكان غايةً في حب العلم، لهذا قال الشيخ محمد صالح السهروردي[1] عند ترجمته لشيخه النائب: «فاستلذَّ العلمَ وطاب له مأخذُه، حتى استغرق في طلبه، وتكبَّد مشاقَّ طرقه، تاركاً النوم ولذائذه، متوخِّياً نِعَمَ موائده وفوائده، حتى أحرز درجة السَّبْق ونال قسطاً عظيماً منه..» وقال: «وكثيراً ما تجده يسرِّح النظر في مطالعة ما وضع من أنواع القواميس، ومختلف المعاجم، لا يضجر من ضخامة المجلَّدات، ولا يتأفف من طويل المقدِّمات، كثير الرغبة في الهوامش والشروح، لا يترك صادرة إلا اغتبطها، ولا واردة إلا وقد أناخ بكلكله عليها..».

---

(١) في كتابه «لب الألباب» (ص١٢، ٤١).

143 وهذا الأستاذ الأديب الكاتب الكبير زكي مبارك، أحد كبار كتَّاب العربية المعاصرين، (المولود سنة ١٣٠٨، والمتوفَّى سنة ١٣٧١) قال الأستاذ أنور الجندي في كتابه «زكي مبارك»[1]: «قد حفظ عدداً ضخماً من قصائد الشعراء، بلغ ـ على حدِّ قوله ـ ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي!. وكان يقول: وأستطيع إنشادها في أي وقت!. ويقول أيضاً: «وما اكتفيت بالثلاثين ألفاً إلا إشفاقاً على طلبة الجامعة!، فقد كانت مختارات البارودي من بعض محفوظاتي، وكنت أحفظ دواوينَ برُمَّتِها من الشعر الفرنسي، وقد حفظت معظم كتاب (تليماك) عن ظهر قلب سنة ١٩١٩م».

ثم يعلِّق زكي مبارك على ذلك بقوله: «ما استطعت ذلك كلَّه؛ لأن ذاكرتي أقوى من سائر الذاكرات، أو لأني أذكى من سائر الناس، وإنما استطعت ذلك لأني لا أعرف المسامحات في صيف ولا شتاء!، ولا أذكر أنني انقطعت عن الدرس في يوم من أيام الدراسة والأعياد، حتى أيام البواخر، قرأت فيها أشياء، وكتبت أشياء!».

144 وقال العلَّامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخه العلَّامة صالح بن مطلق، (المولود سنة ١٣٠٧، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥) ـ حسبما ينقله عنه ابنه الدكتور عبد الرحمن الجبرين في كتاب «أعجوبة العصر»[2]: «شيخنا الشيخ صالح بن مطلق رَحِمَهُ اللَّهُ ضرير البصر،

---

(١) (ص ١٩ ـ ٢٠).

(٢) (ص ١٥٦، ١٥٧).

ولكنه آيـة في الحفظ، كان يحفـظ المقامات..، ويحفظ نظماً أكثر من ثمانين ألف بيت..، وكذلك يحفـظ «زاد المستقنع» بأكمله..، فأُعجبنا بحفظه، ولكن لم نقدر على أن نقرب من حفظه!».

وحين تنـاول الكتـاب[1] الحديثَ عن شـيخه العلّامة القاضي الشـيخ عبد العزيز بن محمد الشـثري «أبو حبيب»، (المولود سنة ١٣٠٥، والمتوفَّى سـنة ١٣٨٧) جاء: «.. كان أديبـاً يحفظ من النَّظْمِ ما يزيد على خمسـين ألف بيت، فضلاً عن الأشعار، والمقامات، والقصص، واللطائف والظرائف، والفوائد والفرائد».

قلت: هذا في جانـب الأدب، فكيف يكون الحال لو حدَّثنا عن حالَيْهما مع حفظ الحديث والأثر؟

145 وجاء في «الأعلام الشـرقية»[2]، في ترجمة الشـيخ محمد بن محمد الجزائري، (المولود سـنة ١٢٧٠، والمتوفَّى سـنة ١٣٤٠): «نشأ يتيماً مكفوف البصر، حفظ القرآن، وأتقن أحكامه بقراءة السبع قراءات، وكان من المشتغلين بالعلم ونظم الشعر، وكان يحفظ في اليوم مئة بيت من الفنون!». يحفظ في اليوم الواحد فقط مئة بيت، فكم حفظ في حياته رَحِمَهُ اللَّهُ ؟

146 وهذا العلّامة المحـدِّث الفقيه الشـيخ عبد الله بن محمد المطرودي، (المولود سـنة ١٣١١، والمتوفَّى سـنة ١٣٦٠) كان ضريراً، وكانت له مهارة خارقة في حفظ الكتب والمتون، ويُروى عنه العجائب

(١) «أعجوبة العصر» (ص٩٥).
(٢) (٥٩٧/٢).

في ذلك، يقول الشيخ محمد زياد التكلة[١]: «وذكر مترجموه عن حفظه للكتب والمتون عجباً، من ذلك ما قاله الشيخ محمد القاضي في «روضة الناظرين»: كان يحفظ «صحيح البخاري» بأسانيده، وكان يهُذّه هذّاً، فلا يتلعثم. ومن عجيب حفظه، أنك متى أردتَ امتحانَه وقرأت السند المسلسل من «صحيح البخاري»، فحذفت أو أخَّرت أو غيَّرت أوقفك، ثم هذَّهُ عليك كأنما يقرأ الفاتحة!». وأفاد الشيخ البسَّام رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الخبر تواتر عنده من زملاء الشيخ وطلابه»[٢].

147 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المولود سنة ١٣٤٢، والمتوفَّى سنة ١٣٧٧)، جاء في كتاب «الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي»[٣] للكاتب سعود السيف: «وعن سرعة حفظه وإتقانه قال لي الشيخ محمد: إنه واللهِ لأُعجوبة من الأعاجيب ما شعرت حتى نبغ وجوَّد وأتقن!».

وبلغ من قوة حفظه أنه كان يحفظ الدرس من مرَّة واحدة!، ولا يقبل الإعادة مرَّة ثانية!، نقل الأستاذ سعود السيف في كتابه المذكور آنفاً[٤] عن الأستاذ محمد السنوسي قوله: «حدثني الشيخ القرعاوي قال: يا بني لقد كنت أعلِّم حافظاً وإخوانه، وأُلقي عليهم الدرس جميعاً، **فكان حافظ**

---

(١) كما في كتابه «فتح الجليل في ترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد الله بن عبد العزيز العقيل» (ص ٤٠).

(٢) وانظر ترجمته في «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للبسام (٥٠١/٤).

(٣) (ص ٢٩).

(٤) «الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي» (ص ٢٥ ـ ٢٦).

يحفظ الدرس من مــرَّة واحدة، أمــا إخوانه فكنت أكــرر عليهم المرة الثانيــة والثالثة، أما هو فكنــت إذا أردت أن أكرر عليــه الدرس قال: يكفيني يا شيخ مرة واحدة!».

وقال الأستاذ سعود السـيف: «حتى صار يطلق عليه الحافظ فشهر بذلك!». وكان شــيخه القرعاوي يقول: فهو على اسمه (حافظ) يحفظ بقلمه وخطه!».

148 وهذا العلَّامــة الفقيه المحدِّث الشــيخ أبو شــعيب[١] بن عبد الرحمٰن الدُّكالي، (المولود سنة ١٢٩٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٦)، جاء في كتاب «شيخ الإســلام أبو شــعيب الدُّكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح»[٢] للدكتور محمد رياض: «أنه كان يقرأ في سورة «طه» فلما وصل إلى قوله تعالــى ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، قرأها: وإنا اخترتــك. فضربه أســتاذه محمد بن المعاشــي بلوح من الخشب ـ يقول ابنه عبد الرحمن: وكانت آثار ذلك اللوح لا تزال تحت حاجبه الأيسر حتى فارق الحياة ـ ففرَّ أبو شعيب، فبلغ ذلك عمَّه ـ وهو الذي تولَّى تنشــئته بعد وفاة والده ـ فقال في قســوة كبيــرة: إذا قتله

---

(١) كنت أظنُّ أنها كنيته ولكن في الحقيقة أن اســمه هكذا! ولقد فتشت في كتب التراجم التي ترجمت له، فوجدتها تذكره بهذا الاســم! يقول الدكتــور محمد صالح (ص٩٧): «والتســمية بأبي شــعيب في ناحية دكالة لها اعتبار خاص، إذ يعدُّ ذلك تبرُّكاً واهتداءً بالولي الصالح «أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي» المعروف بمولاي بوشعيب عند العامة، وهو من أولياء القرن السادس الهجري».

(٢) (ص١٠٢).

لا أُؤاخذه!، يقول ابنه عبد الرحمن: ولكنه ذهــب إلى (دوار) بجانب دوار الصديقات، يقال له (دوار الزرك) فوجد نسخة من «الألفية»، ألفية ابن مالك فحفظها في مدَّة غيابه التي كانت عشرة أيام!، ولمَّا رجع إلى مقرِّه، وتســلَّل حتى اتصــل بوالدتــه ـ رحمها الله ـ وأعطاها نســخة «الألفية»، وقال لها: اذهبي بها إلى عمِّي وقولي له: إذا أنا أمليتها عليه من حفظي هل تكون لي شــفيعاً عنده حتى لا يضربني؟! وذهبَتْ أمُّه عند عمِّه الذي كان مُهاباً، وقالت له: إن ولدي جاء ليعرض عليك هذا الكتاب الذي حفظه، فهل تسامحه؟ فقال: نعم، مئة بيت من ألفية ابن مالك في اليوم شــفاعة مقبولــة! وحضر أمامه وأملى عليــه ألفية ابن مالك، ولم يتلعثم في بيت واحــد منها!، فقال عمُّه: لا بأس. وأمره أن يكتب في اليوم في اللوح أبياتاً من «الألفية» ليشقِّقها ـ شقَّق الكلام: أي أخرجه أحســن مخرج كما في «القاموس» ـ له، ويشــرح معانيها بين السطور. فكان يحفظ اللوحة المكتوبة بكلِّ ما فيها!».

والشيخ أبو شعيب حافظته عجب من العجاب، تكاد لا تفرِّط بشيء دَخَلَها، يقول الدكتور محمد رياض[1]: «حتى إنه كان يحفظ لكل بيت من ألفية ابن مالك عشرة شواهد عليه من شعر العرب، من عشر قصائد يعرف قائلها ومَن قيلت فيه!، كما كان يحفظ الشــيء الكثير من النثر خُطبــاً، وحِكماً، ووصايــا عربية خالصة، لتتمكن نفســه مــن التطبُّع بالعربية السليقة، وفعلاً تمكَّن من كلِّ ما رامه!».

(١) «شيخ الإسلام أبو شعيب الدُّكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح والوطنية مع ذكر ثُلَّةٍ من تلامذته وآثاره» (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

وقال[١]: «وعكــف على حفظ صحيح الإمام البخــاري، وغيره من كتب الحديث، حتى استطاع أن يســتحضر بعد عشرة أعوام (١٠٠٠٠٠) مئة ألف حديث من كلام رسول الله ﷺ. واشــتهر بين شيوخه وأقرانه بحفظه النادر، وكانوا يسمُّونه (الصاعقة)؛ إذ كان يفوز بكل مباراة تنظم في أي علم من العلوم!»[٢]. وكان أيضاً: يحفظ «موطأ مالك».

---

(١) المرجع المتقدِّم (ص١٢٥).

(٢) وهذا شــاهد لذلك يحدِّثنا به عالم فاس وأديبها الشــيخ محمد المختار السوسي أحد تلامذة الدُّكالي فيقول: «كان الأستاذ ـ يقصد الشــيخ أبا شعيب ـ يقرِّر خطبة المختصر ـ أي: مختصر خليــل في فقــه المالكية ـ فبلــغ قول خليــل: «أن ينظر بعيــن الرضا والصواب»، فأورد الدردير البيت الشهير:

وعيــن الرضا عــن كلِّ عيــب كليلة   كما أنَّ عين الســخط تُبدي المَساوِيا

فحكى الشــيخ أنــه جَالَسَ مــرَّة ـ شــيخه ـ الأســتاذ محمد بــن إبراهيم الســباعي (ت: ١٣٣٢هـ)، فقال له: وقد جرى ذِكْرُ البيت، أقول دائماً للناس مَن دلَّني على ثان لهذا البيت أعطيه مئة ناقة!، قال الشــيخ: فقلت له: ومَنْ دلَّك على ثالث؟ قال: أعطيه مئتي ناقة!، ثــم قلت: ومَنْ دلك على رابع؟ قــال: أعطيه ثلاثمئة ناقة!. قال الشــيخ: فقلت: أحضرها، وأحضر أيضاً ما تعطيه لمن أراك قائلَها، وفيمن قيلــت فيه، فداعبته مليّاً، ثم قلت له: إنها لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بــن جعفر بن أبي طالب، يقولها لابن عمِّه الحسين من أحفاد عليٍّ بن أبي طالب، ثم أنشدته:

رأيت حســيناً كان شــيئاً ملففاً   فكشَّــفه التمحيص حتى بدا ليا
أأنت أخي ما لم تكن لي حاجة   وإن نزلت أيقنــت أن لا أخا ليا
فلســت برَاءٍ عيبَ ذي الوُدِّ كلَّه   ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا
فعينُ الرضا عن كل عيب كليلة   كما أنَّ عين السخط تُبدي المَساوِيا

أنشدنا الشيخ الأبيات، غير أن همة الشيخ السباعي على كبر سِنِّه، قد حملته حتى ابتدر إلــى القلم فكتب عنــي الأبيات!، فكان ذلك ســوطاً مُلهِبــاً للهمم، فرأيــت الأعراب الدُّكاليين، والشاويين، والســرغنيين، والرحمانيين، والشــلحيين السوسيين، وقد ابتدر الجميع إلى الأبيات فكتبوها!، وأما أنتم أيها الشباب، فقد رأيتكم تزهدون في الأبيات! =

149 وهذا العلَّامة المحدِّث الفقيه المفسِّر الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني، (المولود سنة ١٣٤٢، والمتوفَّى سنة ١٤٢٢) الذي كان يحفظ دواوين من السُّنَّة بأكملها عن ظهر قلب!. جاء في ترجمته من كتاب «محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله»[1]: «وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ من الأحاديث النبوية ما يزيد على (١٠٠٠٠٠) مئة ألف حديث! فضلاً عن اطلاعه الواسع على كتب الحديث كلِّها!

وحصل مرة أنْ تلاحَى رجلان من أهل العلم من أحباب شيخنا الإمام رضي الله عنه ...، حتى قال أحدهما: امرأتي طالق إن لم يكن شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ أكثر من مئة ألف حديث!، ثم انطلقا إلى المدرسة الشعبانية، لسؤال شيخنا الإمام واستفتائه عما جرى بينهما، فأطرق شيخنا الإمام رضي الله عنه ثم قال للرجل الذي صدر منه لفظ الطلاق: امرأتك لا تطلق!، وأعظك أن تُجنِّب لسانَك ألفاظَ الطلاق والحرام».

= قال السوسي: ثم ألحفنا عتاباً حلواً، ثم لم يحضروا بعد ذلك في الدرس إلا بقلم وورق!».
ويقول الشيخ الدكتور محمد رياض ـ معقِّباً على هذه الحادثة ـ: «تواضع هذا الجهبذ الهُمام ـ أي محمد بن إبراهيم السباعي ـ مع علوٍّ في السن، وعلوٍّ في المقام أن يكتب تلك الأبيات من إملاء تلميذه أبي شعيب الدُّكالي، ولا غضاضة في ذلك، فالعالم لا يصير عالماً حتى يأخذ عمن فوقه، ومن هو في طبقته، وعمن دونه، وتلك شيمة العلماء العاملين المُنصِفين. وانظر كيف كان يربِّي الشيخ أبو شعيب رحمه الله تلامذته، من أمثال الأستاذ النحرير محمد المختار السوسي وغيره، والمثال الأرفع في أخذ العلم، والتمسك به، وكتابته عند سماعه، والتنويه به». «شيخ الإسلام أبو شعيب الدُّكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح والوطنية مع ذكر ثُلَّةٍ من تلامذته وآثاره» (ص ١١٠ ـ ١١١).

(١) (ص ٣٨) والكتاب من تقديم وجمع الأستاذ محمد محيي الدين سراج الدين، وترتيب وضبط الشيخ محمد علي الإدلبي.

قلت: وغاية العجب أنه كان يحفظ الأحاديثَ بألفاظها ورواتها واختلاف رواياتها على ما يقوله تلميذه العلَّامة محمد عوَّامة[١].

هذا إلى جوار المتون الكثيرة التي كان يحفظها عن ظهر قلب، «كألفية ابن مالك»، و«ألفية السيوطي في الحديث»، و«ألفية العراقي في السيرة النبوية»، ونثر الإمام البرزنجي «عقد الجوهر في مولد النبيِّ الأزهر»، و«متن السُّلَّم» في علم المنطق، ومتن «عُقود الجُمان» في علم البلاغة، ومتن «الرَّحَبية» في علم الفرائض، ومتن «الجوهرة» في علم التوحيد، ومتن «المنظومة البيقونية» في مصطلح الحديث، وغيرها.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «كنت لا أحفظ شيئاً جديداً إلا بعد أن أراجع المحفوظ السابق وأتمكَّن منه!»[٢].

150 وهذا العلَّامة الباحث المحقِّق الرحَّالة الجوَّالة الشيخ أبو الوفاء خليل الخالدي، (المولود سنة ١٢٨٢، والمتوفَّى سنة ١٣٦٠)، الذي قال عنه الشيخ العلَّامة علي الطنطاوي ـ كما في «ذكرياته»[٣] ـ: «وهو صاحب المكتبة الكبيرة في داره، وخلاصة أسماء كتبها ومؤلِّفيها والمخطوطات وأمكنة وجودها في ذهنه، فكأن الذي استوعبه ذهنه عن الكتب مكتبة أخرى، بل مكتبات مجموعة!، وهذا الذي أُدهش منه الدكتور عبد الوهاب عزَّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ !».

وعن حافظته الحافلة بنفائس كتب التراث وأصحابها وخطوطهم

---

(١) «رجال فقدناهم» (٩٦٥/٢).

(٢) «إتحاف المحبين بذكر مناقب الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين» (ص ٥٤).

(٣) (٧٢/٥).

وأماكن تواجدها، يحدِّثنا العلَّامة محمد بهجة البيطار، وقد جمعه بالخالدي مجلسُ علمٍ حضره العلَّامة عبد القادر بن بدران، فأخذ ابن بدران بتوجيه الأسئلة إليه، فيقول البيطار ـ كما في تقديمه لكتاب «منادمة الأطلال»[(١)] لابن بدران ـ: «فأخذ الأستاذ بدران يسأله عمَّا رأى من نفائس الكتب الإسلامية الخطية في ديار الغرب، ولا سيما الأندلس، والخالدي يجيب من حفظه بلا تلعثُم ولا تريُّث، كأنما يُملي من كتاب!، وقد كنت معجباً بالسؤال والجواب غاية الإعجاب».

وقال الشيخ محمد بن ناصر العجمي: «.. حتى وصفه صديقه ابن بدران الدمشقي بقوله: «كشَّاف الظنون في أوانه: العلَّامة خليل الخالدي!» وحلَّاه المؤرِّخ عجاج نويهض بقوله: «واعتُبر فهرست المخطوطات الماشي في أهم مكتبات الشرق والغرب!»»[(٢)].

ويقول الأستاذ يعقوب العودات متحدِّثاً عن حافظة الخالدي: «ومن دواعي الاعتزاز والذهول، أن الشيخ الخالدي **كان يجيب بكل هذه المعلومات عن ظهر قلب عَفْوَ الخاطر، ومن حافظة لا يعلم إلا الله كم تعي من العلم والأجوبة!**، وهذا والله هو العنصر الأثمن والأنفس في مادَّة العلماء الحقيقيين أمثال الشيخ خليل»[(٣)].

والأخبار في هذا الجانب كثيرة، وأكتفي بما تقدَّم.

* * *

---

(١) (م/ص).
(٢) «الشيخ الرحَّالة خليل الخالدي المقدسي» للدكتور محمد خالد كلَّاب (ص٦ ـ ٨).
(٣) المرجع السابق (ص٧١ ـ ٧٢).

الفصل السابع

في همَّتهم في كثرة الدروس العلمية، وأعمالهم اليومية

151 طالب العلم صاحب عزيمـــة ماضية وهمة عالية، لا يلين له عزم، ولا تهدأ له عريكة، وليس في وقته فراغ ولو للحظة واحدة، فهو شعلة في البذل والنشاط، وغاية في التفاني والعطاء، يبذل جهداً كبيراً، ســواءً كان عالماً أو متعلِّماً أو معلِّماً، لهذا لا تجد في جدول نشــاطه المُثخَن بالأعمال تباطؤاً ولا تراجعاً، فدروســه تغطي يومه من شقشقة الفجر وحتى منتصف الليل البهيم، وهكذا لا يهدأ أبداً.

هذا، وقد وقفت أثناء البحث والمطالعة في سِــيَرِ علمائنا، وتراجم عظمائنــا، على صور مشــرقة لجهــود ضخمة مذهلــة، تعكس عظيم ما بذلوا، وصــدقَ ما عزموا، بأعمال كبيرة قاموا بهــا تعجز عن أدائها عُصبة من الرجــال أولي القوة والبأس الشــديد، وتحتــاج لها صحة سليمة، ونفس مضيَّة، لا تعرف الخور أو التعب!

وقد وجدت رجالاً أخذ العلمُ جُلَّ جهدِهم، وأغلب وقتهم، تعليماً وتدريســاً؛ حيث يبدأ نهارهم من درس إلــى درس، ومن طلبة تدخل وأخرى تخرج، هــذا يقرأ عليه، وهذا يراجع معــه أو يحقِّق بين يديه، وآخر يسأل ويستفسر..، وما إن ينتهي من درس التفسير إلا ويدخل في

مجلس التحديث، فـإذا ما انتهى منه دخل فـي درس الفقه، ومنه إلى اللغة..، وهكذا يظلُّ حتى الليل يعطي من غير ملل ولا كلل، وربما مرَّ على عطائه هذا أعوام مديدة! ومن هؤلاء:

152 العلَّامة الفقيه المحدِّث الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار الحجازية، (المولود سنة ١٣١١، المتوفَّى سنة ١٣٨٩)، ترجم له تلميذه الشيخ العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي»(١) فقال: «ولما توفي الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، عيَّن الملك عبد العزيز: الشيخَ محمد بن إبراهيم خَلَفاً له في الإفتاء والتدريس وإمامة المسجد مسجدِ عمه في حيِّ دُخْنَة..، وصار مرجعَ الناس في الإفتاء، وإماماً للناس في الفروض الخمسة في مسجد الشيخ، وشيخَ العلم والتعليم فيه أيضاً، فكان يجلس فيه لطلبة العلم من بعد صلاة الفجر حتى بعد صلاة العشاء! تَقرأ عليه الأفواج في جملة من العلوم الشرعية والعربية، وهو بين ظَهْرانيهم مَعِينٌ لا يَنْضَب، ونَشاط لا ينقطع، وعلم لا ينحسر، ودَأَب عجيب دائم، لا يُغني هذا الكلام عن تصوُّره حقيقة، ولذا سأدع الحديث هنا لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف، إذ يقول في ترجمته في كتابه «مشاهير علماء نجد»(٢): كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى إذا صلَّى الفجر، جلس في المسجد يقرأ عليه صغار الطلاب في كتاب «الآجرومية» في النحو، وبعدهم يقرأ عليه متوسطو الطلبة في كتاب

(١) (ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦).
(٢) (ص ١٧٠).

«القَطْر» لابن هشام في النحو، وبعدهم يقرأ عليه كبار الطلبة في «ألفية ابن مالك»، وشرح ابن عقيل عليها في النحو أيضاً. فإذا انتهَوا من قراءة النحو، قـرؤوا عليه في الفقه من متـن «زاد المُسْـتَقْنِع» غَيْبَاً، فإذا قرأ آخرهم وسكت، أخذ الشيخ في إعادة ما قرؤوه من المتن من **حفظه**!، وشرع يتكلم على العبارات، ويُوضِحُ معاني الكلمات، فإذا انتهى شرع أحد الطلاب في قراءة شرح «الزاد» المسمَّى: «الروض المُربع شرح زاد المُسْتَقْنِع»، قراءةَ ترتيل، يقف عند كل فِقرة وجملة، والشيخ يعلِّق على عبارات الشارح وجُمَله، بكلام يوضح المعنى ويزيل الإشكال، ويُصوِّر المسائل تصويراً ملموساً، فإذا انتهى من تقريره على الفقه، شرعوا في القراءة عليه في «بلوغ المرام»..، فإذا حانت السـاعة الثالثة، جاءه كبار الطلبة وخواصُّهم وقرؤوا عليه، فإذا أُذِّن للظهر خرج وصلى بالناس في المسـجد، ثم جاءه أهل المطوَّلات وقرؤوا عليه فـي مختلف الكتب «كجامع الترمذي»، و«صحيح البخاري»، و«زاد المعاد»، فإذا انتهَوا قرأ عليه بعض الطلبـة في المتون العلميـة غيباً، مثل «كتـاب التوحيد»، و«العقيدة الواسطية».

فـإذا أُذِّن للعصر جدَّد الوضـوء وصلَّى بالنـاس، ثم جلس في المسجد يَقرأ عليه أحد أعيان الطلبة في بعض الردود، فإذا انتهى قَرَأَ عليه جملةٌ من الطلبة في مصطلح الحديـث، فإذا انتهَوا قرؤوا عليه في «العقيدة الحَمَوية» لشيخ الإسـلام ابن تيمية، فإذا أُذِّن للمغرب جاء وصلَّى بالناس ثم جلس في المسجد للطلبة، يقرؤون عليه علم الفرائض والمواريث، فإذا حان أذان العشـاء، قـام من حلقة درس

الفرائض إلى الصف الأول في المسجد، وتنفَّل بركعات، ثم أمر القارئ فشرع يقرأ عليه في «تفسير ابن كثير»، فإذا انتهى أمَر بإقامة صلاة العشاء فإذا أُقيمت وصلَّى بالناس تنفَّل وأوتر، وخرج إلى داره وهي قريبة من المسجد.

وقد استمر على هذا الترتيب في الدروس بهذه الصفة، إحدى وأربعين سنة!، من عام ١٣٣٩ إلى عام ١٣٨٠».

قال العلَّامة عبد الفتاح معلِّقاً: «وهذه حقبة كبيرة من الزمن في عمر الرجل العالِم ٤١ عاماً: تعليماً وتدريساً وتفقيهاً وتحديثاً، فلقد كان الشيخ (أُمَّةً) في جسد رجل، وكان مسجده (جامعة) في قلب نجد، ملأت بلاد نجد وغيرَها علماً، وأنارتها بعلوم الشريعة».

وقال ـ تعقيباً ـ الشيخ عبد الله بن سليمان: «وبهذا يتضح أن سماحته رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقضي ما لا يَقلُّ عن سبعَ عشرة ساعةً، لا تقطعها إجازةٌ، ولا يحول دون القيام بها أيُّ تعلُّل من تعلُّلات الآخرين!».

ولم تكن جهود الشيخ قاصرةً على التعليم، بل كان ينهض بمسؤوليات كبيرة وكثيرة.

وإذا كانت النفوس كباراً تَعِبَتْ في مُرادها الأجسام

153 وهذا الداعية الهمام والمجاهد الكبير العلَّامة الإمام عبد الحميد بن باديس، (المولود سنة ١٣٠٧، والمتوفَّى سنة ١٣٥٨)، الذي بارك الله له في وقته، حيث بلغت دروسه اليومية ـ فقط ـ (١٥) درساً! جاء في كتاب «عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم

السياسي»[١] للأستاذ مازن مطبَّقاني: «فكان رَحِمَهُ اللَّهُ رجل عِلم ونظام، يحافظ على أوقاته، فكان برنامجه اليومي مما يصعب على الكثير أن يقوم به، حيث يبدأ نهاره من قبيل صلاة الفجر، بالمرور على مساكن طلاب الجامع الأخضر، ليتأكد من استيقاظهم لأداء صلاة الفجر، وبعد الصلاة يشرع في التدريس حتى الشروق، فيتناول إفطاره، ويعود إلى التدريس حتى صلاة الظهر، ثم يعاود التدريس من صلاة العصر حتى ما بعد صلاة العشاء.

وقد بلغت الدروس التي يُلقيها في اليوم الواحد خمسة عشر درساً!

بالإضافة إلى اشتغاله بالتعليم فقد ساهم في إنشاء المدارس والمؤسسات الخيرية، وجمعيات التجار وجمعيات الكشافة، والجمعيات الرياضية والفنية وكثير غيرها. كل هذه الأعمال الكبيرة كانت تقوم بها نفس كبيرة!».

154 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[٢] للعلَّامة عبد الحي الحسني، في ترجمة أحمد بن حسن الكانپوري، (المتوفَّى سنة ١٣٢٢هـ): «الشيخ الفاضل العلَّامة أحمد حسن الحنفي البطالوي ثم الكانپوري أحد العلماء المشهورين في كثرة الدرس والإفادة..، مواظباً على الاشتغال والإقبال على الإقراء، صبوراً، مُديم التدريس من غير ملل ولا ضجر، وإني لا أعلم أحداً اشتغل بالتدريس كما اشتغل به هذا الحَبْر، كان يدرِّس الكتب الدقيقة في المنطق،

---

(١) (ص ٤٢).

(٢) (١١٨٠/٨).

والحكمة، والأصـــول، والكلام، ويباحث في المســـائل العويصة، من علوم متعدِّدة، زيادة على خمسة عشر درساً في كل يوم!».

155 وهـــذا العلَّامة الفقيـــه القاضي الشـــيخ عمر بن محمد بن عبد الله بن سليم، (المولود سنة ١٢٩٨، والمتوفَّى سنة ١٣٦٢)، الذي كان يقضي جُلَّ يومه في التدريس والتعليم، ترجم له الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ في كتابه «مشاهير علماء نجد وغيرهم»[١] فقال: «طريقة دروســـه: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا صلَّـــى الفجر جلس لطـــلاب العلم في المسجد المذكور ـ مسجد ناصر بن ســـليمان بن سيف بمدينة بريدة ـ يقرؤون عليه في النحو: الآجرومية، والقَطْر، ومُلحة الإعراب، والألفية، فإذا طلعت الشـــمس، خرج إلى داره للاستراحة، وتجديد الوضوء، ثم يرجع إلـــى المســـجد، ويصلي تحية المســـجد، ويجلس فـــي ناحيته الشـــرقية، ثم يشـــرع الطلبة يقرؤون عليه في مختلف العلـــوم حديثاً، وفقهاً، وتوحيداً، وأصولاً، فإذا فرغ من التدريس ذهب إلى داره لتناول الغداء، ثم جلس في داره للقضاء بيـــن المتحاكمين من الخصوم، فإذا أُذِّن الظهر خرج إلى المسجد، وصلَّى النافلة، ثم المكتوبة، فالنافلة، ثم جلس للتدريس إلى قريب العصر، ثم رجع إلى داره، فإذا أُذِّن للعصر خرج إلى المسجد، وصلَّى بالجماعة، ثم جلس بعد العصر للطلبة في أصول الفقه، وبلـــوغ المرام، ومصطلح الحديث، ثـــم يخرج ويجلس للناس للقضاء بينهم في داره إلى أذان المغرب، فإذا أُذِّن للمغرب خرج إلى المســـجد وصلَّى بالناس، وبعد صلاة المغرب يجلس للطلبة في

---

(١) (ص ٣٥٨، ٣٥٩).

الفرائض والمواريث، فإذا أُذِّن للعشاء، قام من الحلقة إلى الصف الأول، وشرع القارئ يقرأ عليه في التفسير، ثم أقيمت صلاة العشاء، فإذا صلَّى العشاء ثم النافلة والوتر ذهب إلى دار عبد العزيز بن مشيقح للقهوة، ودرس عليه هناك بعضُ الطلبة وعددهم نحو الخمسة عشر طالباً، ثم ذهب إلى داره، فهذه طريقة دروسه وترتيبها مدة حياته، وكان إلى جانب ذلك يتعاطى أسباب البيع والشراء كالسلم في الثمار من الحنطة والتمر. فوسَّع الله عليه في الرزق».

وقد رثاه الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الديار السعودية بهذه الأبيات الأربعة:

إن المصيبة حقاً فَقْدُنا عمراً ... أعظِم بميتته رِزْءاً بنا كَبُرا
قطب القصيم وما دون القصيم وما ... خلف القصيم وما مجرى القصيم جرى
عليه دارَ الهدى والحقَّ بيَّنه ... كان الحياةَ وكان السمعَ والبَصرا
ارزقه يا ربَّنا عفواً ومغفرةً ... واجْبُرْ مصيبتَنا يا خيرَ مَن جَبَرا

156 وهذ العلَّامة المفسِّر اللغويُّ المحدِّث الشيخ محمد الأمين بن عبد الله الهرري ثم المكي، (المولود سنة ١٣٤٨، والمتوفَّى سنة ١٤٤١) جاء في ترجمته المذكورة في مقدمة كتابه «الكوكب الوهَّاج والروض البهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج»[1]: «وكان قليل النوم في صِغَرِه إلى كِبَرِه، حتى كان لا ينام غالباً بعدما كَبُر إلا أربع ساعات من أربع وعشرين ساعة، لكثرة اجتهاده في مذاكرة العلم..، وكان يدرِّس من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء الآخرة نحو: سبع

(١) (١/٨، ١٠).

وعشــرين حِصَّة من حصص الفنون المتنوِّعة!، وكان يُحيي ليلَه دائماً بكتابة التآليف، وبما قدَّر الله له من طاعته».

157 وهذا العلَّامــة الأديب اللغويُّ حســن المــدوَّر البيروتي، (المولود سنة ١٢٧٩، والمتوفَّى ســنة ١٣٣٢)، ذكره العلَّامة أحمد تيمور باشا وترجم له في كتابه «أعلام الفكر الإســلامي»[١] فقال: «رحل إلى مصر، واشتغل بالحضور في الأزهر على شيوخه، ومنهم الأستاذ الشيخ محمد عبده، ثم عاد إلى بيروت، وشــرع في الإقراء، فكان يُقرئ كل يوم (١١ درساً) بلا انقطاع!».

158 وهــذا العلَّامــة الداعيــة المجاهــد الإمام محمد البشــير الإبراهيمي، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥) صاحب العطاء العظيــم، والتفاني الكبير، جاء في ترجمته في «النهضة الإســلامية»[٢] للدكتور محمد رجب البيومي: «لقد قال البشير عن نفسه: إنه كان يلقي عشــرة دروس في اليوم الواحــد! يبتدئها بــدرس الحديث بعد صلاة الصبح، ويختتمها بدرس التفسير بين المغرب والعشاء!».

قلت: إضافة إلى هذه الدروس العشرة، كان ينصرف بعد الصلاة الأخيرة إلى بعض النوادي الجامعة ليُلقــي محاضراتٍ في التاريخ الإســلامي. قال البيومي[٣]: «حتى كان يصل الليل بالنهار دون نوم في بعض ليلات الأسبوع!».

---

(١) (ص ٣٠٠).
(٢) (٢٦٦/١).
(٣) «النهضة الإسلامية» (٢٦٧/١).

ويقول الإبراهيمي نفسه كما في كتاب «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»[(١)]: «**إن أنفع الأعمال لأُمَّتنا الجاهلة هو التعليم والإنقاذ من شرِّ الأُمِّية، وأنَّ ألف جائع تُطعمهم، وألف عارٍ تكسوهم، لا يُغنون عن الأُمَّة غَناءَ عشرة تلاميذ تعلِّمهم تعليماً نافعاً، وتربيهم تربية صالحة!**».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقوم بهذه الدروس بجوار أعماله الأخرى والكبيرة، فهو يواصل الجهد في محاربة الاحتلال، وإنشاء المدارس ووضع المناهج، ويرأس تحرير جريدة البصائر، ويدير جمعية العلماء، ويقوم بالصلح بين الجماعات المتخاصمة في ربوع البلاد وغيرها.

159 وقال الشيخ يونس إبراهيم السامرائي في كتابه «تاريخ علماء سامراء»[(٢)] في ترجمة العلَّامة الفقيه الشيخ أحمد بن محمد الراوي، (المولود سنة ١٣٠٠، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥): «هو الإمام الجليل والعلَّامة الفاضل السيد أحمد بن محمد أمين الراوي، لقد كرَّس حياته كلَّها في خدمة الإسلام، فعندما عُيِّنَ مدرِّساً في المدرسة العلمية الدينية في سامراء، لازم المدرسة ليل نهار، فقد كان يدخلها بعد صلاة الفجر، فلا يخرج منها إلا بعد صلاة العشاء، فكان يدرِّس الطلاب ويُفتي ويقضي بين الناس!».

160 وهذا محدِّث الشام الأكبر العلَّامة الشيخ محمد بدر الدين الحسني، (المولود ١٢٦٧، والمتوفَّى سنة ١٣٥٤)، جاء في «البحر العميق»[(٣)]،

---

(١) (٥٧٠/٣).

(٢) (ص ١٦).

(٣) (٢٣٥/١).

في ترجمته: «فإنــه كان يخرج من منزلــه قبيل الفجر إلــى دار الحديث، فيصلِّي بها الصبح ويطلع إلى غرفته، فيستمر طول النهار يدرس مع الطلبة هذه العلوم، تارة مع اثنين وتارة مع واحد إلى الغروب، وهذا كان دَأبه!».

وفي رسالة «الشــيخ بدر الدين الحســني محدِّث الشام الأكبر»[1]: «ولكن الحق أنَّا لا نعرف.. مَنْ يقرأ للطلاب مثله طول حياته. كل يوم خمس عشرة ساعة أو أكثر!».

وقال الشيخ علي الطنطاوي[2]: «ما ترك الدرس قط ولا يوم وفاته! وما تركه إلا ساعة احتضاره!»، «ولقد كان موعد درس من دروسه قبل وفاته بســاعتين، فلما رأى الطلبة ما به همُّوا بالرجوع، فأشــار لهم أن يقرؤوا وهو يستمع!».

161 وجاء في كتــاب «إقراء ـ ملتقى كبار القــراء»[3] في ترجمة العلَّامة المقرئ الشيخ عامر السيد عثمان شيخ عموم المقارئ المصرية، (المولود سنة ١٣١٨، والمتوفَّى ســنة ١٤٠٨): «وقد شغلت هذه المقارئ أيامه كلَّها، وكان لا يترك الإقراء حتــى ازدحم الناس للقراءة عليه، فله مجالس إقراء في المقارئ، وإقراء في البيت، ومجالس إقراء أخرى في الطريق، وإقراء في العزيمة والوليمة وغير ذلك، حتى إنَّه كان يقرئ في وقت انتظاره وانتقاله من مكان إلى آخر، إنه ما حلَّ في مكان إلا وحلَّ معه الإقراء!».

---

(١) (ص١٠).

(٢) كما في كتابه «رجال من التاريخ» (١٣٤/٢، ١٣٨).

(٣) (ص٣٢١).

«ولقد طلب منه تلميذه الشيخ إبراهيم الأخضر بن علي القيم ـ شيخ القرَّاء بالمسجد النبوي ـ وقتاً للقراءة، فأجابه قائلاً: لا أجد لك وقتاً إلا قبل الفجر بساعتين!»(١).

وكان من طلابه وزير الصحة المصري إبراهيم بدران، وكان يملك مستشفى فخماً ومجهَّزاً بأحدث التجهيزات، وحين مرض الشيخ عامر أمر بنقله إلى مستشفاه، وفرَّغ له أحسن جناح في المستشفى، يقول الدكتور عبد الله بن محمد الجار الله: «وتحول الجناح إلى مقرأة يقرأ فيها الطلاب، كما يقرأ فيها الأطباء وجهاز التمريض، حتى كاد المستشفى أن يتحول إلى مسجد، أو كلية شرعية، من كثرة الواردين من أهل العلم والفضل والطالبين والمقرئين!». بل جعل الدكتور إبراهيم بدران لهذا الجناح باباً يفتح على الشارع، ليكون أيسر لدخول زوَّار الشيخ وطلابه!(٢).

ولقد كان الشيخ عامر عثمان شمولياً في إقرائه ومقارئه، حتى قال عنه الشيخ عبد الفتاح القاضي: «إن الشيخ عامر لم يبق أن يُقرئ إلا المسيحيين!»(٣).

قلت: ولقد فعل ذلك، قال الدكتور عبد الله بن محمد الجار الله فيما جاء عنه في «إقراء ـ ملتقى كبار القراء»(٤): «وممن أفاد منه وتتلمذ عليه

---

(١) «إقراء ـ ملتقى كبار القراء» (ص٣٤٥).
(٢) المرجع السابق (ص٣٥٣).
(٣) المرجع السابق (ص٣٥٠).
(٤) (ص٣٤٨).

من النساء: السيدة (كريستينا نلسون) وهي امرأة غير مسلمة!، متخصصة في الدراســات العربية، وقد حضرت من ولايــة (كاليفورنيا) لتدرس القرآن بطريقة ســليمة مجوَّدة، وقد تكرر حضورها للشيخ عامر مرَّات كثيرة!، وسَمِعَتْ القرآن من صوته، وســمعت منه منهجه وطريقته في التلقين والتدريس والإقراء».

وفي خضمِّ هذا العطاء العظيم، والتفانــي الكبير في إقراء القرآن وتعليمه، كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كثير العبادة لا يُرى إلا في نافلة أو فريضة!، حتى قال الشيخ عبد الفتاح القاضي: «أنا لا أعرف عامراً، إلا مصلِّياً أو متنفِّلاً!»[١].

162 وجاء في ترجمة العلَّامة الكبير المقرئ الشيخ عبد الوهاب الحافظ الملقَّب (بدبس وزيت) شيخ قرَّاء دمشق، (المولود سنة ١٣١١،

---

(١) قلت: سبحان الله! مع ضخامة الجهد الذي كان يبذله، وهذه الشهرة التي طبَّقت الآفاق، لم يتخذ القــرآن حرفةً يتربَّــح بها، ولا وظيفة يســترزق منها، بل كان راتبه الشــهري جنيهين، ثم زاد إلى خمسة جنيهات فقط!، يقول تلميذه الوزير إبراهيم بدران: «كنا في اجتماع مجلس الوزراء، وفي فترة استراحة ســألت وزير الأوقاف الشيخ محمد متولي الشعراوي: هل تعرف الشــيخ عامر الســيد عثمان؟ قال: وهل هناك من لا يعرف عامر السيد عثمان! ثم أردف قائلاً: إنه ـ أي الشيخ عامر ـ (قرآن لابس جُبَّة!)، فقلت له: هل تعلم كم راتب هذا القرآن اللي لابس جُبَّة؟! قال: لا، فقلت: إن راتبه خمســة جنيهات، وأشرت بيدي ولم أتكلم! فوضع الشيخ متولي الشــعراوي يده على رأسه وقال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، واللهِ إني مقصِّر مع هذا الشيخ الجليل (رأس أهل القرآن)، وأخشى أن يمسَّــني العقاب بهذا التقصير!، ثم أمــر بزيادة راتبــه». «إقراء ـ ملتقى كبــار القراء» (ص ٣٥٧). فأهل القرآن لا ينتظرون معونةً أو مالاً من أحد، وإنما يرجون الأجر والثواب من الله.

والمتوفَّى سنة ١٣٨٩): «وقد أحبَّ الشيخ رحمه الله تعالى أن ينقطع للعلم، وللعلم وحده، فقبل بوظيفة التدريس في مساجد دمشق..، وكان يلقي في اليوم ما يزيد على عشرة دروس؛ بين فقه، وأصول، وتصوُّف، ونحو، وتجويد، وحديث، وغير ذلك». كما في كتاب «رجال فقدناهم»[1].

وقال الشيخ هشام البرهاني في ترجمته للشيخ[2]: «وقد بلغ متوسط الساعات ـ متوسط الساعات فقط! ـ التي يلقيها يومياً على مدار السنة عشر ساعات في اليوم في أيام نشاطه، وست ساعات في أيامه الأخيرة مع شدَّة المرض وضعف الجسم، وقد قرأ فيها كتباً كثيرة، في فنون متعددة..، وقد بلغ الجهد من الشيخ مبلغاً عظيماً يكفي عشر أعشار لموظف يعمل للراتب.. لكن رحمه الله كان يتكلَّف الخَطْوَ ويحمل ثقل الثمانين عاماً ليجلس أمام طلابه ويقرر لهم مسائل العلم.. وإذا قيل له: لو أرحت نفسك يا سيِّدي هذا اليوم؟ قال: واللهِ ما عندي على التقرير من قوة، لكني أطلب ألَّا ألقى الله إلا وأنا طالب علم!».

163 وقال الأستاذ محمد سعيد الفيومي في ترجمة فقيه الشافعية وأستاذهم العلَّامة الشيخ محمد صالح العقَّاد الملقَّب (بالشافعي الصغير)، (المولود سنة ١٣١٠، والمتوفَّى سنة ١٣٩٠): «انصرف بكليته لخدمة العلم من الصباح الباكر حتى المساء المتأخِّر دون أن يقطعها حتى ولا ليلة زفافه أو زفاف أحد من أبنائه الثلاثة الوحيدين!». وقال تلميذه الشيخ محمد الصباغ: «فهو لا ينتهي من درس حتى يستقبل

---

(١) (٤٦٢/١).

(٢) مقالة بعنوان «فضيلة العلَّامة الكبير الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت» (ص٥، ٦) وهو منشور على موقع (نسيم الشام).

مستفتين، ولا يودِّع هؤلاء حتى يبدأ درساً جديداً، بهمة عالية لا تعرف الكلل، وعزيمة لا تفتر على مدى الأيام. ظلَّ قرابة خمسين سنة على طريقة جادَّة في الدرس والتدريس، يفتتح يومه بدرس قبل الشمس، ثم يأتي درس الضحى في بيته، ثم درس الظهر في (النورية)، وكذا درس العصر في غرفته..، ويصلِّي المغرب في الصالحية في جامع الشيخ محيي الدين، ثم يجلس لقراءة القرآن وتدريس العلم حتى العشاء الآخرة!». كما في كتاب «رجال فقدناهم»[١].

164 وجاء في كتاب «إقراء ـ ملتقى كبار القراء»[٢] في ترجمة المقرئ الشيخ العلَّامة محمد بن صالح الجوَّادي، شيخ القرَّاء في الموصل، (المولود سنة ١٣٠٢، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣): «لم يدع وقتاً إلا اهتبله بالإقراء والتعليم!». وقال تلميذه الشيخ يونس إبراهيم الطائي[٣]: «كان يقول: إن التقرئة هي حياتي!».

ثم أشار الشيخ إبراهيم المشهداني إلى عطائه الذي استمر إلى سنوات طويلة، فقال: «إذ جلس للإقراء والتدريس أكثر من سبعين سنة، حتى قال فيه الشاعر المؤرِّخ حسين الفخريُّ:

نادمَ القرآنَ سبعينَ فما وهنَ العزمُ ولا كلَّ النديم

165 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ محمد الحامد الحَمَوي، (المولود سنة ١٣٢٨، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩)، صاحب الهمة العالية في

---

(١) (٤٧١/١، ٤٨٣).

(٢) (ص٥٤٦).

(٣) «إقراء ـ ملتقى كبار القراء» (ص٥٧٩).

طلب العلم والتحصيل، والتطواف على دروس العلماء والجلوس بين أيديهم لاستماع العلم، وتقييد الفوائد.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجوار دراسته النظامية في «المدرسة الشرعية» بحماة، ولم تكن دروسها كافية له، بل كان يتردد صباحاً ومساءً - كما يقول تلميذه عبد الحميد طهماز[١] - على الدروس العلمية الخاصة التي كان يعقدها بعض الشيوخ في المساجد لخواصِّ طلابهم، حتى بلغ عدد الحلقات العلمية التي كان يحضرها تسع حلقات في اليوم!

166 قلت: وكان العلَّامة الفقيه الأصولي الشيخ محمد بن أبي بكر الملَّا الحنفي الأحسائي، (المولود سنة ١٣٢٢، والمتوفَّى سنة ١٣٩٥) يقول: «كنت أحضر إحدى عشرة حلقة في الحرم في مختلف الفنون!»[٢]. وكان صاحب جِدٍّ واجتهاد في تحصيل العلم الشرعي.

وإنني أذكر هذا ليُدرك شبابنا اليوم حجمَ الجهاد الضخم الذي بذله علماؤنا، ليكون ذلك لنا ولهم حافزاً ومنشِّطاً كي نسلك طريقهم ونتأسَّى بمنهجهم في تحصيل ما حصَّلوا من العلم، وتكوين ما كوَّنوا من المعرفة التي بها أصبحوا أئمةً يُقتدى بهم ويُهتدى بهَدْيِهم.

* * *

---

(١) «العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» (ص١٩).

(٢) كما في ترجمته في مقدمة كتابه «اللفظ المعقول في بيان تعريف الأصول» (ص٦).

الفصل الثامن

في همَّتهم في الرحلة والتطواف في طلب العلم، وجمع الكتب والمخطوطات

167 غلاء العلم يدفع صاحبه، بل محبَّه، إلى تحمُّل الصعاب، وركوب المخاطر والأهوال، وبذل الغالي والنفيس، وربما فارق الأهل والولد والزوجة والأنيس، وقطع المسافات الشاسعة في الفيافي والقفار، ما بين طرفي المعمورة شرقها وغربها، يرحل ـ وقد ترك كلَّ هذا خلف ظهره ـ ليأخذ العلم عن الشيوخ، فلا يمنعه شحُّ النفقة، أو قلة الزاد، ولا وحشة الغربة، أو وحدة الطريق وظلمة الليالي...، كل ذلك يهون أمام العلم، الذي لا شيء يُساميه ولا مرغوب يساويه، تفنى من أجله الصحة والراحة، بل والنفس أيضاً، ويهون لأجله التعب، والعطش، والفقر، وسهر الليالي، وعناء البحث، وطول المطالعة...، فإذا ما وقف على حلقات الشيوخ، ومجالس العلم، يدوِّن الفوائد والعلوم من أفواه العلماء، ويجمع نوادرهم وتجاربهم، ويقرأ عليهم المصنَّفات المهمَّة قراءةَ ضبطٍ وتحقيق...، ثم تجده كالنحلة يتنقَّل من شيخ إلى شيخ، ومن بلد إلى بلد، يقرأ هنا كتاباً، وينسخ هناك ديواناً، وهكذا، من غير فتور أو كلل، ثم تراه يتجول بين الخزانات، ودور الكتب والمكتبات، يفحص وينقِّب ويفلي ويدوِّن، يقتنص الشوارد ويسجل النوادر والغرائب، ثم يعود بحملِ بعيرٍ من الكتب

والمخطوطات، هذا عدا العلم الذي وعــاه في صدره، وقد هانت في مقابلها المتاعب والشــدائد، وتبدَّدت أمامها المصاعب والنوائب. ثم تجد نفسه منشرحة مســرورة، وهمته في أَوْجِ قوتها، وعزيمته لا نظير لها في التفاني والبذل والعطاء!

وأنا أكتب هــذا وأعلم، أن الرحلة فــي وقتنا هذا (وقــت الطائرة والسيارة والقطار)، تختلف عن الرحلة قبل مئة عام، وهي تختلف عن الرحلة قبل ألف عام، ذلك أن الرحلة عند الأولين كانت فيها «وســيلة الارتحال والانتقال هــي (القدم) وحدهــا عند المُمْلِقِيــن، و(الدَّابة) المُضنية عند الموسِــرين، وما أقلهــم في أهل العلم» علــى ما يقوله العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

ومع هــذا وجدت فــي عصرنا هذا مــن اعتمد علــى (القدم) في الرحلة! ومَنْ استعان (بالدَّابة) في الطلب! ـ كما ستراه قريباً ـ والقاسم المشــترك بين الأول والآخِر هو: لذَّة العلم ومتعة الاستزادة منه! التي تهون أمامها كل الصعاب!

ووقفت في عصرنا أيضاً: على مَن رحل مراراً حتى دخل عشــرات المدن، وصار إلى مئات القرى! بعضهم يبحث عن الشــيوخ، كالشيخ عبد الفتاح أبي غدة (ت: ١٤١٧هـ) وغيــره، وبعضهم الآخر يبحث عن نفائــس المخطوطات ونــوادر الخزانات، كالشــيخ خليــل الخالدي (ت: ١٣٦٠هـ)، وأحمد زكي باشا (ت: ١٣٥٣هـ) وغيرهما.

---

(١) «صفحات من صبر العلماء» (ص٩٠).

ووجدت مَن شغله العلم والرحلة في تحصيله عن الزواج حتى مات ولم يتأهل لذلك!

ووقفت على مَن قضى سنين طويلة بين الأقطار، في البحث حول كتاب واحد، يجمع شتات جلداته المنتشرة في متاحف الشرق والغرب، لِيكوِّن منه نسخة فريدة لا ثاني لها في العالم!، كما هو الحال مع كتاب «نهاية الأرب في فنون العرب» الذي مكث الرحالة أحمد زكي باشا في لمِّ شمله أكثر من أربعة عشر عاماً!

ووقفت على مَن رحل في طلب النص، أو تحقيق مسألة على نحو ما فعل العلماء المسلمون في العهد الغابر، كما ستراه في خبر العلّامة اللغويِّ محمود التُّرْكزي الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ووجدت، ووقفت على أشياء، وأشياء غريبة حقاً.

وإليك سرد بعض ما وقفت عليه من أخبارهم:

168 فهذا العلّامة الباحث المحقِّق الرحَّالة الجوَّالة الشيخ أبو الوفاء خليل الخالدي، (المولود سنة ١٢٨٢، والمتوفَّى سنة ١٣٦٠)، الذي طاف الشرق والغرب في طلب العلم، والكشف عن المخطوطات النادرة، وجلب الكتب النفيسة، والمولع ـ كما يقول الأستاذ يعقوب العودات ـ بالرحلات الطويلة الشاقة، وبلغ به ولعه في هذا المضمار، إلى حد أنه استطاب شدَّ الرحال إلى العالمَين العربيِّ والإسلامي شرقاً وغرباً، وطاف في دور الكتب القائمة في العواصم الإسلامية، والعواصم الغربية، ووقف على ما في تلك الخزانات وما احتوته من كتب مخطوطة، وآثار محفوظة، ونُسَخٍ شاردة[1].

(١) «الشيخ الرحَّالة خليل الخالدي المقدسي» للدكتور محمد خالد كلَّاب (ص ٧١).

ولم تقف رحلاته على العالم العربي والإسلامي فقط، لا بل تجوَّل في غيرهما شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، حتى إن الدُّكتور محمد خالد كلَّاب في كتابه «الشيخ الرحالة خليل الخالدي المقدسي»[١] قال: «**رحَّالة طاف الدُّنيا!** من أجل الوقوف على تراث أُمَّته، وبَذَلَ الغالي والنفيس في سبيل معرفة نوادرها التراثية!».

وترجم له ترجمة نفيسة العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «العلماء العُزَّابُ الذين آثروا العلمَ على الزواج»[٢] فقال: «وكان من أعلم الناس بالمخطوطات النادرة وأماكنها، **رحَّالةً طوَّافاً في جَنَبات الأرض!** وراء شوقه إلى الوقوف على المخطوطات في المكتبات، **لا يفتأ عن الأسفار من دار إلى دار،** يتطلَّب المزيد من المعرفة، **ويصبر على مشاقِّ الغُربة ومتاعب الارتحال، وكان يستطيب ذلك ويَلَذُّهُ ويراه أفضلَ المُتَعِ الطيبة التي يستمتع بها!**».

لهذا أستسمح القارئ الكريم في ذكر بعض ـ لا كل ـ الدول والمدن التي دخلها الخالدي، وذلك في نقل ما قاله الأستاذ إبراهيم السيد عيسى المصري حول رحلات الشيخ الخالدي الطويلة والممتدة على طول سنيِّ عمره، والتي هي أشبه بالأساطير ومما لا يخطر ببال! فيقول[٣]:

«وبعد أن أتم علومه رحل إلى دار السلطنة العثمانية للأخذ والتلقي على أشهر علمائها، والوقوف على خزائن كتبها..، وبعد أن

(١) (ص ١٥).

(٢) (ص ٢٣٤).

(٣) «الشيخ الرحَّالة خليل الخالدي المقدسي» للدكتور محمد خالد كلَّاب (ص ٥٠ ـ ٥٦).

نال الشهادة العليا، رحل إلى مَحَطِّ رِحالِ العلماء (بالمغرب الأوسط)، وهو جامع الزيتونة (بتونس)، فتقابل فيه مع عـدَّة من أعلامه، وفي مدَّة إقامته كان ملازماً للمكتبة العظمى بجامع الزيتونة..، ولما قضى مأربه توجَّه إلى (جامع القيروان) الذي يضاهي جامع قرطبة في رجاله ومؤلِّفيه، تقابل مع تـراث أعلامه..، وعاد إلى (تونـس) ومنها إلى (مصر) وتقابل مـع كثير من علمـاء الأزهر، ثـم لازم (دار الكتب المصرية) و(مكتبة الأزهر)، واطلـع على أُمَّات الكتب، ثم خرج من (مصر) وعاد إليها مراراً كثيرةً طلباً للفائدة من الكتب الثمينة. ثم عاد إلى (الآسـتانة)..، ثم رجـع إلى (دمشـق)، وكان يـلازم (المكتبة الظاهرية)، و(المجمع العلمي)، وزار (مكتبة دوما) التي حوت كثيراً من كتب الحنابلة، ثم زار (حمص) و(حمـاة) و(بيروت) و(بعلبك) و(طرابلـس)، و(صيـدا)..، وأما (حلـب) فقد تتبَّع تلـك (المكتبة الأحمدية) و(المكتبة العثمانية)، فوجد ما سـرَّه من النفائس والنوادر القيمة. ثم عاد إلى المغـرب الأقصى، وتعرَّف إلـى كثير من علماء المغرب وأشـرافه، وقد ظفر بمكتبة القرويين وانتفع بكثير من أُمَّات الكتب الجليلـة، ومنها أُمَّات الكتب التي لا وجود لها بالشـرق. ثم توجه من (فـاس) إلى (مِكناس)، وزار مكاتبهـا الصغيرة، وعاد إلى (فاس)، ومنها إلى بلدة (القيصر) على سـاحل نهـر (وَرْغة) الكبير، وهي قاعدة بلاد (الهَبْط)، ومنها إلى (طنجة)، مكث فيها شهراً. وقبل وصوله إلى (فاس) عرَّج في طريقه على مدينـة (وزَّان)، وزار مكتبة ابن عبد الله الشـريف، واسـتعان أيضاً بأمَّات الكتب الجليلة. وجاز البحر من (طنجة) إلى (جزيرة الأندلس)، ومـرَّ على (جبل طارق)،

و(الجزيرة الخضراء)، و(قرطبة)، و(غرناطـة)، و(طريف)، ثمَّ توجَّه إلى (طرابلس) الغرب، فزار مكتبتها ومكث فيها مدَّة شهر. ومنها إلى (بنغازي)، ثم (أدرنة)، ثم (الإسكندرية)، ثم (بيروت)، ثم (دمشق)، وعاد إلى (أزمير)، فزار مكتباتها، وبحث عما تحويه من الكتب القيِّمة وقيَّدها. ثم قصد بلاد (الروملي)، فذهب أولاً إلى (سـلانيك) التي كانت أجلَّ ولاية في الدولة العثمانية، فلم يجد فيها شيئاً..، ثم ذهب إلى (قره فريه) في ضواحي (سـلانيك)، وجد فيهـا مكتبة قضى الله عليها بأن تكون بِيَدِ أُناس لا يُقيمون للعلم وزناً..، ثم ذهب منها إلى (مناسـتر) واطلع على ما فـي مكتبتها..، ومرَّ فـي طريقه على بلدة تسمَّى (ينحة)، وهي بلدة (أرسطو) الذي وضع علم المنطق، ووجد فيها مكتبة: وفيها كتاب «الإجماع» لابن حزم لا وجود له في الشرق ولا في الغرب. ثم ذهب إلى (سـيروز)، فوجد فيهـا مكتبة عظيمة، فالتزمها مـدَّة..، وقصد بعدهـا إلى (أدرنة)، ولازم مكتبة السـلطان سليم، فوجدها مكتبة لا نظير لها في تلك الأصقاع..، ثم عاد ثانياً إلى (الروملي)، ومنها إلى: (كوكلي)، و(كبريلي)، و(أسكوب)، و(قلقان دلـب)، و(غسـتوار)، و(برزريـن)، و(فيروزيـك)، و(برشـتنه)، و(ولشـترين)، و(مترويجة)، و(ياني بازار)، و(سنيسة)، و(بريبول)، و(يني)، و(أروش)، و(طاشـليجة)، و(أقـواه)، و(برانة)، و(أيتيك)، و(ترغوشـته)، فلم يجد في هذه البلاد كلِّهـا إلا مكتبة في (قالقان)، وخزانة كتب في جامـع الفاتح في (أسـكوب)، ومكتبة صغيرة في (برشـتنه)، وفي (برزرين)، هذا ما رآه من المكتبـات. أما ما رآه في بلاد (الأناضول): فمكتبة في (أدرنـة)، ومكتبتان في (بورصة) وهما

حافلتان بكثيــر من الكتب النفيســة، ومكتبتان فــي (قونيه)..، وأما (مغنيسيا) فقد ذهب مرة ثانية سنة (١٣٥١هـ)، وذهب إلى (مجريط)، ولازم مكتبتها، ثم إلى (أسـكوريال)، ومن قبلها إلى (غرناطة)، ثم إلى (طليطلة)، ومنها إلى (سرقسطة)، ثم إلى (برسلونة)، و(بلنسية)، و(شاطبة)، و(مرسية)، و(قرطبة)، و(إشبيلية)، وليس في هذه المدن دورٌ للكتب إلا في (برســلونة)، فإن فيها مكتبتين كبيرتين. وكان لمَّا زار (غرناطة) ذهب منها إلى (مالقة) فلم يجد فيها شيئاً. وقد كان سنة (١٣٢٧هـ) ذهــب مع الوفد التركــي إلى بلاد (المجــر)، وعاصمتها (بودابســت)، ومنها إلــى (خطــوات)، ثــم إلــى (دميزوهكس)، و(قطمشــوار)، و(وســكتوار)، و(بوزي) من بلادها، ثم إلى (فيينا) عاصمة (النمســا)، فزار مكتبتهــا، ثم ذهب منها إلــى (رايخبورغ)، و(رودنبرغ)، و(براغ) عاصمة النمســا القديمة، و(كونيك ســوف)، و(لؤبن)، و(بلشرن)، و(تريسته)، و(فيوما)، و(دباسيا)، وهي عروس تلك الديار، ولم يكن في هذه البلاد مكتبة إلا في (براغ). وفي ســنة (١٣٥٢هـ) ذهب إلى (بغداد) فــرأى فيها مكتبة حديثة.. ولم يجد فيها شــيئاً من الكتب النفيســة إلا ما هو مشــهور معروف. ثم ذهب إلى (كربلاء)، و(النجف)، وفيها وجد كثيراً من كتب الشيعة الإمامية، ثم إلى (الكوفــة). وبعدها إلى (مكة المكرمة) فــرأى في الحرم المكي مكتبة منظَّمة، فتردد عليها مراراً. ومنها إلى (المدينة المنورة)، ولازم فيها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بك، ومكتبة السلطان محمود، وهما مفخرتان من مفاخر الحجاز، وفيهمــا ما لا يوجد في قطر من الأقطار مــن نفائس الكتــب والآثــار. وبعــد العودة قصــد مكتبة

(الإسـكندرية)، ولازمها عدَّة مرَّات.. هذا ما تلقيتُه من المترجم له» انتهى كلام إبراهيم السـيد المصري. وقد ذكر لنا شـيئاً من الأمصار والمدن التي دخلهـا، فكيف لو ذكر كلَّ المـدن والأمصار التي حلَّ بها؟ إنها همة تأخذ بالألباب!.

وإذا كانـت النفـوس كباراً تَعِبَتْ في مُرادها الأجسـام

وانظر ـ أيضاً ـ شيئاً غير الذي ذكرت هنا في كتاب «الشيخ الرحَّالة خليل الخالدي المقدسي» للدكتور محمد خالد كلَّاب. فقد ذكر أسماء دول أخرى دخلها، ومدن عدة وَلَجَها، فللّه دَرُّه ما أغلى العلم على قلبه، ولولا هذا الحب ما بذل لأجله ما بذل، ولا صبر فيه ما صبر!. والداعي إلى استسهال ذلك أمران: أحدهما: علو الهمة. والثاني: شرف المطلوب.

وأنا لا أعرف أحداً من أقرانه أو أحداً مـن القرون الأربعة الأخيرة ـ على ما اطَّلعت عليه في سِـيَرهم ـ طاف البلاد والآفاق ودوَّخ الدنيا، في ولوج الأمصار، وجمـع الآثار، والوقوف على أخبـار الخزانات، ومعرفة ما حوته من معارف، وما طوته في بطونها من مخطوطات نادرة نفيسـة، كُتبت بدماء غالية، وأُنفـق في تأليفها أوقـات هائلة، وجهود جبارة، وهذا شيء لا نظير له في التاريخ.. لا أعرف أحداً طاف كالذي طافه العلَّامة الخالدي، ولم أقف على رحَّالة جاب الشرق والغرب كما جابها الخالديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد بلغ الغاية، التي ليس وراءها غاية، فـي معرفة خزائن الكتب ودُورها، حتى إنهم أطلقوا عليه: (كشَّـاف ظنون أوانه!). وأنه: (مكتبة العالـم العربي والإسلامي التي تمشي على الأرض!). وأنه: (يخزِّن في

ذهنه مكتبة بل مكتبات كبيرة بأكملها!). على ما تقدَّم ذكره في باب الحفظ. فللّٰه دَرُّه.

نعم، هذا هو الرحَّالة خليل الخالدي رحمه الله، الذي قال فيه العلَّامة أحمد البلْغَيْثي (ت: ١٣٤٨هـ) لما زار القدس، ونزل في ضيافة الخالدي قال في قصيدة طويلة منها:

أخصُّ منهم كابراً نِحْرِيراً ... لقد أجاد الحفظَ والتحريرا
جاب البلاد كلَّها وجالا ... وعرف الكتب والرِّجالا
ذاك (خليل الخالدي الرحَّالة) ... أَجْلَلْتُه لمَّا عَرَفْتُ حالَه[1]

وهكذا فلتكن الهمم!

169 وهذا العلَّامة المؤرِّخ المغربي الرحَّالة محمد بن عبد الواحد الفاسي، (المولود سنة ١٣٢٦، والمتوفَّى سنة ١٤١١)، أحد القلائل الذين طافوا الآفاق، ولفُّوا الشرق والغرب في البحث عن المخطوطات وإحياء التراث!. ذكره العلَّامة أنور الجندي في كتابه «آفاق جديدة في الأدب»[2] فقال: «محمد الفاسي المؤرِّخ المغربي **الذي**

---

(١) «الشيخ الرحَّالة خليل الخالدي المقدسي» للدكتور محمد خالد كلَّاب (ص٥٩).

(٢) (ص٢٠٩ ـ ٢١١). قال الجندي ـ واصفاً مؤتمراً حضره الفاسي ـ: «واتصل الحديث بالتراث، وسمعنا عجباً، فقد أشار الأستاذ محمد الفاسي، أن أهل المغرب عندما دخل الاستعمار الفرنسي، وأحسُّوا كيف تتعرض مخطوطاتهم وتراثهم إلى النهب، أقاموا حوائط على الخزائن تصل إلى السقف، وتعزلها تماماً عن البيت، وذلك حتى لا تكون عرضة للنهب والسرقة والاغتصاب.
وقد اكتشف هذه الخطة، عندما ذهب ليتسلَّم المخطوطات التي كانت مدَّخرة في مكان ما، وتبلغ اثني عشر ألفاً من الكتب، فلما سأل عنها وكان الوقت مساء، قالوا: إن =

جاب بلاد العالم كلهـا! يبحث وراء المخطوطـات والتراث، وعرف عشرات من الباحثين والعلماء، واستمع إليهم وتحدث معهم!».

170 وهـذا العلَّامة الأديب المـؤرِّخ الرَّحالة أحمد زكي باشـا، الملقَّب (بشـيخ العروبة)، (المولود سـنة ١٢٨٤، والمتوفَّى سنة ١٣٥٣)، الذي طـوَّف الشـرق والغـرب من أجـل البحـث العلمـي، وجمع المخطوطات وإحياء التراث، يقول العلَّامة أنور الجندي في كتابه «أحمد زكي الملقَّب بشـيخ العروبـة»[1]: «والطَّوَّاف الرحَّالة من الآسـتانة إلى برلين، إلى باريس، إلى لندن، من أجل التراث، وصاحب النسخة الأولى أو الثانية ـ على الأقل ـ من عشـرات الكتب العربية المفقودة، والرجل الذي صعد إلى القلاع في كل بلد ألمَّ بها، وزار المسـاجد، والكنائس، والمقابر، **وقطع الأرض من طولها والعرض**، محقِّقاً للمواقع والآثار!».

ويقول الجندي أيضاً[2] ـ تعقيباً على رحلات أحمد زكي باشا ـ:

= تسليمها مسـتحيل الآن، ولا بدَّ أن يكون في الصباح حتى يأتي البنَّاء!. ولماذا البنَّاء؟ قالوا: لأن هناك حائطاً يفصل الخزانة عن البيت، حتى ولو كان معك مفتاحها!».

وهذا يعكس مدى حب الناس للعلم، وتعطُّشـهم لاقتناء كتبـه، إضافة إلى تفانيهم في حفظ خزائنه من يد النهـب والضياع، وهذا الـذي دفعهم إلى فعـل ما فعلوا، وحفظ ما حفظوا، ولولا هذا الحب المصحوب بالوعي لضاعت جهود ولتشتَّتتْ كنوز لا تُقدَّر بثمن، فجزاهم الله عنا وعن العلم كلَّ خير.

(١) (ص ٤ ـ ٥).

(٢) «أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة: حياته ـ آراؤه ـ آثاره» (ص٨٣ وص ٩٤). وبجوار هذا كان ـ كما يقول الأسـتاذ أنور الجندي ـ حريصاً على تسجيل سـبقه في كل ظاهرة من ظواهر الفكر والحياة، فهو أول من جمع المخطوطات من أنحاء العالم، وأول من ابتكر نقل المخطوطات بالفوتغرافيا من العرب، وهو أول مـن دعا إلى إحياء الآداب العربية =

«وقد اجتمعت له من هذه الرحلات حصيلة ضخمة من المشاهدات، للمساجد، والمتاحف، والقصور، والكنائس، وأتيح له أن يصعد فوق قبة المسجد الأقصى، وقمة الهرم الأكبر، ومسجد أيا صوفية بالقسطنطينية، ولأعلى كنائس بطرس بروما، وبولس بلندرة، وصعد قمة البرج المائل بسرقسطة. وارتقى إلى قمة المنارة الإسلامية الفخيمة البديعة، التي كانت في أحد مساجد (أشبيلية)، فقد كان شَغوفاً بصعود المنارات، لم يغادر في (الإسكندرية)، و(دمياط)، و(رشيد)، و(السويس)، مناراً رفيعاً إلا صعد إليه، ولا جبلاً شامخاً، أو مسجداً سامقاً، أو معبداً شاهقاً، في أرض أوروبا أو آسيا إلا دخله وزاره!».

وحين رحل لأجل البحث عن كتاب «نهاية الأرب في فنون العرب»، أخذ منه وقتاً طويلاً، وبذل فيه جهداً عظيماً، قال الأستاذ الجندي في وصف ذلك[1]: «وقد أضناه البحث عن عشرات من ذخائر التراث العربي، واحتمل في سبيلها الجهد الضخم، من ذلك كتاب «نهاية الأرب في فنون العرب» الذي واصل البحث عنه أربعة عشر عاماً! من عام ١٨٩٠م إلى ١٩٠٤م، في مكاتب (القسطنطينية)، و(رومية)، و(برلين)، و(لندن)، و(باريس)، و(مدريد)، و(أكسفورد). وقد تفرقت أجزاؤه في كل دور الكتب الأجنبية، وبقيت مصر محرومة

= وعمل له، وهو أول من حقق دعاوي المستشرقين، وأول من دعا إلى إحياء مجد العرب، بل هو أول من ركب الدَّراجة من كبار موظفي الحكومة، ووضع اسمها. انظر: (ص٢٧١).

(١) المرجع السابق (ص٩٢).

منـــه، ولم يبق منـــه فـــي دار الكتب (الخديويـــة) إلا الجـــزء الثاني والعشرون فقط. وظل زكي باشا يبذل الجهد حتى استطاع أن يحصل على أجزائه الإحدى والعشرين!».

171 وهذه أخبار علماء قطعوا مسافات طويلة مشياً على أقدامهم في طلب العلم!. جاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[1] للعلَّامة عبد الحي الحســني في ترجمة العلَّامة فتح محمد التهانوي، (المتوفَّى ســنة ١٣٢٢هـ): «الشــيخ العالم الفقيه: فتــح محمد الحنفي التهانوي، أحد الفقهاء الصالحين، اشــتغل بالعلم وقــرأ أكثر الكتب، ويدرِّس في علوم عديدة، ومن خصائصه **أنه سافر مدَّة عمره راجِلاً، لم يركب قَطُّ على عربة ولا على غيرها من المراكب!»**.

قلت: لـــو أخذنا بعين الاعتبـــار تنوُّع بلدان شـــيوخه بعضهم من (ديوبند) مثل الشيخ علي مُلَّا الديوبندي وغيره، وبعضهم من (دهلي) مثل الشيخ قطب الدين الحنفي الدهلوي وغيره، وهكذا لو تتبَّعنا عدد بلدان شيوخه الذين طاف عليهم ونهل من معارفهم، لعرفنا كم مشى على قدميه؟ وكم تعب حتى يحصِّل العلم؟!. وما رضي بهذا التعب، ولا قَبِل بهذه المشقة إلا لتعلُّقه بالعلم الذي هام في حبِّه، حتى ملك عليه قلبه ولبَّه وعقله، رحمه الله تعالى.

172 وهذا العلَّامة الفقيه المحقِّق الشـــيخ عبد الرحمن بن قاسم النجـــدي، (المولـــود ١٣١٢، والمتوفَّى ســـنة ١٣٩٢). يروي لنا الشـــيخ

(١) (١٣٢٢/٨)، ســبحان الله توافقت ســنة وفاته مع رقم الصفحة المترجم له فيها في «نزهة الخواطر»!، فسنة وفاته ١٣٢٢هـ، ورقم الصفحة المترجم له فيها ١٣٢٢!

عبد الملك القاسم في كتاب «الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ حياته وسيرته ومؤلَّفاته»[١] قصة رحلته إلى الرياض مشياً على الأقدام، وجد فيها من التعب وتورُّم الأقدام والعطش وغيره ما الله به عليم!، ولكن كل هذا يتبخَّر عند أول لحظة يجلس فيها على الرُّكب بين يدي شيخه لسماع العلم وتقييد الفوائد!، يقول: «وقد ذكر لي العمُّ الشيخ عبد العزيز بن محمد القاسم ـ حفظه الله ـ قصة عظيمة في صبر الجدِّ وجَلَدِهِ، وقد سمعت القصة منه أكثر من مرَّة، فقد ذكر: أنهم ساروا من بلدتهم (البير) إلى (الرياض) على أقدامهم لمدَّة ثلاثة أيام ليدركوا دروس العلم فيها، قال لي العمُّ عبد العزيز: مشينا من بلدتنا (البير) قبل المغرب، وعمري (١٧ سنة)، وكان أخي عبد الرحمن أكبر مني، ولما نزلنا على بلدة (الصفرة)، وقد غابت الشمس، قلت له: نذهب لأبناء خالك الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبَّاد؟ قال: لم نذهب لأحد!، واستمرينا في المشي حتى أدركنا المبيتَ في الخلاء، وقبل الفجر مشينا ووصلنا إلى بلدة (حريملاء) ضحىً، قلت له: نروح لزميلك عبد الرحمن بن خريف؟ قال: ما بيننا وبين بلدة (سَدوس) إلا ذراع. ومشينا حتى انتصفت الضحوة، قلت له: نروح لعبد الرحمن بن معمر أمير (سدوس)؟ قال: ما بيننا وبين بلدة (العُيينة) إلا مسافة قليلة، واستمرينا في المشي إلى الظهر، وإذ بنا في (العُيينة) فصلَّينا فيها الظهر، وأخذنا في السير إلى صلاة العصر، حيث وصلنا إلى بلدة (الجبيلة)، ولمَّا أتى المغرب وإذ بنا في بلدة (المَلقا)، ثم استمرينا

---

(١) (ص ٢٥١ ـ ٢٥٢).

نمشي حتى وصلنا (الدرعية)، ثم أرحنا في الفوارة (الفاخرية)، ثم جاء الليل، ولمّا أذَّن الفجر وإذ بنا عند (دروازة آل سويلم)، وهي من أبواب الرياض في ذلــك الحين، اســتفتحنا فلم يفتحوا لنــا، وبعد الإلحاح استيقظ أحد الحراس الذين يعرفون أخي، وكانت الرياض تغلق أبواب ســورها ليــلاً، فعــرف صوتَه أحــدُ الحــراس، وقــال: هذا الشــيخ عبد الرحمن بن قاسم افتحوا له. ففتحوا له ودخل من فتحة يسيرة في الباب، وكان مُمســكاً بيدي فردُّوا الباب، وصــاح: هذا معي أدخلوه!. فدخلت، وقد بلغ مني التعب، وســرنا إلى الجامــع، وقد أذَّن المؤذن فصلَّينا، واســتندت إلى ســارية بالمســجد، ولم أعِ إلا وقد ارتفعت الشــمس! وتفرق الطلاب، ونظرت إلى قدميَّ وقد انتفختا! وبلغ مني التعب مبلَغه، فلم أستطع أن أسير إلى الغرف المجاورة للمسجد، قال: وأخي ـ عبد الرحمن ـ أدرك الدرس بعد الفجر، ثم ذهب الضُّحى إلى درس آخر، وأتاني بعد الظهر وكأنه لم يمش تلك المسافة!».

هكذا تكون الهمم!

قال أبو الطيب المتنبي:

لولا المَشَقَّةُ ساد الناسُ كلُّهُمُ   الجــودُ يُفقِر والإقــدامُ قتَّال

173 وهذا العلَّامة المحدِّث الشيخ عمَّار بن عبد الله بن طاهر بن أحمد الهلالي الجزائري، (المولود ســنة ١٣١٦، والمتوفَّى ســنة ١٣٨٩) الذي قطع الصحراء مشــياً على الأقدام في طلب العلم! قال رَحِمَهُ اللهُ فيما ينقله عنه تلميذه الشيخ عطية ســالم في ترجمته من كتاب «من علماء

الحرمين»[1]: «ولمَّا لم أجد مطلبي من طلب العلم - يعني في بلده - رحلتُ إلى تونس مشياً على الأقدام بصحبة والدي، وقد تكبَّدت مصاعبَ كثيرةً عظيمة يهون أمرها على مَن طارت به الأشواق في طلب العلم! ودخلت جامع الزيتونة..». قال الشيخ عطية سالم معقِّباً: «وهنا وقفة طويلة مع تلك الرحلة على الأقدام، وإن كنا لا نعلم مسافتها إلا أننا ندرك مشقتها على فتى لم يبلغ العشرين من عمره، يسير على الأقدام وسط الصحراء طلباً للعلم، يتكبَّد مصاعبَ كثيرةً عظيمة نستطيع تقديرها، من وحشة الصحراء وشدَّة الظمأ، ووهج الهجير ومخافة الطريق، وجهد وانهاك القوى. وقد قال موسى عليه السلام في رحلته إلى الخضر: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢]، وإذا ضممنا إلى هذا الجزء تلك النشأة في الأسرة الفقيرة، أدركنا السرَّ والحكمة؛ لأنه لو كان نشأ في أسرة لها ثراء، لما استطاع أن يتحمَّل مصاعب السَّفر راجلاً وسط صحراء قاسية، كما أننا نشعر بالسرِّ في نوعية غالبية طلَّاب العلم من الأسر الفقيرة؛ لأنها أشدُّ رغبة فيما عند الله، وأقدر على الاغتراب في سبيل تحصيله، كما ندرك عزيمة هذا الوالد في صحبته في هذا السفر. ونستطيع أن نذكِّر طلاب العلم اليوم بعظم وجليل نِعَمِ الله علينا، من تيسير في الأسفار، وتوفير لوسائل الراحة».

174 وجاء في كتاب «إقراء - ملتقى كبار القرَّاء»[2] في ترجمة العلَّامة المقرئ الشيخ سعيد العَنْبَتاوي، (المولود سنة ١٣٤٥، والمتوفَّى

---

(١) (ص ٤١٢).

(٢) (ص ٢٤٧).

ســنة ١٤١٩): «الشــيخ أبو أحمد ســعيد بن أحمد بن علــيٍّ آل عَدَس العَنَبْتَاوي، نسبة إلى قرية (عَنَبْتَا) من أعمال مدينة (طولكرم) بفلسطين. فَقَد بصره وهو في سن الخامسة من عمره، وأتمَّ حِفظ القرآن وهو في سنِّ التاسعة من عمره. كان والده من العلماء فاعتنى به عناية خاصَّة، ثم أرسله إلى الأزهر الشريف، يقول الدكتور حاتم التميمي: فسافر الشيخ في رحلة شاقَّة مُضْنِية إلى مصر، تخلَّلها مســيرةُ أربعةَ عشرَ يوماً على الأقدام!، وهو ضرير لا يبصر الطريــق!، حتى وصل القاهرة..، ودرس في حلقات الأزهر متون العربية، كالألفيــة والآجرومية، ودَرَس الفقه والحديث وغير ذلك من العلوم الشرعية».

175 وهذا مؤرِّخ الهند ومُترجِم نوابِغها العلَّامة عبد الحيِّ بن فخر الدين الحَسَنِيُّ ـ والد العلَّامة أبي الحسن النَّدْوي ـ، (المولود سنة ١٢٨٦، والمتوفَّى سنة ١٣٤١) كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مغرماً بالعلم منذ صغره، شَغوفاً بمجالسة شــيوخه، والارتحال إليهم والجلوس بين أيديهــم، يحدثنا ابنه العلَّامة أبو الحســن النَّدْوي فيقول[1]: «صادفت ورقات مطبوعة لوالدي الســيد عبد الحيِّ الحَسَنِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سمَّاها (استفادة)، قصَّ فيها قصَّة رحلاته إلى الشيخ فضل الرحمن ـ عليه رحمة الله ـ، كان ـ يعني والده ـ يومئذٍ طالباً في لكهنؤ، حين بَلَغَتْهُ وفاة الشيخ، فتأسَّــف على ذلك أسفاً شديداً، ثم بَلَغه نفيُ هذه الشائعة، وأن الشــيخ لا يزال حيَّاً، فشدَّ الرَّحل إلى (فضل الرحمن الكنج مراد آبادي)، **وقطع مسافة طويلة لم يقطعها في عمره من قَبل راجِلاً، وهو لا يشعر بالكلل والتعب في شدَّة الشوق!**، ووصل إليه.

---

(١) «شخصيات وكتب» (ص١٤٧) وما بعدها.

وكان من عادة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يُقرئ «الجامع الصحيح» للبخاري كل يوم، وكان له شغف زائد بالحديث، وغرام لا يكاد يعدل به ـ بعد القرآن ـ شيئاً، وكان إذا قرأ الدرس ترنَّحت أعطافه، وفاض خاطره، وكان كبير الإعجاب «بالجامع الصحيح» بصفة خاصة، وكان يقرأ الدرسَ كل يوم مرة أو مرتين، وكان والدي سعيداً جدَّاً إذا قرأ الشيخ له الدرس ثلاث مرَّات، **وبقي الوالد يلتذُّ بهذا الدرس طول حياته، ويذكره بلذَّة غريبة وسرور عظيم، ويقول: لا أستطيع أن أصف هذا الدَّرس وحلاوته وتأثيره في القلب، فليس الخبر كالمعاينة!**».

176 وقد يرحلون في طلب العلم على الراحلة، فيقطعون مسافات بعيدة وهم فوقها..، وممن وقفت عليهم من هؤلاء: الأستاذ العلَّامة اللغويُّ محمد محمود التُّرْكُزي الشِّنْقِيطي، (المولود سنة ١٢٤٥، والمتوفَّى سنة ١٣٢٢)، جاء في ترجمة تلميذه العلَّامة أحمد تيمور الواردة في آخر كتابه «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر»[(١)]: «وكان أحمد تيمور يذهب إليه في منزله، ويتلقَّى الدرس عليه وهو جالس، فكان حين يشعر بألم ويبدل رجلاً بأخرى، يقول له: لا تتألم يا أحمد، فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث، والاستقصاء عن مسألة علمية!».

177 وهذا العلَّامة المحدِّث الفقيه الشيخ أبو شعيب بن عبد الرحمن الدُّكالي، (المولود سنة ١٢٩٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٦)، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تتوق نفسه إلى (فاس) حيث توجد جامعة القرويين، ومن شدَّة غرامه ـ كما يحكي عنه ولده عبد الرحمن ـ فيما ينقله عنه الدكتور

---

(١) (ص ١٥٧ ـ ١٥٨).

محمد رياض في كتاب «شيخ الإسلام أبو شعيب الدُّكالي الصديقي وجهوده في العلم..»[١]: «وقد رافقه في هذه الرحلة صديقه قاسم الدُّكالي، الذي كان يطمح أن يكون تاجراً واسع الغنى، بينما كان طموح أبي أن يكون عالماً كبيراً، وكذلك كان! ونظراً لقلة وسائل النقل آنذاك، اشترى الصديقان حماراً يضعان عليه رَحْلَهما، ويتناوبان الركوب عليه من مدينة مراكش الحمراء إلى مدينة فاس الفيحاء.

وتعرض الصديقان في هذه الرحلة الطويلة الشاقة، إلى كثير من المحن، والأهوال؛ نظراً لوعورة الطريق وطولها، وصغر سِنِّهما، وعدم تجربتهما!».

ثم قال الشيخ الدكتور محمد رياض معقِّباً: «وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على الطموح، والهمة العالية، والرغبة المُلِحَّة في طلب العلم على حدِّ قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخي لن تنالَ العلمَ إلا بستةٍ — سأُنْبِيكَ عن تفصيلها ببيانِ
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبُلْغَةٌ — وصُحْبَةُ أستاذٍ وطولُ زمانِ

وقول المتنبي:

وإذا كانت النفوسُ كباراً — تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

178 وهذا العلّامة المحدِّث النحويُّ المُسنِد الشيخ عمر بن حمدان محدِّث الحرمين الشريفين، (المولود سنة ١٢٩٢، والمتوفَّى سنة ١٣٦٨)، طاف في البلاد وأكثر الترحال، قال الشيخ ممدوح سعيد في «تشنيف الأسماع»[٢]: «رحل إلى بلادٍ شتى لأسباب علمية..، وحصَّل

(١) (ص١٢٠).
(٢) (٧٥/٢).

فوائد عديدة ونال مزايا فريدة، وقابل أئمة أعلاماً تُشَدُّ إليهم الرّحال في هذه الأمصار، وكان مفيداً مستفيداً، لا يتعب من الاطلاع والأخذ عن المشايخ والتدريس، وبارك الله في وقته في هذه الأسفار».

وفي رحلته بمصر يصوّر لنا حاله التي كان عليها في تطوافه على الشيوخ الشيخُ أحمد بن الصدِّيق الغُماري كما في «البحر العميق»[(١)]: «كان يُتعب نفسه، ولا يعطيها حظها من الراحة!.. وكان رَحِمَهُ اللهُ طارحاً للتكلُّف، يلبس السُّبْحة في عنقه، ويخرج في الشوارع بالقاهرة، وعلى رأسه طربوش تونسي صغير بدون عمامة، ويغرز في حزامه دواةً طويلة فيها الأقلام، ويحمل في يده الكتب والدفاتر التي يقيد فيها ما يسمعه من الشيوخ، وربما اشترى التمر فجعل يأكله وهو يمشي في الطريق والناس ينظرون إليه، وكنت آكل معه!»[(٢)].

والأخبار في هذا الجانب كثيرة، وأكتفي بما تمَّ ذكره.

* * *

---

(١) (٣٤٩/١).

(٢) (٧٥/٢). وكان رَحِمَهُ اللهُ شَغوفاً بالكتب والاطلاع عليها، وشراء الكتب والمؤلَّفات القديمة لا سيما الخطية منها، ففي رحلاته نَسَخَ المخطوطات وحصَّل نفائس المطبوعات، حتى اجتمعت له مكتبة عظيمة ـ كما في «تشنيف الأسماع» ـ يقول عنها الشيخ محمد العربي العزوزي في «إتحاف ذوي العناية» (ص٧٣): «مكتبته التي تضاهي أكبر المكاتب الكبرى لاحتوائها على نفائس الكتب وغرائبها ومخطوطاتها».
وهذه المكتبة الحافلة طالع ذخائرها وجنى ثمار أطايبها، وكان لا يَمَلُّ من القراءة ليل نهار، يقول الشيخ محمود سعيد في «تشنيف الأسماع»: «أخبرني شيخنا الفادانيُّ: أنه كان يجلس بالحرم وأمامه حِمْلُ بعيرٍ من الكتب يطالع المسائل في الليل والنهار، وكان كثيراً ما يعتكف في باب العمرة». يعني يعتكف للقراءة ومطالعة العلوم!.

الفصل التاسع

في همَّتهم في اقتناء الكتب، وبذل أغلى الأثمان في شرائها، والتحسُّر لأجل إهمالها أو ضياعها

179 حبُّ العلماء للكتاب شيء لا يمكن وصفه، حبٌّ لا كالحبِّ الذي يُعرف، وغرام لا كالغرام الذي يُكتب، ليس مثل هذا ولا ذاك، ولكنه حبٌّ ينبع من القلب والوجدان، ويشاركهما مشاعر الإحساس في باقي الأعضاء والحواس، كلها مسخَّرة في محبة الكتاب، فهو يغذِّي العقل ويرضي القلب، وتطرب له الجوارح، بل بلغ حبهم للكتاب أن يشبَّه حبُّهم بحبِّ المجانين لما يحبُّون، غير أنهم عقلاء!

لأجل هذا حرصوا جدَّ الحرص على اقتنائه، وجلبه ولو من الأماكن البعيدة، هذا غير إنفاق النفس قبل المال في شرائه، وقد يدفعون بمثل وزنه ذهباً لتملُّكه، وربما أَزْيَدَ من ذلك! وهذا شيء لا يعرفه ولا يَقْدُره قَدْرَه إلا من عرف حالهم وخَبِرَ مكانة الكتاب عندهم.

وإليك بيان ذلك في أخبارهم:

180 فهذا العلَّامة الأديب المؤرِّخ والداعية النبيل أبو الحسن علي الحَسَنِيُّ النَّدْوِيُّ (المولود سنة ١٣٣٣، المتوفَّى سنة ١٤٢٠)، ـ الذي قال عنه العلَّامة يوسف القرضاوي: «من بقية السلف، كأنما أُخِذ من عصور السلف الصالحين الماضين، وجِيء به الى هذا العصر»، كما في

كتابه «وداع الأعـلام» ـ كان رَحِمَهُ اللَّهُ مولعاً بحب القراءة ومطالعة الكتب، بل كان على الكتب مثل الأسد العادي، والسيف القاطع، لا يقع تحت يده كتاب في السِّير والتراجم، أو التاريخ والأدب، أو في غيرها إلا قرأه قراءة المفلِّـي، وطالعـه مطالعة المتأنِّـي، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ كمـا في كتابه «شخصيات وكتب»[1]: «**ولي نهامةٌ موروثة، وشغف زائد بالكتب، انتقل إليَّ من أبويَّ، فكنت أقرأ من صغري كل ما يقع في يدي من مطبوع!**».

وكانت تدفعه رغبته إلـى التهام صفحات الكتـب التهاماً، وكأنها وجبة طعام لذيذة لا تعوَّض، هيامـه في حبِّ الكتب والنظر فيها تدعو إلى العجب وأي عجـب، عجب يأخذ بالعقل وتلابيـب النفس، فإذا ما سَبَرْتَ حاله أو نَهَمه مع الكتاب، أو سمعتَه يصف نفسه مع الكتب قضيت له بالعجب.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ متحدِّثاً بأسلوبه الشائق، وقلمه الفائق، وهو يصوِّر لهفه لاقتناء كتاب «رحمة للعالمين»، وحاله معه قراءة ومتعة، فيقول[2]: «وقع بصري مرَّة على اسـم كتاب «رحمة للعالمين»، وكنت كثير النظر في الفهارس وإعلانات الكتب، وأرسلت طلباً لهذا الكتاب، وكان قد طبع منه جزآن، تقصر ميزانيتي الصغيرة، وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري، عن شـرائه، ولكن الصغـار، خصوصاً فـي العصر الذي أتحدَّث عنه، لا يخضعـون لقوانين الميزانيات وعلـم الاقتصاد، إنما ينساقون مع الغرائز والعواطف.

---

(١) (ص ١٢٥).

(٢) «شخصيات وكتب» (ص ١٣٩ ـ ١٤١).

وجاء ساعي البريد وهو يحمل هذا الكتاب فيما يحمله من بريد قريتنا الصغيرة، ورأيت أني أملك ما أتسلَّم به هذا الكتاب وأدفع ثمنه، واعتذرت أمي رحمها الله مع حرصها على إرضاء طفلها اليتيم عن دفع النقود؛ لأنها لم تكن تملكها في ذلك الحين.

ورأيت فلم أرَ لي مساعداً وشفيعاً في هذه المهمة، إلا الشفيع الذي طالما لجأ إليه الأطفال، وعرفوا أن شفاعته لا ترد، ذلك الشفيع الذي لجأ إليه سيدنا عمير بن أبي وقاص الصغير، فَقَبِلَ رسولُ الله ﷺ شفاعتَه وأجازه للقتال في بدر، ذلك شفيع الدموع والبكاء البريء، الذي لم يزل وجيهاً مسموعاً عند الله وعند عباده الصالحين.

وكذلك كان، فقد رقَّ لذلك قلبُ أمي الحنون، واجتهدت في دفع قيمة الكتاب والحصول عليه، وأخذت الكتاب!

بدأت أقرأ الكتاب، وبدأ الكتاب يهزُّ قلبي، وليست بهزَّة عنيفة مزعجة، إنما هي هزةٌ رقيقة رفيقة، وبدأ قلبي يهتزُّ له ويطرب. كما اهتز تحت البارد الغصن الرطب، وهذا هو الفارق بين هـزَّة الكتب التي أُلِّفت في حياة الأبطال والفاتحين الكبار، وبين هزة الكتب التي أُلِّفت في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فالأولى هزة تُغِيرُ على القلب وتزعجه، والثانية هزَّةٌ تنبعث من النفس وتُريحها!

وبدأت نفسي تتجاوب لهذا الكتاب وتسيغه، كأنما كانت منه على ميعاد، **وشعرت في أثناء قراءتي لهذا الكتاب بلَذَّة غريبة، إنها لذَّة تختلف عن جميع اللذَّات التي عرفتها في صغري - ولم أزل**

مُرْهَفَ الحسِّ قويَّ الشعور - فلا هي لذة الطعام الشهي في الجوع، ولا هي لذَّة اللباس الجديد في يوم العيد، ولا هي لذَّة اللعب في حين الشَّوق إليها، ولا هي لـذَّة العطلة والفراغ بعد الدراسة المُضنِية والاشتغال المُرهِق، ولا هي لذَّة الانتصار والظفر في المباراة، ولا هي لـذَّة زيارة صديق قديم أو زائر كريم، إنها لا تشبه لـذَّة من هذه اللذات، إنها لذَّة أعرف طعمها ولا أستطيع وصفها، وأعترف أني لا أستطيع حتى اليوم أن أصفها بدقة وأعبِّر عنها بكلمة. إن غاية ما أستطيع أن أقول: إنها لذَّة الروح!

أتابع قراءتي لهذا الكتاب، وقد يغلبني البكاء فأبكي، وقد يملكني السرور والطرب فأطرب. إن الحسنة لهذا الكتاب وصاحِبه المخلص[(١)]، أنه أثار في قلبي كامنَ الحب الذي لا لذَّة في الحياة بغيره، ولا قيمة للحياة بغيره!» انتهى باختصار.

181 وهذا العلَّامة الأديب المؤرِّخ الرَّحَّالة أحمد زكي باشا، الملقَّب (بشيخ العروبة)[(٢)]، (المولود سنة ١٢٨٤، والمتوفَّى سنة ١٣٥٣)، صاحب المكتبة الزكية الخاصة التي بلغت (١٨) ألف مجلد، ومن أجِل الكتب أطلقوا عليه لقب (الفهرست الأكبر) على ما يقوله الأستاذ الجندي[(٣)]، بل وصفته إحدى المجلات فقالت إنه: (كتساروس علوم)

---

(١) هو الشيخ محمد سليمان المنصورفوري، مؤلف كتاب «رحمة للعالمين» الذي يتحدَّث الشيخ الندوي عن تأثير هذا الكتاب في تكوينه العلمي، رحمهما الله.

(٢) انظر - لزاماً - سبب تسميته بهذا الاسم في (ص ٢٣٤ - ١٤٤).

(٣) «أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة: حياته - آراؤه - آثاره» (ص ٢٩٦).

تشـبِّهه بتاجر الأثاث القديم (كتسـاروس)[(١)]، وذلك لاعتنائه بالتراث واقتناء المخطوطات. يقول الأستاذ العلَّامة أنـور الجندي في كتاب «أحمد زكي الملقَّب بشـيخ العروبة»[(٢)] ـ وهو يصف حب زكي باشـا للكتاب ـ: «والكتاب آية حياته، وحب الكتب يغلب عنده أي عاطفة، وصناديق الكتب عنده قصة طريفة تروى، حتى إنه ليترك كل شيء حتى عمله، من أجل الكتب: يقول إنه كان في طريقه مع رئيس الوزراء إلى (بنها)، وفي آخر لحظة جاءته برقية بوصول ثمانية طرود من مخطوطاته من الآستانة إلى ميناء الإسكندرية. يقول: تركت أدراجي، ودست على مصلحتي، وتركت أمري للأقدار. وذهلت عن كل واجب، وبِتُّ أحلم بهذا المعشوق، وأتصفَّح صفحات وجهه، وأتأمَّل محاسنه، وبكَّرت إلى الكمرك ـ الجمرك ـ بُكُورَ الغراب، وكنت أول من حيَّا البواب.

وكان يقول: **ليس لي لذة في الحياة سوى جمع الكتب!**». أرأيت؟

وكان متطلِّعاً كل صباح إلى جريدة (الأهرام)، يقرأ الوفيات فما أن يعلم بوفاة واحد مـن الكبار أو الثـراة حتى يبحث عن آثـاره وكتبه فيشتريها، فيضم الصالح منها إلى مكتبته.

وكانت مكتبته عامـرة بنفائس الكتب ونـوادر المخطوطات، وقد طاف لأجلها المشرق بمدنه الكبيرة وقُراه الصغيرة، والمغرب بعواصمه الشهيرة ومتاحفه الحافلة بالآثار والمخطوطات، وأنفق عليها كل جهده، وأنفسَ وقته، وأعزَّ ماله، إضافة إلى رِحْلاته الطويلة، ومتابعته الحثيثة،

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٧٥).

(٢) (ص ٢٩٤).

ومراســلاته الدائمة للكَتَبَة وباعــة الكتب، هذا إلى جوار مراســلاته الخاصة لأصدقائه، وأصحاب الاهتمام بهذا الشأن وغيرهم، وكان أول من استخدم التصوير الشمسي في نقلها وجلبها إلى مكتبته[١].

حتى اجتمع لديــه أكثر من ١٨ ألــف كتاب، والأعجــب من هذا ما يقوله العلَّامة أنور الجندي[٢]: «استوعب كلَّ هذه المؤلَّفات الضخمة، وراجعها، وعلَّق على هوامشــها، وأخرج فنونها في جُـذاذات مرتبة، وقصاصات تحت يده، بحيث يســتطيع أن ينظر فيها فيجد ضالَّته في أسرع وقت!».

---

(١) يقول العلَّامة الجنــدي: «وكان اتجاهه إلى اســتخدام التصوير الشمســي في نقل هذه المؤلَّفات عملاً جديداً خطيراً، لم يسبقه إليه سابق من العرب. فنقل بضعة عشر ألفاً من الكتب بالتصوير الشمســي ومضى يحقِّق هذه الكتب ويراجعهــا ويقدِّمها للطبع، بعد التنقيح والإعداد، مضافاً إليها تعليقات وشــروح». «أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة: حياته ـ آراؤه ـ آثاره» (ص ٦٠ ـ ٦١). وقال الجندي أيضاً: «استطاع بنفوذ صديقه المرحوم حســن حلمي باشــا الصدر الأعظم أن يدخل قصر أندرون، حيث توجــد أنفس خزانة للكتب. هذه الخزانة التــي كان محظوراً على أفراد الشــعب أن يدخلوها، ولم يدخلها ســوى الخليفة، حيث يوجد ما وصفه أحمد زكي بنوادر الجواهر وغوالي الذخائر، بعد أن كانت موصدة في وجه الجميع، منذ أربعة قرون وستة أعوام. وقد أقام أحمد زكي في هذه الخزانة أربعة شــهور متواليــة، ومعه ـ على حــدِّ تعبيره ـ جيش مــن المصوِّرين بالفتوغرافية من أتراك وأرامنة وأروام». ويقول الجندي: «وهكذا واصل أحمد زكي عمله في ســبيل البحث عن المخطوطات وإحياء التراث، وهي المهمة التي جرَّد نفســه لها ووصفها بقوله: ما كان يرتضي بشيء ســوى ما فيه تصديع الدماغ ووجع القلب وتعب العين في التوفر على مغازلة الكتب المخطوطة». «أحمد زكي الملقب بشــيخ العروبة: حياته ـ آراؤه ـ آثاره» (ص ٥٩).

(٢) (ص ١١٤).

هذا، وقد أنفق في جمعها واقتنائها ميراثه كلَّه، إضافة لتركة شقيقه (محمود رشــاد)، التي بلغت ـ فيما يقال ـ أكثر من اثني عشر ألفاً من الجنيهات، إضافة أيضــاً إلى ثروة زوجته التي كانت من أســرة عريقة ثرية[١]. فقد بذل كلَّ ما يملك وفوق ما يملك. وقد ظلَّ مَدِيناً من جراء شــراء الكتب![٢]. حتى إن أحمد زكي باشا رَحِمَهُ اللهُ كان يقول[٣]: «توفَّرت على بذل كل ما في وسعي لتكبيرها ـ يعني المكتبة ـ وضحَّيت في هذا الســبيل النفس والنفيس، وصرفت كلَّ ما ادَّخرته لنفســي ولبنتي من بعدي ـ حيث كان يعمل سكرتيراً أولاً لمجلس النُّظار براتب قدره ألف جنيه في العام ـ، وبعتُ كلَّ ما أملك، وهو خمسون فدَّاناً!».

182 وهذا العلَّامة الفقيه المؤرِّخ الأديب البليغ الأســتاذ أحمد تيمور باشــا، (المولود ســنة ١٢٨٨، والمتوفَّى ســنة ١٣٤٨)، صاحب (المكتبــة التيمورية) التي يُضــرب بها المثل في ضخامتها، ونفاســة محتوياتها، وكان الدكتور ماكس مايرهوف يقول عنها: «هي مكتبة نادرة الوجود، تعدُّ من أتمِّ وأفخر المكتبات المرتَّبة»[٤].

إذ كان تيمور صاحــب جَلَدٍ كبير، وكفاح طويــل، في البحث عن الكتب واقتنائها، حتى أنفق عليها شــبابه وماله، وليله ونهاره، وصحته وفراغه، فهو في هذا المضمار لا يُبارى أبداً ولا يُجارى، يقول الأستاذ

(١) المرجع السابق (ص ٣٨).
(٢) المرجع السابق (ص ٥٨).
(٣) المرجع السابق (ص ٢٣٠).
(٤) «ترجمة العلَّامة أحمد تيمور باشا» (ص ٢٧).

السيد حسن عبد الوهاب: «قضى معظم حياته في البحث والتنقيب، وجمع نفائس الكتب». كما في «الأعلام الشرقية»[١].

ويقول الشيخ محمد الشيباني في كتابه «ترجمة العلاَّمة أحمد تيمور باشا»[٢]: «ومنذ عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩٣٠ إذ توفي أحمد تيمور، كان الرجل عاكفاً على القراءة والمراجعة، مُولِياً موارده كلها لاستظهار المخطوطات العربية بالنقل أو بالفتوغرافية أو بالشراء من مختلف أنحاء العالم.. وعاش سنوات طويلة، يترقب كل ما يظهر من المخطوطات، هنا أو هناك، ليشتريَه بأي ثمن.. وقد شغل في هذا السبيل شغلاً لا حدَّ له، وأنفق فيه زهرة حياته، وجُلَّ موارده، وقد ظلَّت هذه المكتبة تعمر، فما من عظيم أو أمير أو ذي شأن توفي، إلا أطلق رجاله يشترون له ما خلَّفه قبل أن يشتريَها الأجانب أو يصادرونها!».

وقال: «فقد استطاع أن يجمع سبعة عشر ألفاً من المخطوطات والمؤلَّفات النادرة، ثم قرأها وفهرسها، وعلَّق عليها، وأولدها حصيلةً من الدراسات تمثِّل موسوعة ضخمة، ما زال العمل يجري في طبعها منذ ثلاثين عاماً!»[٣].

وكان لا يهمه ثمن المخطوطة بلغ ما بلغ ثمنها ولو بوزنها ذهباً، فإن ذلك لا يقف عائقاً أمام تملُّكها، قال الدكتور محمد رجب البيومي:

---

(١) (٨٣٨/٢).

(٢) (٢٤).

(٣) «ترجمة العلاَّمة أحمد تيمور باشا» (ص ٢٣).

«كان يشتري المخطوط القديم بعشــرات الجنيهات ليضمَّه إلى مكتبته التي تقدَّر بعشرات الآلاف!»[١]. وكان ثرياً يملك أربعة آلاف فدَّان من أجود الأطيان، ـ أي الأراضي الزراعية ـ ممــا كان يُعينه على دفع أي مبلغ يتطلَّبه الحصول على أي كتاب مهمــا ارتفع ثمنه! على ما يقوله العلَّامة الجندي.

ويحدِّثنا العلَّامة محمود شاكر عن محبة العلَّامة أحمد تيمور باشا للكتاب فيقول ـ كما جاء في «جمهرة مقالات محمود شاكر» ـ: «فأحمد تيمور باشــا كما وصفته ـ عالمٌ ناهيك مِن عالــم ـ كان أحرص الناس على اقتنــاء المخطوطات، يبذل في ســبيلها مالاً كثيــراً، ولكن الذي لاحظته ـ ليس جمع الكتب ـ الذي لاحظته شيئاً آخر وهو أنه إذا أخذ الكتاب بين يديه تغيرت أسارير وجهه واستضاءت، وكأنَّ نوراً قد سطع بمجرد إمساكه المخطوط، إذا جاءه أمين أفندي بمخطوط جديد. شيء هائل، تحس أن هذا الرجل ليس إنساناً ـ تتغير صورته من إنسان جالس يتكلم، إلى إنسان مأخوذ ومضيء في وقت واحد، وتبرق عيناه وكأنها لؤلؤة مضيئة أو درة يتيمة!».

183 وكان العلَّامة المــؤرِّخ الجغرافيُّ الشــيخ حمد بن محمد الجاسر، (المولود ســنة ١٣٢٨، والمتوفَّى سنة ١٤٢١)، قد تزامن احتراق كتبه مع وفــاة ولده فقــال: «لَفَقْدُ كتبي أشــدُّ على نفســي مــن فَقْدِ ولدي!»[٢].

---

(١) «النهضة الإسلامية» (٢/٥ ـ ٦).

(٢) «الشذرات» (ص ٧٦).

184 وهذا العلَّامة الأديب المحقِّق الصحفيُّ الشهير محبُّ الدين الخطيب، صاحب مجلتَيْ (الفتح) و(الزهراء)، (المولود سنة ١٣٠٣، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩)، الذي شاخ وهو يطالع الكتب ويطلبها، حتى اجتمعت له مكتبة ضخمة لا نظير لها، وقد أنفق عمره حتى اشتعل الرأس شيباً في مصاحبته للكتب مصاحبةً صادقة، بلغ من ورائها ذروة المجد وتاج السعد!..، قال العلَّامة أنور الجندي في ترجمته لمحبِّ الدين الخطيب في كتابه «مفكرون وأدباء من خلال آثارهم»[١]: «.. مكتبته الضخمة التي فاقت مكتبتَيْ أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا، فبلغت عشرين ألف مجلَّد حتى الآن! هل استراح الرجل وهو في حدود الثمانين؟ إنه بدأ عملاً جديداً ضخماً..».

وعن هذا السؤال يجيبنا الشيخ ممدوح فخري في مقاله «محبُّ الدين الخطيب لمحات من حياته وقبسات من أفكاره»[٢]: «تشرَّفت بزيارته في مكتبته الكبيرة، وبين أكداس وتلال من الكتب، وخلف نظَّارته الساقطة على أنفه، وتحت طربوشه الأحمر، وجلبابه الأبيض، كان يجلس محبُّ الدين، وعلى مُحَيَّاه معالمُ الثمانين، التي قضاها في جهاد دائم بقلمه، ولسانه، وقلبه، ويده.. لقد انزوى في مكتبته، وقطع كلَّ صلة له في المجتمع، وانكبَّ على التأليف والتحقيق!».

---

(١) (ص ٢٠٤).

(٢) المنشور في «مجلة» الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٧، سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

«واليوم الوحيد! الذي كان يخرج فيه هو يوم الجمعة بعد العصر، حيث يذهب إلى سوق الكتب، المقامة على سور حديقة الأزبكية في القاهرة، ويشتري من الكتب المختلفة القديمة والحديثة، وكان يحملها بين يديه الكليلتَيْن، وعلى كاهله أعباء الثمانين، ويتمايل في مشيته ويتعثر!، وقد ثابر على هذه العادة إلى ما قبيل وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ!، وقد جمع من ذلك مكتبة ضخمة خاصة به، فاقت على ما أعتقد كل مكتبة خاصة في مصر ما عدا مكتبة العقَّاد! وكان ذا صبر وجلد لا يعرف الكلل ولا الملل!».

وقال الأستاذ أبو الوفا المراغي: «وقد جعل من مكتبته محراباً لا يفارقه، حتى إنه لمَّا ابتنى منزله بالروضة ألحقها به حتى لا يضيع وقته في التردُّد بين المنزل والمكتبة. وظل على هذا الأسلوب إلى أن لقي ربَّه!». كما في ترجمته في كتاب «رجال فقدناهم»(١).

185 وهذا العلَّامة المحدِّث الرحَّالة المُسنِد الشيخ محمد عبد الحيِّ الكتاني، (المولود سنة ١٣٠٣، والمتوفَّى سنة ١٣٨٢) جاء في ترجمته في كتاب «مطالع الأفراح والتهاني ترجمة الشيخ عبد الحيِّ الكتاني»(٢): «ولم يعرف اللهو واللعب منذ ميَّز، فلا تراه إلا متأبِّطاً لكتاب أو عدَّة كتب، ويبيت الليالي العديدة مُكِبّاً على المطالعة». «شغفه بالدراسة والمطالعة فوق كل شغف وعاطفة.. لم يُر ولم يُسمع بمثل شغفه بالمطالعة، لا يَمَلُّها، وهي أول أعماله صباحاً وآخرها مساءً، لا ينام إلا والكتاب في يده وينام عليه»(٣).

---

(١) (٤٣٨/١).

(٢) (ص١٠٩).

(٣) (ص١١٦).

وقال تلميذه العلَّامة محمود شاكر ـ كما في «مطالع الأفراح»[(١)] ـ: «أُتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعَدُّ من أغنى المكاتب الخاصة، وأَنْفَسِها في العالم العربي كلِّه، فيها مــن النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها، وهو لا يكاد يســمع بكتاب نادر حتى يســارع إلى استنســاخه أو تصويره بالفتوغراف، وها هو قد نزل مصر فجمع من شــوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سَمْعِ دُور كتبِنا وبصرها ثم غفلت عنها.

ويجلس هذا الرجل في نُزله، فيأتيه الورَّاقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها، فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتاب ومن صاحبه، **ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنَّ عليه الزمن طويلاً ثم جاد.**

وبالله أشهد ـ صادقاً ـ لكأني أرى الكتاب بين يديه، يكاد يحنُّ إليه حنين القلب الممزَّق المفطور إلى ســبب من أسباب سَــلْوَتِه وراحته، ولكأني أراه يمسك الكتاب براحته كما يمســك أحدنا الشيء فيه من آثار قلبه وحبه وآماله ورغباته ما فيه، ويلقي عليه نظرة عاطفة تكاد تُحييه من عطفهــا وحنانها وهديها وأشــواقها، هذا هو الرجــل العالم المتيَّم بالكتب، الذي يطلع جاهداً على آثار الناس، وما ينشــرون في الكتب والصحف والمجلات، ويعي أسماءهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم، ويرحل إليهم بادئاً بالزيارة» انتهى.

186 وقد يصل غرامهم بالكتاب ـ لأجل تملُّكه ـ الإنفاق على ثمنه إلى حدِّ غريب وعجيــب، وقد يدفعون في شــرائه مثل وزنه ذهباً! وبأي شكل من الأشــكال، وبأي صورة كانت، وربما ركبوا

---

(١) (ص ٢١٥).

المخاطر وأنفقوا عليها الأموال الهائلة، فلا قيمة عندهم للمال، ولا للذهب، ولا للمخاطر في مقابل اقتناء الكتاب، والاستحواذ عليه، وتحقيق مرغوبهم:

187 يقول العلَّامة المؤرِّخ الشيخ كامل بن حسين الغزي البابي الحلبي، (المولود ١٢٧١، والمتوفَّى ١٣٥١) في كتابه «نهر الذهب في تاريخ حلب»[١]: «فقد أدركنا الكثيرين من علماء حلب وأغنيائها، مَنْ هو شديد العناية باقتناء الكتب المخطوطة النادرة، حتى إنهم كانوا يتسابقون إلى اقتنائها، ويبذلون الأموال الطائلة في استنساخها!

أدركنا منهم من استكتب كتاب «ردِّ المحتار حاشية الدُّرِّ المختار» في الفقه الحنفي، فصرف في استنساخه نحواً من مئة ذهب عثماني!! ومنهم من استكتب كتاب «تاج العروس» لمرتضى الدين الزبيدي شرح قاموس الفيروزآبادي، فصرف عليه نحواً من مئتي ذهب عثماني!!، إلى غير ذلك من الكتب الكبيرة!».

188 وهذا خبر آخر عجاب، جاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[٢] للعلَّامة عبد الحي الحسني في ترجمة شيخه العلَّامة محمد نعيم اللكنوي، (المتوفَّى سنة ١٣١٨هـ): «الشيخ الفاضل الكبير: محمد نعيم بن عبد الحكيم اللكنوي، أحد كبار العلماء، كان عالماً كبيراً فقيهاً أصولياً، متكلِّماً ناصحاً مفيداً..، لم يطلع أحد قَطُّ على فقره وفاقته..، وكان حريصاً على جمع الكتب النفيسة، يقبل هدايا

---

(١) (١٦٩/١).

(٢) (١٣٧٥/٨).

الكتب، **وإنه باع داره التي كانت على جسر فرنكي محل، واشترى بثمنها «حاشية الطحطاوي على الدُّرِّ المختار» بستين رُبِّية!»**.

يا الله! هانت عليه داره مقابل أن يحصل على كتاب واحد! هكذا يفعل الكتاب بالولهان، وهكذا يفعل العاشق مع معشوقه!، أَلَمْ أقل لك إنهم مجانين في صورة عقلاء، أو عقلاء يفعلون أفعال المجانين، سمِّهم كيف شئت؟!

189 وهذا خبر آخر ينافس الذي قبله يرويه لنا الشيخ المحقِّق محمد آل رشيد في كتابه «ألقاب الأُسر»(١): «ذكر لي الأستاذ عبد الوافي ابن العلَّامة محمد المختار السوسي، أن والده حينما أراد أن يطبع كتابه «المعسول»، والذي يقع في عشرين مجلداً، باع بيتاً له بالرباط في حيٍّ راقٍ، لينفقه على طبع كتابه!

وذكر شيخنا العلَّامة محمد بن الأمين بوخبزة الحسني، في ترجمته للشيخ محمد العربي التطواني، أنه باع قطعة أرض وهي كل ما كان يملك، فأنفق ثمنها على طبع «أرجوزته»!

190 وجاء في كتاب «الأنوار الساطعة والفوائد الجامعة»(٢) للشيخ طه بن حسن السقَّاف: «وكان لواحد من صلحاء تَرِيم داران، فعُرِض عليه كتاب «الأذكار» للنووي، ولم يكن عنده ما يشتريه، فاستشار بعض الصالحين فقال له: **بع الدار واشتر «الأذكار!»**.

---

(١) (ص ١٤٢).

(٢) (ص ٢١٦).

191 وهذا الأستاذ الأديب القاضي عبد الغني بك فكري، (المتوفَّى سنة ١٣٠٧هـ) ـ والد الشيخ محمد أكمل ـ، كان صاحب مكتبة عامرة، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ له غرام خاص باقتناء الكتب والعناية بها، وبذل الأثمان الغالية فيها، وشرائها مهما كلَّف ذلك! ذكره العلَّامة أحمد تيمور باشا ـ أثناء ترجمته لابنه المذكور ـ في كتابه «أعلام الفكر الإسلامي»[١] فقال: «كان جمَّاعة للكتب، مغالياً في اقتنائها، شراءً واستنساخاً، ينفق عليها جُلَّ ما يصل ليده!، ويحيي الليالي في مقابلة ما يستنسخه منها، وتصحيحه وضبطه»، ـ وبعد وفاته ـ قال تيمور: «وترك خزانة كتب كبيرة، قلَّ أن تُضارِعَها خزانة في نفائس الكتب ونوادر الأسفار، وهي التي أفنى عمره وماله في جمعها، وأتعب نفسه في تصحيحها وضبطها، وصَبْغِ الورق وصَقْلِه لنسخ ما كان يستنسخه منها، فوق ما كان يتكلَّفه من السعي في البحث عنها في الخزائن المهجورة وعند الورَّاقين، واتخذ له في داره مصنعاً للتجليد واستخدم عدَّة نُسَّاخٍ أَجرى عليهم المرتَّبات، فاختصُّوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه!».

وذكر تيمور من أخبار المترجم في اقتناء الكتب ما يشدُّ الانتباه ويستدعي الإعجاب، وذلك لغرابة ما ذكره وطريف ما أورده عنه في الاهتمام بها. فقال تيمور[٢]: «إنه بلغه أن تاجراً من الوراقين قدم من سفر بكتب أوصاه (عبد الحميد بك نافع)[٣] بجلبها له وبينها «ديوان

---

(١) (ص ٨٤ ـ ١٨٢).

(٢) «أعلام الفكر الإسلامي» (ص ١٨٤).

(٣) و(عبد الحميد بك نافع) هذا، ذكره العلَّامة أحمد تيمور في كتابه «أعلام الفكر الإسلامي» (ص ٢٠٤) فقال: «حُبِّبَ إليه اقتناءُ نفائس الكتب والمغالاة بها، فجمع خزانة =

البُحْتُرِيِّ»، وكان ـ إذ ذاك ـ لم يطبع، بل لا يُعرف في مصرَ إلا باسمه، فأسرع إليه وبذل له مالاً فوق قيمة الديوان، على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه، فرضي وأعاره إياه!

فلمَّا أتى به على داره أعطاه لمُجَلِّده ففكَّ له تجليده، وأحضر في الحال عدَّة نسَّاخ، فَرَّقَه عليهم كراريسَ فنسخوه وقابلوه، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردَّت النسخة الأصلية لصاحبها مجلَّدة كما كانت!. ثم قابله بعد ذلك (عبد الحميد بك) وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به، فقال له: خفِّض عليك يا أخي، هذا شيء أكلنا عليه وشربنا حتى مَجَجْناه، ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة!».

وقال تيمور أيضاً(١): «وبلغه مرَّة وهو يسمر مع أصحابه، أن بعضهم رأى عند فلان الورَّاق رسالة من الرسائل، وكان هو يتطلَّبها من زمن وينشدها فلا يجدها، فلم يسعه إلا أن قام في الحال، وأخذ يسأل عن دار الورَّاق من هنا وهناك، حتى اهتدى إليها بعدما مضى هزيع من الليل، فأيقظه من نومه!، وساومه في الرسالة بقيمة

= عظيمة منها شراءً واستنساخاً. وكانت له مع المُغالين بالكتب من فضلاء عصره نوادر وغرائب في التسابق لاقتنائها، وسمع به الورَّاقون فحملوها إليه من الآفاق، وهو يسخو عليهم، ولا يُماكِس في الأثمان، حتى صارت خزانة كتبه يضرب بها المثل. وكان يُجاريه في ذلك عبد الغني فكري بك ـ يعني المترجَم ـ. انتهى. وقال (ص ١٨٤): وكان هو ـ أي المترجَم ـ وعبد الحميد بك نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان في ذلك ويتسابقان!». انتهى. أي: يتنافسان في اقتناء الكتب.

(١) «أعلام الفكر الإسلامي» (ص ١٨٥).

فوق قيمتها!، ولم يمهله للصباح، بل أنزلـه من الدَّار وذهب معه إلى حانوته، ففتحه ليلاً وأخرجها له، ولـم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده!».

192 وقال العلَّامة محمد المبارك في ترجمة شيخه الإمام محمد بدر الدين الحسني، (المولود سنة ١٢٦٧، والمتوفَّى سنة ١٣٥٤) ـ كما في كتاب «رجال فقدناهم»[١] ـ: «وقد أورثه شـغفه في البحث وتطلُّعه إلى معرفة ما دوَّن الأوائـل ولوعاً في جمع الكتب علـى اختلاف أنواعها ومواضيعها، ومغالاةً في شرائها واقتنائها، حتى إنه كان يدفع في الكتب النادرة أثماناً عالية، وقد بلغنا أنه اشترى كتاباً مخطوطاً بخمسمئة دينار ذهبي!.. إلخ».

193 وقال الشـيخ أحمد الغُماري في كتابه «التصوُّر والتصديق بأخبار الشـيخ محمد بـن الصِّدِّيق»[٢]، وقـد أفرده فـي ترجمة أبيه محمد بن الصديق، (المولود سـنة ١٢٩٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧): «كان محبّاً للكتب، شديد الرغبة في اقتنائها وتحصيلها، ولو بالأثمان العالية، التي يُستغرب مِن دَفْعِها في مثل ما دُفِعَتْ فيه، ولو لم يكن ذلك الثمن متيسراً لديه، بل كان يستدين أو يبيع شيئاً من اللوازم الضرورية ليشتريَ ما احتاجه مـن الكتب!..، وكان إذا اشـترى كتاباً لا يـكاد يضعه في خزانته حتى يستوعبَه!».

---

(١) (٥٦/١).

(٢) (ص ٢٤).

194 وقال العلَّامة عبد الحـــي الكتاني في «فهرس الفهارس»[١]، في ترجمة العلَّامة أبي عبد الله سيدي محمد المكي بن عزوز، (المولود سنة ١٢٧٠، والمتوفَّى ســنة ١٣٣٤): «صديقنا العلَّامة المحدِّث المقرئ الفلكي الفَرَضِــيُّ الصوفيُّ..، هذا الرجل مســند أفريقية ونادرتها.. مع الاطلاع على الخبايا والغرائب من الفنون والكتب، والرحلة الواسعة، وكثرة الشــيوخ..، اشــترى ثبت السَّــقَّاط بأربعين ريالاً!.. وهذا بذل عجيب بالنسبة لحاله!».

195 وقــال الشــيخ حمَّــاد المالــي الأفريقــي المشــهور (بالأنصاري)[٢]: «إن أحد المشــايخ بالرياض اشترى كتباً بمليون ريال ما بين مخطوط ومطبوع!». وقال: «اشــترى المشايخ في البلاد ـ يعني مالي ـ «القاموس المحيط» في اللغة من رجل بناقتين! قال: وهذا يُعدُّ شــيئاً كثيراً!. وقال: كنا في البلاد نتناوب الكتاب الواحد مئة رجل!، وذلك لعدم توفر الكتب، وكنا نقســم الكتاب الواحد إلى ملازم، كل شخص يأخذ ملزمة ويقرأها ويحفظها!».

196 وقــد يحصــل للعالــم فرحة لا تقــدَّر بمــال ولا جوهر، ولا يعادلها فرحةُ مَنْ وجد كنزاً أو حاز مُلكاً! وذلك إذا ما حصل على كتاب طال بحثه عنه، وكثر تفتيشــه عليه منذ أمد بعيد، ثم ساقته عناية الله إلى طريق الكتاب والظَّفر به، فأيُّ فرحة يومها يفرح، وأي ســعادة حينها تغمر قلبه؟!

---

(١) (ص٨٥٦).

(٢) «المجموع» في ترجمة الأنصاري (٤٢٩/١ ـ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).

197 فهذا العلَّامة المؤرِّخ الشيخ كامل بن حسين الغَزِّي البابي الحلبي، (المولود ١٢٧١، والمتوفَّى ١٣٥١) صاحب كتاب «نهر الذهب في تاريخ حلب»، يحدِّثنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قصته الطريفة التي وقعت له أثناء اشتغاله بتأليف كتابه «نهر الذهب»، المتعلِّقة بحصوله على كتاب «كنوز الذهب»[١] والذي كان يبحث عنه منذ سنين طويلة! فقال[٢]: «من الصدف الغريبة التي صادفتني، أنني بقية مدَّة طويلة أبحث عن كتاب «كنوز الذهب» فلم أظفر به، ومضى على ذلك أعوام وقد يئست من الظَّفر به، إلى أن كنت يوماً من الأيام مارّاً في سوق من أسواق حلب، إذ بصرت بامرأة عجوز، يدلُّ إزارُها على فقرها، وفي يدها كتاب يلوح عليه القدم، فاستوقفتها، وقلت لها: ما هذا الكتاب؟ أجابتني بقولها: قصة حلب!. فتناولته من يدها، وسرعان ما فتحته وقرأت من خطبته سطوراً فإذا هو ضالَّتي المنشودة، هو كتاب «كنوز الذهب» بخطِّ مؤلِّفه!، فقلت: بكم تبيعينه؟ قالت: دفع إليَّ به بائع الكتب خمسة قروش وأنا لا أبيعه إلا بعشرة قروش، فنقدتها عشرة القروش وأخذت الكتاب، ولو أنها طلبت مني ثمنه ألف قرش لما استكثرتها!».

يقول ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنه يعرف قيمة الكتاب، وأن الظفر بمثله لا يقدَّر بمال ولا ذهب، وهذا الحال خاص بمن خالط العلمُ لحمَه ودمه، وأصبح همُّه أن يظفر بكتاب يجري فيه نظره مع سطوره، وأنفاسُه مع كلماته.

---

(١) المقصود كتاب: «كنوز الذهب في تاريخ حلب» لمؤلِّفه سِبط ابن العجمي الحلبي، المتوفَّى ٨٤٤هـ.

(٢) «نهر الذهب في تاريخ حلب» (١٧٢/١).

198 ومثل هذه الحادثة وقعت مع الشيخ العلَّامة الفقيه الشافعي الأصولي عيسى مَنُّون المقدسـي، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٧٦)، قال تلميذه العلَّامـة عبد الفتاح أبو غدَّة في ترجمته في كتاب «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي»(١): «لقد كان للشيخ غرامٌ فريدٌ بحُبِّ الكتب واقتنائها، وانتقائها، والمطالعة فيها، **فكان لا يحجُبُه غلاءُ ثمنٍ لكتاب عن شرائه، ولو ضاقت ذاتُ يده بذلك،** فتكون لديه مكتبة حاوية لكلِّ نفيس وهام. وكان مما ظَفِرَ به الشـيخ أنِ اشترى من بائع كتب متجوِّل كرَّاسات مخطوطة، من كتاب لا يدري ما هو، فلما أخذها وأمعن النظر فيها راعَه ما فيها من علم جَـمٍّ، وتحقيق عجيب، وبيانٍ ساحر أخَّاذ، فما زال يتقصَّى شأنها ويَتقرَّى أصلَها ومنشأها، حتى علم أنها قطعةٌ من كتاب «المجموع» للإمام النوويِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في مذهب الإمام الشافعي، **فامتلأت نفسُـه سُـروراً بالحصول على هذا الكنز الثمين، وفَرِحَ به فرحَ الغريب بأَوْبَتِه من غُرْبَتِـه، إلى بلده وأعزِّ أحبَّتِه،** فوجَّه عنايته إليها، ونسـخها بخطه اللؤلؤي الجميل، فجاءت مجلداً كبيراً. وأخذ يَعرِضُها على كبار العلمـاء ويَحُضُّهم على طبع الكتاب بكامله ليعُمَّ نفعُه»(٢).

---

(١) (ص ٢٤٠).

(٢) قال العلَّامـة عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ: «وطبع القسم الذي شرحه الإمام النوويُّ من كتاب «المهذَّب» لأبي إسحاق الشـيرازي وسـمَّاه «المجموع»، فبلغ هذا القسم تسعة أسفار ضخام..، ورأى الشيخ عيسـى أن هذا الكتاب الجليل (المهذَّب) بقي ناقصاً من إتمام شرحه، فما استراح لهذا الانقطاع الذي اسـتقرَّ عليه الكتاب، فرأى أن يقوم هو بإكماله شرحاً، وإتمامه إخراجاً وطبعاً،.. وقد أنجز الشيخ من هذا التأليف العظيم، نحواً من مئة =

199 وهذا العلَّامة المحقِّق المسند أحمد رافع الطهطاوي، (المولود سنة ١٢٧٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٥)، قد جمع من شيوخ القاضي عياض نحو السبعين، فعجز عن الوقوف لتراجم لهم بعد البحث الشديد! والطهطاوي هو الطهطاوي في البحث والتحرِّي!، ولما حصل على نسخة من «معجم القاضي عياض» قال تلميذه الشيخ أحمد بن الصدِّيق الغماري: «**فطار بها فرحاً!**». كما في «البحر العميق»(١).

200 وهذا العلَّامة المحدِّث المؤرِّخ اللغويُّ المحقِّق الشيخ عبد الفتاح بن محمد بن بشير بن حسن أبو غدة الخالديُّ المخزوميُّ الشاميُّ، (المولود سنة ١٣٣٦، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، أحد عشَّاق الكتب، وقد بذل غاية جهده وأنفس ماله في اقتنائها وجلبها من الأماكن البعيدة، وبأي شكل من الأشكال، وعلى أي صورة كانت،

= كُرَّاس من القطع الكبير، والكُرَّاسُ منها يقع في أربعين صفحة. ولكنَّ إرادةَ الله سابقة، فقد انتهى الأجلُ قبل بلوغ الأمل!». انتهى.

قلت: و«المهذَّب» ـ على عادته ـ قبل أن يكتمل شرحه يموت شارحه! وفي هذا يقول العلَّامة الإمام السخاويُّ في كتابه «المنهل العذب الرَوِيُّ في ترجمة قطب الأولياء النوويِّ» (ص٣٠): «ولم يتهيَّأ إكمالُه لأحد ممن انتدب لذلك، لا العماد إسماعيل الحُسباني، ولا التاج السبكي، ولا الشهاب ابن النقيب، ولا السراج البُلقيني؛ وسمَّاه «الينبوع في تكملة المجموع»، كتب منه مجلداً من النكاح، ولا الزين العراقي، ولا ولده، رحمة الله عليهم أجمعين، وعُدَّ ذلك من كرامات مؤلِّفه!. وكتب الكمال جعفر الإدفوي على مقدمة «شرح المهذَّب» أشياء حسنة، وزاد أموراً مهمة. وشرع شيخنا في نكت عليه، فكتب يسيراً من أوائلها» انتهى.

ولم يتَّفق حتى مضى لسبيله ... وكم حسراتٍ في بطون المقابر

(١) (١٢٣/١).

ولو كلَّفه ذلك ما كلَّف، وربما سافر آلاف الأميال وضرب في أصقاع الأرض، ليحصل على كتاب سمع بوجوده في مكان ما على وجه الكرة الأرضية.

يقول ابنه الأستاذ محمد زاهد: «سافر بالسيارة إلى البصرة، ثم أبحر منها بالباخرة إلى مومباي، ثم تجوَّل بعدها في الهند وباكستان، ولمَّا رجع عاد ومعه أحمال من الكتب بقَدْر ما تتحمَّل الطائرة، وما لبثت أن تلتها صناديق شحنها من الهند وباكستان، إلى جانب ما كان يأتي به أفراد جماعة التبليغ الذين يزورون حلب في خروجهم للدعوة إلى الله!». وقد يبذل فيها الأثمان العالية، ويجزل فيها العطاء، وقد قال لابنه وهو طريح الفراش في مشفى العيون، بشأن إحضار نسخة ابن قمر التي هي مسودَّة الحافظ ابن حجر لكتابه (لسان الميزان): «لا تهتم بأمر التكلفة، فإنه ينبغي إحضارها مهما كلَّفت!»[1].

وهو الذي باع شالته ـ وهي قطعة نفيسة من الصوف الناعم كانت من أعز المتاع على قلبه ـ التي ورثها عن والده ليشتريَ بها بعض الكتب النادرة!. بل كان يقول: «وكنت بعض الأحيان أنذر لله تعالى صلاة كذا وكذا ركعة، إذا حصلت على الكتاب الفلاني!»[2].

وحصَل له من الكُتب ما لا عينُ أحدٍ من طلبةِ العلم في عصرنا رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطَر على قلْب أحدٍ مِن أقرانه، يقول الأستاذ الكبير

(١) «لسان الميزان» (٨/١).

(٢) «صفحات من صبر العلماء» (ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

محمد رجب البيومي: «وقرأ من نفائس المخطوطات عربية ودينية ما عزَّ على غيره أن يسمع باسمه، فضلاً عن أن يقرأ صحيفة منه!»[١].

وصار له في ذلك حكاياتٌ وأخبار تُعَدُّ من العجائب وتفرَّد في باب الغرائب، منها قصته الشهيرة مع كتاب: «فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقاية» للعلَّامة الشيخ عليٍّ القاري، الذي سعى غاية السعي في اقتنائه، بل كان في طلبه له كالملهوف الذي يبحث عن ولده وفلذة كبده، بما حيَّر العقول وأدهش الفحول، وأنا أسوقها بطولها لطرافتها، ودلالتها أيضاً، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في كتاب الماتع: «صفحات من صبر العلماء» -[٢]:

«كنت في أيام الطلب والتحصيل مُمْلَقاً[٣] كأكثر طلبة العلم، وكنت أشتري من الكتب ما أستطيع شراءه بالاقتطاع من نفقتي الضيقة، بالنقد الحاضر، أو بالدَّيْنِ الآجل إذا أمكن.

وَعَرَضت لي يوماً بعضُ كتبٍ نادرة تهمني جدًّاً، ورغبت في اقتنائها، ولكني كنت في إملاق شديد، فلا سبيل إلى شرائها! وقلق قلبي وخاطري من جرَّاء ذلك، فبعت (شالتي) التي ورثتها من أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في (سوق الحراج)، واشتريت تلك الكتب، وأرحت قلبي وخاطري، وفرحت باقتنائها ووصولي إليها فرحاً عظيماً أنساني فقد (الشالة) والحمد لله.

---

(١) «إمداد الفتاح» (ص ١٠٤).

(٢) (ص ٢٧٨).

(٣) أَمْلَق يُمْلِقُ إملاقاً، فهو مُمْلَقٌ؛ أي مُفتقِر من كثرة الإنفاق، والإملاق: الفقرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١].

وكنت في بعض الأحيان أنذر لله تعالى صلاة كذا وكذا ركعة، إذا حصلت على الكتاب الفلاني، ووقعت لي واقعة في شأن الحصول على كتابٍ، أسجّلها هنا ـ استطراداً ـ لطرافتها:

لما كنت في القاهرة أيام دراستي في كلية الشريعة بالجامع الأزهر، أوصاني شيخنا العلّامة الإمام محمد زاهد الكوثريُّ رحمه الله تعالى خلال ملازمتي له، باقتناء كتاب: «فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقاية» للعلّامة الشيخ علي القاري، وحضّني على الحصول عليه حضّاً أكيداً وكثيراً، مع علمه أني من هواة الكتب النادرة النافعة، وكنت أظنُّ أنه مطبوع في الهند، وقد مكثت في القاهرة ستَّ سنوات حتى إنهاء دراستي أسأل عنه، وأنشده في كلِّ مكتبة أقدِّر وجودَه فيها، فلم أظفر منه بخبر ولا أثر، ولما عدت إلى بلدي حلب، ما فتئت أبحث عنه أيضاً في كل بلد أزوره، أو مكتبة أرتادها، ولما كنت أظنه مطبوعاً في الهند، وكان هو من كتب فقه السادة الحنفية، كنت أسأل الكُتْبِيِّين عن مطبوعات الهند في الفقه الحنفي عامةً، لعلي أصل إليه بهذه الطريقة؛ إذ قد يجهلون اسمه، وكان في دمشق كتبيُّون قدماءُ خبراء في الكتب القديمة والنفيسة، وعندهم من قديمها ونفيسها الكثير، ولكنهم يُغالون به، ويتشدَّدون في بيعه، منهم السيد عزَّت القُصَيباتي ووالدُه، والشيخ حمدي السَّفَرجَلاني، والسيد أحمد عبيد.

فسألت السيد عزَّت القصيباتي عن «فتح باب العناية» على أنه من مطبوعات الهند، فقال: هو عندي، وأخرج لي كتاب (البناية بشرح الهداية) للإمام العيني، المطبوع في الهند من مئة عام سنة (١٢٩٣هـ)،

في ست مجلداتٍ ضِخام كبار جدّاً، وكان هذا الكتاب أحد الكتب النادرة النفيسة التي أبحث عنها، فاشتريته بثمنٍ غير مُغالى فيه؛ إذ كان غيرَ الكتاب المطلوبِ الذي سمَّيته له، ثم سألت الشيخ حمدي السفرجلاني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عن الكتاب، فعلمت منه أنه مطبوع في قزان من بلاد روسيا، وأنه أندَرُ من الكبريت الأحمر كما يقال، وأنه طولَ حياته واشتغاله بالكتب ما مرَّ به منه سوى نسخة واحدة، كان قد باعها للعلَّامة الكوثري بأغلى الأثمان التي لا تُعقل، فعند ذلك تعيَّن عندي البلد الذي طبع فيه الكتاب، وضعف أملي بالحصول عليه!

ولما أتاح الله لي حجَّ بيته الكريم أول مرة عام (١٣٧٦هـ) ودخلت مكة المكرمة، طفقت أسأل عنه في مكتباتها، لعلي أجده قادماً مع أحد المهاجرين من تلك البلاد إلى بلد الله الحرام، فلم أوفَّق لذلك.

ثم ساقتني عناية الله تعالى إلى كُتُبِيٍّ قديم مُنْزَوٍ في بعض الأسواق المتواضعة في مكة المكرمة، وهو الشيخ المصطفى بن محمد الشنقيطي سلَّمه الله تعالى، فاشتريت منه بعض الكتب، وسألتُه ـ على يأسٍ ـ عنه، فقال لي: كان عندي من نحو أسبوع، اشتريتُه من تركة بعض العلماء البخاريِّين، وبعته لرجل من بُخارَى من علماء طشقند بثمنٍ كريم، فما كدت أُصدِّقه حتى جعل يصفه لي وصفاً مُثبِتاً لمعرفته به، وأنه الكتاب الذي ألُوبُ عليه، وأسعى منذ دهر إليه!

فقلت: مَن هذا العالم الطَّشقندي الذي اشتراه؟ فجعل يتذكَّره تذكُّراً ويسمِّيه لي: (الشيخ عِناية الله الطشقندي)، فقلت: أين مسكنه أو محلُّ عمله أو مُلتقاه؟ قال: لا أدري عن ذلك شيئاً، فقلت: كيف

أسأل عنه؟ قال: لا أدري، فازددت عند ذلك يأساً من الحصول عليه، أو لقاء مشتريه!

فذهبت بعد هذا أسأل عن (الشـيخ عناية الله) كلَّ بخاريٍّ أراه في المسـجد الحرام، أو في أسـواق مكة، وصرت أذهب إلى المدارس والرُّبط التي يقال لي: فيها بخاريُّون؛ لأسأل عن هذا الشيخ البخاريِّ، حتى ذهبت إلى الأحيـاء الواقعة خارج مكة، إذ قيـل لي: فيها بعض البخاريِّين، ولكن هيهات اللقاء بالمنشـود عنه! وكم في مكة المكرمة من البخاريِّين الذين يُسمَّون: عناية الله.

ثم أوصلني السؤال المتتابع إلى الشـيخ عبد القادر الطشقندي البخاري السـاعاتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في جهـة حيِّ جَرْوَل مـن أطراف مكة، فسألته عن الشيخ الطشـقندي، فعرَفه، وعيَّن لي اسمه: (الشيخ مير عناية الطشـقندي)، ولكن لا علم له بمسـتقرِّه وملتقاه، فعند ذلك غلبني اليأس من لقاء هذا الشـيخ الذي عنده «فتـح باب العناية»! فصرت في أثنـاء طوافي حول الكعبـة المعظَّمة زادها الله تشـريفاً وتعظيماً: أطلب من الله تعالى أن يرشدني إلى ذلك الإنسان، وييسر لي اقتناء هذا الكتاب، وصرت أكـرِّرُ هذا الدعاء والطلب مرات تلو مرات، ومضى أسبوع وأنا ـ عَلِمَ اللهُ ـ في تشتُّتِ بالٍ من حال البحث عن الكتاب وصاحبه.

حتى كنت يوماً أمشي في سـوق زيادة من أبواب المسجد الحرام قبل توسعة المسجد، فرآني تاجرٌ دمشقيٌّ قديمٌ في مكة المكرمة، يقال له: أبو عرب، كان له متجر هناك، فدعاني إلى متجره لما رآني شـاميَّ

السَّحنة والمظهر، يُسائلُني عن الشام وأهلها، فسألته من شدة هوسي بالكتاب ـ وهو تاجر دمشقي شامي ـ عن الشيخ البخاري؟! فقال لي: هذا خَتَنُه زوجُ ابنته في الدكان الذي أمامي، وهو أعرف الناس به، فوالله ما كدت أصدق ذلك فرحاً وسروراً.

فذهبت إلى خَتَنِه وسألته عنه، فاستغرب قائلاً: ما الذي يدعوك للسؤال عنه وإلى لقائه؟ قلت: صار لي أكثر من أسبوع وأنا دائب البحث عنه، فدُلَّني عليه جزاك الله خيراً، فأرشدني إلى منزله بالتعيين في حيِّ المِسْفَلة، جوارَ قهوة السَّقِيفة، فذهبت إليه مرة بعد مرة ليلاً ونهاراً، حتى لقيته، فتنازل لي عن الكتاب بالثمن الذي اختارَ وأحبَّ، فكانت عندي فرحة من فرحات العمر». انتهى.

هذا التعلُّق الشديد لاقتناء الكتاب، من مثل الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، والتعب الذي يشتَدُّ في نَفْسِه، واليأس الكاتم على أمله، مع تشتُّت البال لكثرة السؤال المتكرِّر منه في الليل والنهار، وتعذُّر لقاء مشتريه والوقوف عليه..، ورغم هذا فإنه لا يَكَلُّ ولا يَمَلُّ في البحث عن مُقتني الكتاب، ولم يحبطه اليأس، ولم يمنعه جهالة اسمه أو تشابهه من السؤال عنه، فظل ينشده ويطلبه، وبقي يدعو الله ـ عند الكعبة ـ أن يجد ما يؤمِّله، إلى أن هداه الله إلى مشتريه، وفرح لذلك فرحاً كبيراً.

وأمثال هذه الوقائع أكثر من أن تحصر وتستقصى، ولو أردنا استيعابها لأعيانا الالتزام وسئم الناظرون، وإنما أردنا رشحة من رشحاته، ونموذجاً من بدائع خصائصه.. وإنما يلمسها المتصفِّح

المفلِّــي، وكذا الأخ المتتبِّــع المجلّي، بل يقف عليهــا كل قارئ نبيه متسلٍّ، فرحم الله الشيخ عبد الفتاح رحمة واسعة.

201 وكثيراً ما تجد الحســرة على العلماء باديــة، وأثرها على وجوههم ظاهرة، لأجل كتاب نادر فرَّط فيه أصحابه، أو لمكتبة نفيسة باعها أصحابها بأبخــس الأثمان، وأقــل الأوزان، فلا يعرفون قيمتها، ولا يدرون مكانتها، ولا كم تعب مورِّثُهم فــي جمعها حتى يجمعها، فإذا ما مات أو لاحت لهم الفرصة إلى بيعها باعوها غير آسفين عليها!

202 ولقد شنَّ العلّامة المؤرِّخ الشيخ كامل بن حسين الغزي ـ المتقدِّم ذكــره ـ في كتابه «نهر الذهب في تاريخ حلب»[1]، شــنَّ غارة شــديدة اللَّوم على العوامِّ الذين لا يَقْدِرون الكتاب قَدْره، ولا يُنزلونه منزلته، فيفرِّطون به لأدنى قروش هزيلة لا تغني ولا تســمن من جوع، حيث قال ـ والحســرة تأكل قلبه ـ: «الكتب الخطية النــادرة التي إذا بحثت عنها وجدتها في زوايا الإهمال والنســيان في بيوت جماعة من جهلة العامَّة، قد هبطوا من أصلاب رجال كانوا يُعَدُّون من نبغاء العلم والأدب!، فخَلَفَ مِن بعدهم خَلْفٌ أهملوا العلم، وركبوا متن الجهل، وباعوا ما كان في خزائن أسلافهم من الكتب والأسفار، وبقي عندهم بقية عدُّوها مِن سَــقْطِ المتاع، حتى إذا ألفَتَتْهُم إليــه الصُّدَف، حملها واحد من أطفالهم أو واحدة من عجائزهم، وقصد بها باعة الكتب، أو الســوق العامة المعروفة بســوق الجمعة، حيث تباع السلع الرخيصة، فيبيعون منها ما قيمته ألف قرش مثلاً بنصف قرش!».

---

(١) (١٧٢/١).

قلت: وشاهد هذا ـ يعني في التفريط بالكتب وعدم الاهتمام بها، بل وبيعها بأقل الأثمان ـ يحدِّثنا بـه العلَّامة علي الطنطاوي كما في كتاب «فصول في الثقافة والأدب»[1]: «وبيعت مرة تَرِكَةُ عالمٍ في دمشقَ بالمزاد، وكانت عنده كتب كثيرة، فجرَّد أولاده (وهم جهلة) الكتب المطبوعة المجلَّدة فاحتفظوا بها ثم أشعلوا النار بالباقي! وبينما كانت النار تأكل هذا الكنز الذي لا يقدَّر بثمن رأَوا بينها كتاباً فيه صورة ملونة أعجبتهم، فسلُّوه من وسط اللهب وقد احترق طرفه، وعرضوه على الورَّاقين، فإذا هو نسخة من «عجائب المخلوقات» للقَزْويني مكتوبة من أكثر من أربعمئة سنة، ميزتها أن فيها صوراً ملوَّنة مذهَّبة كأنما صُوِّرت الآن، لها قيمة فنية لا تقدَّر، فباعوه بمئة ليرة (يوم كان لليرة ميزتها)، وباعه الذي اشتراه للمتحف البريطاني بألف ومئتَي ليرة!».

قلت: وهذا العقوق الذي يقع من الأبناء على جهلهم وقلة معرفتهم بالكتب وقيمتها يُحمل على الغالب لا الكل، وإلا فقد وُجد من الأبناء بقية باقية، وبذرة خير صالحة، تعتني بها وتَعُدُّها كنزاً لا يقدَّر بثمن، وودُّوا لو يفتدونها بالنفس والمال معاً، فقد جاء في كتاب «آل القاسمي ونُبُوغهم في العلم والتحصيل»[2] للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي ما نصُّه: «وله ـ يعني الأستاذ ظافر القاسمي ابن العلَّامة المفسِّر جمال الدين القاسميِّ صاحبِ التفسير المشهور «محاسن

---

(١) (ص٩٢).

(٢) (ص١٥١ ـ ١٥٤).

التأويل» ـ قصة طريفة في طباعة هذا التفسير الجليل، فقال: ولطبع هذا الكتاب ـ «محاسن التأويل» ـ وإخراجه إلى النور قصة: ذلك أنني منذ أن أخذت في الإدراك والوعي، كنت أسمع في بيتنا: **أن كنزنا الذي لا يعدله كنز، هو هذا التفسير الذي أفنى الوالدُ عمرَه في تأليفه!** ووقعت لي حادثة أكّدت ذلك ـ أي أكّدت أنه كنز يُخاف عليه ـ فقد بتنا ذات ليلة في بيتنا الذي كان يقع في زقاق المكتبي ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق القديمة، وإذا مَدافع الفرنسيين تقصف المدينة القديمة وتحرقها بقنابلها، كان ذلك عام (١٩٢٥م)، ولم يغمض لنا جفن طول الليل.

وقبيل الفجر، أحسسنا في الحيِّ ضجيجاً غير معتاد، فخرجنا نتلمَّس الخبر، فرأينا الناس يزحفون من بيوتهم كيوم القيامة، فسألنا: إلى أين؟ قالوا: إلى حيِّ العمارة! قلنا: ولِمَ؟ قالوا: لأن قنصل الإنكليز مقيم فيها، ولا تجرؤ فرنسا على ضرب هذا الحيِّ بقنابلها.

وكان الناس يحملون في أيديهم ما غلا من متاعهم، فعدنا إلى البيت، ورأيت أخويَّ ـ رحمهما الله ـ (ضياء الدين ومسلَّم) يحمل كلٌّ واحد منهما خمساً من مجلَّدات التفسير الاثني عشر، ويترفَّقان بي فلا أحمل إلا مجلَّدَيْن، وننطلق جميعاً إلى حيِّ العمارة؛ حيث كانت تقيم شقيقة لنا. **إنه كنزنا الوحيد!**، وليس في البيت ما يستحقُّ الإنقاذ إلا هذا التفسير!

وبَقِيَتْ في ذهني هذه الصورة حتى اليوم، كأروع ما تكون الصُّور، في الحرص على مخلَّفات الآباء للأبناء!».

ثم قال: «إن هذا الكتاب لم يـرَ النور منذ أكثر من أربعين عاماً ـ لأن الناس يستثقلون نفقاته لجهالتهم قيمته! ـ، فماذا لو بقي أياماً أُخر.. واتَّصلت بالأخ السيد محمد الحلبي، وحدَّثته في الكتاب، ودفعته إليه، فاستمهلني أياماً جاء بعدها يقول: لقد قرَّرت أن أطبع الكتاب على نفقتي، فقد سألت خبيري، وقال لي: **هذا كنز ينبغي ألَّا يفوتني!**. قلت: مَنْ خبيرك؟ قال: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. فلم أشعر إلا والدَّمع قد انحدر من عينيَّ، وقلت: **لا يمكن أن يضيع الفضل، ولو غيَّبته ظُلمات خزائن الكتب أربعين عاماً، أو ألف عام!**».

203 وكان العلَّامة اللغويُّ أحمد فارس الشِّدْيَاق، (المولود سنة ١٢١٩، والمتوفَّى سنة ١٣٠٤) يعيب على أغنياء بلاده من العرب أن يملؤوا قصورهم ودورهم بفاخر الثياب، ونفيس الحُلِيِّ، وثمين التُّحف، وغالي الفِراء...، ثم يضنُّوا بقليل من المال ينفقونه على الكتب والمطابع.

وفي هذا يقول في كتابه «**الساق على الساق**»[1]: «ليت شِعري! أليس وجودُ مئةِ كتابٍ بدارك في الأقل خيراً من وجود كذا وكذا قصبة للتبغ، وكذا وكذا أركيلة، مع أن ثمن الكتاب لا يوازي ثمن ثلاث قطع من الكهرباء، أليس وجود مطبعة في بلادك أَوْلى من هذه الطيالس الكشميرية، وتلك الفِراء السمونية، وهذه الآنية النفيسة والحُلِيِّ الفاخر، فإن الإنسان إذا نظر إلى الحُلِيِّ لا يستفيد منه شيئاً لا لبدنه ولا لرأسه،

---

(١) (ص ٥٢٣).

وغاية فرحه به إنما هو الشهر الذي اشــتراه فيه، فإذا مضت عليه أشهر استوى عنده وسَقْطَ المتاع، فلم يبق منه ما يسره من وجوده سوى بيعه، أما الكتاب فإنه كلما مرَّت عليه السنون زادت قيمته وكثرت منافعه!». صدق واللهِ، ويا ليت قومي يعلمون!

وقال الأستاذ عبد الغني حسن في كتابه «أحمد فارس الشدياق»[1]: «لقد ظل الشــدياق يحلم بشــيئين اثنين فــي حياتــه: المطبعة أولاً، والكتاب ثانياً!».

والحديث حول الكتاب، والاهتمام بشــأنه، والمغــالاة في ثمنه، طويل شائق، وأكتفي بما تقدَّم إيراده.

❋ ❋ ❋

(١) (ص ١٥٠ ـ ١٥١).

الفصل العاشر

في همَّتهم في مصاحبة الكتاب

204 بعض الكتب يجعل الله لها قبولاً، وبين الناس رواجاً، تفعل فعلها في قارئها، فلا يؤثِّر فيه سواها، ولا يُستغنى عنها بغيرها، لذلك تجد العالِم منصبّاً على قراءتها عاكفاً على تدبُّرها، لا يدير وجهه عنها أبداً! بل يديم مصاحبتها في سفره ومقامه، في ليله ونهاره، لِمَا لها من التأثير النافذ على قلبه ونفسه وعقله، بل تفعل في مُحِبِّها فعلَ السحر الحلال في النفوس! وقد تُغَيِّر مجرى حياته كما فعل كتاب «القاموس المحيط» مع صديقه العلَّامة أحمد فارس الشدياق، أو كتاب «البيان والتبيين» مع خليله العلَّامة محمود الطناحي، أو كتاب «الأم» مع رفيقه أحمد بك الحسيني.. وغيرهم.

واستمع إلى ما يقوله العلَّامة محمود الطناحي ـ كما في كتاب «مقالات الطناحي»[1] ـ عمَّا تفعله الكتب بأصحابها: «الكتب كالبشر، منها ما تعرفه ثم لا تطيقه فتلفظه، ومنها ما تأنس به ساعة من نهار، وقد تؤمِّل فيه خيراً فتستبقيه في ركن من نفسك، علَّك أن تعود إليه يوماً، لكنك تكتشف من قريب أنه ليس بذاك فتُعرض عنه، ومنها

(١) (ص ٥٢٢).

ما يخطف بصرك ويعلَق بقلبك فإذا أنت منجـذب إليه ومعقود به، لا تكاد تُدير وجهك عنـه، وكأنه (سـالم) ذلك الـذي يقول فيه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

يُديرونني عن سالمٍ وأُدِيرُهم وجِلْدَةُ بينَ العينِ والأنفِ سالمُ»[١]

وقال العلَّامة أبو الحسن النَّدْوي وهو يتحدَّث عن الأثر الذي تركَتْه في نفسه بعض الكتب بعينها ـ كما في كتابه «شخصيات وكتب»[٢] ـ: «الكتب التي يعيش فيها الإنسان، ويعيش مع مؤلِّفيها مدة من الزمن، وتمتزج بنفسه وروحه، وتؤثِّر في عقله وحياته، لَقليلة نادرة في كلِّ زمان ومكان، وما هذه الكتب المعدودة إلا كما قال المتنبي:

وما الخيلُ إلا كالصديقِ قليلةٌ وإنْ كَثُرَتْ في عينِ مَن لا يُجَرِّبُ

كتبٌ يلذُّ لي الحديث عنها؛ لأنه حديث عن كتب أنشطت النفس والفكر مدَّة طويلة، وبعثت في النفس الأماني اللذيذة، والمطامح البعيدة، وإنها كالأماني المعسولة إذا لم تتحقَّق، فقد أدخلت السرور على النفس وطابت بها الأيام.

مُنىً إن تكن حقّاً تكن أحسنَ المُنى وإلَّا فقد عِشْنا بها زمناً رَغْدَا»

وبعض الكتب لكثرة عناية أصحابها بها تراها كثيرة الحواشي والتعليقات، وهذا يعكس مدى اهتمامهم بها وكثرة مطالعتهم لها.

---

(١) قصد ابن عمر رضي الله عنهما أن سالماً ابنَه عنده بمنزلة الجِلدة التي بين العين والأنف؛ من عظيم محبته له، وقد يكون أول قائل لذلك زهير بن أبي سلمى، حين رثا ولده سالماً، ثمَّ صار يُتَمَثَّلُ به في شدَّة المحبة.

(٢) (ص١٢٦).

بل في مصاحبة الكتاب وملازمته معرفة تامة بالمؤلِّف وفكره ومنهجه، وبالكتاب أسرارِه وخفاياه، ومداخلِه ومخارِجه، ومنزلتِه بين كتب فنِّه.

وهكذا فليكن طالب العلم مُديم المصاحبة للكتاب، وعليه أن يختصَّ بكتاب بعينه يحدِّده له شيخه، أو معرفتُه الواعية، أو احتياجه الخاصُّ، حتى لا يقع في المحظور الذي حذَّر منه العلماء؛ لأن العلم دين فلينظر أحدكم عمَّن يأخذ دينه، قال العلَّامة علي الطنطاوي ـ كما في كتاب «فصول في الثقافة والأدب»[1] ـ: «المهم حُسْنُ اختيار الكتاب، فالكتب مثل الأطعمة، فيها النافع وفيها الضار، ومنها المغذِّي المفيد، وما هو كثير الدَّسَم عظيم النفع ولكن لا تشتهيه النفس، وما هو مُشَهٍّ لذيذ ولكنْ لا ينفع، ومنها السُّمُّ القاتل، ومنها ما هو سُمٌّ ولكن ملفوف بغشاء من السُّكَّر، فمن انخدع بحلاوة الغشاء قتله السُّمُّ!.. ومن الكتب ما يُدخل الجنة ومنها ما يُدخل النار، فلينتبه الطالب، وليسأل مَنْ يثق به من المدرِّسين والعلماء، وإلا كان تَرْكُ المطالعة خيراً منها!».

ثم إذا ما اختار الكتاب أو حدَّد واحداً بعينه، فليُكثر مطالعته، وليُدم قراءته، مرَّات ومرَّات، وليعمل على تعليمه وتدريسه، بل يُصاحبه في سفره وحضره، وليُكثر من التقريرات والحواشي عليه، وإذا دفعته همَّته ـ مع طول الملازمة ومرور السنين والأيام ـ إلى شرحه شرحاً طيِّباً فليفعل؛ لأنه من أكثر الناس معرفة به وخبرة له وسَبراً لمادَّته، وإياه أن يتوانى عن ذلك! فقد يأتي شرحُه أوفى الشروح وأحسنَها، وإلا بِمَ تفسِّر شرح الحافظ ابن حجر «لصحيح البخاري»؟ ما هذا إلا لكثرة عنايته به،

---

(١) (ص ١٨٢).

وتدريسه له، فجاء شرحه وافياً لا مثيل له، حتى قيل عنه: (لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ) على ما يقوله العلَّامة الشـوكاني، وكذا فعل ابن عابدين الحنفي مع حاشيته الشهيرة على «الدُّرِّ المختار» حتى عُدَّ لأجلها خاتمة مجتهدي الحنفية، وهكذا كان شرح الشوكانيِّ على «منتقى الأخبار»، وشرح الأمير الصنعاني على «بلوغ المرام»، وشرح السيد المرصفي لكتاب «الكامل» للمبرِّد، وكذا شرح السُّبكي «لسنن أبي داود»...، وغيرهم كثير.

وربمـا فتح عليك الكتـاب أبواباً جديـدة من المعرفة، فتتوسَّـع مداركك، وقد يشـدُّك إلى قراءة كتب أخرى تدلُّـك على أقفال مغلقة فتفتحها، وعلى بطاح مجهولة ـ لم تُسبق إليها ـ فتَرِدها. فتصبح صاحب السَّبْق الأول في هذا!.. وهكذا.

وإليك سرد بعض نماذج وقفت عليها:

205 فهذا العلَّامـة المحقِّق اللغويُّ الأسـتاذ محمود الطناحي، (المولود سنة ١٣٥٣، والمتوفَّى سـنة ١٤١٩) الذي صَاحَبَ كتابَ «البيان والتبييـن» للجاحظ مصاحبةً أثَّـرت في حياته العلميـة تأثيراً كاملاً!، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كما في «مقالات الطناحي»[1]، تحت عنوان: أجمل كتاب في حياتي: «البيان والتبيين» للجاحظ ـ: «ولهذا الكتاب في حياتي أثر ضخم، فهـو الذي قادني إلى كتـب الجاحظ الأخـرى، فقرأتها كلمة كلمة..، ثم **هو الذي جذبني إلى كتب العربية الأخرى**، ومن قبل ذلك ومن بعد **هو الذي أذاقني حـلاوة البيان العربي**، وهو الذي هداني إلى

---

(١) (ص ٥٢٧).

الأنغام الجليلة الفخمة المترقرقة من مختار الكلام: شعراً موزوناً معقوداً بقوافٍ مُحكَمة، ونثراً مصقولاً مسنوناً يتهادى بالحرف العربي مشرقاً وضيئاً متَّسقاً لينصبَّ في السمع، ويتولَّج في القلب، فيُحدث تلك النشوة الغامرة، ويمتلك بذلك الطرب المؤنس الودود!».

206 وهذا الأستاذ العلَّامة اللغويُّ محمد محمود التُّرْكزي الشنقيطي، (المولود سنة ١٢٤٥، والمتوفَّى سنة ١٣٢٢)، الذي صَاحَبَ كتاب «المخصَّص» لابن سِيدَه، حتى كاد أن يموت لأجله!، يقول تلميذه العلَّامة أحمد تيمور في كتابه «أعلام الفكر الإسلامي»[1] في ترجمته: «هو الأستاذ العلَّامة الحُجَّة الثقة إمام اللغويِّين في عصره، شيخنا محمد محمود بن أحمد بن محمد التُّرْكزي الشنقيطي...، كان لا يملُّ المطالعة ليلاً ونهاراً، حتى أَضْنَتْهُ كثرة الجلوس، وسبَّبت له أمراضاً وآلاماً، ولا سيما لما اشتغل بتصحيح «المخصَّص»، وأنه كان يقابله مع شخص آخر، بمكان رطب في الطبقة السفلى من داره، فاشتدَّ به مرض الصدر، وألم الرثية في أطرافه، وكثيراً ما كان يقول: أنا قتيل «المخصَّص»، أنا قتيل الكتب!».

207 وهذا العلَّامة اللغويُّ أحمد فارس الشِّدْيَاق اللبناني، أحد أشهر لسانِيِّي العرب في القرن التاسع عشر، (المولود سنة ١٢١٩، والمتوفَّى سنة ١٣٠٤)، جاء في كتاب «أحمد فارس الشديَاق حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة»[2] للأستاذ محمد الهادي

(١) (ص ٣٦٩).

(٢) (ص ٤٦٢).

المطوي: «كانت مصاحبته الطويلة (للقاموس المحيط) سبباً من أسباب تخصُّصه في البحث اللغويِّ».

وقال الشدياق في بيان فضل القاموس ومؤلِّفِه عليه ـ كما في كتابه «سر الليال في القلب والإبدال»[1]: «إني أُشهِد اللهَ وهو على كلِّ شيء شهيد، أني لولا بركة «القاموس» وغوصي على جواهره، لما تعلَّمت من اللغة ما أوصلني إلى تحرير هذا الكتاب، فأنا مُقِرٌّ بما لصاحبه عليَّ من الفضل والمِنَّة، ولو كان حيَّاً في عصرنا هذا لما قام بخدمته غيري!».

كما أشاد بهذا الفضل في كتابه «الجاسوس على القاموس»[2]: «على أني معترف بأن لصاحب «القاموس» عليَّ فضلاً كبيراً، ومنه توجَّب أن أكون لها ـ أي اللغة ـ شكوراً، فإنه هو الذي ألجأني إلى الخوض في بحر اللغة الزاخر لاستخراج جوهرها الفاخر، بغير عزم فاتر، وجِدٍّ غير عاثر، حتى أبرزته عِياناً للناظر».

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحفظ «القاموس المحيط» عن ظهر قلب!، قال الأستاذ عبد الغني حسن في كتابه «أحمد فارس الشدياق»[3]: «ويروي الشدياق لنا أنه كان يحمل معه كتاب «القاموس المحيط» في أسفاره، والواقع أنه لم يكن في حاجة إلى حمله، فقد حفظه كلَّه عن ظهر قلب حتى أصبح قاموساً متنقِّلاً!. ولم يحمل الرجلَ على ذلك العناءِ المرير إلا حبُّه الشديد للُّغة العربية!».

---

(١) (ص٢١).
(٢) (ص٦).
(٣) (ص١٤٠).

208 وقال العلَّامة محمود الطناحي - كما في «مقالات الطناحي»[(١)] - في ترجمة أحمد بك أحمد الحسيني، (المولود سنة ١٢٧١، والمتوفَّى سنة ١٣٣٢) الذي كان له غرام خاص وعناية منقطعة النظير بكتاب «الأمِّ» للإمام الشافعي، حتى شرحه شرحاً مطوَّلاً وسمَّاه: «مُرشِد الأنام ببرِّ أُمِّ الإمام»، مات ولم يكمله! قال الطناحي: «وقد أنفق هذا السَّرِيُّ النبيل الكثيرَ على طبع كتاب «الأُمِّ» للإمام محمد بن إدريس الشافعي، وقد سمعت من مشايخي من أهل العلم، وعلماء المخطوطات أن السيد أحمد الحسيني هذا، باع (عِزبة) من أملاكه للإنفاق على طبع كتاب «الأُمِّ»!

209 وجاء في كتاب «موسوعة أعلام المغرب»[(٢)]، في ترجمة العلَّامة عبد الهادي بن أحمد الصقلي، (المولود سنة ١٢٥١، والمتوفَّى سنة ١٣١١): «الفقيه العلَّامة المحدِّث الحافظ المطَّلع، كان عارفاً بالحديث والسيرة والعربية..، بلغني أنه كان يستحضر «المواهب اللَّدُنِّيَّة» مع شرحها للإمام الزرقاني، وكان يقول في حقِّه: أول كتاب يُشترى وآخر كتاب يُباع».

يعني: أن العالم إذا أراد أن يقتنيَ الكتب ويقرأَ فيها فليبدأْ «بالمواهب اللَّدُنِّيَّة»، وإذا دفعه الفقر والإملاق المُدقِع إلى بيع كتبه فليكن «المواهب اللَّدُنِّيَّة» آخر كتاب يُباع. والله أعلم.

---

(١) (ص ٤٦٧).
(٢) (ص ٢٧٩٥).

210 وكان العلَّامة المحدِّث المحقِّق الشيخ المعمَّر محمود بن أحمد ميرة الحلبيُّ المدنيُّ الشافعيُّ، (المولود سنة ١٣٤٨، والمتوفَّى سنة ١٤٤١) له صداقة خاصة وملازمة تامة لكتاب «المُستدرَك على الصحيحين» للإمام الحاكم لم تنفكَّ إلى يوم وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان جمع له نسخاً عديدة من مخطوطاته المنتشرة في خزانات العالم، وقد عايش فيه الإمام الحاكم قرابة خمسين عاماً. على ما يقوله صديقه العلَّامة محمد عوَّامة، واعتنى به وخَدَمه خِدْمة بالغة ولم يصدر في أثناء حياته، قال تلميذه الشيخ مجد مكي: «ولا يُعرف مَنْ له صلة بالحاكم ومُستدرَكِه ومعرفة منهجه ومخطوطاته مثل الشيخ، وكان دائم المراجعة له، حريصاً على صدوره، وكنت دائم السؤال عنه، وعن مراحل خدمته له. وقد علمت أن الشيخ انتهى من مراجعته النهائية قبل أسبوع من وفاته!».

قلت: وأخبرني ابنه عبد الرحمن محمود ميرة: «أن والده قرأ (المستدرك) قرابة عشر مرَّات!».

211 وهذا الشيخ العلَّامة المحدِّث محمَّد العربيُّ بن محمَّد المهديُّ العَزُّوزِيُّ، (المولود سنة ١٣٠٧، والمتوفَّى سنة ١٣٨٢) كان مصاحباً لكتاب «جمع الفوائد وجامع الأصول ومجمع الزوائد» للإمام محمد بن محمد بن سليمان الرَّوداني المغربي. قال العَزُّوزِيُّ في كتابه «إتحاف ذوي العناية»[1]: «هذا الكتاب الجامع هو سميري ورفيقي في

---

(١) (ص ١٠٠).

حَضَري وسفري، لا أَدَعُه من يدي ليلي ونهاري، وبودِّي لو وُفِّقت لشرحه فإنه الجامع لشَتات السُّنَّة ودقائقِها!».

212 وهذا العلَّامة الداعية المجاهد الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (المولود سنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥) كان كثير النظر في كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمَقَّري، يكاد لا يغادره لحظة واحدة! حتى حفظه عن ظهر قلب! وعن هذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ كما في كتاب «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»[١] ـ: «إذ كان كتاب «نفح الطيب» ـ طبعة بولاق ـ هو الكتاب الذي تقع عليه عيناي في كلِّ لحظة منذُ فتحتُ عينيَّ على الكُتب!».

213 وهذا العلَّامة الفقيه المحدِّث محمود بن محمد خطاب السُّبكي، (المولود سنة ١٢٧٤، والمتوفَّى سنة ١٣٥٢)، الذي كان له تعطُّش خاصٌّ «بسنن أبي داود» يدرِّسه في مجلسه لطلابه، ودفعه غرامه إلى شرحه وزيادة الاعتناء به، قال الشيخ محمود سعيد في «تشنيف الأسماع»[٢] في ترجمته: «واعتنى رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ «بسنن أبي داود» اعتناءً كبيراً، وعزم على طبع «عون المعبود» بالقاهرة، ولم يتيسر له الأمر، شرع في وضع شرح واسع عليه سمَّاه «المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود»، وصل فيه إلى باب الهَدْي من كتاب المناسك في عشرة مجلدات. وهو شرحٌ كبيرٌ حافل!».

---

(١) (٥/١٦٤ ـ ٢٩٠)، وسيأتي اهتمامه ببعض الكتب وتكرار قراءته لها.

(٢) (٢/٦٤٨).

214 وجاء في «تشـنيف الأسماع»[١] للشـيخ محمود سعيد في ترجمة العلَّامة محمد حسـنين مَخْلُوف العدوي، (المولود سنة ١٢٧٧، والمتوفَّى سـنة ١٣٥٥): «كان محبّاً للمطالعة والتحقيق والتدريس، ففي (سـنة ١٣٣٥) ترك الاشـتغال بالوظائف الإدارية، وآثر الحياة العلمية، فعكف على الدراسة والتأليف عكوفاً منقطع النظير، وكانت دروسه في مسجد محمد بك أبي الذهب غاصَّة بالعلماء وكبار الطلاب، وقرأ لهم «جمع الجوامع» قراءة تدقيق وتحقيق مع توسُّع لا نظير له، مرتين في أربعة عشر عاماً، وكتب عليه حاشية كبيرةً قيِّمةً في مجلَّدَيْن!».

215 وهذا الأسـتاذ المؤرِّخ البحَّاثة عبد الوهاب بن سيد أحمد النجار، (المولود سنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٦٠)، كان له رغبة خاصة بتاريخ ابن خلدون ومقدمته، وقد قال في ذلك[٢]: «لقد عشـقت كتابة ابن خلدون، فأصلح ذلك العشقُ من كتابتي وقوَّم أسلوبي حين أُغرمت بمحاكاته، وجلبَتْ كتابتُـه في التاريخ قراءة التاريـخ حتى صار نَهَمَة النَّفس، وغذاء الروح، وسلوتي في خلوتي، فقد حُبِّبَ إليَّ نقدُ عبارات المؤرِّخين، ووزن الحوادث بالبصيرة، فكلُّ حسـنة عندي من التاريخ من عنده!».

216 وهذا الشيخ العلَّامة الحنفيُّ محمد صالح كمال، (المولود ١٢٦٣، والمتوفَّى سـنة ١٣٣٢)، كان يُصاحب كتـاب «الهداية» للعلَّامة برهان الدين الفرغاني المرغيناني، وكان يقول: «ما أُلِّف كتابٌ مثله!».

---

(١) (٢/٢٦٣).

(٢) «النهضة الإسلامية» (١/٣٢٧).

وكان يدرِّسه ويقسط في مدحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما يقوله الأستاذ عمر عبد الجبار في كتاب «سير وتراجم»(١).

217 وقال الشيخ محمود سعيد في «تشنيف الأسماع»(٢) في ترجمة العلَّامة محمد أسعد العُبَجِيّ، (المولود سنة ١٣٠٥، والمتوفَّى سنة ١٣٩٢): «تتلمذ على الشيخ أحمد المَكْتَبيِّ، فقرأ عليه الشيخ أسعد «حاشية البَاجُوري على ابن قاسم الغَزِّي» كاملةً وأتقنها إتقاناً جيداً، ووضع لها فهرساً تفصيليّاً على المسائل والفوائد التي يُوردها العلَّامة الباجوري.. اشتغل المترجم بالتدريس في المدرسة الخُسروية، وكان من مقرَّرات المدرسة «حاشية الباجوري»، فدرَّسها الشيخ أكثر من ثلاثين سنة، ولذا كان يستظهرها تماماً!».

218 وهذا العلَّامة اللغويُّ الأديب السيد بن علي المرصفيُّ الأزهريُّ، (المتوفَّى سنة ١٣٤٩)، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير العناية بكتاب «الكامِل» للمبرِّد، دائم النظر فيه، والتدريس له في الأزهر أو البيت، إلى أن شرحه شرحاً نفيساً وسمَّاه «رغبة الآمِل من كتاب الكامل»(٣) في ثمانية أجزاء، قال الأستاذ البيومي في «النهضة الإسلامية»(٤): «عكف على شرح الكامل وتدريسه، فقطع زهرة شبابه في تفهُّم أسراره، واكتِناه مراميه،

---

(١) (ص ٢٣٣).

(٢) (١٨٧/٢).

(٣) وفي حق هذا الكتاب يقول العلَّامة علي الطنطاوي ـ كما في كتاب «فصول في الثقافة والأدب» (ص ٩٦) ـ: «هذا الكتاب من الكتب التي يفاخر بها عصرُنا العصورَ الخوالي، لهذا العالم الذي ينافس بأمثاله القرون الماضيات!».

(٤) (٢٨١/١).

وجاء شــرحه الفخم في أجزائه الثمانية دليلاً ملموساً، على أنَّ المبرِّد قد عاد إلى الحياة مرَّة أخرى بالأزهر، واستبدل القاهرة بحاضِرَة العباسيين!».

وقال تلميــذه الدكتور زكــي مبارك فــي مقال له فــي «مجلة الرسالة»[1]: «ولن أنســى ما حَيِيتُ تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفيُّ وهو يقدِّم إلينا شــرحه على كتاب المبرِّد، لن أنساها أبداً، فقد قال شــيخنا العظيم وهو يخاطب المبرِّد: (الله على أيامك، يا بَطَل!!).

219 وقال الشــيخ العلَّامــة محمد العربي العــزوزي في كتاب «إتحاف ذوي العناية»[2]، في ترجمة العلَّامة الشــامي الأصولي محمد أمين سويد، (المولود ســنة ١٢٧٣، والمتوفَّى ســنة ١٣٥٥): «وكان هذا الشيخ أمين مغرم بكتاب «سعود المطالع فيما تضمنته الألغاز في اسم حضرة والي مصر من العلوم اللوامع» لعبد الهادي نجا الإبياري، وقال عنه: هذا الكتاب كان سميري في سفري، منه أدرس وأعظ وأعلم!».

220 وجاء في كتاب «علماؤنا في خدمة العلم والدين»[3] للشيخ عبد الكريم المدرس في ترجمة الشــيخ الملَّا عبد العظيم المجتهدي، (المولود سنة ١٢٨٥، والمتوفَّى سنة ١٣٦٠): «هو من أعيان علماء سنندج (شهرستان).. له تعليقات على تحفة الشيخ ابن حجر الهيتمي.. وكان من المختصين بمطالعتها، وتدريسها، والتعليق عليها..».

---

(١) العدد ٣٩٨ بتاريخ: ١٩٤١/٢/١٧م.

(٢) (ص ٤١ ـ ٤٢).

(٣) (ص ٢٩٣).

221 وكان العلَّامة الأصوليُّ الفقيه المحدِّث المفسِّر الشيخ بهاء الحق الهندي، (المولود سنة ١٢٥٦، والمتوفَّى سنة ١٣٠٠ أو بعدها) له اهتمام خاص بكتابَيْ «صحيح البخاري» و«مشكاة المصابيح»، فلا يفارقهما أبداً، قال الإمام محمود شكري الألوسي عند ترجمة الهندي في كتابه «المسك الأذفر»(١): «له يد طولى بسائر العلوم، من منطوق ومفهوم..، له الميل التام في الاشتغال بالحديث الصحيح، فلا تراه يفارق «صحيح البخاري» و«مشكاة المصابيح»..».

222 وهذا العلَّامة الأصوليُّ الفقيه الشيخ فهمي أبو سُنَّة، (المولود سنة ١٣٢٧، والمتوفَّى سنة ١٤٢٣) كان عظيم الاهتمام بكتابَي الإمام الكمال ابن الهُمام «المسايرة» في العقائد و«التحرير» في الأصول، بل إنه من فَرْطِ حبِّه وإجلاله لابن الهُمام، كان يَعُدُّه صديقاً شخصيّاً له، فكان لا يذكره إلا ويقول: صديقي ابن الهُمام!. على ما جاء في ترجمته في كتاب «رجال فقدناهم»(٢).

هذا، وفيما سُقته الكفاية، والله يتولَّى الهداية.

* * *

---

(١) (ص ٣٣٨).

(٢) (٩٩٩/٢).

الفصل الحادي عشر

في همَّتهم في قراءة وإقراء الكتاب الواحد مرة بعد مرة

223 هذا الباب مكمِّلٌ للباب الذي قبله، ومتمِّمٌ له، فإن معاودة قراءة الكتـاب أو إقرائه أكثر من مرَّة تدل على قيمـة الكتاب وأهميته للقارئ أو الملقي معاً، وتدل على محبته للكتاب وتأكيد صحبته له.

وتكرار قراءة الكتاب: فيه أيضاً زيادة عناية به وضبط، وفيه ترسـيخ لفهمه ومعرفة لألفاظه وهضم لفوائده وفرائده، فلا يكاد يفوت القارئ منه شاذَّة ولا فاذَّة تتعلَّق بأبوابه، ومحلِّ الشاهد منها، إلا أتى عليها ووعاها.

وقد يكون في معاودة قراءته مرة ثانيـة وثالثة فوائد لم يقف عليها في المرَّات الأُول.

وتعاهد قراءة الكتاب مراراً فيه أيضاً: تحقيق لعنصر الصبر، وهو من أهم أسـلحة طالب العلم في القراءة وتحصيل العلم، وإلا فبغير الصبر لن يجنيَ طالب العلم شـيئاً، لكنه إذا حاز على هذا العنصر الهام وتملَّـك زمامه، فإنه يعينه أحسـن العون على قـراءة الكتب الكثيرة، بل سيكون سـيفه البتَّار في خوض غمار المطوَّلات وبحر المعاجم والدواوين الكبيرة، فإن القراءة في مثلها لا يتحقق إلا لمن (عشق العلم وتسلَّح بالصبر).

فإذا تسلَّح طالب العلم بهذين السلاحين، فسوف يسهِّل له الصبر على القراءة، والصبر على السهر، والصبر على التعب والإرهاق، بل والصبر على المرض والشدائد، والصبر على البحث والمراجعة، والصبر على الجوع والعطش، بل الصبر على الفقر والفاقة أيضاً.. إلى آخر ما يحتاجه طالب العلم من صبر.

والذي أستطيع أن أؤكده: أن قراءة كتاب واحد عشر مرَّات تؤدِّي إلى هضمه وفهمه خير ألف مرَّة مِن قراءة عشرة كتب مرَّة واحدة لا تقود إلى فهم أو استيعاب!. قال العلَّامة محمد رجب البيومي في كتابه «ظلال من حياتي»[1]: «قد عرفت من التجربة أنَّ قراءة الكتاب الجيد مرَّةً واحدةً لا تكفي، فلا بد من العودة إليه مرَّة بعد مرَّة، حتى أستشفَّ كلَّ ما أستطيع امتصاصه من خوافيه..، وإذ ذاك ينعم بجَنْيِ ما في الكتاب من ثمار على مهل والتذاذ، وبهذه الطريقة تكون قراءة الكتاب الواحد من الكتب الجيدة أفضلَ من قراءة عشرة كتب قراءة طائرة لا تميل إلى التبصُّر..، إذا أُعلم ذلك كانت القراءة الثانية للكتاب من ألزم الضرورات، هكذا أفعل وبهذا أنصح». وهذه نصيحة غالية تَمَسَّكْ بها تَغْنَمْ إن شاء الله تعالى.

وإليك سرد بعض ما وقفت عليه في ذلك:

224 قال العلَّامة عبد الحي الكتاني في «فهرس الفهارس»[2] في ترجمته والده العلَّامة عبد الكبير بن محمد الكتاني، (المولود

---

(١) (ص ١٨٤).

(٢) (ص ٧٤٣).

سنة ١٢٦٨، والمتوفَّى سنة ١٣٣٣): «لا مذهب له ولا طريقة دون الكتاب والسُّنَّة، كتابه المصحف. وديوانه الصحيح ـ أي صحيح البخاري ـ، ختمه نحو الخمسين مرَّة! ما بين قراءته له على المشايخ وإسماع له، وكان يعرفه معرفة جيدة، يستحضر نوادره ومخبآته!». وقال ابن أخته العلَّامة عبد الحفيظ الفاسي في «رياض الجنة»[1] في ترجمته: «كان من أعظم أهل عصره..، ملازماً لسرد كتب الحديث ونشرها، لا سيما «صحيح الإمام البخاري»، الذي كان يسرده كل سنة».

225 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[2] للعلَّامة عبد الحي الحسني في ترجمة عبد المنان الوزيرآبادي، (المولود سنة ١٢٦٧، والمتوفَّى سنة ١٣٣٤): «الشيخ العالم الكبير المحدِّث عبد المنان بن شرف الدين الوزيرآبادي الفاضل المشهور، كُفَّ بصرُه في صغر سِنِّه، وتوفِّي والده، ولكنه مع ذلك شرع في الاشتغال بالعلم وحفظ القرآن الكريم..، وعكف على الدرس والإفادة، فدرس الصحاح الستة أكثر من خمس وثلاثين مرَّة!.. مع حفظه لمتون الدين، فلم يبلغ أحدٌ رُتبته في كثرة الدرس والإفادة ولم يقاربه، قال الشيخ شمس الحق الديانوي: كأنه هو حافظ الصحاح في هذا العصر!».

226 وهذا العلَّامة المحدِّث المحقِّق الشيخ محمد يونس الجَوْنْفُوري السهارَنْفوري، (المولود سنة ١٣٥٥ ـ والمتوفَّى سنة ١٤٣٨)، قال تلميذه محمد زياد التُّكلة في مقال «وفاة شيخ الحديث الإمام

---

(١) (ص ١٩٤).

(٢) (١٣٠٣/٨).

المحقِّق محمد يونس الجَوْنْفُوري السهارَنْفوري (١٣٥٥ ـ ١٤٣٨) رحمه الله تعالى»[١]:

«.. كان بحراً في علوم الحديث ورجاله وتحقيق مسائله، ما فَتَرَتْ عنايتُه إلى آخر حياته في تتبُّع آثار المحدِّثين وما يستجدُّ إصدارُه والعثور عليه من كتبهم، شديد الفرح بذلك.

وأما إقراء الحديث وتدريسه فهو من سنة ١٣٨١ حتى آخر أيامه، ومن ذلك أتم تدريس البخاري خمسين دورة، سوى ما قرئ عليه في أسفاره في الحجاز وإنجلترا وغيرهما..».

وقال تلميذه الشيخ محمود بن محمد حمدان في مقال «وأظلمت سهارَنْفور بعد وداع شيخ الحديث!»[٢]: «كان من محبَّتِه للسُّنَّة وعلومها، وللحديثِ وفُنونه، لا سيَّما صحيح البخاري أنَّه انقطع لتدريسه وإقرائه أكثرَ مِن نصفِ قَرْن من الزَّمان، دونَ كَللٍ أو مللٍ!.. وتحصَّلَ له في خمسةِ عقودٍ عاشها مع صحيح البخاري أنْ شَرَحَه فيها خمسين مرَّة!، ولا نُبالغ إن قلنا: إنَّه مِن أكثر علماء عصره عنايةً وتخصُّصاً بالجامع الصحيح، شرحاً وإقراءً وفقهاً، وله عليه تقريراتٌ مفيدة، جمعَ بعضَها تلميذُه الشيخ محمَّد أيوب السُّورَتي في كتابٍ سمَّاه: «نبراس السَّاري إلى رياض البخاري».

227 وقال العلَّامة عبد الحفيظ الفاسي في «رياض الجنة»[٣] في ترجمة العلَّامة المحدِّث الفقيه الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الدبَّاغ،

(١) المنشور على موقع الألوكة بتاريخ: (٢٠١٧/٧/١١م ـ ١٤٣٨/١٠/١٦هـ).
(٢) المنشور على موقع الألوكة بتاريخ: (٢٠١٧/٧/٢١م ـ ١٤٣٨/١٠/٢٦هـ).
(٣) (ص ١١٤).

(المتوفَّى سنة ١٣٢٩هـ): «كان المترجم دَؤُوباً على سرد كتب الحديث..، وخصوصاً «صحيح البخاري»، فقد كان يسرده في رجب وشعبان من كلِّ سنة، في أربعين مجلساً، نحواً من أربعين سنة». وقال الفاسي: «وأخذ عن والده أبي عبد الله بن محمد بن عبد الحفيظ ولازَمَه.. وسمع عليه كثيراً من كتب الحديث، وخصوصاً «البخاري»، فقد سمعه عليه أزيد من عشرين مرَّة».

228 وجاء في كتاب «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»(1) في ترجمة الشيخ العلَّامة أحمد بن مصطفى الكُتْبي، (المولود سنة ١٢٦٣، والمتوفَّى سنة ١٣٤٢): «العالم العامل والجِهبذ الكامل، المحدِّث النَّحْوِيُّ الأصوليُّ، فقيه الشافعية في الديار الحلبية..، عاش عيشة الكفاف، وربما ضاقت به الحال فيتحمل ذلك ويصبر..، أَقْرَأَ شرحَ ابن عقيل وحاشيةَ الخضري عليه نحو عشرين مرَّة!.. وحشَّى عليها حاشية في (٦٠٠ صحيفة). وكان لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يقطع دروسه إلا لمرض يعتريه!».

229 وهذ الإمام العلَّامة الفقيه المحدِّث أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني، (المولود سنة ١٢٤٦، والمتوفَّى سنة ١٣٢٣)، ذكره العلَّامة عبد الحيِّ الكتانيُّ في «فهرس الفهارس»(2) فقال: «كان إماماً عالماً عاملاً ورعاً منقبضاً، كثير الصمت والعزلة، قليل التدريس، كثير التصنيف، قاربت مؤلَّفاته المئة!..، وقد ختم المترجَم الصحيحَ بالزاوية

---

(١) (٦١٧/٧).

(٢) (ص١٨٦).

الكتانية بفاس أزيدَ من عشـرين مرَّة!. كما أَقْرَأَ بهـا أيضاً بقية الكتب الستة عدا ابن ماجه».

قلت: وختم أيضاً صحيح مسـلم أزيد من عشرين مرَّة! قال الشيخ هشـام بن حَيْجر في مقدمة تحقيقه لكتاب «حكـم التدخين وتعاطي المفتِّرات والمخدرات»[١] للمترجَم: «سرد الصحيحين البخاريَّ ومسلماً ودرَّسهما بالزاوية الكتانية بفاس أكثر من عشرين مرَّة!».

230 وجاء في ترجمـة ابنه العلَّامة المحـدِّث محمد بن جعفر الكتانـي، (المولود سـنة ١٢٧٤، والمتوفَّـى سـنة ١٣٤٥) في «فهرس الفهارس»[٢] وفي «البحر العميق في مرويات ابن الصدِّيق»[٣] للغماري: «الإمام العلَّامة المحدِّث الفقيه العارف بالله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الفاسي..، محبّاً في العلم وأهله سيما علم السُّنَّة، عظيم العناية به، صارفـاً جُلَّ أوقاته في خدمتـه، مطالعة وكتابة ومذاكرة وتدريسـاً وتصنيفاً..، نشـأ في حِجر والده..، وسـمع عليه الصحيـح أزيد من عشرين مرَّة!».

231 وهذا العالم العلَّامة الفقيه المحدِّث المفسِّر المؤرِّخ الشيخ محمد بن محمد الحجُوجي، المتقدِّم ذكره، قال الأسـتاذ أنور ترفاس محقِّـق كتاب «فتح الملـك العلَّام فـي تراجم بعض علمـاء الطريقة

(١) (ص ٣٣).
(٢) (ص ٥١٥).
(٣) (١٦٢/١).

التجانية الأعــلام»[١] عند ترجمــة المؤلِّف الحجوجــي «مكث الفقيه سيدي محمد الحجوجي بمدينة دمنات ١٨ سنة، ختم فيها ١١ سلكة من صحيح الإمام البخــاري، وكان يختمه في البداية مــرَّة واحدة في كل عام»، قلت: وكم مرَّة ختمه قبلها وبعدها؟

232 وجاء في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون»[٢] للشيخ عبد الله آل بسام، في ترجمة الشيخ العلَّامة علي بن سالم بن جلعود آل جليدان، (المولود ســنة ١٢٤٠، والمتوفَّى ســنة ١٣١٠): «وقد أعاد قراءة شرح الزاد «الروض المُربِع» أربعين مرة!».

233 وجاء في «تشنيف الأسماع»[٣] للشــيخ محمود سعيد في ترجمة الشيخ المعمَّر جامع بن عبد الرشــيد البوقيسيِّ، (المولود سنة ١٢٥٥، والمتوفَّى سنة ١٣٦١): «أدرك جماعة من الأكابر الفضلاء أشهرهم مفتي الشافعية السيد أحمد زيني دحلان المتوفَّى سنة ١٣٠٤، فقرأ عليه مقــروءات ولازمه ملازمة أكيــدة.. وكان من عادة الســيد أحمد زيني دحلان أن يبدأ القراءة في «صحيح البخاري» أول رمضان، ويختم ليلة العيد، ـ وهي عادة متَّبَعة في بلاد الحرمين وتهامة واليمن وحضرموت وبلاد الشرق ـ فتمَّ لصاحب الترجمة ذلك عدَّة مرَّات!».

234 قلت: ودحلان هــذا، هو العلَّامة الفقيه المحدِّث المُســنِد الشــيخ أحمد زيني دحلان المكي الشــافعي، المتقدِّم ذكــره، أخباره

---

(١) (ص ٢٥).
(٢) (١٩٠/٥).
(٣) (٣٠١/١ ـ ٤١٩).

مشهورة وأموره معروفة، منها: أنه شرح في درسه تفسير البيضاويِّ مع حواشيه مرتين، وشرع في الثالثة ثم وافاه الأجل. وقد درَّس أيضاً «صحيح البخاري» دراسة تحقيق وتدقيق نحو أربع مرَّات! كما في ترجمته: «نفحة الرحمن في بعض مناقب الشيخ السيد أحمد بن السيد زيني دحلان»[(١)] للشيخ أبي بكر شطا الدمياطي، وفي ترجمته في «فهرس الفهارس»[(٢)] للكتاني: «وكان مُدمناً على الدَّرس خصوصاً الحديث، حتى قالوا: صار البخاريُّ عنده ضروريّاً كالفاتحة!».

235 وقال العلَّامة عثمان الطباع في «إتحاف الأعزة في تاريخ غزة»[(٣)] في ترجمة شيخه العلاَّمة الفقيه الحنفي المحدِّث الشيخ حسين وفا العلمي، (المولود سنة ١٢٦٥، والمتوفَّى سنة ١٣٦١): «وفي أثناء فراغه من الوظائف يشتغل بالعلم إفادة واستفادة، ومطالعة ومذاكرة..، و«صحيح البخاري» قرأه مرَّات ليلاً ونهاراً!». وقال: «وقد اشتركنا معه في قراءة «صحيح البخاري» غير مرَّة، ورأيناه على شيخوخته بهمَّة الشباب، لا يَكَلُّ من المطالعة والقراءة ولا يَمَلُّ..». وقد بلغ سِنُّه يوم وفاته ٩٦ عاماً رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

236 وجاء في كتاب «الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية»[(٤)] للأستاذ زكي مجاهد في ترجمة الشيخ المؤرِّخ أحمد بن

(١) (ص ٣٤، ٣٥).
(٢) (ص ٣٩٠).
(٣) (٣٩٣/٤ ـ ٣٩٤).
(٤) (٢٦٦/١) وانظر أيضاً: ترجمته في «الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام» للقاضي عباس السملالي المراكشي (٤٢٦/٢).

خالد بن حمد السلاوي، (المولود سنة ١٢٥٠، والمتوفَّى سنة ١٣١٥): كان من المشتغلين بالعلم والأدب والتاريخ..، أخذ عن أعلام، منهم أبو بكر محمد بن عوَّاد، ختم عليه البخاريّ عشر مرات!، ومسلماً ثلاث مرات!، وغير ذلك من الكتب والفنون».

237 وقرأ العلَّامة الفقيه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن السقَّاف، المتقدِّم ذكره، «إحياءَ علوم الدين» كلَّه أكثر من خمس مرَّات، وحضر ختمة سادسة كاملة على والده، ثم هو أَقْرَأَه مرَّات، كما في ترجمته في «جني القطاف»[1] لأبي بكر المشهور.

238 وقرأ «الإحياء» كلَّه أيضاً ثلاث مرات العلَّامةُ الشيخ سقَّاف بن عبد الله السقَّاف العلوي، (المولود سنة ١٢٩٢، والمتوفَّى سنة ١٣٣٠) كما في ترجمته في «تاريخ الشعراء الحضرميين»[2].

239 وهذا العلَّامة اللغويُّ الأديب الفقيه الشيخ أبو تراب الظاهري، (المولود سنة ١٣٤٣، والمتوفَّى سنة ١٤٢٣) الذي قرأ «لسان العرب» لابن منظور ثلاث مرَّات! وعلَّق عليه. كما في كتاب «المراشد السديدة للقراءة المفيدة»[3].

240 وقال العلَّامة محمد عوَّامة في مقدمة تحقيقه للكتاب العظيم «المصنَّف»[4] لابن أبي شيبة، وهو يترجم لشيخه العلَّامة حبيب الرحمن

---

(١) (ص٣٦، ٤٠).

(٢) (١٧٦/٥).

(٣) (ص ٨).

(٤) (٤٨/١).

الأعظمي، (المولود سنة ١٣١٩، والمتوفَّى سنة ١٤١٢): «لقد أخبرني أنه درَّس ديوان المتنبي عدَّة مرات، وما أدراك ما ديوان المتنبي!».

ثم قال العلَّامة عوَّامة في الهامش: «وأظنه قال لي: ثلاث مرَّات، كما أخبرني أنَّه درَّس «النهاية» للمرغيناني عشرين سنة!». فكم مرَّة أعاد بداية «النهاية» قراءةً لنفسه وإقراءً لغيره؟

241 وقال العلَّامة علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الذكريات»[١]: «هل قرأتم كتاب «الفرج بعد الشدة» للقاضي التنوخي؟ لقد قرأته وعمري إحدى عشرة سنة، ثم قرأته أكثر من ثلاثين مرة!، وحفظت قصصه كلَّها مِن كثرة ما أَعَدْتُ النظر فيه!».

وقال أيضاً في كتابه «فصول في الثقافة والأدب»[٢]: «أمَّا كتاب «الأغاني»، فإنَّ مَن أراد متعة الأدب، وطلَب جيِّد الشعر، وأراد الإحاطة بأخبار الشعراء للذَّة الأدبية وتقوية الملَكة البيانية، فلا يجد كتاباً أجمع لهذا كلِّه منه، وما منَّا إلَّا مَن كان «الأغاني» عُدَّته الأولى في إقامة اللِّسان وتجويد البيان، ولقد قرأتُه كلَّه (وهو بضعة وعشرون جزءاً) ثلاث مرات!، واستفدتُ منه في الأدب واللُّغة ما لم أستفِد مثلَه من غيره».

وقال: «ولقد قرأت «الأغاني» كلَّه (وهو في بضعة وعشرين مجلداً) في عطلتين صيفيتين متواليتين، وأنا في أول الدراسة الإعدادية.. هل

---

(١) (١١/٣).
(٢) (ص١٠٢).

تصدِّقون أني قــرأت «الأغاني» كلَّــه وأنا لا أزال طالبــاً!.. فهل في الطلَّاب اليوم مَنْ قرأ «الأغاني»؟ ولولا الحياء لقلت: كم من أساتذة العربية مَنْ قرأه كلَّه؟»[١].

وتحدَّث عن كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، فقال[٢]: «وأنا مُولَع بهذا الكتاب، وقد قرأته مرَّات كثيرة!».

242 وجاء في كتاب «الأعلام الشـرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية»[٣] للأســتاذ زكي مجاهد، في ترجمة الأســتاذ عبد الرحمن زغلول، (المولود ســنة ١٢٨٤، والمتوفَّى سنة ١٣٣٧): «عبد الرحمن بن الشنَّاوي زغلول، شقيق سعد زغلول باشــا..، كان محبَّاً لجمع الكتب والمطالعة، وقرأ كتاب «الأغاني» لأبي الفــرج، حوالي ثلاث مرَّات!، وكان مشتغلاً بالعلم».

243 وجاء في «الأعلام الشرقية»[٤] في ترجمة شاعر النيل حافظ إبراهيم، (المولود ١٢٨٩، والمتوفَّى ١٣٥١) أنه قرأ كتاب «الأغاني» مرَّات!

244 وهذا العلَّامــة الفقيه المحــدِّث الإمام محمد أنور شــاه الكشــميري الهندي، المتقدِّم ذكره، قال تلميــذه العلَّامة البنوري فيما ينقله عنه العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في كتابه «تراجم ســتة من فقهاء

---

(١) «فصول في الثقافة والأدب» (ص١٧٣، ١٨٢).

(٢) المرجع السابق (ص٤٢، ٤٣).

(٣) (٩٠٧/٢).

(٤) (٧٧٤/٢).

العالم الإسـلامي»[١]: وقد قال ـ فيما أحفظ والله أعلم ـ: إني طالعت «مختصر الطحاوي» نحو عشرين مرة!، ومع ذلك لم يشتفِ صدري في مواضعَ كثيرة!».

قلت: وربما طالع كتاب «الأُمّ» للإمام الشـافعي مرَّات، حتى قال: «إني كلَّما أطالع كتاب «الأُمّ» يقع في قلبي أن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ من أذكياء الأُمَّة»[٢].

245 وقـال القاضي العباس بـن إبراهيم السـملالي في كتاب «الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام»[٣]، في ترجمة العلَّامة محمد بن محمد العلـوي المدغري، (المولود في حدود سـنة ١٢٤٥، والمتوفَّى سـنة ١٣٢٥): «قرأ العلـم على جماعة.. وحفـظ المختصر الخليلـي وعدَّة متون من غالـب الأمَّات المتداولة، ثـم رحل لفاس، ومكث فيها لقراءة العلم نحو سـتٍّ سـنين لازم فيها شـيوخ الوقت، وحصَّل علوماً كثيرة، وحضر في المختصر بشـرح الخرشي نحو أربع مرَّات حتى صار غالبه في حفظه عن ظهر قلب!».

246 وكان العلَّامـة الداعيـة المجاهد الإمام محمد البشـير الإبراهيمي، (المولود سـنة ١٣٠٦، والمتوفَّى سنة ١٣٨٥) كثير القراءة والتكرار لكثير من الكتب التي قَرَأها.. فمثلاً: رسائل بلغاء الأندلس وأشـعار شـعرائها كرسـائل أبي عامر بن شـهيد، وابن برد، وابن

(١) (ص ٣٧).
(٢) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي» (ص ٣٨).
(٣) (١٤٥/٧).

أبي الخصال، وأبي المطرِّف بن عميرة، ولسان الدين ابن الخطيب من كتابه «ريحانة الكتاب»، والموجود من أشعار ابن زيدون، وابن عمار، وابن شهيد، وابن درَّاج القسطلي، وابن خفاجة. قال الإبراهيمي عنها: «وبعض هذه الرسائل كانت مخطوطة في مكتبة أسلافي...، **وقد كرَّرت تلك الرسائل والدواوين مرَّات متعدِّدة كدت أحفظ معظمها!**».

ووجَّهه عمُّه إلى قراءة كتب المشارقة «كالبيان والتبيين» و«البخلاء» و«الحيوان» للجاحظ، و«الأغاني» للأصفهاني، و«الكامل» للمُبَرِّد...، إضافة إلى قراءة «العِقد الفريد» لابن عبد ربِّه، و«بهجة المجالس» لابن عبد البَرِّ.. ثمّ ذهب ليقرأ شعراء الشرق البارزين فقرأ دواوينهم وكثيراً من الكتب المؤلَّفة في الأدب «كالعمدة» لابن رشيق، وكتب العسكري والجرجاني والآمدي وقدامة بن جعفر...، وغيرهم. قال الإبراهيمي: «**كررت قراءة بعض الكتب التي قرأتها مرَّات!** ودرستها، فما أبقى كتابٌ فيها في نفسي أثراً يحملني على معاودة قراءته في كل سنة أو في كل فسحة تأتي من وقتي..».

فمثلاً كتاب «الأغاني» للأصفهاني ـ وقد كرَّر قراءته مرَّات ـ قال عنه: «ثم كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، ولا تسألني عن خصائصه التي أثَّرت في نفسي، وجلبت قيادي إليه، **حتى تركتني أجدِّد قراءته من أوله إلى آخره في كل عقد من سنيِّ عمري!**، وكلَّما قرأته تجدَّدت آثاره في نفسي وتجاوبت أصداؤه بين جوانبي، فبعث فيَّ روحاً جديدة. لا تسألني عن ذلك، فكلُّ أديب قرأه وكرَّر قراءته، وجد

في نفســـه من التَّأثُّر مثلَ ما أجد، أو فوق ما أجد». كما في كتاب «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»(١).

247 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار الحجازية، (المولود سنة ١٣١١، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩)، فَقَد بصره وهو صغير، جاء في كتاب «الشـــيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ حياته وسيرته ومؤلَّفاته»(٢) للشيخ عبد الملك القاسم: «أنه قرئ عليه كتاب «الدرر السَّنِيَّة في الرسائل والمسائل النَّجْدِيَّة» في (١٦ جزء) مرتين!، وبعض أجزائه أكثر من ذلك، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقد سمعت هذا المجموع الفائق مرتين، وبعضه أكثر من ذلك، بقراءة جامعه ومُرتِّبه: الأخ الفاضل عبد الرحمن بن محمد بن قاسم».

248 وهذا العلَّامة المحدِّث الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنَّا الساعاتي، (المولود سنة ١٣٠١، والمتوفَّى سنة ١٣٧٨) الذي قرأ «مسند الإمام أحمد» بتمامـــه خمس مرَّات!. على ما جـــاء في ترجمته في كتاب «النور الأبهر في طبقات شـــيوخ الجامع الأزهر»(٣) للشـــيخ محيي الدين الطُعمِي.

249 وما دمنـــا نتحدَّث عـــن النعمـــة التي وهبها الله للإنســـان (المسلم وغير المسلم) فلا بأس أن نترك القلم يسترسل على سجيَّته، فأقول: وهذا العلَّامة اللغويُّ المحقِّق الأَب أَنَسْـتَاس مارِي الكَرْملي،

---

(١) (٣٧٣/٤، ٣٧٤).

(٢) (ص ٨٧).

(٣) (ص ٢٥).

(المولود سنة ١٨٦٦م، والمتوفَّى سنة ١٩٤٧م). الذي يُعَدُّ من أفاضل الكتَّاب الذين خدموا اللغة وتاريخها، وأحد الغيورين القلائل على العربية (لغة القرآن)[1]، ومنشئ أول مجلة تعتني بشؤونها في العراق وسمَّاها (لغة العرب)، وكان عضواً في عدة مجامعَ علميةٍ منها: (المجمع العلمي العربي بدمشق)، و(المجمع اللغويِّ بالقاهرة)، و(المجمع الملكي العربي للغة العربية) وسواها، وهو صديق العلَّامة العراقي الشهير محمود شكري الألوسي (ت: ١٣٤٢)، والعلَّامة المصري الكبير أحمد تيمور (ت: ١٣٤٨)، والعلَّامة الشامي محمد كُرْد علي (ت: ١٣٧٢)، وغيرهم، وله معهم مراسلات.

جاء في كتاب «في ذكرى الأب الكرملي الراهب العلَّامة»[2] للأستاذ

---

(١) جاء في كتاب «الأَب أَنَسْتَاس مارِي الكَرْملي» للأستاذ عامر رشيد السامرَّائي (ص ٥ ـ ٦). «يقول الأستاذ ميخائيل عواد: كان الأب أنستاس حريصاً على اللغة العربية يُنافح عنها، ويبذل قصارى جهده في إظهار فضلها، وبيان منزلتها الرفيعة بين سائر اللغات، وكان لا يطيق رؤية غلط في مقال أو كتابٍ ما، ولو كان ذلك صادراً من أعزِّ الناس عليه، وأعظمهم منزلة عنده».. فالأب أنستاس يدافع عن لغة الضَّاد؛ لأنه يهوى اللغة العربية، ويحبها محبة ملكت قلبه، ويعتبرها اللغة الجميلة، لغة القرآن الكريم!. وكان يقول ـ أي الأب أنستاس ـ: كلَّما مرَّ زمن فإنها ستبقى شابَّة في رَيْعان الصِّبا، فهي لغة لا تضاهيها أية لغة في العالم». ونقل أيضاً في (ص٧) قولَ العالم العراقي الدكتور مصطفى جواد وكان صديقاً للكرملي: «وهب نفسه للغة العربية، فكان بارّاً بها برَّ الصالح بأُمِّه وأبيه، عاطفاً عليها أيامَ شِدَّتها وضَرَّائها، حافظاً لها أيام كانت هُزأة الهازئين وفكاهة الأفَّاكين».

(٢) (ص ٤٣). قلت: إذا كانت هذه همته وهو غير مسلم، فكان الأَوْلى بالمسلم وطالب العلم المجتهد أن يقرأ هذا الذي قرأه الكرملي، وأن يصبر على قراءة هذه المعاجم الكبيرة كما صبر؛ لأنه هو الأحق (بلغة القرآن)، فكان الأحرى بالمسلم أن يكون أهلاً لمثل هذا. =

سالم الألوسي: «يقول الأديب الفلسطيني الأستاذ روكس بن زائد العزيزي: إن الأب قرأ معجم «لسان العرب» ثماني مرَّات!، وقرأ «تاج العروس» ثلاث عشرة مرة!، وقرأ «القاموس المحيط» ـ أكثر من عشرين مرة! على ما يؤكده ميخائيل عواد ـ و«محيط المحيط» للبستاني عدة مرَّات!، وله على كلٍّ منها استدراكات!».

قلت: صبر على دراستها صبراً يوحي بقوة الإرادة وشدَّة الحزم؛ لأن قراءة النصوص اللغويَّة في اشتقاقاتها العربية المتنوعة مُجهِدة مُتعِبة، فكيف إذا كانت هذه القراءة في مخطوطات متآكلة ومخرومة، فإن الإجهاد ـ إذ ذاك ـ يكون أشقّ، والكفاح أمرَّ!

وكانت ثمرة هذا الجهد الضخم معجمه اللغويَّ الكبير «ذيل لسان العرب» أو «المساعد»، يقول الأستاذ سالم الألوسي[1]: «من أعظم مؤلَّفات الأب أنستاس بإجماع آراء اللغويِّين الباحثين والكُتَّاب، وفيه أودع خلاصة علمه ومعارفه، وكان من فَرْطِ اعتزاز الأب به، أنه كان يسميه «ولدي!».

وقد مكث في تأليف هذا المعجم النفيس أكثر من ٦٣ عاماً!، حيث باشر في تأليفه عام ١٨٨٣م، وظل يعمل فيه باحثاً ومدقِّقاً في مفرداته حتى قبيل وفاته عام ١٩٤٧م، على ما يقوله الألوسي[2].

= وأنا أقول هذا كي يخرج طالب العلم من كسله وتراخيه إلى نشاطه في العلم وجِدِّه، فإن قراءة مثل هذه الأخبار تحرِّك العزائم الراكدة وتهيِّج الهمم الخامدة، وتشوِّق إلى الذَّوبان في العلم. والله المستعان.

(١) «في ذكرى الأب الكرملي الراهب العلّامة» (ص٤٣).

(٢) (ص٤٣).

قلت: وجاء في ترجمته في «موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر»[١] للحازمي: «وكان يتقن أكثر من عشر لغات، فقد أتقن الفرنسية، واللاتينية، واليونانية، والعبرية، والصبائية، والحبشية، والكلدانية، والتركية، والفارسية، والإنجليزية، والسريانية، وقليلاً من الإيطالية، وكان يفهم البرتغالية!».

250 وقال العلَّامة محمد راغب الطبَّاخ في «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»[٢] في ترجمة شيخه العلَّامة الفقيه الأصولي الحنفي محمد الزرقا، (المولود سنة ١٢٥٨، والمتوفَّى سنة ١٣٤٣): «كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذا همة عالية ونفس أبيَّة وعزيمة صادقة، لا يشغله شاغل عن الجِدِّ والعمل، فلا تلقاه إلا في المطالعة لدروسه، أو قراءة لها، أو إملاء على كتاب.. «حاشية العلَّامة ابن عابدين» على «الدُّرِّ المختار» - سِفر عظيم استوعب فروع الفقه الحنفي، وهو في عدَّة مجلدات كبيرة - أكمل قراءتها ثلاث مرَّات، كل مرَّة في نحو عشر سنوات، وأعاد قراءتها للمرة الرابعة!».

قلت: فإذا هو درَّسها هذا العدد!، فكم مرَّة قرأها على شيوخه؟ وكم مرَّة يا ترى قرأها لوحده؟ قال تلميذه الطبَّاخ: «كتاب «الدر المختار» و«حاشيته للعلَّامة ابن عابدين» اللذَيْن سَبَرَهما سَبْراً وقتلهما خُبْراً!».

---

(١) (١٠٢٦/٣).

(٢) (٦٢٩/٧).

بل لا ينقضي عجبك إذا علمت أنه ليس هذا حاله مع حاشية العلَّامة ابن عابدين وحدها فقط، بل كان أغلب ما يدرِّسه مطوَّلات، فقد كان يدرِّس بجوار حاشية ابن عابدين، شرح الزيلعي على الكنز، وهو في عدة مجلدات كبار، وشرح القسطلاني على صحيح البخاري، وهو في عدَّة مجلدات أيضاً، و«النظائر» لابن نُجيم مع «شرحه للحموي» في أربعة مجلدات وهكذا!

قال تلميذه الطبَّاخ: «ظلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ في التدريس نحو ستين سنة!، وقرأ إلى حين شيخوخته كثيراً من الكتب في فنون مختلفة، فمن مشاهير الكتب ـ تأمل لا يذكر سوى المشاهير فقط ـ التي قام بتدريسها «شرح ألفية ابن مالك» في النحو للأشموني، و«شرح ابن عقيل» عليها مع «حاشية الخضري» عليه، و«مغني اللبيب» لابن هشام في النحو..، إلخ. وذكر ما قدَّمت بيانَه، وذكر غيرها أيضاً.

251 وكان مفتي الشام العلَّامة الفقيه الحنفيُّ الشيخ محمد عطاء الله الكَسْم، (المولود سنة ١٢٦٠، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧) قد درَّس حاشية ابن عابدين مرَّات كثيرة كما في ترجمته في ذيل «عَرْفُ البَشَام فيمن وَلِيَ فتوى دمشق الشام»[1]. وقد أشرنا في ترجمة تلميذه العلَّامة عبد الوهاب دبس وزيت ـ وقد أدركه في شيخوخته ـ أنه قد قرأ عليه حاشية ابن عابدين أكثر من مرتين!

---

(١) (ص ٢٢٨).

252 وقال الشيخ أحمد بن الصدِّيق الغماري في «البحر العميق»(١)، في ترجمة العلَّامة المحدِّث النحويِّ المُسنِد الشيخ عمرَ بنِ حمدان محدِّث الحرمين الشريفين، (المولود سنة ١٢٩٢، والمتوفَّى سنة ١٣٦٨): «العلَّامة المُسنِد الراوية الأثريُّ النَّحْوِيُّ.. رحل به والده إلى المدينة المنورة مهاجراً إليها، فنشأ بها وطلب العلم على شيوخها، وبرع في النحو براعة كاملة حتى قال لي: إني أدركت في النحو رتبة الاجتهاد!، وأخبرني أنه ختم الألفية لابن مالك تدريساً نحو أربع عشرة مرة!».

وفي «تشنيف الأسماع»(٢) للشيخ محمود سعيد: «ووُصف بمحدِّث الحرمين الشريفين، لعنايته بتدريس الحديث، وختم الكتب الستة مرَّات!، وكذا «مستدرك الحاكم»، و«مجمع الزوائد»، و«الشمائل» للترمذي، و«الشِّفا» لعِياض، وهذا نادر في وقته!».

253 وقال العلَّامة عبد الله آل بسام في كتابه «علماء نجد خلال ثمانية قرون»(٣) في ترجمة الشيخ العلَّامة عبد الله بن سعد بن سعدان، (المولود سنة ١٣٣٤، والمتوفَّى سنة ١٤١٢): «وأخذ صفة والده في محبة القراءة، فعكف على القراءة كثيراً، وأحبَّ كتب التاريخ حتى أتى على المطبوع منها وقرأه وكرَّره، وكان شَغوفاً بكتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، ويقول: إنه قرأه أكثر من سبع مرَّات!».

---

(١) (٣٤٩/١).

(٢) (٧٥/٢).

(٣) (٢٣٧/٢).

254 وجاء في كتاب «التحرير الوجيز فيما يبتغيه المُستجِيز»[١] للعلَّامة محمد زاهد الكوثري في ترجمة الشيخ المحدِّث ضياء الدين أحمد بن مصطفى الكُمُشْخَانَوِي الحنفي الإسطنبولي، (المولود سنة ١٢٢٧، والمتوفَّى سنة ١٣١١): «زار مصر وأقام بها ثلاث سنوات، وختم في خلالها «راموز الحديث» ـ في مجلد ضخم على ترتيب الجامع الصغير كما يقول عبد الحيِّ الكتاني[٢] ـ في جامع سيدنا الحسين سبع مرَّات!» وقال الكوثري: «واستمرَّ إقراؤُه وختمُه كل سنة في خانْقَاهِهِ على جماعة لا يقل عددها عن سبعين شخصاً.. وقد ختم الكتاب بهذه الطريقة نحو سبعين خَتْمَة في خانْقَاهِهِ»[٣].

255 وقال العلَّامة عثمان الطبَّاع في «إتحاف الأعزة في تاريخ غزة»[٤] في ترجمة شيخه العلَّامة الفقيه الحنفي المحقِّق الشيخ حامد السقَّا النُّوَيْري الغزي، (المولود سنة ١٢٥٠، والمتوفَّى سنة ١٣٢٠): «كان

---

(١) (ص ٤٨، ٤٩).

(٢) «فهرس الفهارس» (٤٨٩/١).

(٣) وقد شرحه في خمسة مجلَّدات وسمَّاه «لوامع العقول شرح راموز الحديث». وللمترجم أخبار جميلة في تسهيل نشر العلم، يقول الكوثري في ترجمته في كتابه المذكور (ص ٥٠): «كان من المشتغلين بالعلم والتأليف والتصوف، ومن الموفقين لنشر العلم، وكانت له ثلاث مكتبات مرصدة لمطالعة الجماهير، ووقف مبلغاً من الدنانير في الخانقاه لإقراض إخوانه في الطوارئ، حفظاً لهم من شرِّ البنوك، وكانت له مطبعة تطبع فيها الكتب الستة، وتوزع هدية على فقراء المسلمين. وله من المؤلَّفات نحو الخمسين».

(٤) (٣٣٦/٤).

ملازماً لقــراءة دروس الفقه..، وقرأ «شــروح مراقــي الفلاح»، ومنلا ســكيني، و«العيني على الكنز»، و«الدر المختار علــى التنوير» مرَّات كثيرة مع تتبُّع حواشيها، وقد حضرت عليه أكثر ذلك!».

256 وجاء فــي كتاب «الإمــام الكوثري»[1] للأســتاذ أحمد خيري في ترجمة الشــيخ العلَّامة حســن علي الكوثــري الحنفي، (المولود ســنة ١٢٤٥، والمتوفَّى ســنة ١٣٤٥): «تفرَّغ لإقــراء الفقه والحديث، وقد أقرأ أمَّات كتب الفقه مــرَّات!، و«الراموز» مرَّات!، وكان له شــغف عظيم بصحيح البخاري، يختم مطالعته مع شرحَي ابن حجر والبدرِ العيني!».

257 وقال العلَّامة عبد الحفيظ الفاسي في «رياض الجنة»[2] في ترجمة العالم العلَّامة الشيــخ عبد المالك بن محمــد العلوي الضرير، (المولود ســنة ١٢٣٤، والمتوفَّى ســنة ١٣١٨): «كان رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء الأعلام..، محصِّلاً دَؤوباً على التدريس، منقطعاً إلى العلم، حتى إنه ختم المختصر خمس مــرات!». يعني مختصر خليل، ختمه شــرحاً وتدريساً.

258 وقال صاحب «رياض الجنة»[3] أيضــاً في ترجمة العالم العلَّامة الفقيــه القاضي ابن علال العربي الرحماني، (المولود ســنة ١٢٦٤، والمتوفَّى ســنة ١٣٥٤): «عالم كبير ومحقِّق مشهور..، تعاطى

---

(١) (ص ٥٨).
(٢) (ص ٢٠٩).
(٣) (ص ٢٢٥).

الإفتاء والتدريس مدَّة من نحو الستين سنة، مثابر على الدروس، لا يعرف الملل ولا البطالة، حتى إنه يختم المختصر الخليلي في أربعة أعوام». أي أنه ختمه في دروسه وشرحه ـ كل هذه المدة ـ أكثر من خمس عشرة مرة!

والأخبار في هذا الباب كثيرة.

* * *

الفصل الثاني عشر

في همَّتهم في غزارة إنتاجهم الضخم وعِظم مؤلَّفاتهم

259 كنت أقرأ في ترجمة الإمام ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأتأمل في ثمرة جهده ونتاج قلمه، حيث زادت مؤلَّفاته على (١٠٠٠) كتاب! ومثل هذه الوقفة كنت أقفها إذا ما قرأت في ترجمة الإمام السيوطي، حيث يشدُّني حجم مؤلَّفاته وعددها الغزير وقد فاقت (٦٠٠) كتاب!. كنت أتعجَّب كثيراً وأنا في غاية الدهشة والحيرة إذا ما قرأت هذه الأرقام الكبيرة! وأحدِّث نفسي فأقول: مِنْ أين لهم الوقت حتى يحصِّلوا ما حصَّلوا ويدوِّنوا ما دوَّنوا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟.. ثم أنتهي إلى سؤال أخير فأقول: هل يوجد عندنا مثلهم، أو يعجز الزمان عن أن يأتيَ بنظائرَ لهم؟.. كل هذه الأسئلة جالت في خاطري!

وظللت ردحاً من الزمن أعتقد أن تكرار مثل هذه النماذج، عسير على الزمن أن يأتي لنا بنظائر لهم! وما أن هممت بمطالعة سِير علماء عصرنا، وتراجم نوابغ دهرنا، أقرأ وأتأمل فيما بين يديَّ من تراجم الأعلام وسِيرهم، كنتُ أتوقف كثيراً عند بعض الجهود لأسماء بعينها، يشدُّني نتاجها الضخم، وتعجبني هممها، حتى إنني كنت لا أصدِّق ما أنا بصدده، فأربط ما أقرأه بالسلف فأقول: هذه ترجمة سقطت من

كتب الأولين! ولكن تشابهت الأسماء فاختلطت على الكاتب (المؤلِّف) حتى كتب هذا مكان هذا!.. وما أن أنهيت هذا الكتاب ودخلت في غيره، وجدتُني أقف على الاسم نفسه فأقرأ ترجمته فإذا هي هي لا تختلف عن الأولى إلا في زيادة التوثيق والضبط!، وكأنهما أخذا من مَعين واحد! وهذا ما كنت أجده في الكتاب الثالث، والرابع، وغيرهم.

وعندها تغيَّر الرأي وتبدَّل الحال، وأصبح ما كنا نقرأه في حياة السلف نقرأه اليوم في سِير الخلف، وأضحى ما كان حِكراً على الآباء أصبحت تَطُوله يد الأبناء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأيقنت أن ثمَّة جملة من علمائنا نستطيع أن نفاخر بهم السلف، لِمَا لهم من الجهود الجبَّارة التي تضاهي جهود القرون الغابرة، حتى بتنا ما نقرأه عن ابن الجوزي نقرأه اليوم في ترجمة التهانوي (ت: ١٣٦٢هـ) وعبد المنعم خفاجي (ت: ١٤٢٧هـ)، وما كنا نقرأه في ترجمة السيوطي نقرأه اليوم في سيرة شَكيب أرسلان (ت: ١٣٦٦هـ)، وهكذا!

وهذا النتاج الغزير ما جاء هكذا، إلا لأنهم حافظوا على وقتهم، وداوموا على قلمهم، وواصلوا الليل بالنهار، وسابقوا الزَّمن، وأخلصوا لربِّهم، حتى بارك لهم في وقتهم، وأغزر لهم في نتاج قلمهم وثمرة جهدهم.. والله وحده الموفِّق.

وهذا سرد لبعض من أخبارهم:

260 فهذا لسان العرب ومِدراة الإسلام أمير البيان الأمير شَكيب أرسلان، (المولود سنة ١٢٨٦، والمتوفَّى سنة ١٣٦٦)، كان

يزيد إنتاجه على أكثر من (٥٠٠) مجلـــد! ولهذا ذكره العلَّامة محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية»(١) فقال: «كنتُ أقرأ عن كثرة مؤلَّفات محمد بن جرير الطبري، وأبي الفرج الجوزي، وجلال الدين السـيوطي، ما يدهش ويروع حتى عَنَّ لـي أن أتَّهم الرَّاوين بالتَّزيُّد والإغراق، ثم طالعت حياة الأمير شَـكيب فوجدته في مدى ستين عاماً لم يترك يوماً واحداً دون تحرير مقالة ضافية في جريدة، أو كتابة بحث علمي في مؤلَّف، أو صياغة مذكرة سياسـية في شأن هام، أو إجابة رسالة أخوية، أو علمية، تُفصِّل بعض المشاهد، حتى اكتمل لــه من ذلك كلِّه ما يزيـد عن (٥٠٠) خمسـمئة مجلَّد! ضاع أكثرها في أنهار الصحف، وسجلَّات السياسة، ومكاتب الأصدقاء، ومتفرِّق المجلات.

ولو تفـرغت لجنـة علمية مخلصة لجمع آثـار الرجـل ما استطاعت بعد طول الكدِّ اللاغب أن تبلغ شيئاً ذا بال في طريقها البعيد!»(٢).

[وله مذكرات مخطوطة باللغة الفرنسـية تصل إلى ٢٠٠٠٠ صفحة، وترك ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠ رسـالة ما زالت مخطوطة. على ما جاء في «الموسوعة العربية العالمية»(٣)].

---

(١) (١٨٧/١).

(٢) حتى قال عنه خليل مطران: «ولـو تفرغت طائفة من حملة الأقلام، جـمٌّ عديدها، فياضة قرائحها، فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب، ومباحث التاريخ والأخلاق، لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات، لتعذَّر عليها أن تأتي مجتمعة بما أتى به ذلك العلَم المُفْرد!». على ما جاء في كتاب «أمير البيان شكيب أرسلان» (ص ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٣) (٥٠٨/١).

ثم قال البيومي: «وقد ذكر أحد أصدقائه: أن الرسـالة الواحدة من رسائله كانت تتجاوز العشـرين صحيفة، يكشف فيها الرجل عن دقائقَ خافيةٍ لا يلمُّ بها سواه! وهي بعد رسالة فردية..، فماذا نقول في مقالاته المسـهبة..، ثم ماذا نقول عن مذكَّراته الضافيـة..، ثم تراجمه الضافية لأصدقائه الأعـلام..، هذا غير مؤلَّفاته المتداولـة..، وهي على كثرتها المشرِّفة ليست غير صبابة من كأس تمتلئ وتفيض!

إن من يقف على آثار الأمير القلمية وحدها لا يُدهشه أن يسمع عن ابن جرير والسيوطي وابن الجوزي ما سمع!! بل إن القياس مع الفارق الكبير؛ لأن هؤلاء الأعلام كانوا يلقون العلم في حلقات الدَّرس، فينقله الطلاب معزوّاً إليهم دون أن يتكلَّفوا مشقة التحرير في بعض ما ينسب إليهم من تصانيف! أما شـكيب فيكتب ويُملـي كلَّ ما يصدر عنه!». انتهى كلام البيومي.

ويقول شكيب نفسه: «وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا، إذ ما مُعين ولا مساعد، ونكتب بخط بَناننا ألفاً وخمسمئة صفحة في كل شهر!، إذ ليس عندنا كاتب سـرٍّ ولا حافظ أوراق، ولدينا أشغال كثيرة مدهشة». كما في كتاب «أمير البيان شكيب أرسلان»[1].

فإذا كان ما يكتبه في الشـهر الواحد ألفاً وخمسـمئة صفحة، فكم كَتَب في حياته كلِّها، وذلك منذ أن عرف طريق القلم؟

يقول الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي[2]: «وكان شكيب نفسه يدرك

(١) (ص ٩٩).
(٢) «أمير البيان شكيب أرسلان» (ص ١٣٣ ـ ١٣٤).

ضخامة إنتاجه الأدبي.. حتى يقول: أنا أكتب من ٥٢ سنة بدون انقطاع، حتى إنه لــو قرأ قارئ كتاباتي تلــك، وقرأ ما أكتبه اليــوم، ظن الذي يكتب اليوم هو شكيب أرسلان حفيد شكيب أرسلان الأول، سمَّاه أبوه على اسم جدِّه، والحال أني حفيد نفسي!».

ولضخامة ما أنتج وكتب وألَّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد شبَّهه العلَّامة محمود زكي باشا (بمكينة الخياطة سنجر) في ســرعته واسترساله في الكتابة وقال ـ كما في كتاب «سوانح أفكار لأمير البيان»[(١)] ـ: «أما كيفية تحبيره الرسائل والمقالات الضافية الممتعة، فإنه لا يكاد يصــدِّق القارئ أنها كلَّها عفو الساعة، وفيض البديهة، ومســابقة القلم للخاطر، حتى صار يلقِّبه بعض الظرفاء (بماكينة ســنجر!) التي لها ســرعة البرق في التطريز. وقد تراه يكتب في شؤون شتَّى في وقت واحد!، وكل موضوع يخالف الآخر».

261 وهذا العلَّامة الموسوعيُّ اللغويُّ الأديب محمد عبد المنعم خفاجي، (المولود ســنة ١٣٣٣، والمتوفَّى سنة ١٤٢٧)، صاحب الإنتاج الحافل الغزير من الكتب، حيث يُعَــدُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المُكثِرين في التأليف، وقد بلغت مصنَّفاته وأبحاثه أكثر من ألف كتاب منشــور ومخطوط!، لذلك يسميه البعض: (ســيوطي القرن العشرين!). يقول الأستاذ هلال ناجي رئيس اتحاد المؤلِّفين والكُتَّاب بالعراق فــي كتابه عن الدكتور خفاجي «شاهد على العصر ســيوطي مصر في القرن العشرين الدكتور محمــد عبد المنعم خفاجــي»: «ومن أبرز هــؤلاء العباقــرة صديقي المِفضال الدكتــور محمد عبد المنعــم خفاجي رئيــس رابطة الأدب

(١) (ص ٢٣).

الحديث..، فخلال ستين عاماً صدرت له آثار مصنَّفة أو محقَّقة جاوزت الخمسمئة أثراً مطبوعاً!، وهو أمر لا نعرفه لغير السيوطي جلال الدين في القرن العاشر الهجري، مما جعل مثقَّفِينا وعارفي فضله وعلمه يلقِّبونه عن جدارة بسيوطي مصر في القرن العشرين!»[١].

قلت: بل تجاوزت مؤلَّفاته الألف كتاب! على ما جاء عدُّها وذِكْرُ أسمائها في ترجمته من كتاب «الأزهر في ألف عام»[٢]: جاء فيه: «وبلغت مؤلَّفاته ما يقرب من ألف كتاب منشور ومخطوط، وبحث أكاديمي منشور في المجلات المحكَّمة في محيط العالم العربي والإسلامي منها على امتداد ستين عاماً لا على سبيل الحصر!» وفيها أيضاً: «ومقالات تجاوزت الآلاف!».

وبعض مؤلَّفاته موسوعات، حيث خرجت في أجزاء كبيرة.

262 وهذا المربِّي الحكيم والمصلح الكبير والمفسِّر والداعية الفقيه علماً وعملاً، الشيخ أشرف علي التهانوي، (المولود سنة ١٢٨٠، والمتوفَّى سنة ١٣٦٢) الذي بلغت مصنَّفاته ألف كتاب، وربما يزيد على ذلك! وما مَثَلُه إلا كمَثَلِ ابن الجوزيِّ الذي بلغت مصنَّفاته الألف وزيادة، ولا يوجد موضوع ديني أو شرعي أو دعوي، يحتاج إليه المسلمون في هذا العصر، إلا وله فيه كتاب أو رسالة أو موعظة مطبوعة[٣].

---

(١) نقلاً عن كتاب «الأزهر في ألف عام» (١٥٩/٦ ـ ١٦٠).
(٢) (١٥٩/٦ ـ ١٦٠).
(٣) «أشرف علي التهانوي حكيم الأُمَّة وشيخ مشايخ العصر في الهند» (ص١٠٨).

يقول العلّامة أبو الحسن الندوي: «هو من كبار علماء هذا العصر الربّانيين، **وأعظم مؤلِّف في هذا العصر!**، ومن أعظم من انتفعت بهم الهند، وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان!»(١).

وقال: «وقد عَمِلَ وحده عَمَلَ مجمع علميٍّ كبير، وألّف كتباً، ورسائلَ تربو على ثمانمئة!»(٢). قلت: بل بلغت ألفاً!، يؤكد ذلك عصريُّه العلّامة محمد زاهد الكوثري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المقالات»(٣): «بل قد زادت مؤلّفاته على ألف عند وفاته!».

ولما مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ رثاه تلميذه الشيخ محمد شفيع:

ما مَات مَنْ أبقَى كألْفِ مُصنَّف تزهُو على أُفق العُلَى صفحاتُه

263 وكان العلّامة الفقيه المحدِّث المُسنِد الشيخ أحمد زيني دحلان المكي الشافعي، المتقدِّم ذكره، كثير التصانيف، قال تلميذه الشيخ أبو بكر شطا الدمياطي في كتابه «نفحة الرحمن في بعض مناقب الشيخ السيد أحمد بن السيد زيني دحلان»(٤): «بل زاد عليه ـ يعني على شيخه عثمان بن حسن الدمياطي (ت: ١٢٦٥هـ) ـ في المآثر والمفاخر، والتآليف الكثيرة التي لا يحصرها حاصر!». وجاء في ترجمته في «الأنوار الساطعة والفوائد الجامعة»(٥) للشيخ طه بن حسن

---

(١) المرجع السابق (ص٥٨)، ومقدمة كتاب «بين التصوف والحياة» (ص١٢ ـ ١٣).

(٢) «أشرف علي التهانوي حكيم الأُمَّة وشيخ مشايخ العصر في الهند» (ص٤٥).

(٣) (ص٧١).

(٤) (ص٢٦).

(٥) (ص٢٢١).

السـقَّاف: «كانت سـفينة شـيخنا أحمد زيني دحلان أربع مئة كراس بخطِّه، وأما بخطِّ غيره تكون ثمان مئة كـرَّاس كلُّها مصنَّفات!». وقال تلميذه أبو بكر شطا[1]: «واتفق له أنه كان في آخر عمره يؤلِّف كلَّ يوم في فنون متنوعة..، وحُسِب ما كان يكتبه كل يوم في آخر عمره فوُجِد خمسَ كراريس..». وقبل موته بيومين ألَّف رسـالة في معرفة الأوقات لأداء العبادات». وأخباره في هذا مشهورة معروفة.

وقال أيضاً: «وكان في أول أخذه للعلـوم النافعة، يسـتغـرق معظم الليل فـي المطالعـة». «وكان نومه قليلاً جـدَّاً، ينام مـن الليل نحو ساعتين.. وكان إذا نام يُسـند ظهرَه على مخدَّات مرتفعة على خلاف النوم المعهود بين الناس، بحيث إنَّ كل مـن دخل عليه وهو في هذه الحالة يقطع بأنـه غير نائـم من غير شـكٍّ ولا إلبـاس». وكان يقول: «والله لو كان عندي ملء الحرم ذهباً لأنفقته على الفقهاء والمتعلِّمين!».

264 وهذا الكاتب الأديب المؤرِّخ العلَّامة أحمد أنور سيد أحمد الجندي المتقدِّم ذكره، الكاتب الجبار الـذي كتب بقلمه أكثر من مئة ألف صفحة! وقد أخرج للمكتبة العربية ما يزيد على ثلاثمئة وخمسين كتاباً!، من بينها عشـر موسـوعات ضخمة قام بتأليفها!، قال الأستاذ إسـماعيل الفخراني فيما ينقله عنه الدكتور حلمي محمد القاعود في كتابه «الزاهد: أنور الجندي»[2]: «إن أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّم إلى المكتبة العربية والإسـلامية أكثر من ثلاثمئة وخمسـين مؤلَّفاً، من بينها تسع

---

(١) كما في «نفحة الرحمن» (ص ٢٢، ٣٣).

(٢) (ص ٤٨ ـ ٤٩).

موسوعات، إحداها تقع في عشرة مجلدات، المجلد الواحد يضم قرابة الألف صفحة، ولم تكن هذه المؤلَّفات في ميادينَ سهلةٍ أو ميسورة، ولكنها كلها في ميادين وعرة تحتاج إلى جهد جهيد في جمع مادتها!».

265 وهذا علَّامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء عبد الحي اللكنوي، المتقدِّم ذكره، الذي يُعَدُّ أحد أكبر المؤلِّفين في عصره، بل فاق أقرانه في ذلك، ولم يكن يشغله ـ كما يقول الدكتور وليُّ الدين النَّدْوي ـ عن التأليف شاغل في حِلِّه وترحاله، وفي إقامته وسفره. وبلغ اهتمامه بالتأليف أنه ألَّف بعض الكتب في أثناء سفره!. بل ظهر نبوغه في التأليف في سِنٍّ مبكر على غير العادة، حتى قال الدكتور وليُّ الدين النَّدْوي في كتابه «الإمام عبد الحي اللكنوي علامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء»[1]: «ما لاحظته من خلال تتبُّعي لمؤلَّفات الإمام، من أن الإمام رحمه الله تعالى، كان قد بدأ التأليف منذ سِنٍّ مبكر، حتى إنه ألَّف كتابين بالفارسية في علم الصرف، هما «امتحان الطلبة في الصِّيَغ المُشكلة»، و«التبيان في شرح الميزان»، ولم يتجاوز عمره الثانية عشر عاماً!».

وأمام هذا النبوغ المبكر وهذا الجهد الهائل الذي بذله الإمام اللكنوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ها نحن نقف أمام مكتبة ضخمة من تراثه ومؤلَّفاته، حيث يخبرنا عن عددها تلميذه الشيخ محمد عبد الباقي فيما ينقله الدكتور ولي الدين الندوي فيقول[2]: «وسرد تلميذ اللكنوي، الشيخ محمد عبد الباقي في «تكملة خير العمل» (١١٢ مؤلَّفاً)».

---

(١) (ص ١٦٠).

(٢) «الإمام عبد الحي اللكنوي علامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء» (ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ـ ١٦١).

ويقول العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة تحقيقه لكتاب «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة»(١) للَّكنوي في ترجمته، متحدِّثاً عن حجم مؤلَّفاته: «إذا ذُكر المؤلِّفون أصحاب التصانيف الكثيرة، التي زادت على الخمسين أو المئة كتاب، ذُكر الإمام عبد الحيِّ في طليعتهم ومقدِّمتهم غير مُدافَع؛ ذلك لأن تصانيفه بلغت نحو مئة وعشرة كتب، وإذا قيست كثرتها في جانب عمره القصير، الذي كان تسعاً وثلاثين سنة (٣٩) بَدت كثيرة جداً».

266 وقال العلَّامة محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية»(٢) في ترجمة العلَّامة الفقيه المحدِّث النَّحْوِيِّ المحقِّق محمد محيي الدين عبد الحميد، (المولود سنة ١٣١٨، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣): «كان محيي الدين نزَّاعاً للعلم مشغوفاً به منذ نشأته الأولى..، وقد عَرف الأستاذُ التأليفَ وهو طالب، ثم لم يدع البحث يوماً واحداً!».

ويشير العلَّامة البيومي إلى أن الأستاذ عبد الحميد قد ترك ثروة علمية هائلة، تشعَّبت في فنون متنوعة. إلى أن يقول العلَّامة الشيخ محمد علي النجار: «ولقد أتى على الأزهر حينٌ من الدَّهر، وجُلُّ ما يُدرَّس في معاهده من تأليفه أو إخراجه!». وقد أدرك الأستاذ البيومي هذا الزمن فقال: «وأنا أدركت هذا الزمن في الأزهر، إذ لم يكن يخلو عامٌ واحدٌ من كتاب أو عدَّة كتب من آثار الرجل!».

---

(١) (ص ١٣).

(٢) (٢/١٢٥ ـ ١٣٤).

وترجم له العلَّامة محمود الطناحي ـ كما في «مقالات الطناحي»[(١)] ـ فقال: «يُعَدُّ صفحةً حافلة من تاريخ نشر التراث العربي، قدَّم وحده للمكتبة العربية ما لم تقدِّمه هيئة علمية مدعومة بالمال والرجال!.. ويكفيه فضلاً أن كلَّ من تعلَّم النحو في شرق الدنيا وغربها بعده، مَدِين له بدَينٍ كبير، لما بذله من جهد بالغ في إخراج كتب النحو، في أسلوب يمتع الدارس، ويصقل اللسان».

وجاء في ترجمته في كتاب «الأزهر في ألف عام»[(٢)]: «من كبار الشيوخ الأزهريين، وأكثرهم إنتاجاً وتأليفاً، وأذيعهم شهرةً وذِكراً في العالم الإسلامي، والكتب التي حقَّقها ونشرها وألَّفها تزيد اليوم على مئة كتاب!».

ويقول العلَّامة البيومي: «فماذا عسى أن يقول المنصف في مجهود مَجْمَعٍ كامل قام به فردٌ واحد!! فأيُّ زمنٍ اتسع؟! وأيُّ نومٍ سُلب؟! وأيُّ راحة قُضي عليها؟ حتى وقف الرجل على صرحه العلمي الشامخ ليقول للناس بلسان الحال: هاؤم اقرؤوا كتابيه، وقد قرأ الناس فوجدوا الخير الهاطل والنفع الجزيل»[(٣)].

267 وهذا العلَّامة المؤرِّخ اللواء الركن محمود شيت خطاب، (المولود سنة ١٣٣٨، والمتوفَّى سنة ١٤١٩)، جاء في كتاب «اللواء الركن محمود شيت خطاب»[(٤)] للأستاذ عبد الله محمود: «اللواء الركن محمود

---

(١) (ص ٦٦٤).
(٢) (ص ١٨٣).
(٣) (١٣٧/٢).
(٤) (ص ٤٩).

شيت خطاب كاتب غزير الإنتاج، بلغت مؤلَّفاته وأبحاثه أربع مئة كتاب وبحث!». وبعضها في مجلَّدات كبيرة.

268 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»(١) في ترجمة العلَّامة الفقيه المحدِّث الأديب الشيخ أحمد رضا بن نقي علي خان البريلوي، الذي سبقت ترجمته، أنه: «كان عالماً متبحِّراً، كثير المطالعة واسع الاطلاع، له قلم سيَّال، وفكر حافل في التأليف، تبلغ مؤلَّفاته ورسائله ـ على رواية بعض مُترجِميه ـ إلى خمسمئة مؤلَّف!، أكبرها «الفتاوى الرضويَّة» في مجلدات كثيرة ضخمة ـ تحتوي على ثلاثة وثلاثين مجلَّداً كبيراً ـ...، يندر نظيره في عصره في الاطلاع!».

قلت: بل هي زهاء الألف كتاب على ما جاء في ترجمته في مقدمة كتاب «جَدُّ المُمتار على ردِّ المحتار»(٢)، وكتاب «تطور اللغة العربية في المجتمعات الباكستانية والهندية وأهميتها»(٣): «وقد ألَّف أكثر من ألف كتاب باللغات الأُردية، والعربية، والفارسية، في خمسة وخمسين علماً وفنَّاً، بالإضافة إلى ثلاثة دواوين شعرية!». وهذه عبقرية لا شكَّ فيها كما يقول العلَّامة عبد الحيِّ الحَسَنِي.

قلت: في الفقه وحده فقط ألَّف أكثر من ثلاث مئة كتاب تقريباً! كما في ترجمته في مقدمة «جَدُّ المُمتار»(٤).

---

(١) (١١٨٠/٨)، وفيها: أنَّ سنة وفاة الشيخ كانت (عام ١٣٣٢هـ)، والله أعلم.

(٢) (ص ٢٢).

(٣) (ص ٨٩).

(٤) (ص ٣٩).

269 وهذا الشيخ العلَّامة الإمام صِدِّيق حسن خان القنوجي، (المولود سنة ١٢٤٨، والمتوفَّى سنة ١٣٠٧)، الذي بلغت عدد مؤلَّفاته ثلاث مئة (٣٠٠) مؤلَّف!، يقول العلَّامة عبد الحيِّ الحسني في «نزهة الخواطر»(١) في ترجمة القنوجي: «علاَّمة الزمان، وترجمان الحديث والقرآن، محيي العلوم العربية، وبدر الأقطار الهندية، السيد الشريف: صديق حسن ابن أولاد حسن ابن أولاد علي الحسيني البخاري القنوجي، صاحب المصنَّفات الشهيرة، والمؤلَّفات الكثيرة. كان في أحسن حال ورخاء بال، مشتغلاً بالعلم والمطالعة، مُكِبّاً على التأليف والتصنيف، جامعاً بين الرئاستين العلمية والعملية..، يُقبل إلى التأليف ومطالعة الكتب من غير أن يضيع دقيقة، بلغت مؤلَّفاته ثلاث مئة مؤلَّف!..، ومؤلَّفاته شهيرة في: التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والتاريخ، والأدب، وقلَّما يتفق مثلُها لأحد من العلماء!». انتهى بتصرف واختصار.

وهذه المؤلَّفات الحافلة، جُلُّها كبيرة الحجم، متعددة المجلَّدات، فإنها تحتاج في تصنيفها إلى صفاء ذهن، وسرعة خاطر، وعذوبة تقرير، وحسن تحرير. ولهذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ كما يقول عبد الحي الحسني ـ سريع الكتابة، حلو الخط، يكتب كرَّاستين في مجلس واحد!. ومن شدَّة انهماكه في البحث والتأليف كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض الأحيان لا يميز بين أنواع الطعام المختلفة(٢).

---

(١) (١٢٤٦/١).

(٢) (ص٤٦).

270 وهذا العالم العلَّامة الفقيه المحدِّث المفسِّر المؤرِّخ الشيخ محمد بن محمد الحجُوجي، (المولود سنة ١٢٩٧، والمتوفَّى سنة ١٣٧٠)، قال الأستاذ أنور ترفاس محقِّق كتاب «فتح الملك العلّام في تراجم بعض علماء الطريقة التجانية الأعلام»[١]: عند ترجمة المؤلِّف الحجوجي: «وأشار الحجوجي في فهرسته قائلاً: «وكتبتُ بيدي ـ والمنة لله ـ ما يقارب من خمسمئة مجلد، منها ما خرج من يدي بحوادث الدهر، ومنها ما هو إلى الآن تحت يدي»[٢].

قلت: ومؤلَّفاته نافعة وأكثرها خرجت في مجلدات ضخمة، منها: «إتحاف أهل المراتب العرفانية، بذكر بعض رجال الطريقة التجانية» في تراجم الرجال وهو في ثمانية أجزاء، و«الحلل السندسية المحليَّة، للفوائد الجليَّة البهيَّة، على الشمائل الترمذيَّة» وهي في أجزاء أربعة ضخام، و«فتح القدير في شرح التاريخ الصغير» وهو في أربعة أجزاء، وفهرسته «نيل المراد في معرفة رجال الإسناد» في أربعة أجزاء. و«عقد الدرر والياقوت والمرجان في تفسير القرآن» في أربعة أجزاء أيضاً، و«رشحات الأقلام التي تُحمد وتُسرد في شرح كتاب الأدب المفرد» وتقع في أربعة أجزاء، و«إدراك القصد والمرام بشرح مسند الدارمي» في مجلدات، و«سر الرحمن فيما في مسند الدارمي من تراجم الرواة والقبائل والبلدان» تقع في مجلدات..، ونحوها، وأما الكتب التي تقع في مجلَّدين فهي كثيرة تُنظر في مقدمة تحقيق كتاب «فتح الملك العلَّام»[٣].

---

(١) (ص ٣٤).
(٢) «نيل المراد» (٥٢/٤).
(٣) (ص ٢٨) وما بعدها.

271 وهذا العلَّامة الأديب اللغويُّ المحقِّق عبد السلام محمد هارون، (المولود سنة ١٣٢٧، والمتوفَّى سنة ١٤٠٨)، كان كثير التأليف والتحقيق لنصوص التراث، غزير الإنتاج، حيث بلغت كتبه ـ تأليفاً وتحقيقاً ـ أكثر من ١٢٠ كتاباً على ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «قطوف أدبية»[١]. وإذا ما أخذ القارئ نظرة سريعة إلى قائمة إنتاج الأستاذ عبد السلام هارون (من سنة ١٣٥٥هـ إلى ١٤٠٠هـ = ١٩٣٨م إلى سنة ١٩٨١م) الذي يتمثل في ١١٤ عنواناً من التأليف والتحقيق، وعنها يقول الأستاذ عبد السلام هارون كما في كتاب «قطوف أدبية»[٢]: «وبعض تلك العناوين يشمل ثمانية مجلدات، أو ستة مجلدات، أو أربعة مجلدات. وبلغ عدد صفحاتها ٤٢٧٧١ اثنتين وأربعين ألفاً وسبعمئة وإحدى وسبعين صفحة!،.. إن هذا الرقم قياسي فريد لم يُتَحْ لمؤلِّف معاصر عربي أو غربي!».

272 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[٣] للعلَّامة عبد الحي الحسني، في ترجمة العلَّامة ذكاء الله الدهلوي، (المولود سنة ١٢٤٨، والمتوفَّى سنة ١٣٢٨): «الشيخ الفاضل: ذكاء الله بن ثناء الله الدهلوي، صاحب المصنَّفات المشهورة، اشتغل بالعلم، ولم يكن في زمانه من يُدانيه في كثرة المصنَّفات، وله في الفنون الرياضية والتاريخ والسِّيَر مئة وستون كتاباً!، وقد ذكر في بعض مقالاته أنه سطَّر

---

(١) (ص ٧).
(٢) (ص ٩٥).
(٣) (١٢٢٤/٨).

بقلمه اثنين وخمسين ألفاً من الصفحات!، منها «تاريخ الهند» في أربعة عشر مجلداً، و«عروج سلطنت انكلشيه در هند» في عدَّة أجزاء...، وترجم عدداً كبيراً من الكتب»!

273 وجاء في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[١] للعلَّامة عبد الحي الحسني في ترجمة العلَّامة المؤرِّخ الشيخ محمود حسن خان الطوكي، (المتوفَّى سنة ١٣٦٦هـ): «الشيخ العالم الكبير: محمود حسن بن أحمد حسن الحنفي الأفغاني النجيب آبادي ثم الطوكي أحد العلماء المشهورين. ساح أكثر بلاد الهند، وسافر إلى الحجاز فحجَّ وزار، وسافر إلى القاهرة وبيروت...، له مصنَّفات عديدة منها «معجم المصنِّفين»، جمع فيه شيئاً كثيراً، واستوعب المصنِّفين من علماء الإسلام في الشرق والغرب، فأحاط بهم إحاطة، وذكر منهم جمعاً عظيماً من المتأخِّرين والمتقدِّمين».

وقال ابنه العلَّامة أبو الحسن الندوي معقِّباً ـ كما في «نزهة الخواطر»[٢]: «وقد استتبَّ الكتاب في ستين مجلداً، وجاء في عشرين ألفاً من الصفحات، واشتمل على تراجمَ لأربعين ألفاً من المصنِّفين، ويبلغ عدد من سمِّي منهم بأحمد إلى ألفين!».

إذا علمنا أن هذا العبء الثقيل، لا ينهض به في أمم الغرب غير الجماعات واللجان المختصة، ممن يقضون أعواماً طوالاً متساندين في البحث الدائم، والاطلاع الجاهد، حتى يصدروا مثل هذه الموسوعات،

---

(١) (١٣٧٧/٨).

(٢) (١٣٧٧/٨).

ثم تقام لهم حفلات التكريم، وتتقاطر عليهم أوسمة التقدير، ويُمنحون ـ على الفور ـ أرفع الدرجات الفخرية في الجامعات العريقة!. إذا علمنا ذلك ورأينا الشيخ محمود الطوكي ينهض بذلك العبء المرهق وحده فيقوم به في مدى أعوام كثيرة على أحسن ما يُستطاع، ويقدِّم للمكتبة الإسلامية موسوعة حافلة، فإننا نتساءل كيف وجد من الأعصاب القوية، والعزيمة الماضية، والاطلاع المتشعب ما هيَّأ له النجاح دون أن يطمع في مأرب ماديٍّ، أو يتعلَّق بجاه أدبي، مكتفياً بما يستشعره من سعادة نفسية، إذ يشارك في بناء المعارف الإسلامية ويمهِّد لأُمَّته طريق المعرفة والدراية.

274 وجاء في «الأعلام الشرقية»[1] للأستاذ زكي مجاهد: أن الشيخ محمد بن خليل القاوقجي الحنفي، (المولود سنة ١٢٢٤، والمتوفَّى سنة ١٣٠٥) له أكثر من مئتي مؤلَّف!

275 وكان العالم العلَّامة الفقيه المحقِّق الشيخ وهبة الزحيلي، (المولود سنة ١٣٥١، والمتوفَّى سنة ١٤٣٦) غزير الإنتاج كثير التآليف، وقد أثرى المكتبة الإسلامية بكتب نافعة في بابها، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السبب في غزارة إنتاجي (خمسون ألف صفحة، ومئة وعشرون مجلَّداً) هو استغلال كامل الوقت، وملازمة القراءة والتأليف، وتلبية حاجات المسلمين، والاستعانة بالله تعالى من الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الثامنة والنصف مساء، صيفاً وشتاءً!».

---

(١) (٥٨٥/٢).

276 وهذا الأستاذ أحمد مدحت التركي، (المولود سنة ١٢٦٠، والمتوفَّى سنة ١٣٣١) له أكثر من مئتين وخمسين كتاباً كما في «الأعلام الشرقية»[1].

277 وجاء في كتاب «موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري»[2] للحازمي في ترجمة القاضي العالم أحمد العياشي سكيرج... كان كثير التأليف له أكثر من مئة كتاب. وجاء في «الموسوعة»[3] أيضاً في ترجمة العلاَّمة المؤرِّخ أحمد مدحت أفندي التركي، (المولود سنة ١٢٦٠، والمتوفَّى سنة ١٣٣١): «ظل طول حياته مشتغلاً بالعلم والتأليف..، وله من المؤلَّفات ما يناهز مئتي كتاب في مختلف الفنون والعلوم والمعارف». وبعض كتبه في مجلدات عديدة وكبيرة، فمثلاً كتابه «الكائنات» في خمسة عشر مجلَّداً، وكتاب «التاريخ العثماني المفصَّل» في أربعة مجلَّدات، وكتاب «المدافعات» في ثلاثة مجلَّدات..، وهكذا.

والأخبار في هذا الجانب كثيرة، وفيما أوردته الكفاية.

❊ ❊ ❊

---

(١) (٢/٨٥٥).
(٢) (٢/٥٥٦).
(٣) (٢/٧٢١).

الفصل الثالث عشر

في همَّتهم في تآليفَ استغرقت جهداً كبيراً وسنين طويلة

278 درج كثير من العلماء إلى زيادة العناية ببعض مؤلَّفاتهم عنايةً خاصة، ويرجع ذلك إلى أسباب عدَّة، منها: الضبط والإتقان، أو جمع المادة العلمية على نُدرتها أحياناً، وأحياناً أخرى قلة المراجع الرئيسة، وقد يرجع ذلك إلى طبيعة الموضوع نفسه كمن يكتب في التاريخ والتراجم، وقد يعود السبب إلى صوارف الحياة ونوائب الدهر وهذا هو الأغلب، وقد يرجع إلى العمل في أكثر من موضوع في آنٍ واحد.. وغيرها، لهذا قد تأخذ هذه الكتب من أصحابها أوقاتاً كثيرة، وأزماناً مديدة، وقد يمتدُّ العمل فيها إلى عشرات السنين!

وهذا يعكس هممهم التي لا تعرف الكلل أو الملل، ولا يُميتها طول الزمن، أو بُعْدُ الأجل. عزائم شمَّاء تواصل نشاطها ليل نهار، لا تعرف الانقطاع ولا الخمول، تواصل عملها دوماً، وتؤدي واجبها، تربط الأيام بالشهور، ثم تحكمها بالأعوام والسنين البعيدة، همتها في البداية هي عينها في النهاية؛ تطالع، تكتب، تحقِّق، تؤلِّف، ثم تواصل وتواصل إلى النَّفَسِ الأخير من حياتها الدنيا!

ولقد وقفت أثناء مطالعاتي على عشـرات الكتب التي اسـتغرقت أوقاتاً طويلة، واسـتنفدت جهوداً عظيمة من أصحابهـا وهم يعملون فيها!. فهذه نماذج منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

279 فهـذا العلّامـة المحـدِّث المُسـنِد المحقِّق أحمـد رافع الطهطاوي، (المولود سنة ١٢٧٥، والمتوفَّى سنة ١٣٥٥)، حين ألَّف ثَبَته «المسعى الحميد في بيان وتحرير الأسانيد»، قال: «تعبت في ذلك!». كما في «البحر العميق»[(١)].

والعجب في ذلـك أنه كم أخذ هذا التعب من سِـنيّ عُمُره؟ يقول الأستاذ أحمد خيري ـ فيما ينقله عنه الشيخ محمد آل رشيد في «إمداد الفتاح»[(٢)]: «قضـى الرجل في جمعه وترتيبه وتهذيبـه أكثر من أربعين سـنة!.. ويُعتبر هذا المؤلَّف مِن أوفى وأكمل ما فـي هذا الباب، كما يعتبر نادراً في هذا العصر!»[(٣)].

---

(١) (٢٢٩/١).

(٢) (ص ٤٢٤).

(٣) فأوفى الطهطاوي رحمه الله على الغاية فـي التحقيق وبراعة التدقيق، ولهـذا يقدِّمه العلَّامة عبد الله بن الصديق الغمـاري على الكتاني فـي «فهرس الفهارس» وذلـك لقوته في التحقيق فيقول: «وثَبَت السـيد أحمد رافع مقدَّم على «فَهْرس الفهارس» لشدَّة إتقانه!». كما نقله الشيخ محمد آل رشيد في «إمداد الفتاح» (ص ٤٢٣).
ويؤكِّد هذا الرأي أخوه الكبير أحمد بن الصديق الغماري على ما هو مبسوط في «البحر العميـق» (٢٢٢/١): «أتى فيه بالعجـب العجاب، لا من حيث الإكثـار ولكن من حيث التحقيق فـي الاتصال والمواليد والوفيـات، والتنبيه على أغلاط الأثبـات والتواريخ، وأعانه على ذلك كثرة ما تيسّـر له من الأثبات والمعاجم والتواريخ الغريبة بسبب غناه ووجاهته!».

ثم العجب كل العجب إذا علمت أنه في هذه المدَّة الطويلة كان لا ينام إلا بعد الشروق!، قال مؤلِّف «البحر العميق» أحمد بن الصديق الغماري[(١)]: «وكان من عادته أن يسهر الليل كلَّه ولا ينام إلا بعد شروق الشمس، اشتغالاً بتأليف الثَّبَت المذكور!».

280 وهذا العلَّامة المؤرِّخ الأديب الأستاذ خير الدين الزركلي، (المولود سنة ١٣٠٩، والمتوفَّى سنة ١٣٩٦)، الذي امتدَّ عمله لأكثر من ستين عاماً في كتابه «الأعلام» وهو: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. قال الأستاذ أحمد العلاونة في كتابه «خير الدين الزركلي صاحب كتاب الأعلام»[(٢)]: «بدأ الزركلي العمل في «الأعلام» عام ١٩١٢م حتى وفاته، ولم ينفض يده منه طيلة ستين عاماً!».

وقال العلاونة أيضاً[(٣)]: «كان الزركلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعدُّ كتابه «الأعلام» أغلى من أولاده!، وكان «الأعلام» دأَبه وشغله الشاغل، وعمله فيه مستمر ما امتدَّت به الحياة، وقد عمل فيه أكثر من ستين سنة، وودَّ لو استطاع أن يعمل فيه وهو في المستشفى رهنَ مِبْضَعِ الجرَّاح!، وقال ـ الزركلي ـ: «لو أُحرق «الأعلام» ألقيت بنفسي في البحر أسفاً!»، وبلغ من حرصه على استمرار «الأعلام» أنْ رصد مبلغ خمسين ألف ليرة لبنانية (نحو ٢٥ ألف دولار في ذلك الزمان) في البنك العربي ببيروت، لِيُنْفَقَ بعد وفاته على إنجاز هذا المشروع واستكماله!».

---

(١) (٢٢٩/١).

(٢) (ص ٤٣).

(٣) (ص ٩٦).

281 وهذا الإمام الأكبر شـيخ جامع الزيتونة محمد الطاهر ابن عاشور، (المولود سنة ١٢٩٦، والمتوفَّى سنة ١٣٩٤)، جاء في ترجمته في «تشنيف الأسماع»(١): «أهم مصنفاته «التحرير والتنوير»، واسمه الأصلي «تحرير المعنى السـديد، وتنوير العقـل الجديد من تفسـير الكتاب المجيد»، ومكث فيه تسـعاً وثلاثين سـنة!، حيث بدأ فيه سنة ١٣٤٢، وأتمَّه سنة ١٣٨٠».

282 وكان العلَّامـة النحويُّ المفسِّـر المحقِّق الشـيخ محمد عبد الخالق عضيمة، (المولود سـنة ١٣٢٨، والمتوفَّى سـنة ١٤٠٤)، قد أمضى أكثر من خمسـة وثلاثين عاماً في تأليف كتابه الثمين «دراسات لأسـلوب القرآن الكريم»، وكان بـدأ العمل فيه كمـا أخبر بذلك في مقدمته(٢) فقال: «بدأت هذه الدراسـة في مكـة المكرمة وفي بيت الله الحرام في شـهر صفر سـنة ١٣٦٦ = ينايـر ١٩٤٧». وانتهـى منه كما يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نهاية المجلد الأخير: «واللهَ أسأل أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه تعالى، بريئاً من الرياء والسمعة والزَّهو، إنه سميع قريب مجيب الدعاء. ٢٥ شوال ١٤٠١هـ = ٢٥ أغسطس ١٩٨١م».

وهو عمل علميٌّ ضخم يقع في أحد عشر مجلداً، نشره في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحروف والأدوات، ويقع في ثلاثة أجزاء.

القسم الثاني: دراسة الجانب الصرفي، ويقع في أربعة أجزاء.

القسم الثالث: دراسة الجانب النحوي، ويقع في أربعة أجزاء.

---

(١) (٤٠٩/٢).

(٢) «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» (٢/١).

وحسـبك أن تعلم أن القسـم الأول من الكتاب قد مكث الشيخ أكثر من خمسة وعشرين عاماً وهو يعمل فيه فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقمت على دراسة هذا الجانب أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وما فرغت إلا من جانب واحد من جوانب الدراسـات النحوية، وهو دراسـة الحروف والأدوات في القرآن!». هذه المدة فـي جانب واحد فقط! لذلك قال العلَّامة محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الجهد الضخم: «فماذا يقول القائل في عمل قام به فرد واحـد، لو قامت عليه جماعة لـكان لها مفخرة باقية؟ فمن التواضع أن يسـمَّى هذا العمل الـذي يعرضه عليك هذا الكتاب (معجماً نحويَّاً صرفيَّاً للقرآن العظيم). فمعلوم أن جُلَّ اعتماد المعاجـم قائم على الحصـر والترتيـب. أما هذا الكتـاب فالحصر والترتيب مجرد صورة مخطَّطة يُعتمد عليها. أما القاعدة العظمى التي يقوم عليها فهي معرفة واسعة مسـتوعِبة تامَّة لدقائق علم النحو وعلم الصرف وعلم اختلاف الأساليب».

283 وهذا العلَّامة المحدِّث المحقِّق الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة، (المولود سنة ١٣٣٦، والمتوفَّى سـنة ١٤١٧)، وقد أخذت جُلُّ كتبِه منه زمناً طويلاً وأعواماً كثيرة، وما ذلـك إلا لزيادة الضبط والإتقان!. فهذا كتابه العُجاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» حصيلة مطالعة أكثر من عشرين عاماً!، ومثله كتابه النفيس «قيمة الزمن عند العلماء».

وقد يَحبس رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتابَ دون طبعه سنوات طويلة لتحقيق مسألة خاصة، وربما كلمة واحدة! كما هو الحال مع كتابه «الرسول المعلِّم

وأساليبُه في التعليم»، فقد حبسه زمناً طويلاً لأجل ذلك، وفي هذا يقول في تقدمته: «افتتحته منذ أكثر من ثلاثين سنة، لم أعلم أحداً كتب فيه من قبلُ على هذا المنوال، وقد مضى على تأليفه هذا الوقت الطويل، منتظراً اللمسات الأخيرة لزيادة الكمال، وكم أماتت رغبةُ الكمال إنجاز كثير من جليل الأعمال، كما أمات التراخي والتسويف كثيراً من فريد التأليف..، فما تيسَّر إخراجُه إلا الآن، فالحمد لله على فضله وحسن توفيقه»[1].

284 وهذا العلّامة المحقِّق عبد الرحمن بن القاسم النجدي، (المولود ١٣١٢، والمتوفَّى سنة ١٣٩٢)، وابنه العلّامة محمد عبد الرحمن بن القاسم (المتوفَّى سنة ١٤٢١)، حين قاما بجمع الموسوعة الضخمة «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» وتقع في (٣٧ مجلداً). قد تكبَّدا في سبيل جمعها من الشدَّة والمشقة ما الله به عليم.

جاء في كتاب «الشيخ عبد الرحمن بن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حياته وسيرته ومؤلَّفاته»[2] للشيخ عبد الملك القاسم ما نصُّه: «وهذا المجموع العظيم بلغ (٣٧ مجلداً) في (١٨٨٣٥ صفحة)، وقد أمضى الجَدُّ والوالد رحمهما الله أكثر من (٤٠) أربعين عاماً في جمعه وترتيبه وطبعه!، وقد جمعوا في سبيل ذلك من العناء والشقاء ما أحتسب أن يكون رِفعة لهما وذُخراً. فقد عانيا من كثرة السفر، والبحث عن

(١) «الرسول المعلِّم» (ص٦).
(٢) (ص٣٨).

المخطوطات، وترك الأهل والأبناء ومفارقة الأوطان مع قلة الزاد، ثم قراءة وفك خطّ شيخ الإسلام. حيث كان رَحِمَهُ اللَّهُ سريع الكتابة، وكان خطُّه في غاية التعليق والإغلاق، وبعضه بدون نَقْط، ولا تكاد تظهر حروفه، وقد أشكلت على تلميذه ابن الوردي، فيدعو تلميذه أبا عبد الله بن رشيق المغربيّ لحلّه!»[١].

وقال[٢]: «.. ولمعرفة بعض الجهد الذي قاما به رحمهما الله تعالى، يكفي أن تعرف أن الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ كان في أغلب رحلات جمع الفتاوى مريضاً، كما في رحلاته إلى: لبنان، ومصر، وفرنسا، ويكفي أن تعرف أن الشيخ محمد بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ مكث في جمع مسائل شيخ الإسلام من (المكتبة الظاهرية) في دمشق فقط، مدَّة ستة أشهر، تصفَّح خلالها تسعمئة (٩٠٠) مجلد! من (١٢٠٠٠) اثني عشر ألف مخطوط، ليجمع من هذا كلّه (٨٥٠) ثمانمئة وخمسين صفحة، بخطّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وأكثر من ثلاثمئة وثلاث وخمسين مسألة!».

وأما الحديث عن جهاد الجَدِّ الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في تأليفه «حاشية الروض المُربع في شرح زاد المستقنع»، وهي تقع في

---

(١) يقول الأستاذ عبد الملك بن قاسم في كتاب «الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ حياته وسيرته ومؤلَّفاته» (ص٢٥٣): «وذكر الشيخ حمّاد الأنصاري بعضاً من الجهد في قراءة خطّ شيخ الإسلام فقال: اجتمعنا مع الشيخ ابن قاسم ونحن أربعون رجلاً، فأخذنا بعض فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية نقرأ فيها، وكانت بخطّ شيخ الإسلام، ولم نستطع مواصلة القراءة بسبب صعوبة قراءة خطّه، وأخذنا على ذلك أربعة أيام نحاول قراءته. هذا ـ كما ذكر الشيخ حمّاد الأنصاري ـ في أربع ورقات فكيف بمجموع الفتاوى؟!».

(٢) المرجع السابق (ص٦٩ ـ ٧٠).

سبع مجلدات ضخمة، يقول حفيده الشيخ عبد الملك[١]: «وقد بذل في جمعها جهداً عظيماً، وأنفق وقتاً طويلاً رَحِمَهُ اللهُ في هذه الحاشية الضخمة، وكانت مدَّة التأليف أكثر من (٤٠) أربعين عاماً!.. لذلك سـمَّاها بعض العلماء (بأُمِّ الحواشي!)».

285 وهذا العلَّامة المحدِّث المحقِّق القاضي الشيخ أحمد محمد شـاكر، (المولود سـنة ١٣٠٩، والمتوفَّى سـنة ١٣٧٧) الذي قضى في تحقيق «المسند» للإمام أحمد بن حنبل والتعليق عليه حوالي ربع قرن من عُمُره! وكان إخراجه «للمسند» أمنيةَ حياته، وغاية همِّه سنين طويلة، حتى استفرغ فيه جهده.

قال صديقه الشيخ حامد الفقي: «فهذا العمل العظيم حقاً، ليس وليد القراءة العاجلة، أو إزجاء الفراغ فيما يلذُّ ويشـوق ويسـهل، وإنما هو نتاج الكدح المتواصل، والتنقيب الشامل، والتحقيق الدقيق، والغوص العميق في بطون الكتب وثنايا الأسفار. وقد أنفق فيه صديقي نحو ربع قرن من الزمان! لو أنفقه في التأليف أو في نشـر الكتب الخفية لكان لديه منها الآن عشـرات وعشـرات، ولجمع منها مالاً جزيـلاً، وذِكراً جميلاً، ولكنه آثر السُّنَّة النبويَّة»[٢].

286 وهـذا العلَّامـة المحدِّث المـؤرِّخ الشـيخ محمد راغب الطبَّاخ، (المولود سنة ١٢٩٣، والمتوفَّى سنة ١٣٧٠)، مؤلِّف كتاب «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، في سـبعة مجلدات، استغرق في تأليفه

---

(١) «الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللهُ ـ حياته وسيرته ومؤلَّفاته» (ص ١٢٠ ـ ١٢١).

(٢) «جمهرة مقالات العلَّامة الشيخ أحمد محمد شاكر» (٧٥/١).

اثنين وعشرين عاماً!، قال الطبَّاخ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «مدَّة بقائي في تأليف مَبانيه ونَظْمِ عُقوده اثنتين وعشرين سنة!».

والطباخ نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ يخبرنا عن الجهد الذي بذله، والجهاد الذي خاضه، لأجل تأليف هذا الكتاب وجمع مادَّته، فيقول ـ كما في مقدمة الكتاب ـ[2]: «ويزيد ما تصفَّحته من الكتب على ثلاثمئة مجلد!، هذا غير المجاميع والأوراق المبعثرة التي ظفرت بها في الخزائن، وما تلقيته من أفواه الرجال الذين أثق بهم!، ولا تَسَلْ عما تكبَّدته من المشاق، وما تجشَّمته من المتاعب في سبيل الحصول على هذه المواد، واقتناص شواردها، وجمع شملها المتبدِّد، حتى انتظم منها عقد هذا التاريخ وتراصفت مبانيه:

وطالما واصلتُ ليلي بالسهر ... أرعى النجومَ لالتقاطِ الدرر
كأنَّ سَلْكَ عِقْدها المَجَرَّه ... أَضُمُّ فيه درةً فَدُرَّة

وقال[3]: ولا تَسَلْ عما لاقيت في سبيل ذلك من المصاعب، وما تكبَّدته من المشاقِّ في البحث والتنقيب، ولعَمْري:

لا يعرف الشوقَ إلا مَن يُكابِده ... ولا الصبابةَ إلا مَن يُعانِيها

وقال: ولو رأى القارئ الكتبَ المخطوطة التي نقلت عنها ورداءةَ خطِّها لعذرني كلَّ المعذرة، وتيقَّن أنْ ليس في الإمكان أبدع مما كان!».

---

(١) «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (٦٤٢/٧).

(٢) المرجع السابق (٢٨/١).

(٣) المرجع السابق (٦٤٢/٧).

انظر وتأمل: الحديث عن قراءة مخطوطـات لا مطبوعات، وهي بالعشـرات!، كلُّها طالعها وصبر على ما فيها!.. ومع هذا كلِّه تجده سـعيداً لهذا الجهد، مسـروراً بهذا الكتاب، فيقول كمـا في مقدمة الكتـاب[١]: «علـى أن ما صرفته من ثميـن الوقـت وما لاقيته من المصاعب، كنت أجده شـراباً سـائغاً، ومَوْرِداً عذبـاً، بجانب الغاية النبيلة التي كنت أقصدها!».

287 وهذا العلَّامة المحدِّث الشـيخ موسـى شـاهين لاشين، (المولود سنة ١٣٣٩، والمتوفَّى سنة ١٤٢٩)، الذي شرح «صحيح مسلم» في عشـرة مجلدات، وسـمَّى شـرحه «فتح المُنْعِم في شرح صحيح مسـلم». جاء في ترجمته في كتـاب «الأزهر في ألف عـام»[٢]: «وهو المؤلَّف الذي قضى في إعداده حوالي ربع قرن من عمره!، والذي يعدُّ من أكبر وأعظم مؤلَّفات شيخنا الجليل!».

288 وهذا العلَّامة المحدِّث المفسِّر الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، (المولود سنة ١٢٨٣، والمتوفَّى سنة ١٣٣٢)، الذي قضى في تأليف تفسيره «محاسن التأويل» أكثر من خمسة عشر عاماً!، جاء في كتاب «إمام الشـام في عصـره جمال الدين القاسـمي»[٣] للشـيخ محمد بن ناصر العَجْمِي: «فقد انكبَّ عليه منـذ عام (١٣١٦هـ) حتى آخر أيامه (١٣٣٢هـ). فقد اطَّلع لأجله على عشـرات الكتب مطبوعِها

(١) المرجع السابق (٢٨/١).
(٢) (٢٧٩/٥).
(٣) (ص٩).

ومخطوطهـا، وأفنى أياماً كثيرة في النَّظر في مخطوطات المكتبة الظاهرية، حتى قال أحد أهل العلم لابنه: «إن قراءته تحتاج إلى عُمُر كامل، فكيف ألَّفه أبوك، ولم يبلغ الخمسين من العمر؟!» ويزداد العجب إذا علمت أنه هو الذي نسخ كتابه بخطِّه من أوله إلى آخره، ولم يساعده على نسخه أحد!».

هذا إلى جوار ما ألَّفه من الكتب التي بلغت أكثر من ١١٠ كتب، وهذا شيء كبير بالنظر إلى عمره الذي لم يبلغ الخمسين عاماً![١].

وهذا من بركة استغلال وقته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد كان أعجوبة في ذلك، قال ابنه الأستاذ ظافر القاسمي ـ في كتابه الذي ألَّفه عن والده[٢] ـ: «ومضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكتب دون انقطاع في الليل والنهار، في القطار، في النزهة، في العَرَبة، في المسجد، في سُدَّته، في بيته، وأظنُّ أن الطريق وحده هو الذي خلا من قلمه».

289 وهذا العلَّامة المؤرِّخ اللواء الركن محمود شيت خطاب، (المولود سنة ١٣٣٨، والمتوفَّى سنة ١٤١٩)، في كتابه «الرسول القائد»، وهو أول كتاب له، يقول في شأنه الأستاذ محمد المجذوب في «علماء ومفكِّرون عرفتهم»[٣]: وقد ظلَّ قرابة العشرين من السنين يُعِدُّه ويستعدُّ له قبل أن يقدِّمه للنشر!.

---

(١) «جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام» للدكتور نزار أباظة (ص ٢٣٨).
(٢) (ص ٦٣٢).
(٣) (٣٤١/١).

290 وهذا مؤرِّخ غـزَّةَ العلَّامـة الفقيه الحنفي الشـيخ عثمان مصطفـى الطبَّاع، (المولود سـنة ١٣٠٠، والمتوفَّى سـنة ١٣٧٠)، الذي مكث أكثر من اثنين وأربعين عاماً في تأليف كتابه «إتحاف الأعِزَّة في تاريخ غـزَّة»[١] وقد ذكـر فيه ما في غـزَّة من مزارات وآثـار، وترجم لعلمائها وأخيارها، وعرَّف بعائلاتها وأعيانها، وقصَّ أخبارها وأحوالها على امتداد السنين الغابرة، وقد أنفق في تدبيجه جهوداً عظيمة، وأوقاتاً كبيرة، وسنينَ طويلة.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدِّثاً عن ذلك في مقدِّمة الكتاب[٢]: «وقد صرفت فيه رَيْعان الشباب..، شـمَّرت فيها عن ساعد الجِدِّ والاستبصار، وواصلت البحث عن مطالبه في الليل والنهار، حتى وقفت على ما يمكن الوقوف عليه من: تواريخ الأواخر والأوائل، ومن الكتب، والرحل، والدروج، والأنسـاب، والصكوك القديمة، والسـجلات الشـرعية، والرسـائل، والكتابات المنقوشـة على القبـور والأبواب والجـدران، وما يعرفه الخبراء من أفـواه المتقدِّميـن ذوي العِرفان، وتحرَّيـت الصحيح من الأخبار، وأكثرت مـن البحـث والاختبار..، ولـم أُبال فيـه بارتياد الصعاب، وتحمُّل المشـاق، وتثبيط الهمم من ذوي البطالة والكسل، ولا باللوم ممن لا يريد الفضائل والحقائق مـن أهل الغفلة والجهالة، وقد أعدت النظـر فيه مرة بعد أخرى.. وقـد بذلت جهدي، وواصلت بحثي في تحرِّي الصدق، وطلب الصحيح».

---

(١) وانظر بيان ذلك في المقدمة التي كتبها المحقِّق وقد صدَّرها في مطلع الكتاب (٦٣/١).
(٢) (٧/١ ـ ٨ ـ ١٧).

291 وهذا الشيخ العلَّامة الفقيه المحقِّق الأستاذ عبد العظيم بن محمود الدِّيب، (المولود سنة ١٣٤٨، والمتوفَّى سنة ١٤٣١) الذي حقَّق كتاب «نهاية المطلب في دراية المذهب» لإمام الحرمين الجويني في خمسة وعشرين عاماً!. قال الدكتور محمد بن عبد الرحمن الأهدل ـ كما جاء في مقدمة الكتاب[1] ـ: «أنفق أنفس أوقاته..، فقد قضى ـ أثابه الله تعالى ـ نحواً من ربع قرن! في العناية «بالنهاية» إلى النهاية..، فما انفكت يده عنها إلا وهي تتلألأ تلألأ النجوم في سمائها!».

وقال العلَّامة عبد العظيم نفسه: «ومضت السنون، وتطاولت الأعوام، وطال العمل واستطال، وأنا صابر جَلِد، غير ضَجِر ولا مَلول، بل مستمتع مسرور، ومَن حولي يعجبون، وعن الكتاب يتساءلون: كل هاتيك الأعوام في كتاب واحد؟! (وأنَّى لهم التناوشُ من مكان بعيد) «لا يعرف الشوقَ إلا مَن يكابده». تجاوزت الأعوام الخمس والعشرين عدَّاً وأنا في صحبة إمام الحرمين، أعطيه ويعطيني: أعطيه وقتي وجهدي، وصبري واتِّئادي، وتأمُّلي، وأناتي، وحبي، وعشقي، وشغفي، وهيامي، ويعطيني كلَّ يوم جديداً، يمنحني فرائدَ من الفقه، ودقائق من الأصول، وأوابد من النحو، ونوادر من اللغة، وشوارد من الحديث، ويطوف بي مرابع ومجالس ومدارس أسمع فيها في أعلام أُمَّتي وأئمَّتِها!».

وقال أيضاً: «انقطعت لهذا الكتاب عن دنيا الناس، ووهبت له وقتي، وجهدي، وسِرِّي، وعلانِيَتي، وبفضل من الله وعونٍ انتصرت

---

(١) (ص: أ).

على نفســي، ورددتها عما كانت تجاذبني نحــوه، وتدفعني إليه: من المشــاركة في المؤتمرات، والندوات، وفيها الذكــر والصِّيت، ولقاء الأعلام، ووراءها ما وراءها، وناهيك عن الأضواء والفلاشات. وكذلك المشــاركة في التلفزة بعد أن أخذت من ذلك بنصيب، وكنت مندفعاً في تيَّاره إلا أنني أمسكت وتماسكت ســريعاً، ثم أحجمت وامتنعت امتناعاً جازماً..»[١].

والحديث في هذا الجانب يطول، وأكتفي بما تقدَّم.

* * *

(١) «المقدّمات» التي كتبت في مطلع «نهاية المطلب» (ص: ٢٥، ٢٩).

الفصل الرابع عشر

في همَّتهم في مذاكرة العلم في المرض الشديد، وعند لحظات النَّزْع

292 حافظ علماؤنا على تحصيل العلـم دون توقُّف، وبصورة دائمة منقطعة النظير! حتى ملؤوا وقتهم كلَّه في طلب العلم: في الليل والنهار، في السفر والحضر، في أيام الشدَّة وأوقات الرخاء، لا يصدهم عن صيد أوابده صادٌّ، حتى مع العاهات المستديمة، وفي أيام المرض الشديد، بل عند ساعات الموت وحشرجة النَّزْع، فقد حصَّلوا فيها كما حصَّلوا أيام الصحة، وكتبـوا كما كتبوا في أوقات القـوة. هكذا كانوا وهكذا ظلُّوا حتى النفَس الأخير من حياتهم.

ففي الألم الشديد والمرض المزمن الخطير ـ ولو مستديماً لا شفاء له ـ حصَّلوا العلم ودوَّنوا الكتـب، فلم تصدَّهم الآلام، ولم تُضعفهم الشـدائد العظام، واصلـوا وجاهدوا، وثابـروا بهمـة تضاهي همة الأصحَّـاء، وعزيمة عصماء تكاد لا يدركها الأقويـاء..، فجاؤوا بآثار عظيمة، وعلوم غزيرة، تشهد بصدق عزيمتهم، وقوة عَرِيكتهم..، فللَّه دَرُّهم ما أغلى العلم على قلوبهم.

ثم تأتي ساعة الممات وهي ـ كما تعلم ـ لا يمكن لأحد أن يصفها على حقيقتها، إنها سـاعة رهيبة، ولحظة مذهلة قاسية، تأخذ بمجامع

النفس، وبمعاقد الجسد، ساعة يضيق فيها مجرى التنفُّس، حتى كأن المرء يتنفَّس من ثُقب إبرة! ساعة في غاية الألم والحرقة..، هل هناك ساعة في الدنيا أشدُّ رهبةً من هذه؟!

فما بالك برجال في هذه الساعة التي تكون فيها حالة الزفير أطول من الشهيق، يتذاكرون العلم، ويقيِّدون الفوائد، ونحوها، كأقوى ما يكونون صحة، وكأشدِّ ما يكونون نشاطاً![1].

قال العلَّامة عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النفيس «صفحات من صبر العلماء»[2] في وصف من تعلَّم العلم أو علَّمه في ساعات النَّزْع والموت: «.. هكذا كانوا؟! الموتُ جاثم على رأس أحدهم بكُرَبه وغُصَصه، والحشرجة تَشتدُّ في نفسه وصدره، والإغماء والغشيان محيط به، فإذا صحا أو فاق من غشيته لحظات، تساءل عن بعض مسائل العلم الفرعية أو المندوبة، ليتعلَّمها أو يعلِّمها وهو في تلك الحال التي أخذ فيها الموتُ منه بالأنفاس والتلابيب.

يا الله؟! ما أغلى العلم على قلوبهم، وما أشغلَ خواطرَهم وعقولَهم به؟ حتى في ساعات النَّزْع والموت! لم يتذكَّروا فيها زوجةً أو ولداً أو قريباً أو عزيزاً، وإنَّما تذكَّروا العلم، فرحمات الله تعالى عليهم، وبهذا صاروا أئمة في العلم والدين».

أولئك آبائي فجئني بمثلِهم ... إذا جمعَتْنا يا جريرُ المجامع

---

(١) انظر: «غاية الاعتبار في أخبار من تعلَّم العلم أو علَّمه ولو في ساعة الاحتضار» للدكتور محمد بن عزُّوز (ص١١).

(٢) (ص١٣٣).

وأخبار هذا الفصل في مبحثين: الأول: في المرض وشدَّته. والثاني: في الموت وسكرته.

أما الأول: وهو المرض وشدَّته

293 فهذه همم لا يُضعفها المرض، وعزائم لا تُنهكها الشدائد! منها: الأستاذ الكبير والداعية السياسي الشهير العلَّامة مصطفى حسني السباعي، (المولود سنة ١٣٣٤، والمتوفَّى سنة ١٣٨٤) كان العلم لحمَه ودمه، وجارياً في عروقه، فكان العلم غذاءه ومتعته، وشعاره ودِثاره، حتى إنه لَمَّا أصابه مرض عُضال في مطلع سِنِّه الأربعين، وأقعد جسده عن الحركة والعمل، وسبَّب له صداعاً شديداً وآلاماً حادَّة في رأسه وشِقِّه الأيسر، وكان يعاني من ذلك ما تنوء به العزائم، حتى قال العلَّامة أبو الحسن الندوي: «لو ابتُلي به إنسانٌ عادي، لكان كافياً في تعطيله وتوقيف كلِّ نشاط له وانشغاله بنفسه!». «ولقد عاش مريضاً سبع سنوات سويَّاً، ينخر المرض في جسمه نخراً، آلامٌ مُبرحة تُزهق منها النفس، وتسقط معها الهمة، ويذهب العزم، لكنه لم يخنع للمرض، ولم يأتِ الألم على قوته» على ما يقوله الدكتور يوسف العش[1].

ومع هذا سلَّم لقضاء الله ولكنه لم يسلِّم للمرض، وشَعر أن مع المحنة الشديدة منحة كريمة، يحدثنا عنها بقوله فيما ينقله عنه الدكتور عدنان محمد زرزور في كتابه «مصطفى السباعي الداعية المجدِّد»[2]:

---

(١) «مصطفى السباعي الداعية المجدِّد» (ص٤١١).

(٢) (ص٥١١).

«لقد قضى الله عليَّ بأن تُشَلَّ حركتي في السياسة، فشلَّها، لكنه أبدلها بنعمة خير منها: إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم. أَكُنْتَ تراني كتبت وألَّفت ما كتبت لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قوية شديدة. أوَلا يجب عليَّ أن أشكر الله على نعمائه!». وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في مرضه كما في قصيدته «احملوني إلى الحبيب»(١):

طال سقمي وطال فيه عنائي ... ليت شعري! متى يصحُّ الجريح
شدَّةٌ إثر شدَّةٍ تتوالى ... ها أنا اليوم في الفراش طريح
لست آسى على لذائذ عيش ... أو على الجاه والشباب أنوح
يا سهام الأقدار خلِّي ثلاثاً ... هي عندي وجه الحياة الصبيح
اتركي لي عقلي أفكِّر فيه ... وعيوني أغدو بها وأروح
ويدي تملأ الصحائف علماً ... وبلاغاً وبالشجون تبوح

فعقَّب عليها الأستاذ محمد المجذوب كما جاء في كتابه «علماء ومفكِّرون عرفتهم»(٢) بقوله: «ولقد استجاب الله رجاءه، فلم يحجب نوره عن بصره ولا بصيرته، وأمده بالعون فلم يُشَلَّ قلمُه عن الإنتاج الرشيد المفيد حتى لقي وجه ربِّه»(٣).

---

(١) (ص ٤٧٠).

(٢) (٤١١/١).

(٣) ولقد كتب في أيام مرضه الكتب التالية: «شرح قانون الأحول الشخصية»، و«اشتراكية الإسلام»، و«المرأة بين الفقه والقانون»، و«السيرة النبوية»، و«هكذا علمتني الحياة»، و«القلائد من فرائد الفوائد»، ويضاف إلى ذلك: المقدمة المهمة والزيادات التي ضمَّنها كتابه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي». إضافة إلى مقالات كتبها، وجُمعت بعد وفاته تحت عنوان «الاستشراق والمستشرقون». على ما ذكره الدكتور زرزور في كتابه «مصطفى السباعي الداعية المجدِّد» (ص ٤١٢).

ويقول تلميذه الشيخ عدنان محمد زرزور: «ولطالما رأيته رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمسك بيمينه القلم، ويرتجف تحت يساره القرطاس، يستجيب من قمة آلامه لما تُمليه عليه القريحة النافـذة والروح العميقة، والعقل القوي، غير عابئٍ بما يقرؤه جليسه على وجهه من آثار الآلام العصبية الحادَّة!»[(١)].

هذا إلى جانب هموم وأحزان ـ أنتجها المرض وظلَّت أهوالها تكوي في عزمه ـ لو أُفرغت على الجبال لدكَّتها دكًّا، لكن هذه النفس الكبيرة الوثَّابة التي كان يتمتع بها، مع مضاء العزيمة وسموِّ الهمة، فعزيمته لا تعرف الركود ولو في المرض، وهمَّته لا يعتريها الخمول ولو مع شدَّة الألم!. بل كان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «**الآلام طريق الخلود لكبار العزائم، وطريق الخمول لصغارها**». وقال أيضاً: «رأيت نفسي تسمو بالآلام! ولكن مَن يُطيق استمرارَها!». فعزيمته ـ كما يقول الدكتور عدنان زرزور: «لم تعرف التواني أو القعود، وأكاد أقول: المستحيل!»[(٣)].

بل يحدثنا الدكتور حسن هويدي عن همَّته النادرة وصبره الخارق فيما ينقله عنه الدكتور زرزور في كتابه «مصطفى السباعي الداعية المجدِّد»[(٤)] بقوله: «فكأنما يريد أن يزيح بصدره الجبال، أو يذيب بصبره الحديد،.. ولقد جاوز في ثباته وصبره حدود ما كلَّف اللهُ به

---

(١) «مصطفى السباعي الداعية المجدِّد» (ص٤١١).
(٢) المرجع السابق (ص٥٠١).
(٣) المرجع السابق (ص٤٩٩ ـ ٥٠٠).
(٤) (ص٥٠٠).

عباده من صبر وثبات، وإذا كان علوُّ الهمة يُقاس لدى الرجال بما يلاقونه من أهوال، وما يتصدُّون له من مخاطر، فأحسب أن رجلاً في هذا العصر لا يحلِّق إلى ذلك المستوى الرفيع، ما لم يجرِ على منوال الأستاذ السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ!». نعم، هذه همة الأبطال التي تتضاءل دونها كلُّ همَّة، وعزيمة الرجال التي خضع لها النوابغ إجلالاً وإكباراً. فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

294 وقال العلَّامة مصطفى السباعي في ترجمة شيخه المربِّي الحكيم والعالم النفسي الروحاني الكبير العلَّامة أحمد الحارون، (المولود سنة ١٣١٥، والمتوفَّى سنة ١٣٨٢): «ولما مرض شيخنا الحارون مرضه الذي أُصبت بمثله قبله، كنتُ أتردَّد عليه برغم المشقة التي تنالني من ذلك، وكنت أراه طريح الفراش يُعاني مثل ما أعاني إلا أنَّ روحه القوية ما كانت تنأى به عن أحاديث العلم في مختلف فروعه، فكان ـ وهو طريح الفراش ـ يناقش ويتكلم ويحضِّر بعض كتبه لنرى رأينا فيه، مع استمراره على عادته في البشاشة..». على ما جاء في كتاب «رجال فقدناهم»[(١)].

295 وجاء في كتاب «موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري»[(٢)] للحازمي في ترجمة الأديب الدكتور آصف القدوائي، (المولود ١٣٣٧، والمتوفَّى ١٤٠٩): «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كاتباً إسلاميَّاً يكتب بالأُردية، والإنجليزية، مع شدَّة ابتلائه بمرض أقعده كليَّاً عن

---

(١) (١٩٥/١).
(٢) (٩١١/٣).

النشــاط والحركة؛ حيث أصيب عموده الفقري، وبقي حبيس الفراش قرابة أربعين سنة. لا يستطيع أن يقلب شِقَّه من شدَّة المرض!».

سبحان الله، كان المرض على شــدَّته نعمة عليه، فلم تضعف معه همته، ولم تخمد عزيمته، بل كان شعلة نشــاط في البحث، والقراءة، ومتابعة العلــوم، قال الحازمي: «وقد كان المــرض من نعمة الله عليه، حيث اعتكف على العبادة، والقــراءة، والتأليــف، والترجمة، مع أنه لا يستطيع أن يقلب شِقَّه من شدَّة المرض!. ألَّف وترجم إلى الإنجليزية ما يبلغ ثلاثين كتاباً!.. ومما ترجمه إلى الإنجليزية كتاب «ماذا خســر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي.

296 وهذا الكاتب البليغ والأديب الضليع الأســتاذ مصطفى صادق الرافعي[1]، (المولود سنة ١٢٩٨، والمتوفَّى سنة ١٣٥٦)، أصابته الحُمَّى ولم ترحل عنه إلا بعاهة أصمَّت أُذُنه، فوقفت حجر عثرة في طريق مستقبله التعليمي، ولكن هذه الآفة أتاحت له ـ فيما بعد ـ أن يعتكف على مكتبة أبيــه يقرأ منها ما يقرأ.. وكانــت مكتبة ـ أبيه ـ القاضي الكبيــر محيطة بكتب الدين والأدب والتاريخ الإســلامي، فأتاحت للناشــئ المتطلِّــع أن يــدرس كلَّ ما يقع في يده دراســةَ

---

(١) وسبب تســميته (بالرافعي) أن جدَّه الأكبر ـ كما في «الأعلام الشرقية» (٨١١/٢) ـ الشيخ عبد القادر الرافعي، لمَّا نبغ وعُرف بالفضل وسعة العلم، قال له أحد مشايخه: (أنت من رافعي لواء العلم)، فلقِّب من ذلك اليوم الشيخ عبد القادر بالرافعي.
وأما سبب تسميته (بالصادق) فهو ما بيَّنه الأستاذ زكي مجاهد: «وكان في سِنِيِّ طفولته لا يعرف الكذب، فسمَّاه والده (الصادق)، وبذلك سمي مصطفى الصادق!».

الدؤوب المثابر!.. فعادت عليه بما يعود النَّمِيرُ العذب على الأرض الطيبة، بعد أن وضع فيها البذر الجيد!. على ما يقوله العلَّامة محمد رجب البيومي[١].

وجاء في ترجمته من كتاب «الأعلام الشرقية» للأستاذ زكي مجاهد[٢]: «أصيب بمرض، وصار أصمَّ لا يسمع شيئاً مما حواليه. وبسبب هذا المرض ترك المدارس، واشتغل بالمطالعة في مكتبة والده، وكانت مكتبة قيمة حافلة بأشتات الكتب القيمة في الدين واللغة والأدب وغيرها، **حتى استوعبها وأحاط بما فيها من معارفَ وعلوم، وصار يطلب المزيد!، وظلَّ دَؤوباً على القراءة والاطلاع إلى آخر أيامه لا يَمَلُّ ولا يسأم!. وكان أعلم أهل العربية، وأوسع أدبائها اطلاعاً!**».

297 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ الداعية محمد الحامد الحَمَوِيُّ، (المولود سنة ١٣٢٨، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩)، كان قد شغله هيامه بالعلم عن متابعة مرضه الذي أصابه وألَمَّ به، فلم يعالجْه حقَّ العلاج، ولم يهتمَّ به كثير الاهتمام، بل شغل نفسه بالعلم وبالعلم فقط!، قال طبيبه الخاصُّ الدكتور محمد سلمان النجار الذي لزمه في مرضه ولم يكشفه الشيخ مبكراً، فقال[٣]: «إن فضيلته رحمه الله تعالى، كان مشغولاً عن مرضه، بجهاده العلمي الطويل الذي ملك عليه أوقاته، ولم يفسح له المجال لتتبُّع أسباب عِلَّتِه تتبُّعاً دقيقاً!».

---

(١) «النهضة الإسلامية» (٤٣٨/١).

(٢) (٨١١/٢).

(٣) «العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» (ص ٥٤ ـ ٥٧).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في أشـدِّ لحظـات مرضه يجيب على المسـائل الواردة، ويردُّ على الرسـائل الوافدة، وربما قام بعض الأطباء بإخفائها عنه، فكان يسـتحلفهم بالله، هـل أخفى أحد منكم رسـالة؟! ويقول: «**ما وضع رسولُ الله ﷺ سيفَه في غِمْدِهِ حتى لَقِيَ ربَّه!**».

قال تلميذه الشـيخ عبد الحميـد طهماز[1]: «أتعب نفسـه، وأرهق جسمه، فما اعتذر عن جواب ولا ردَّ سؤالاً، حتى بعد أن أعياه المرض، وألزمته العلـة الفراش. كان يسـتحلف أهله ومحبيـه ألا يكتموا عنه رسالة، ولا يعتذروا لسـائل عن جواب، فكلَّما ألحَّ عليه أحد أن يرحم نفسه، ويشفق على جسـمه، كان يجيبه: (**لا طاقة لي بلجام من نار، رد الكتاب كرد السلام!**)».

وقد تحوَّلت غرفته في المشـفى، إلى ندوة علمية. وكان يقول له الطبيب: لا تنس أنك مريض، ومجرد الـكلام محظور عليك طبيًّا!. ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان ينسلخ من علَّته أمام جالسـيه، حتى يُخَيَّلَ إليك أنه سـليم وما به من علة، على ما يقوله الدكتور محمد سلمان النجار. وقال النجار أيضـاً: «وإني لأذكر أن بعض الفضـلاء، الذين يقومون بنشر الكتب الإسلامية وطباعتها، كانوا يزورونه فيرشدهم إلى مواطن الخطأ في بعض مطبوعاتهم التي قرأها، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يسألهم عن بعض الكتب العلمية ليقتنيَها. ويقـول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أُحِبُّ أن ألقى الله تعالى وأنا أطلب العلم!**»[2].

(١) المرجع السابق (ص ١١٣).
(٢) المرجع السابق (ص ٥٩ ـ ٦٠) و(ص ٦٩ ـ ٧٠).

وجهده المضني الذي بذلــه في القراءة، ومطالعــة المخطوطات، وتتبع الأدلــة، كان هــو الســبب الرئيس فــي مرضه، يقول الشــيخ عبد الحميــد طهماز[١]: «كان يعتنــي كثيراً بفقه الدليــل، وكان للجهد الهائل الذي بذله في هذا الســبيل، أكبر الأثر في تنشيط العلة في كبده كما قال لي بعض الأطباء، **فســقط** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **ســقوط المجاهد في ســاحة المعركة، بين كتبه وأوراقه ورسائله، شهيد العلم، شهيد الحق!**».

298 وكان العلّامة اللغويُّ الأديب الشــيخ محمود شــكري الألوسي، (المولود سنة ١٢٧٣، والمتوفَّى ســنة ١٣٤٢) قد ابتُلي قبل موته بخمســة أعوام برمل في المثانة، فلم يهتمَّ به، وظنَّ أنه عَرَضٌ لا يلبث أن يزول، والرمل يتراكم شــيئاً فشــيئاً حتى سدَّ المجرى، فثارت ثائرته، وأذاقته الأمرَّين، ففزع إلى الأطباء عســى أن يخفِّفوا بعض آلامه، حتى إذا لــم يجد منهم خيراً كــفَّ واحتمل هذا الداء الوبيل، بالصبر الجميل، قال تلميذه الأســتاذ محمد بهجة الأثري: «ثم أشــار الأطباء عليه بترك المطالعة والمحادثة والاشتغال بما من شــأنه إتعاب الذهن، فلم يلتفت إليهم!». فاستحوذت عليه الحمَّى، وضعف قلبه، ونحل بدنه حتى لم يعد يقــدر على تحمُّل المرض، قال صديقه الأب أنستاس الكَرْمَلي: «كان في مرض موته لا يَفْتُرُ عن البحث والكتابــة غير بائح ولو بإشــارة طفيفة إلــى حالته الخطرة ولا إلى مرضه»[٢].

---

(١) المرجع السابق (ص ١١٣).

(٢) «أعلام العراق» (ص ١٩٠) بتصرف.

وذكر لنا المستشرق الفرنسي الشهير لويز ماسنيون شيئاً من جهاده العلمي في وسط زحمة وقع المرض وشدَّته فقال: «في ٨ أيار ١٩٢٤ توفي العالم البحر شكري الألوسي..، على أثر تسمُّم دمه بالبول الدموي الذي آلمه إيلاماً شديداً مدَّة أشهر، ولكنه مع ذلك كان يحقق نصَّ كتاب «الخيل» لأبي عبيدة، والآلام تشويه وتقليه! وهو ينظر إليها نظراً فلسفياً، ويتحملها تحملاً زَنُّونياً[1]. وفوق هذا كان يصوم رمضان، صياماً لا تخفيف فيه، محافظة على الشعائر، مما أوجب اندهاش ذوي صداقته وقرابته!»[2].

وقال تلميذه الأثري: «عملَتْ تلك الأدواء عملَها فيه، وظلَّ ينتظر تلك الصدمة التي تريحه..، فأصيب في أول الثلث الأخير من شهر رمضان سنة ١٣٤٢هـ بذات الرِّئة فشعر بالموت..، ولبث ثلاثة عشر يوماً يقاسي الآلام، والمرض يزداد يوماً فيوماً..، حتى دعاه داعي المَنون، وكتب العلم محيطة به من كل جانب، فتوفَّاه الله عند أذان ظهر اليوم الرابع من شوال». كما في كتابه «أعلام العراق»[3].

وقال أيضاً: «قضى عُمُرَه بين الدفاتر والمحابر، منصرفاً عن النعيم المادي إلى النعيم العقلي، الذي هو مطمح أنظار ذوي النفوس الكبيرة، ومُحتسِباً حياتَه لخدمة الأُمَّة والدِّين»[4].

---

(١) زنون: فيلسوف يوناني اشتهر بمتانة الأخلاق، وتحمُّل المصائب، واقتحام العقبات. أفاده الأثري كما في المرجع السابق (ص١٩٧).
(٢) المرجع السابق (ص١٩٧).
(٣) (ص١٠٧).
(٤) «أعلام العراق» (ص١١١).

وفي ترجمته في مقدمة كتابه «المسك الأذفر»[١]: «وعلى الرغم من هذه الأعراض، كان مثابراً على العلم والعطـاء الفكري.. وربما مات والقلم في يده!».

299 وهـذا العلّامـة المحـدِّث الشـيخ محمـد الحافظ بـن عبد اللطيف بن سـالم التجاني، (المولود سـنة ١٣١٥، والمتوفَّى سنة ١٣٩٨) كان علـى مرضه وشـيخوخته شـديد الانهمـاك بالعلم، كثير المطالعة للكتب، فلا ينام الليل حتى يطلع عليه الفجر وهو منكبٌّ على القراءة، لا يجد راحة نفسـه وطمأنينة قلبه إلا في ذلك!، قال الشـيخ محمود سـعيد[٢]: «وقد طلب منه بعض أحبابه الانقطاع عن التدريس والمطالعة بسبب اعتلال صحته فسمعته يقول: **إنِّي أُشْفَى بالعلم!**».

إنَّ حبَّ العلـم والولَع به دواء غريب لا يعرفـه الأطباء، فهو يقهر المرض، ويخفِّف الألم، ويهوِّن الشـدائد، ويُعين على اجتياز النوائب وتخطِّي المصاعب.. وهكذا يكون الدواء وهكذا يكون الشفاء!

وكان على مرضه يستمرُّ في دروسـه حتى الفجر! جاء في ترجمته من «تشنيف الأسماع»[٣]: «كان في غاية الجهد والمشقة بسبب اعتلال صحته، والدَّرس يستمر بعد العشاء لمدَّة ثلاث ساعات، ثمَّ يجلس مع من شاء للمذاكرة إلى الفجر..، ولم ينقطع عن درسه إلا في الأسبوعين الأخيرين قُبيل الوفاة رحمه الله تعالى!».

---

(١) (ص ٣٢).
(٢) «تشنيف الأسماع» (٢/٢٤٥ ـ ٢٤٩).
(٣) (٢/٢٤٥).

300 وهـذا العلّامة الفقيـه الأصوليُّ الشـيخ محمـد بخيت المطيعي، مفتي الديار المصرية، (المولود سـنة ١٢٧٠، والمتوفّى سنة ١٣٥٤)، الذي لم يمنعه المرض ولا تقدُّمه في السِّـنِّ من الخوض في أكثر المباحث الشـائكة كما هو حال (علم أصول الفقه)، وهو معروف بصعوبة مادَّته، يقول تلميذه الشـيخ أحمد بن الصديـق الغماري في «البحر العميق فـي مرويات ابن الصدِّيق»: دخلـتُ عليه يوماً فوجدته يكتب في «حاشـيته على شـرح الإسـنوي على منهاج البيضاوي في الأصول» فقال لي: أنا مريض والطبيب منعني من الكتابة، ولكن كيف أصنع، فإن العلماء يقرؤون في الأزهر الآن بحاشـيتي، وكلما طبعت ملزمة دُفِعَتْ إليهم، فإذا تأخَّرت توقَّفوا؟! فكتب حاشـيته المذكورة - وهي في أربعة مجلدات - في وقت قليل!.

سـبحان الله! على مرض الشـيخوخة وتقدُّمه في السِّـنِّ الذي جاوز الثمانين، ثم يأتي فيكتب في علم الأصول وهو مِن أكثر المباحث الشائكة وأشدِّها وعورة، فيأتي بشرحه النفيس في أربعة مجلدات وفي أيام قليلة!، فيتلقَّفها العلماء ويدرسـها الطلاب ولا يسـتغني عنها الأزهر الشـريف، ما كانت هكذا إلا لقيمتها من حيث التحقيق والمناقشـة وتحرير الأقوال مشفوعة بإخلاص صاحبها!.. هذه ثمار همم لا يوقفها مرض، ولا يعجزها صعوبة أو قلق، بل تتحدَّى الشـيخوخة، وتقهـر الآلام، وترضي النفس المتعشقة للعلم حتى الأيام الأخيرة بل النَّفَس الأخير من الحياة الدنيا!

301 وهذا العلّامة القاضي علي بن حسـين المغربي، (المولود سـنة ١٢٦١، والمتوفّى سـنة ١٣٣٧) فقد نشـأ مُجِدّاً فـي طلب العلم

والمعارف، وكان مشــغوفاً بالعلم لا يترك التدريــس ولا يَمَلُّه، وكان المرجع فــي الفنــون، وجواباته شــافية، وكان عظيم الحفظ واســع الاطلاع..، عرض له ألم بعينه فكُفَّ بصرُه. فاعتاض بنور بصيرته عن ضوء بصره ومقلته، فلم يتغير عن الجِدِّ والنشاط، قال العلَّامة المؤرِّخ محمــد زباره[١]: «بل مــا زال يدرِّس فــي جميع الفنــون، وكان كثيراً ما ينشد قول البحر ابن عباس رضي الله عنه:

إن يَأْخُذِ اللهُ من عينيَّ نورَهما ففي لساني وقلبي منهما نور

302 وهذا العلَّامــة الأديب الشــيخ حمزة فتــح الله الدبياني، (المولود سنة ١٢٧٠، والمتوفَّى ســنة ١٣٣٦)، ذكره الأستاذ زكي مجاهد في «الأعلام الشــرقية»[٢] وقال: «تلقَّى العلم وأمعــن في قراءة الأدب، واللغة، وقَرْضِ الشِّعر، وتحرير الرسائل، وحِفْظِ الغريب..، وكان واسع الاطلاع، واستمر مشتغلاً بمدارســة العلم حتى بعد أن كُفَّ بصرُه!». قلت: كُفَّ بصره وما كُفَّ عزمه رحمه الله.

303 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ أمجد الزهاوي أحد أشهر علماء بغداد، (المولود سنة ١٣٠٠، والمتوفَّى سنة ١٣٨٧)، جاء في ترجمته في كتاب «تاريــخ علماء بغداد في القرن الرابع عشــر الهجري»[٣] ليونس السامرائي: «وكان كثير المطالعة حتى في أيام مرضه، وكان يطالع قبل وفاته بساعة.. وهو أشهر علماء المسلمين في بغداد على الإطلاق!».

---

(١) «نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر» (ص ٤٦٥).

(٢) (٧٠٦/٢).

(٣) (ص ١٠٥).

304 وقال الشيخ مجد مكي في ترجمة شيخه العلّامة الداعية المربِّي الدكتور عبد الله علوان، (المولود سنة ١٣٤٧، والمتوفَّى سنة ١٤٠٨): «صارع الشيخُ المرضَ قرابة ثلاث سنوات، فقد أصيب بمرض عُضال في الدم..، وبدأت تظهر عليه الأمراض المتلاحقة حتى ذبل عوده وتضاءل جسمه..، ولكن نفسه لم تَهُن ولم تَضعُف، بل بقي عالي الهمة متوثِّب العزيمة محافظاً على مهمّاته الدعوية..، لا يعتذر عن قبول أي مناسبة يُدعى إليها، وحين يُطلب منه التحدُّث كان يتكلَّم وينفعل وينسى حالته المرضية التي لا تسمح له بإرهاق نفسه!

وأثناء المدَّة التي قضاها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ راقداً في المستشفى، كان يخلع ثوب المستشفى، ويلبس ثيابه ويذهب إلى الجامعة لإلقاء المحاضرات، ثم يعود مرَّة أخرى إلى المستشفى ليتلقَّى العلاج من الأطباء، وبجوار سريره ترتفع مجموعات من الكتب، فهو يجد السعادة في التأليف والنصح..، وكان يضع المخدَّة أمامه، ويكتب فصولاً من كتاب سلسلة «مدرسة الدعاة» الذي كان قد بدأه قبل مرضه رغم نصائح الأطباء والمحبِّين بالابتعاد عن القراءة والكتابة، والإخلاد إلى الراحة، لكن نفسه الطَّموحة وهمَّته العالية تأبى أن تُلقي القلم من يدها مهما اشتدَّت وطأة الألم!. وكانت وفاته في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم السبت الخامس من شهر محرَّم عام ١٤٠٨هـ». كما في «رجال فقدناهم»[١].

---

(١) (٢/٨٧٠، ٨٧١).

305 وجاء في «الأعلام الشرقية»[١] للأستاذ زكي مجاهد في ترجمة الشيخ العلَّامة محمد بن محمد الحلبي الشافعي، (المولود سنة ١٢٧٠، والمتوفَّى سنة ١٣٥٩): «كان من المشتغلين بالعلم، وقضى سِنيَّ حياته في خدمته، ولم ينقطع عن القراءة والتدريس حتى في أوقات مرضه وإبان شيخوخته!».

فلم تمنعه الشيخوخة ولو عاونها المرض عن متابعة محبوبه العلم أو مطالعة معشوقه الكتاب، فقد صاحبه وعاشره من صغره حتى آخر نفس له في حياته.

ثانياً: همتهم في ساعة الموت وسَكْرته

306 ومن هؤلاء: الإمام العلَّامة المحدِّث القاضي حسين بن محسن الأنصاري الخزرجيُّ اليمانيُّ، (المولود سنة ١٢٤٥، والمتوفَّى سنة ١٣٢٧)، كان يُذاكر العلمَ قبل وفاته بلحظات، يقول تلميذه العلَّامة المؤرِّخ عبد الحي الحسني في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[٢] في ترجمته: «وبعد أن صلَّى العصر ورجع إلى بيت ولده عبد الله بن حسين، عرضت له مذاكرة معه في أن خديجة رضي الله عنها كان لها ولد في الجاهلية يسمَّى بعبد العُزَّى أم لا[٣]؟ فأمر ولده المذكور

(١) (٣٨٠/١).

(٢) (١٢١٤/٨).

(٣) الثابت وفق المصادر التاريخية أن أبناء أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها قبل زواجها من النبيّ ﷺ ـ الذين عاشوا وأدركوا الإسلام ـ هما: ١ ـ هند بنت عتيق رضي الله عنها. ٢ ـ هند بن أبي هالة رضي الله عنه.
انظر: خديجة أم المؤمنين، عبد الحميد الزهراوي، الفصل التاسع: زواجها قبل النبيّ ﷺ. =

بإحضار بعض الكتب التي كان يتخيَّل حَلَّ تلك المسألة منها فأحضرها، وأملى عليه ما شاء الله أن يُملِي، فقارب ذلك غروب الشمس، فنهض عبد الله للوضوء فتوضأ ورجع، وكان شيخنا متَّكئاً على وسادة له، وإذا برأسه قد خفق، وعلى تلك الوسادة قد أطرق، فظنَّه عبد الله نائماً فحرَّكه وإذا بروحه قد فارقت جسده!».

307 وهذا العلَّامة المحدِّث المؤرِّخ الشيخ محمد راغب الطبَّاخ، (المولود سنة ١٢٩٣، والمتوفَّى سنة ١٣٧٠)، ظلَّ مشغولاً بطلب العلم حتى النهاية، جاء في كتاب «قيمة الزمن عند العلماء»[1]: «وجاء في كتاب «حديث الروح» لسيدي العلَّامة محمد رواس قلعجي حفظه الله ورعاه، وهو يتحدَّث عن شيخه الأعجوبة محمد راغب الطبَّاخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلت على الشيخ في اليوم الذي تُوفِّي فيه، وقد أحيط بالحشايا ـ يعني المساند ـ فرأيته وقد ثَقُل لسانُه، وتَهَدَّلت جُفُونه حتى لا يقوى على فتح عينيه إلا بصعوبة، والنَّظارات المكبِّرة على عيونه، والكتاب في يده، يقرأ فيه سطراً أو سطوراً، فيأخذ منه التعب مأخذاً، ويضعُف عن المقاومة، فيسند رأسه هنيهة ثم يعود إلى القراءة ثانية، فقلت له: يا أستاذ، لو تركت القراءة الآن، وأرحت نفسك لكان أحسن، فإنَّك تعاني شدَّة. فردَّ عليَّ بكلام لم أستطع أن أفهمه بتفاصيله لِما في لسانه من الثقل، ولكني فهمت منه أن هناك مسألة، ولا يريد أن يموت قبل أن يطَّلعَ على ما قيل فيها، فذرفت عيناي الدمع، وقلت له: إن كانت هذه رغبتك فاسمح لي

= مجلة المنار (٣٨٣/١١). وبحث: أبناء أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها قبل زواجها من النبيّ ﷺ، بقلم عواطف العميري، منشور بموقع الألوكة، ٢٠٢٠/٢/٢٤م. «الناشر».

(١) (ص ١٥٥).

أن أقرأ لك، وأخذت الكتاب من يده، وشرعت بالقراءة..، ورفعت نظري إليه، فإذا هو مُسنِد الرأس، مُغمِض العينين، فظننت أنه يسمعني، وتابعت قراءتي..، فدخل ابنه ووجد أباه في غيبوبة، فرجاني أن أغادر الغرفة فغادرتها، وما هي إلا ساعة حتى بلغني نبأ وفاته».

308 وهذا العلّامة المحقِّق المُسنِد الشيخ الحبيب عَيْدَرُوس بن عمر الحَبْشي، (المولود سنة ١٢٣٧، والمتوفَّى سنة ١٣١٤) ـ على ما أصابه من مرض عُضال شديدِ التأثير ـ بحث مسألة التيمم قبل موته بساعة، يقول تلميذه الشيخ عمر بن عوض شيبان فيما ينقله عنه الشيخ محمد بن أبي بكر باذيب في تحقيقه لكتاب المترجم «عقد اليواقيت الجوهرية»[(١)]: «أرد أن يصلِّي العصر، فأمرني أن أبحث عن مسألة التيمم على ما صَعِدَ من الأرض من كتاب «البيان» ـ للإمام العمراني ـ، ليعرف مَنْ القائل بها..، فأتيتُ بها وأخبرتُه أن القائل بذلك: الإمام الأعظم أبو حنيفة، فرجع عن مراده وأخذ بالعزيمة وقال: هاتِ التراب، ما ينبغي أن نعمل بغير المذهب، ولعلَّها آخر صلاة، وتيمَّم».. ولما دَنَا الغروب فاضت روحه إلى ربِّها سبحانه وتعالى.

309 وهذا شيخ الأزهر الإمام محمد مصطفى المراغي، (المولود سنة ١٢٩٩، والمتوفَّى سنة ١٣٦٤)، قال الأستاذ أنور الجندي في كتاب «الإمام المراغي»[(٢)]: «كان المرض يعاود الأستاذ ـ المراغي ـ في السنوات الأخيرة بين حين وحين، وأحسَّ بحاجة إلى الاستجمام

(١) (ص ٣٩).
(٢) (ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ١٥١).

والاستشفاء، فقصد مستشفى فؤاد الأول للمؤاساة، وظلّ في حجرته بالمستشفى يقرأ ويسجِّل ملاحظاته، كان يعدُّ حديثاً في تفسير «آية القدر». كان يريد أن يقول شيئاً جديداً في تفسير هذه الآية، يهزُّ بها الدنيا. لطالما حدَّث العلماء الذين زاروه واتصلوا به، بأنه سيُحْدِث بتفسير هذه الآية انقلاباً، فكريَّاً وعلميَّاً.. وتركَتْه (ممرضته) وبين يديه كتب تفسير القرآن يراجعها، ثم عادت فوجدته مسجًّى بين سطور من الذكر الحكيم، وقصاصات من التفسير، هي آخر ما كتب الفقيد!».

310 وهذا العلَّامة الأديب اللغويُّ الشاعر أحمد مفتاح، (المولود سنة ١٢٧٤، والمتوفَّى سنة ١٣٢٩)، الذي مات ومعه كتاب «الأغاني» يطالع فيه. ذكره صديقه العلَّامة أحمد تيمور باشا وترجم له في كتابه «أعلام الفكر الإسلامي»[1] فقال: «هو العالم الشاعر الناثر الشيخ أحمد بن مفتاح..، كان جُلُّ اعتنائه بمتن اللغة والشعر والنثر، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره، ونظم القصائد المتينة والمقطعات السمينة، وكان كثير النظر في الدواوين، واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً بيده، ولو تمَّ له الخيال الشعري كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ، لكان أشعرَ أهل زمانه. وأخذ في أواخر أيامه في جمع شعره ونثره وترتيبه في ديوان.

أُحيل على المعاش، وابتغى مكاناً يعتزل فيه الخلق ويشتغل بالمطالعة وإتمام بعض تآليفه، فاختار مصرَ الجديدة، واكترى بها داراً صغيرة، أقام فيها بمفرده مع خادم مُسِنٍّ كان يقضي حاجاته.. ثم تركه الخادم وعاد لبلده، ـ وكان الشيخ مريضاً بمرض يُعْرَف عند الأطباء بتصلُّب الشرايين،

---

(١) (ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤).

وهو لا يعلم بأمره، ولا يهتم بنفسه، حتى اشتدَّ عليه أخيراً وهو يظنه ضيفاً مرتحلاً ـ فبقي وحيداً بالدار حتى أدركه أجلُه المحتوم فجأة، والأبواب مغلقة عليه، وبقي أياماً لا يعلم به أحد، حتى ظهرت رائحته للجيران، فأخبروا رجال الشرطة، فحضروا وكسروا الأقفال، فأَلْفَوْه مائلاً في سريره، وجزء من كتاب «الأغاني» ملقىً بجانبه!».

311 وهذا شاعر الإسلام محمد إقبال، (المولود سنة ١٢٨٩، والمتوفَّى سنة ١٣٥٧)، وقد أنشد ـ كما يقول الدكتور عبد الوهاب عزام[١] ـ هذين البيتين، قبل الموت بعشر دقائق:

نغمات مَضَيْنَ لي هل تعودُ ... أَنسيمٌ من الحجاز يعودُ؟
آذنَتْ عِيشتي بوشْك رحيل ... أَلِعِلْمِ الأسرار قلبٌ جديد؟

312 وقال العلَّامة عبد الحي الحسني في «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[٢] في ترجمة العلَّامة الشيخ بركات أحمد الطوكي، (المولود سنة ١٢٧٩، والمتوفَّى سنة ١٣٤٧): «اشتغل بالعلم، فقَصَرَ هِمَّتَه على التدريس، ودرَّس مدَّة طويلة حتى صار معدوداً في الأساتذة المتبحِّرين..، وكانت له نهامة بالمطالعة، لم ينقطع عنها حتى في الليلة التي توفِّي فيها!».

313 وذكر الشيخ محمد بن عوض بافضل في كتابه «صلة الأهل»[٣] في ترجمة العلَّامة الفقيه الشيخ صالح بن محمد بافضل ـ المتقدِّم ذكره ـ: «أنه توفِّي في بيته وبيده الكراسة التي يطالع درسه فيها..».

---

(١) «محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره» للدكتور عبد الوهاب عزَّام (ص١٦).
(٢) (١٢٠٣/٨).
(٣) (ص ٣٢٥).

314 وهذا الشيخ العلَّامة محمد بن محمد بن عامر الليبي المالكي، (المولود سنة ١٣١٦، والمتوفَّى سنة ١٣٨١)، مؤلِّف كتاب «ملخَّص الأحكام الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية»، ذائع الشهرة في الديار الليبية، جاء في ترجمته في كتاب «تراجم ليبية»[(١)] للدكتور جمعة محمد الزريقي: «أن الشيخ محمد بن محمد بن عامر ظلَّ يواصل عمله العلميَّ حتى توفِّي والقلم في يده!، وكان يكتب موضوعاً خاصَّاً عن المحاكم!».

315 وقال الدكتور محمد رجب البيومي في «النهضة الإسلامية»[(٢)] في ترجمة شيخه العلَّامة محمد أحمد الغمراوي، (المولود سنة ١٣١٠، والمتوفَّى سنة ١٣٩١): «ولكن المهم في ذلك كلِّه أن الرجل في شيخوخته قد لبَّى نداء ربِّه ومِدادُ قلمه على صحيفته لم يجفَّ، ليشهد له عند الله بمواصلة الجهاد على وهن الكِبَر، وصراع الداء!».

316 وهذا العلَّامة المحدِّث المؤرِّخ اللغويُّ المحقِّق الشيخ عبد الفتاح بن محمد بن بشير بن حسن أبو غدة، (المولود سنة ١٣٣٦، والمتوفَّى سنة ١٤١٧)، الذي نذر نفسه لخدمة العلم، واستهام في طلب نوادره ودقائقه حتى الرمق الأخير من عمره، قال الشيخ العلَّامة محمد تقي العثماني: «كانت الكتب خيرَ جليس له وأنيس، يعيشها صباحاً ومساءً.. ذكر لي ابن أخيه وصديقي الحميم الدكتور عبد الستار أبو غدة أن الشيخ أفاق مرة قليلاً فأول كلمة نطق بها «هل طُبع الكتاب؟» ثم أغمي عليه!»[(٣)].

---

(١) (ص ٢٥٥).

(٢) (٤٨٩/١).

(٣) يُنظر مقالُه الذي أورده الشيخ محمد آل رشيد في «إمداد الفتاح» (ص ٦٧).

وقال ابنه سلمان: «وقبل دخوله المستشفى بيوم كان - وهو يعارك الآلام - يضيف في كتابه الماتع «الرسول المعلِّم وأساليبُه في التعليم» كما أنه كتب مقدمة «لسان الميزان» قبل عشرين يوماً من وفاته!». وتعدَّد سؤالُه وهو على فراش الموت عن وصول تجارب الكتاب، أملاً أن يقوم بالإشراف على تصحيحه، وأن ينظر فيه النظرة الأخيرة، ولكن الأجل كان أسرع من ذلك»[١].

أفي مرضٍ وقد دَنَتْ المنايا ... تزيدُ إلى كتابكِ ما يطيبُ
إذا أسَرَتك أوجاع ثقالٌ ... فذهنك في مسائلِه يجوبُ

وقال سلمان أيضاً: «من أواخر ما قرأتُه عليه ترجمة عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ من كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو على فراش المرض، وطلب مني قراءة أبيات قالها بعضهم في رثاء ابن المبارك، وتوقَّف عندها رَحِمَهُ اللَّهُ وقدَّس روحه[٢]، وهي:

مررتُ بقبرِ ابنِ المبارك غُدْوَةً ... فأوسَعَني وَعْظَاً وليسَ بناطقِ
وقد كنتُ بالعلمِ الذي في جَوانِحي ... غَنيَّاً وبالشَّيب الذي في مَفَارقي
ولكنْ أرى الذكرى تُنَبِّه غَافِلاً ... إذا هي جاءت من رِجالِ الحقائقِ

317 وهذا العلَّامة الفقيه الشيخ الإمام مصطفى بن أحمد بن محمد الزرقا، (المولود سنة ١٣٢٢، والمتوفَّى سنة ١٤٢٠هـ)، قُبيل وفاته عُرِضَتْ عليه فتوى فنظر فيها ونقَّحها وراجعها وصاغها. قال تلميذه الشيخ مجد مكي في ترجمته في كتاب «رجال فقدناهم»[٣]: «وقد بقي

(١) «لسان الميزان» (ج١/ص٨).
(٢) «صفحات من صبر العلماء» (ص٣٦).
(٣) (٩٤١/٢).

ممتَّعاً بجوارحه وحواسِّه ومَداركه إلى يوم وفاته، وقد قارب المئة من عمره، وبقي مهتماً بقضايا الفقه ومباحثه، حاملاً لأمانة العلم والدين. وقد حدَّثني ابنه الفاضل الدكتور أنس، أنه قُبيل وفاته بساعتين، عُرضت عليه مسألة علمية تتعلق بالمعاملات المالية، وسُئل عن دليلها، فاستخرج لها من القواعد الفقهية ما يدلِّل عليها.. وبقي بعد انصراف المستفتين يضيف إلى الفتوى وينقِّح فيها حتى وافته المنيَّة بعد أذان صلاة العصر يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠هـ».

318 وقال الشيخ عبد العزيز البدري في ترجمة شيخه الفقيه المحدِّث المفسِّر العلَّامة محمد فؤاد بن السيد أحمد شاكر الحسيني الألوسي، (المولود سنة ١٣٢١، والمتوفَّى سنة ١٣٨٢) ـ كما جاء في كتاب «رجال فقدناهم»[١] ـ: «لم أرَ مدرِّساً شُغِفَ بالتدريس، وتعلَّق قلبه بالتدريس مثله. وبعد هذا فلا عجب أنْ قضى نحبه ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو في حلقة درسه في محراب جامع مرجان بعد أن أدَّى صلاة المغرب. وتلك حالة أقرب ما يكون العالِم إلى ربِّه، وتلك ميتة الصادقين والعارفين بالله تعالى».

319 وكان العلَّامة الفقيه الشيخ محمد صالح بافضل، (المولود سنة ١٢٧٨، والمتوفَّى سنة ١٣٣٣) كثير المطالعة دائم القراءة، حتى إنه مات وهو ممسك بيده بعض كتب العلم يطالع فيها! على ما جاء في ترجمته في كتاب «جهود فقهاء حضرموت»[٢].

---

(١) (٢٠١/١).

(٢) (١٠٤٧/٢).

320 وذكر الأستاذ محمد الحسناوي في ترجمته للكاتب الأديب الأستاذ علي أحمد باكثير، (المولود سنة ١٣٢٨، والمتوفَّى سنة ١٣٨٩) أنه: «مات بين الكتب والمِحْبرة!». كما في كتاب «رجال فقدناهم»[1].

321 وهذا العلَّامة المحدِّث الفقيه المحقِّق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المُعلِّمي اليماني، (المولود سنة ١٣١٢، والمتوفَّى سنة ١٣٨٦)، كانت لذَّته من الدنيا ملازمة الكتب والنظر فيها، والبحث والتنقيب في الدواوين والمطوَّلات ونحوها، وحلِّ أدقِّ المسائل وأعوصها، وظل هذا دَيدنه حتى لقي الله على ذلك، جاء في كتاب «المدخل إلى آثار الشيخ العلَّامة عبد الرحمن بن يحيى المُعلِّمي اليماني»[2]: «أدَّى صلاة الفجر في المسجد الحرام، وعاد إلى مكتبة الحرم.. ذكر الشيخ حمد الجاسر أنه توفِّي منكبَّاً على بعض الكتب في مكتبة الحرم المكي الشريف!».

322 وجاء في ترجمة العلَّامة المحدِّث الفقيه الشيخ عبد الكريم ابن السيد عباس آل الوزير الحسني الشيخلي الملقب (بأبي الصاعقة)، (المولود سنة ١٢٨٥، والمتوفَّى سنة ١٣٧٩) ـ كما في كتاب «أعلام المدرسة الحديثية البغدادية المعاصرة»[3] ـ : «.. رحلة دامت اثنتين وتسعين عاماً، قضاها بين الوحيَيْن (الكتاب والسُّنَّة)، تعليماً ودفاعاً عنهما. ـ [وكان يحفظ الكتب الستة سنداً ومتناً] ـ ولم يترك العلم

(١) (٤٤١/١).
(٢) (ص ٢٠٠).
(٣) لعبد القادر مصطفى المحمدي (ص ٧٥٣).

والفتيا في آخر لحظاته، فكان يسأله طلابه وهو على فراش موته ويجيبهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال الدكتور يونس السامرائي في «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر»[١]: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكيًّا سريع الإجابة، دقيقاً حاضر الذهن، لم يتغير تفكيره ولم ينس شيئاً، وكان يحب المسائل وهو على فراش الموت من غير ملل ولا ضجر!».

323 وقال الدكتور محمد بن عزوز في كتابه الماتع «غاية الاعتبار في أخبار من تعلَّم العلم أو علَّمه ولو في ساعة الاحتضار»[٢]، وقد ساق جملة من سِيَرِ العلماء المتقدِّمين والمتأخِّرين الذين مارسوا العلم ساعة الاحتضار، أسوق منها بعض سِيَرِ المتأخِّرين، منها قوله: «أبو عبد الله ـ محمد بن محمد بن أحمد ـ الفرطاخ (ت: ١٣٦٩هـ)، قرأ عليه ولده من «فتح الباري» (باب: ذهاب الصالحين) ففاضت روحه بين جدران مكتبته». وهذا الشيخ «أبو زَهْرَة ـ محمد أحمد مصطفى أبو زهرة ـ (ت: ١٣٩٤هـ)، مات وهو يحمل القلم والمصحف لتفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩] الآية». وهذا الشيخ «محمد الباقر الكتاني (ت: ١٣٨٤هـ)، مات وهو يؤلِّف كتابه «يواقيت التاج الوهَّاج». وهذا العلَّامة الأديب «علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠هـ) ربما اختلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة، فيقول: هي كذلك، فنفتح «القاموس المحيط» فإذا هي كما قال، بقي كذلك حتى آخر يوم». وهذا الشيخ «محمد المنوني (ت: ١٤٢٠هـ) مات وهو يدوِّن رحلته الحجازية». انتهى قول الدكتور عزوز.

والأخبار في هذا الجانب كثيرة، وأكتفي بما تمَّ عرضه.

---

(١) (ص٤٤٠).

(٢) (ص١٦١ ـ ١٧٢ ـ ١٨٢ ـ ١٩٥ ـ ٢٠٦ ـ ٢٢١).

هذا ما تمَّ التقاطه واختياره، ورسمه واستحسانه ـ وقد تركت أَزْيَدَ من مثله ـ من أخبار عظماء عصرنا، ونوابغ دهرنا؛ فإنَّ خير وسيلة لتحفيز العزائم، وإثارة الروح الوثَّابة، وقَدْح المواهب، وإذكاء الهمم، وتقويم الأخلاق..، والتسامي إلى معالي الأمور، والائتساء بالأسلاف الأجلَّاء: هو قراءةُ سِيَرِ نبغاء العلماء الصلحاء، والوقوف على أخبار الرجال الصالحين، والاقتراب من العلماء العاملين المُجِدِّين.

«فذلك خير مِهماز لرفع الهمم، وشدِّ العزائم، وسُمُوِّ المقاصد..، وتفجير النبوغ والطاقات المدفونة، والصبر على اجتياز العقبات والصعاب، واحتلال ذُرَى المجد الرفيع، وكسب الذكر الحسن»[1]. ولعل قراءة هذا الكتاب تساعد على ذلك، والله وليُّ كلِّ توفيق.

فاللهَ العليَّ العظيمَ أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يمنَّ علينا بالهمة العالية، والنفس التوَّاقة، والالتزام بالعلم النافع، والعمل الصالح، إنه على كلِّ شيء قدير.

سبحان ربِّكَ ربِّ العزة عمَّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه

إبراهيم الأسطل

غزة ـ فلسطين، ١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م

* * *

---

(١) هذه الفقرة منتزعة من كلام العلَّامة عبد الفتاح أبي غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. «صفحات من صبر العلماء» (ص ١٨).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- «ابن القرية والكُتَّاب». للعلَّامة يوسف القرضاوي.
- «أبو تراب الظاهري صفحات من حياته وتأمُّلات في أدبه». للدكتور عبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم، ط: ١٤٢٩هـ.
- «إتحاف اللبيب في سيرة الشيخ عبد العزيز أبو حبيب». للدكتور محمد بن ناصر الشَّثْري، دار العاصمة، ط١.
- «إتحاف الأعزَّة في تاريخ غـزَّة». للعلَّامة عثمان الطبَّاع، تحقيق: عبد اللطيف أبو هاشم، مكتبة اليازجي، ط١.
- «إتحاف الأمجاد في ما يصحُّ به الاستشهاد». للعلَّامة محمود شكري الألوسي، تحقيق الأستاذ: عدنان عبد الرحمن الدوري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط:١٤٠٢هـ.
- «إتحاف المحبِّين بذكر مناقب الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين». جمع وترتيب الأستاذ محمد محيي الدين سراج الدين.
- «إتحاف ذوي العناية». للعلَّامة محمد العربي العزُّوزي، مطبعة الإنصاف، ط: ١٣٧٠هـ.
- «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي». جمع نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط١.

- «أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة حياته ـ آراؤه ـ آثاره». للعلَّامة أنور الجندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.
- «أحمد فارس الشدياق حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة». للأستاذ محمد الهادي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: ١٩٨٩م.
- «أحمد فارس الشدياق». للأستاذ محمد عبد الغني حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- «إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت». للعلَّامة عبد الرحمن السقَّاف، تحقيق: لجنة علمية برئاسة محمد غسان عزقول، دار المنهاج جُدَّة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين». للعلَّامة محمد عوَّامة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢.
- «إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين». الشيخ محمد بن الفاطمي السلمي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١.
- «أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني». للشيخ محمد الباقر الكتاني، تحقيق: نور الهدى الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي، ط١.
- «أشرف علي التهانوي حكيم الأُمَّة وشيخ مشايخ العصر في الهند». للأستاذ محمد رحمة الله الندوي، دار القلم، ط١.
- «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن». للعلَّامة المفسِّر محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، ط١.
- «أعجوبة العصر سيرة سماحة الشيخ العلَّامة الإمام د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ». للدكتور عبد الرحمن الجبرين، مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ط١.

• «أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث». للعلَّامة أحمد تيمور، دار الآفاق العربية، ط: ١٤٢٣هـ.

• «أعلام المحقِّقين في الهند وجهودهم في نشر التراث العربي الإسلامي». للشيخ محمد عزير شمس، وهو منشور على موقع الألوكة بتاريخ ٢٠١١/٣/٢٦م = ١٤٣٢/٤/٢٠هـ.

• «أعلام المكيِّين». للأستاذ عبد الله المعلمي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١.

• «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء». للعلَّامة محمد راغب الطبَّاخ، منشورات دار القلم العربي، حلب، ط٢.

• «آفاق جديدة في الأدب والتاريخ والتراجم». للعلَّامة أنور الجندي.

• «إقامة الحجة على أن الإكثار من التعبُّد ليس ببدعة». للعلَّامة عبد الحيِّ اللكنوي، تحقيق: العلَّامة عبد الفتاح أبي غدة.

• «إقراء ـ ملتقى كبار القراء» الصادر عن كرسي تعليم القرآن وإقرائه «إقراء» المملكة العربية السعودية.

• «أعلام العراق». للعلَّامة محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، ط: ١٣٤٥هـ.

• «أعلام المحدِّثين ومآثرهم العلمية». للدكتور تقي الدين الندوي، دار البشائر الإسلامية، ط١.

• «أعلام المدرسة الحديثية البغدادية المعاصرة». للأستاذ عبد القادر مصطفى المحمدي.

• «أعلام من أرض النبوَّة». للشيخ أنس بن يعقوب الكُتبي الحسني، منشورات الخزانة الكتبيَّة الحسنيَّة الخاصَّة، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٦م.

- «آل القاسمي ونُبُوغهم في العلم والتحصيل». للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي، دار البشائر الإسلامية، ط١.
- «الأب أَنَسْتَاس مارِي الكَرْملي». لعامر رشيد السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، ط: ١٣٨٩هـ.
- «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة». للعلَّامة عبد الحيِّ اللكنوي، تحقيق: العلَّامة عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط٢.
- «الأزهر في ألف عام». للعلَّامة محمد عبد المنعم خفاجي والأستاذ علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٣.
- «الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية». للأستاذ زكي مجاهد، دار الغرب الإسلامي، ط٢.
- «الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام». للقاضي العباس بن إبراهيم السملالي، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢.
- «الإعلام بمن زار الكويت من الأعلام». للأستاذ وليد عبد الله المنيس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١.
- «الأعلام». للعلَّامة خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ١٥.
- «الإمام الكوثري». للأستاذ أحمد خيري، المكتبة الأزهرية للتراث.
- «الإمام المراغي». للعلَّامة أنور الجندي، دار المعارف بمصر.
- «الإمام عبد الحيِّ اللكنوي علَّامة الهند وإمام المحدِّثين والفقهاء». للدكتور وليِّ الدين الندوي، دار القلم، ط١.
- «الأنوار الساطعة والفوائد الجامعة في الحثِّ والترغيب في طلب العلوم النافعة والعمل به ابتغاء وجه الله والدار الآخرة». للشيخ طه بن حسن السقَّاف، دار الحاوي.

- «البحر العميق في مرويات ابن الصِّدِّيق». للشيخ أحمد بن الصِّدِّيق الغماري، دار الكتبي، ط: ٢٠٠٧م.
- «التبيان لبعض المباحث المتعلِّقة بالقرآن». للعلَّامة طاهر الجزائري، تحقيق: العلَّامة عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ط ٣.
- «التحرير الوجيز فيما يبتغيه المُستجِيز». للعلَّامة محمد زاهد الكوثري، تحقيق: العلَّامة عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ط١.
- «التصوُّر والتصديق بأخبار الشيخ محمد بن الصِّدِّيق». للشيخ أحمد بن الصِّدِّيق الغماري، مكتبة الخانجي، ط:١٣٦٦هـ.
- «التفسير والمفسِّرون ببلاد شنقيط». للدكتور محمد مولاي، دار يوسف بن تشافين ومكتبة الإمام مالك، ط١.
- «التلخيص الشافي من تاريخ آل طه بن عمر الصافي». للشيخ علوي بن عبد الله السقاف، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- «الجاسوس على القاموس». للعلَّامة اللغويِّ أحمد فارس الشِّدْيَاق، دار النوادر.
- «الدليل المشير إلى فلك أسانيد الاتصال بالحبيب البشير». للشيخ أبي بكر بن أحمد الحبشي، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- «الرحلة إلى المدينة المنوَّرة». للعلَّامة محمود ياسين، تحقيق: مأمون ياسين، دار الفكر، ط١.
- «الرسول المعلِّم وأساليبه في التعليم». للعلَّامة عبد الفتاح أبي غدَّة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١.
- «الزاهد أنور الجندي ـ حياته، أدبه، فكره». للدكتور حلمي محمد القاعود، دار البشير، ط١.

- «الساق على الساق في ما هو الفارياق». للعلَّامة اللغويِّ أحمد فارس الشِّدْيَاق، تصوير عن طبعة رافائيل الدمشقي، ط: ١٢٧٠هـ.
- «الشيخ بدر الدين الحَسَنِيُّ محدِّث الشام الأكبر». موقع نسيم الشام.
- «الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ـ حياته وآثاره». للشيخ سعود السيف، دار العاصمة، ط ١.
- «الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ حياته وسيرته ومؤلَّفاته». لعبد الملك القاسم.
- «الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد». للدكتور مفرح القوسي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١.
- «العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد». للشيخ عبد الحميد طهماز، دار القلم، ط ٤.
- «العلَّامة محمد بن يوسف السورتي ومآثره العلمية». للشيخ عمير بن أبي سفيان الإصلاحي، وهو منشور على موقع الألوكة.
- «العلماء العُزَّابُ الذين آثروا العلم على الزواج». للعلَّامة عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٤.
- «العود الهندي عن أماليِّ في ديوان الكندي». للعلَّامة عبد الرحمن بن عبيد السقَّاف، تحقيق: محمد مصطفى الخطيب، دار المنهاج، جدة، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.
- «الفصل في الملل والأهواء والنحل». للإمام ابن حزم الظاهري.
- «الكوكب الوهَّاج والروض البهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج». للعلَّامة الشيخ محمد الأمين الهرري، دار المنهاج ودار طوق النجاة، ط ١.

- «اللفظ المعقول في بيان تعريف الأصول». للعلّامة محمد بن أبي بكر الملَّا، تحقيق: الدكتور علي الضويحي، مكتبة الرشيد.
- «اللواء الركن محمود شيت خطاب». للأستاذ عبد الله محمود، دار القلم، ط١.
- «المجموع» في ترجمة الأنصاري. لعبد الأول الأنصاري، ط١.
- «المحدِّث عبد الله الدُّويش سيرته وأخباره وجهوده العلمية». للأستاذ نواف الرَّعوجي، دار النفائس والمخطوطات ببريدة، ط١.
- «المدخل». للعلَّامة أبي عبد الله محمد ابن الحاج، دار الفكر، ط:١٤٠١هـ.
- «المدخل إلى آثار الشيخ العلَّامة عبد الرحمن بن يحيى المُعلمي اليماني». لعلي العمران، دار عالم الفوائد، ط١.
- «المراشد السديدة للقراءة المفيدة». للدكتور أحمد بن علي القرني، ط:١٤٤١هـ.
- «المسك الأذفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر». للإمام محمود شكري الألوسي، تحقيق: الدكتور عبد الله الجبوري، الدار العربية للموسوعات، ط١.
- «المصنَّف». للإمام ابن أبي شيبة، تحقيق: العلَّامة محمد عوَّامة، شركة دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن، ط١.
- «المنهل العذب الرويُّ في ترجمة قطب الأولياء النووي». للإمام السخاوي، دار الكتب العلمية، ط١.
- «النهضة الإسلامية في سِيَرِ أعلامها المعاصرين». للعلَّامة محمد رجب البيومي، دار القلم والدار الشامية، ط١.
- «النور الأبهر في طبقات شيوخ الجامع الأزهر». للشيخ محيي الدين الطُعمِي، دار الجيل، ط١.

- «إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي». للشيخ محمد بن ناصر العَجْمي، دار البشائر الإسلامية.
- «إمداد الفتاح بأسانيد ومرويَّات الشيخ عبد الفتاح». للشيخ محمد آل رشيد، مكتبة الإمام الشافعي، ط١.
- «أمير البيان شكيب أرسلان». للأستاذ أحمد الشرباصي، دار الكتاب العربي بمصر، ط١.
- «بحوث وتحقيقات العلَّامة عبد العزيز الميمني». أعدها للنشر: محمد عُزير شمس، دار الغرب الإسلامي، ط: سنة ١٩٩٥م.
- «تاج العروس من جواهر القاموس». للعلَّامة مرتضى الزبيدي، دار الهداية.
- «تاريخ الشعراء الحضرميِّين». للشيخ عبد الله بن محمد السقَّاف، مطبعة العلوم.
- «تاريخ جامع الإمام الأعظم ومساجد الأعظمية». للشيخ هاشم الأعظمي، مطبعة العاني، بغداد، ط: ١٩٦٤م.
- «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري». ليونس السامرائي، مطبعة وزارة الأوقاف، ط: ١٤٠٢هـ.
- «تاريخ علماء سامراء». ليونس السامرائي، مطبعة دار البصرة، ط: ١٣٨٦هـ.
- «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر». للعلَّامة أحمد تيمور، دار الآفاق العربية، ط١.
- «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي». للعلَّامة عبد الفتاح أبي غدة، دار البشائر الإسلامية، ط١.
- «تراجم ليبية». للدكتور جمعة محمود الزريقي، دار المدار الإسلامي، ط١.

- «ترجمة العلَّامة أحمد تيمور باشا». للشيخ محمد الشيباني.
- «تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع». للشيخ محمود سعيد، دار الكتب المصرية، ط٢.
- «تطوُّر اللغة العربية في المجتمعات الباكستانية والهندية وأهميتها». للدكتور جلال الدين أحمد نوري، دار الكتب العلمية.
- «جَدُّ المُمتار على ردِّ المحتار». للعلَّامة أحمد رضا خان، تحقيق: محمد يونس العطاري ومحمد كاشف العطاري وعقيل أحمد العطاري، الدار المدينة العلمية كراتشي، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٦م.
- «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ». للعلَّامة جمال الدين القاسمي، تحقيق: الشيخ محمد بن ناصر العَجْمي، دار البشائر الإسلامية، ط١.
- «جمال الدين القاسمي أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام». للدكتور نزار أباظة، دار القلم، ط١.
- «جمال الدين القاسمي وعصره». للأستاذ ظافر القاسمي، المطبعة الهاشمية بدمشق، ط١.
- «جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر». جمعها الدكتور: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- «جمهرة مقالات العلَّامة الشيخ أحمد محمد شاكر». جمعها: الأستاذ عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل، دار الرياض، ط١.
- «جَنْيُ القِطاف من مناقب وأحوال الإمام العلَّامة عبد القادر بن أحمد السقَّاف». لأبي بكر المشهور، مكتبة دار المهاجر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

- «جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي». للشيخ محمد بن أبي بكر باذيب، دار الفتح، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- «حلية البشر في رجال القرن الثالث عشر». للعلَّامة عبد الرزَّاق البيطار، تحقيق: العلَّامة محمد بهجة البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- «حياة عَلَم من أعلام الإسلام الشيخ عيسى منون». ليوسف عبد الرازق ومحمد عيسى منون، ط: ١٣٧٧هـ.
- «حياة العلَّامة المحدِّث حيدر حسن خان الطونكي». للشيخ محمد عامر الطونكي، معهد مولانا أبي الكلام آزاد لبحوث العربية والفارسية، ط١.
- «دراسات لأسلوب القرآن الكريم». للعلَّامة محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.
- «ذكريات علي الطنطاوي». للعلَّامة علي الطنطاوي، دار المنارة، ط١.
- «رجالات العلم العربي في سوس». للشيخ محمد المختار السوسي.
- «رجال فقدناهم». تراجم نشرت في مجلة «حضارة الإسلام» مع إضافات. جمعها ورتَّبها وقدَّم لها وعلَّق عليها: الشيخ مجد مكي، دار ابن حزم، ط١.
- «رجال من التاريخ». للشيخ علي الطنطاوي، دار البشير، ط١، ١٩٩٨م.
- «رحلة الحج». للعلَّامة المفسِّر محمد الأمين الشنقيطي، دار ابن تيمية.
- «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا». للعلَّامة محمود شاكر.
- «رسائل الجاحظ». للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- «رسائل أهل السُّنَّة». العدد (٨٤) لعام ١٤٣٧هـ.

- «رياض الجنة في تراجم مَن لقيت أو كاتبني بالمشرق أو المغرب». للعلَّامة عبد الحفيظ الفاسي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط١.
- «زكي مبارك دراسة تحليلية لحياته وأدبه». للعلَّامة أنور الجندي.
- «سبيل الحياة». لإبراهيم المازني، طبعة هنداوي ٢٠١٢م.
- «سرُّ الليال في القلب والإبدال». للعلَّامة اللغويِّ أحمد فارس الشِّدْيَاق.
- «سنن أبي داود». للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الغرب الإسلامي.
- «سنن الترمذي». للإمام محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عوَّاد، دار الجيل بيروت ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢.
- «سنن النسائي». للإمام أحمد بن شعيب النسائي، دار المعرفة، بيروت، ط٥.
- «سوانح أفكار لأمير البيان شكيب أرسلان». للأستاذ قاسم الرويس، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، ط١.
- «سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر». للشيخ عمر عبد الجبار، الناشر تهامة، ط٣.
- «شبلي النُّعماني علَّامة الهند الأديب والمؤرِّخ الناقد الأريب». للأستاذ محمد أكرم الندوي، دار القلم، ط١.
- «شخصيات وكتب». للعلَّامة أبي الحسن الندوي، دار القلم والدار الشامية، ط١.
- «شهادة العصر والتاريخ». للعلَّامة أنور الجندي، دار المنارة، ط١.
- «شوقي أو صداقة أربعين سنة». لأمير البيان شكيب أرسلان، أضواء السلف.
- «شوقي شاعر العصر الحديث». للأستاذ شوقي ضيف.

- «شيخ الإسلام أبو شـعيب الدُّكالي الصِّدِّيقي وجهوده في العلم والإصلاح». للدكتور محمد رياض، مطبعة النجاح، ط١.
- «شـيخ الإسـلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشـور». للعلَّامة محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، ط:٢٠٠٨م.
- «صحيح البخاري». للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار طوق النجاة، ط١.
- «صحيح مسلم». للإمام مسلم بن الحجَّاج النيسابوري، دار الجيل، بيروت ـ ودار الأفاق الجديدة، بيروت.
- «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل». للعلَّامة عبد الفتاح أبي غدة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة العاشرة.
- «صلة الأهل بتدوين ما تفرَّق من مناقب بني فَضْل»، للعلَّامة محمد بن عوض بافضل، تحقيق: علي بن محمد بافضل، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- «عالم الكويت وفقيهها وفرضيُّها الشيخ محمد بن سليمان الجرَّاح». للدكتور وليد عبد الله المنيس، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ط٢.
- «عبد الحميد بن باديس العالم الربَّاني والزعيم السياسـي». للأسـتاذ مازن مطبَّقاني، دار القلم، ط٢.
- «عبد الفتاح أبو غدة ريحانة المحدِّثين وقدوة المحقِّقين». لإبراهيم الأسطل، دار القلم، ط١.
- «عَرْفُ البَشَـام فيمن ولي فتوى دمشـق الشـام». وذيوله، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ورياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الثانية.
- «عقد اليواقيت الجوهرية وسِمْطُ العَين الذهبية بذكر طريق السادات العلوية». للعلَّامة عَيْدَرُوس بن عمر الحبشـي، تحقيق: محمد بن أبي بكر باذيب، دار العلم والدعوة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

- «علَّامة الشام عبد القادر بن بدران الدمشقي، حياته وآثاره». للأستاذ محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، ط١.
- «علماؤنا في خدمة العلم والدين». للشيخ عبد الكريم المدرس، عني بنشره: محمد علي القره داغي، ط١.
- «علماء نجد خلال ثمانية قرون». للشيخ عبد الله آل بسام، دار العاصمة، الرياض، ط٢.
- «علماء ومفكِّرون عرفتهم». للأستاذ محمد المجذوب، دار الشواف، ط٤.
- «علي الطنطاوي وأعلام عصره ـ سيد قطب وآخرون». للأستاذ رائد السمهوري.
- «عيون الأريب عمَّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب». للعلَّامة علي النيفر.
- «غاية الاعتبار في أخبار مَن تعلَّم العلم أو علَّمه ولو في ساعة الاحتضار». للدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي ودار ابن حزم، ط١.
- «فتح الجليل في ترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد الله بن عبد العزيز العقيل». للشيخ محمد زياد التكلة، دار البشائر الإسلامية، ط٢.
- «فتح الملك العلَّام في تراجم بعض علماء الطريقة التجانية الأعلام». للعلَّامة محمد بن محمد الحجوجي، تحقيق: أنور ترفاس، كتاب ناشرون، بيروت.
- «فصول في الثقافة والأدب». للعلَّامة علي الطنطاوي، جمع وترتيب: مجاهد ديرانية، دار المنارة، ط١.
- «فضيلة العلَّامة الكبير الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت». للشيخ هشام البرهاني، وهو منشور على موقع (نسيم الشام).

- «فهْرَس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشـيخات والمسلسـلات». للعلَّامة عبد الحيِّ الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ٢.
- «في ذكرى الأب الكرملي الراهب العلَّامة». لسـالم الألوسي، وزارة الثقافة والإعلام، ط: ١٣٨٩هـ.
- «في صالون العقَّاد كانت لنا أيام». للأستاذ أنيس منصور، دار الشروق، ط ٣.
- «فُيُوضات البحر الملي». للشيخ طه بن حسن السقَّاف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- «قطوف أدبية». للعلَّامة عبد السلام محمد هارون، مكتبة السنة، ط ١.
- «قواعد التصوُّف». للعلَّامة أحمد بن أحمد البرنسـي المغربي المشـهور (بزرُّوق)، دار البيروتي، دمشق، ط ١.
- «قيمة الزمـن عند العلمـاء». للعلَّامـة عبد الفتـاح أبي غدة، دار البشـائر الإسلامية، ط ١٥.
- «كَشْف الظُّنون عن أسـامي الكتب والفنون». للعلَّامة الأديب المؤرِّخ حاجي خليفة، دار إحياء التراث، بيروت.
- «لبُّ الألباب». للشـيخ محمد صالح السَّـهروردي، مطبعة المعارف، بغداد، ط: ١٩٣٣م.
- «محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله». والكتاب من تقديم وجمع: الأستاذ محمد محيي الدين سراج الدين، وترتيب وضبط: الشيخ محمد علي الإدلبي.
- «محبُّ الدين الخطيـب لمحات من حياته وقبسـات من أفكاره». للشـيخ ممدوح فخري. المنشـور في «مجلة الجامعة الإسـلامية» بالمدينة المنورة، العدد ١٧، سنة ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.
- «محمد إقبال سيرته وفلسفته وشـعره». للدكتور عبد الوهاب عزَّام، مؤسسة هنداوي.

- «محمود الطناحي عالم العربية وعاشق التراث». لأحمد العلاونة، دار القلم، ط١.
- «مختصر ترجمة شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبي زيد الحاج عبد الرحمن النتيفي الجعفري». للشيخ حسن النتيفي، ط١.
- «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي». للعلَّامة محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، ط١.
- «مذكرات إمام الدعاة». للأستاذ محمد زايد، دار الشروق، ط٣.
- «مشاهير علماء نجد وغيرهم». للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دار اليمامة، ط٢.
- «مصطفى السباعي الداعية المجدِّد». للدكتور عدنان محمد زرزور، دار القلم، ط١.
- «مصطفى صبري المفكر الإسلامي والعالم العالمي». للدكتور مفرح القوسي، دار القلم، ط١.
- «مطالع الأفراح والتهاني وبلوغ الآمال والأماني في ترجمة الشيخ عبد الحيِّ الكتاني». لعمر الكتاني، تحقيق خالد السباعي، دار الحديث الكتانية.
- «معجم الأدباء». للعلَّامة ياقوت الحَمَوي.
- «مفكِّرون وأدباء من خلال آثارهم». للعلَّامة أنور الجندي، دار الإرشاد، ط١.
- «مقالات العلَّامة الدكتور محمود محمد الطناحي». دار البشائر الإسلامية، ط١.
- «مقالات الكوثري». المكتبة التوفيقية.
- «مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية». للأستاذ ظافر القاسمي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط:١٩٦٤م.

- «من أعلام الفكر والأدب». للعلَّامة أنور الجندي، الدار القومية للطباعة والنشر.
- «من العلماء الروّاد في رحاب الأزهر». للمستشار محمد عزَّت الطهطاوي، مكتبة وهبة.
- «منادمة الأطلال ومسايرة الخيال». للعلَّامة عبد القادر بن بدران، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢.
- «من علماء الحرمين». للشيخ عطية سالم، دار الجوهرة، ط ١.
- «منهاج السُّنَّة النبويَّة». للإمام أحمد أبي العباس بن تيمية، مؤسسة قرطبة، ط ١.
- «موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر». للدكتور إبراهيم الحازمي، دار الشريف، ط ١.
- «موسوعة أعلام المغرب». تحقيق الأستاذ محمد حجِّي، دار الغرب الإسلامي.
- «ميراث الصمت والملكوت». للأستاذ عبد الله الهدلق، ط ١.
- «نجم من أعلام علماء السلف في علماء الخلف». للأستاذ عبد اللطيف جسُّوس، سليكي أخوين، طنجة، ط ١.
- «نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر». للعلَّامة المؤرِّخ محمد زباره، مكتبة الإرشاد، ط ١.
- «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر». للعلَّامة عبد الحيِّ الحَسَنِيِّ، دار ابن حزم، ط ١.
- «نظام الحكومة النبويَّة المسمَّى التراتيب الإدارية». للعلَّامة المحدِّث عبد الحيِّ الكتاني، دار الأرقم، بيروت، ط ٢.

- «نفحة الرحمن في بعض مناقب الشيخ السيد أحمد بن السيد زيني دحلان». للشيخ أبي بكر شطا الدمياطي، تحقيق: ابن حرجو الجاوي، مكتبة ابن حرجو الجاوي، ط١.
- «نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور». لمحمد البَنُّوري، المجلس العلمي بكراتشي، ط: ١٣٨٩هـ.
- «نهاية المطلب في دراية المذهب». لإمام الحرمين الجويني، تحقيق: العلَّامة عبد العظيم الدِّيب، دار المنهاج، ط١.
- «نهر الذهب في تاريخ حلب». للعلَّامة كامل بن حسين الغَزِّي، المطبعة المارونية بحلب، ط: ١٣٤٥هـ.
- «هِجَرُ العلم ومعاقلُه». للقاضي إسماعيل الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت ودار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- «وديع فلسطين يتحدث عن علماء عصره». للأستاذ وديع فلسطين، دار القلم، ط١.
- «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر». للعلَّامة اللغويِّ أبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، ط١.

* * *

فهـرس المحتويـات

* * *

Email: kalam-sy@hotmail.com

ISBN 978-9933-29-297-3

9 789933 292973

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزَّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدَّة ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

دار القلم

دمشق